التحفة الزكية في شرح الرسالة التدمرية

تأليف
شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان
المدرس في المسجد النبوي

اعتنى به
عبد العزيز بن حمود البليهي

المجلد الثاني

مدار القبس للنشر والتوزيع

التحفة الزكية
في شرح
الرسالة التدمرية

(٢)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤م

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه و نسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر.

صف وتصميم وإخراج
مدار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
+966 11 2681045
madarulqabas@gmail.com @madarulqabas
المتجر الإلكتروني:

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ

قال رحمه الله تعالى:

«الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ يُعْرَفُ بِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، إِذْ الِاعْتِمَادُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ أَوْ مُطْلَقِ الْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَيْسَ بِسَدِيدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيِّزٌ».

الشرح

المقصود بالقاعدة هذه: أنَّ الله ﷻ له الكمال المُطلق في ذاته وأسمائه وصفاته. أما قول القائل: (إنه الله لا يُشبهه شيء)، فهذا لا يثبت به شيء، ولا يكفي لا في الإثبات ولا في النفي.

فهذه القاعدة يُغني عنها قول أهل السُّنَّة: «صفات الله وأسماؤه توقيفية»؛ ولكن على حسب الفهم السليم للخطاب.

ولا نكتفي بقولنا: (إنها توقيفية)؛ لأنها في هذه الحالة لم تدل على الكمال ولم تدل على نفي النقص. بل نقول: كلُّ كمالٍ ـ لا نقص فيه بوجه من الوجوه ـ يُمكن أنه يُثبَت لموجودٍ فهو ثابتٌ لله ﷻ، ويُنفى عنه كلُّ نقصٍ أو عيبٍ يُمكن أَنْ يتطرَّق إلى الاسم أو المعنى، فهذا المقصود بالقاعدة.

وهذه القاعدة يُكتفى بها عن القاعدة السابقة التي تقول: إنَّ أوصاف الله ﷻ يجب أن يوقف معها على النص، فأوصاف الله وما يخصُّه هو جاء من باب النفي والإثبات.

فالنفي كقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والغالب في النفي لله ﷻ أنه يأتي عامًّا مُطلقًا؛ لأن هذا هو الكمال؛ والله ﷻ له الكمال المطلق.

أما الإثبات فلا بُدَّ أن يوقف مع النص، ولا يثبت هذا الباب بالعقل ولا

بالأقيسة، فنقول: إذا جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ أنه له كذا من الصفات ـ كـ«المحبة» و«الرضا» و«الغضب» و«السخط» و«المقت» وما أشبه ذلك= فنُثبتها؛ لأنه جاء في كلام الله ﷻ، وأخبر به عن نفسه وهو الصادق ﷻ.

أما أن نأتي بقواعد عقلية نضعها على ما يجوز على الله وما لا يجوز، فهذا لا يكون إلا في الجملة؛ مثل قولنا: (له الكمال المطلق)، و(ينفى عنه النقائص كلها)، و(الكمال إذا كان كمالًا من كلِّ وجهٍ فهو الأولى به؛ لأنه هو واهبه، وواهب الكمال لا يكون فاقدًا له).

فتبين بهذا أنَّ الرجوع في هذا يكون إلى النص، وقد سبق أن السبب في ذلك أنَّ الله ﷻ غيبٌ لا يطلع عليه أحدٌ فيَصِفَه، وأنه ﷻ ليس له مثيلٌ فيُقاسَ عليه، وبذلك يتبين أنه لا طريقَ إلى معرفتِه ووصْفِه إلا ما جاء عنه أو عن رُسله بالوحي، والعقل والنظر في ذلك يجب أنه يُقاد بالوحي ويُسترشد به ويقول به؛ لأن أيَّ قياسٍ يكون للعقليَّات فالله فوق هذا وأعلى منه وأعظم.

والضابط في هذا: أنه إذا ورد في كتاب الله وصحَّ عن نبينا ﷺ شيءٌ من أوصاف الله وجب أن نقول به ونؤمن به ونعتقده، وإذا لم يَصِلْ شيء من ذلك فيجب التوقُّف.

فمثلًا: إذا قال لنا قائل: (إن الله ليس في جهة)، و(إن الله ليس بجسم)، أو: (إن الله ليس بعرَضٍ)، أو: (إن الله ﷻ ليس بجوهر) = نقول: هذه ألفاظٌ بدعيَّةٌ لم تأتِ في كتاب الله ولا في أحاديث رسوله ﷺ، فنستفصل: ماذا يُراد من قوله: (إنَّ الله ليس في جهة)؟

إن كنت تُريد أنه ليس في جهةٍ محصورة تحصره وتحويه، فهذا حقٌّ، ولكن يجب أن يُعبر عن الحقِّ بالحق الوارد الذي ورد عن الله ﷻ وعن رسوله فنقول: إن الله فوق، وإنه عالٍ على خلْقِه، وإنه مستوٍ على عرشه.

والمقصود: أن كل لفظٍ جاء ولم يَرِد في الكتاب والسنة وإن كان صاحبه يقول: أنا أُنزه الله ﷻ فيه، يواجه بما يلي:

* فإما أن نتوقف فيه، ونسأل القائل ماذا تُريد؟ فإذا تبين أنه يُريد معنًى صحيحًا نقول له: اللفظ مردودٌ، والمعنى يجب أن يُعبر عنه بالألفاظ الواردة في الكتاب والسنة.

* أما إذا أراد معنى باطلًا فنقول: اللفظ والمعنى كلاهما مردودٌ ولا يُقبل.

ومثل ذلك إذا قال: (إن الله ليس بجوهرٍ)، نقول: ما تُريد بالجوهر؟ لأنَّ «الجوهر»: هو ما قام بنفسه ـ عندهم ـ، و«العرض»: ما لا يقوم إلا بغيره؛ فـ «الجوهر»: الشيء الذي يُشاهد ويَشغل مكانًا؛ فإن كنت تُريد: أنَّ الله ﷻ موجودٌ، فيجب أن تُعبِّر بالعبارات الصحيحة: أن الله أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، ولا هناك حاجة إلى هذه الإطلاقات والاصطلاحات، فهذا من باب النَّقْصِ.

أما إذا قال: (إنه ليس بعرض): فـ «العرض»: هو الذي يعرض ويزول، أو أنه الذي لا يقوم إلا بغيره ـ مثل: الألوان ومثل: العلم ومثل: الجهل، ومثل: المرض والصحة وما أشبه ذلك ـ، فهذا لا يقوم إلا بجوهرٍ كما يقولون. والله ﷻ وصف نفسه بأن له علمًا وأن له سمعًا وبصرًا، وهُم إذا قالوا هذا القول فلهم مقاصدُ فاسدةٌ؛ إذا قالوا: (ليس بجوهر) أي: ليس له وجه، وليس له يدان، وليس له رجلٌ يضعها في النار حتى ينزوي بعضها إلى بعض.

وإذا قالوا: (ليس بعَرَض)؛ يريدون نفي السمع والصبر والعلم والقدرة وإلى غيرها؛ لأنهم لو جاءوا بالباطل صريحًا واضحًا ما قُبل، وإنما يُريدون التلبيس على الناس.

فالمؤلف يُريد أن يُبين أن هذا يجب أن يُرجع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

عرفنا ـ فيما تقدم ـ أنَّ القاعدة في هذا أننا لا نصف الله ﷻ إلا بما وصف به نفسه أو وصفته به رسوله، وأن القياس والعقل لا يستقلُّ بشيء من ذلك، ولكن كتاب الله ﷻ يرشد العقول إلى الطريق الصحيح؛ غيرَ أن كثيرًا من الناس يزعم أن ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه فيه إجمالٌ وفيه التباسٌ!

ولهذا ذكر هذه القاعدة وهي: أنه لا بُدَّ أن يكون هناك ضابطٌ يُعرف به الشَّيءُ الذي يُوصف الله ﷻ به، والشَّيءُ الذي لا يجوز أن يوصف به.

إضافةً إلى هذه القاعدة: أنه لا يوصف الله ﷻ إلا بما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله بالوحي.

ويضاف إلى هذا: أن لله ﷻ الكمال المطلق من كل وجه، وأن الوصف إذا جاء فيه نقصٌ أو يحتمل هذا وهذا؛ فإنه لا يدخل في أسماء الله وصفاته، ولهذا

قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والحسنى هي التي لا تحتمل نقصًا وعيبًا بوجه من الوجوه، وكذلك صفاته - تعالى وتقدس -. ويلحق بذلك أفعاله؛ لأنَّها داخلةٌ في صفاته، فهو له الكمال من كل وجه.

ثُمَّ كلُّ كمالٍ للمخلوق ليس فيه نقصٌ، فالخالق الذي وهبه إيَّاه أولى به منه؛ لأنَّ المخلوق لا يستطيع أنه يكتسب الكمال من نفسه، وإنما أعطاه الله إياه، فلا يعقل أن واهب الكمال يكون فاقدًا له.

وكلُّ نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بتنزيهه عنه، ولهذا عاب الله ﷻ على المشركين حيث يأنفون أن يكون مملوكًا لأحدهم يشاركهم في ملكهم ومالهم، ثم يجعلون شركاء لله تعالى مملوكين له، فهذا جورٌ وظلمٌ.

والضابط الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا في هذه القاعدة لا يخرج عن هذا، وهذه ظاهرةٌ جليَّةٌ ولا تخفى على من نظر فيها.

ثُمَّ إن الله ﷻ كلَّفنا بهذا، ولم يطلق لنا الأمر؛ يقول: انظروا إلى المخلوقات وغيرها، ثم اذكروا الذي تستنتجونه بأذهانكم وأنظاركم وصفًا.

قوله: «لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ...». يكون به إثباتُ الكمال الذي يجب له.

والمقصود بهذه القاعدة: فهمُ كلام الله وفهمُ كلام رسوله ﷺ، وليس أن نقول: (إنَّ الله لا شبيه له)، ثم إذا قال ﷻ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: قلنا: (أن هذا تشبيه)!

بل الصواب: أن مقولة: (لا تشبيه له)؛ باطِلةٌ، فمجرد الاعتماد على نفي التشبيه أو الاعتماد على الإثبات المطلق لا يجوز، بل لا بُدَّ أن نثبت لله الكمال، وننفي عنه مماثلة المخلوقين، وهذا الذي دلَّت عليه صفاته ﷻ وأسماؤه وما جاءت به الرسل.

فنعمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله كما قال العلماء في العقيدة: (الأسماء والصفات توقيفية)، والأحكام - أيضًا - توقيفية.

ومعنى «توقيفية»: أي يجب أن نَقِفَ مع النَّصِّ فقط، والنَّصُّ جاء بإثبات الكمال لله ونفي مشابهة المخلوقات له.

قوله: «وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا بَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيِّزٌ». و«القَدْر

المُمَيَّز» سبق بيانه وشرحه، وأما «القَدْر المُشْتَرَك»: فمعناه: هل يشترك وجود الله بوجود المخلوق؟ فإذا قال مثلًا: (كلاهما موجود)، أو: (أن له ﷻ صفةً، وللمخلوق صفة)، أو: أن الله ﷻ يفعل، والمخلوق يفعل) وما أشبه ذلك = فهذا ما يشتبه إلا عند الذين انحرفت أفكارهم ولم يهتدوا بما جاء من الهُدى الذي أنزله الله ﷻ، أمَّا التَّمييز فاللهُ ﷻ يخصُّه بما وصف به نفسه؛ وكذلك ما سمى به نفسه، لا يشترك معه المخلوق فيهما.

ثُمَّ كذلك المخلوق صفاته تخصه لا يشترك اللهُ ﷻ مع المخلوق فيما هُوَ من خصائص المخلوق؛ لا في الصفات ولا في الأفعال، وإنما التبس الأمر على هؤلاء الذين قَالُوا: (إنَّ هذا فيه اشتراك وفيه بين الخالق والمخلوق «قدرٌ مُشترك»، فصار الخطاب عندهم يدلُّ على باطلٍ، فأرادوا أن ينفوه أو يؤولوه.

والحقيقة أنَّ الإشكال في فهمهم وعقولهم؛ وإلا فالكلامُ سليمٌ وخالٍ ممَّا اتَّهموه به، فعندك تصورات الناس كثيرة جدًّا ولا حصر لها، فلهذا وجب أن يتقيَّد العقل والفكر بالوحي، وإلا لا يكون له ضابطٌ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ، قِيلَ لَهُ: إِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا بَاطِلٌ».

الشَّرح

قوله: «فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ»، يعني: إذا قيل: إنَّ لله وجهًا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، فيقول: (هَذَا تَشْبِيهٌ؛ لأن المخلوق له وجه، وإذا أثبتنا الوجه ثبت التشبيه) ـ.

يُقال له: إن الله ﷻ قال لنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فوجهه لا يُشبه الوجوه، كما أنه هو بنفسه باتفاق المثبت والنافي أنه لا يُشبهه شيءٌ، فكذلك أوصافه تتبعه؛ لأنَّ الصفة تتبع الموصوف.

قوله: «فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ». سبق أنَّ كلمة التشبيه لم ترد نفيًا ولا إثباتًا في كتاب الله، وإنما الذي ورد نفيُه، هو «المثْل» و«السَّمِي» و«الكفء» وما أشبه ذلك.

أما «التشبيه» ففيه اشتباهٌ، ولهذا لما قال المعتزلة الذين امتحنوا الإمام أحمد: ما نتركك حتى تقول: (إن الله لا يشبهه شيء بوجه من الوجوه)؛ أبى أن يقول هذا؛ لأنَّ معنى ذلك أنه لا يوصف بالسمع ولا بالبصر، ولا باليد ولا بالوجه ولا بشيء من صفاته؛ لأنك إذا قلت: له سمعٌ وبصَرٌ؛ قالوا: (المخلوق له سمعٌ وبصرٌ وهذا تشبيه)؛ وهكذا في كلِّ صفة؛ لأنَّ الاسم في اللفظ يشترك في هذا وفي المعنى العام البعيد؛ فإنَّ «السمع»: هو إدراك المسموعات، و«البصر»: هو إدراك المبصرات، وهذا يحصل للمخلوق ويحصل للخالق، ولكن هناك بَوْنٌ شاسِعٌ جدًّا بين ما للهِ وما للمخلوق.

فالتشبيه الذي يكون من هذا القبيل بعيدٌ جدًّا، ولا بُدَّ منه في جميع الصِّفات، فمثل هذا لا يطلق على الله ﷻ. فإذا قال: (إنه ينفي عنه التشبيه مطلقًا)، فنقول: إن هذا يؤول إلى تعطيل الله عما وصف به نفسه، ولا بُدَّ أن يكون فيما أخبر عنه في الغائب قدرٌ مشتركٌ بين ما هو موجودٌ نعرفه، وإلا لم نفهم الخطاب.

وسبق أن هذه قاعدة مطردة حتى بين المخلوقات؛ ففرق بين ما في الجنة وما في الدنيا، مع الاتفاق في المسميات، إلا أن المعاني والحقائق تختلف، فإذا كان هذا ممكنًا في المخلوق؛ ففي الخالق أولى وأحرى، وهذا معنى قوله: «فإذا نفيتم ذلك فإنه لازم في جميع ما يوصف الله ﷻ به».

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ، لَزِمَكَ هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ».

الشَّرح

إذا قُلت: (نحن موجودون، والله موجود)، فهل هذا فيه مشابهة؟ هذه مشابهةً في الوجود، ولكنه أمرٌ بعيد لا بُدَّ منه؛ وكذلك «السمع» إذا قيل: (إن الله له سمعٌ)، ثم يقول: (المخلوق له سمع؛ فإذا أثبتنا له السمع صار ذلك تشبيهًا).

نقول: يزول هذا التشبيه بالإضافة والتخصيص؛ فإذا قلنا: (هذا سمع الله) فهو يخصه، وقد زال هذا الاشتراك وهذا التشبيه، ولكن الاشتراك من الوجه البعيد لا بُدَّ منه، وهو الذي يُفهم به الكلام، وعند التخصيص بالإضافة يزول ذلك الاشتراك.

وهذا جار حتى في المخلوقات؛ فعلم زيد أو سمع زيد وبصره لا يُشاركه فيه عمرو، فعمرو له سمعه وبصره الخاصّ به، وهذا له سمعه وبصره الخاص، فكيف يكون هناك اشتراكٌ بين الخالق وبين المخلوق الضعيف الذي ضعفه يأتيه من كل جانب؟! ولكن كل هذا من باب التلبيس، ومن باب اتباع الباطل، فالحقُّ في هذا واضحٌ لا إشكال فيه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَنْتُمْ إِنَّمَا أَقَمْتُمْ الدَّلِيلَ عَلَى إِبْطَالِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَاثُلِ، الَّذِي فَسَّرْتُمُوهُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَه».

الشَرح

وهذا يعني تنزُّلًا معهم فِي دليلهم وفيما يفهمونه وما يُقعِّدونه لقولهم: (إِنَّ التشبيه تشابه بين الشيئين؛ بحيث يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر)، فكيف يكون اشتباهٌ بين الرب ﷻ وبين العبد؟!

والعبد وإن سُبق بالعدم، ويلحقه العدم فهو ضعيف! وربُّ العالمين ﷻ هُوَ الأول بلا بداية وهو الغني بذاته عَنْ كل ما سواه. وهكذا يُقال فِي الصفات أَيْضًا: فهي تبعٌ للذَّات ويُحتذى بها حذو الذات كما سبق.

فالمخلوق يجوز عليه الموت، ويجوز عليه كلُّ نقص ـ وهذا لا يجوز على الله ﷻ ـ، وكذلك المخلوق لا يجب له الكمال ولا يكتسبه من ذاته، فليس له الكمال المطلق، وليس له بقاء وليس له حياة إلا بإبقاء الله له وإحيائه له.

والتشبيه الذي اتفقوا عليه: أنه يجوز عليه ما يجوز على الآخر، فالمخلوق جاز عليه العدم، والله ﷻ أوَّلٌ بلا بداية، وآخر بلا نهاية، والعبد كان عدمًا ثم وُجد فيلحقه العدم، وله الحاجة والافتقار من كلِّ وجهٍ، والله غنيٌّ بذاته عن كل ما سواه، فنفس القاعدة التي قعَّدوها تُبطل كلامهم.

هذا الكلام مع المعتزلة، هم الذين يقولون: (إنَّ إثبات الصفات كفرٌ، ونفيها توحيد)، والسبب: أنهم يقولون: (إذا أثبتنا الصفات لزم التشبيه، فهذا الكلام العامُّ الذي استدلوا به هو من أبطل الباطل؛ لأنَّهم أخذوا اللفظ العام المشترك وجعلوه مماثلًا لما في المخلوق، فاعتمدوا على نفي التَّشبيه فقط= فأراد المؤلف أن يبيِّن باطلهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِثْبَاتَ التَّشْبِيهِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ مِمَّا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ».

الشرح

فهل أحد يقول أنه يجوز عليه ما يجوز على المخلوق من النفي والإثبات والوجود والعدم وغير ذلك؟!، هذا لا يقوله عاقلٌ يعرف الكلام الذي يتكلَّم به.

المقصود: أن «التشبيه» هو أن يكون للمشبَّه به مثل المشبَّه، فيجوز له ما يجوز له ويجب له ما يجب له، وهذا لا يمكن أن يقع بين الخالق والمخلوق ـ تعالى وتقدس ـ.

ولكنهم يغلطون لما يجعلون اللفظ العامَّ؛ مثل: «اليد»، و«السمع» و«البصر» و«العلم» أنها مثل ما يفهمونه من المخلوق، وأنه يجوز عليه ما يجوز على هذا= فهذا من أبطل الباطل؛ فهو تمثيلٌ للخالق بالمخلوق في أوصافه وفيما يجوز ويجب له، وهذا السبب الذي دعاهم إلى أن ينفوا صفات الله ﷻ، وجعلهم يثبتون مجرد أسماء لا معانيَ لها.

قوله: «**يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ**»؛ أي: يعرف حقيقة القول الذي يقوله وما يؤول إليه؛ فَإذا عرف الذي يَرِدُ عليه وما حقيقته فَإنَّه يعلم أنه باطل؛ ولكنَّ كثيرًا منهم يقول بأقوال باطلة، وإن كانت نتائجها واضحة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ هَذَا نَفْيُ التَّشَابُهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَمَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمُتَوَاطِئَةِ».

الشرح

يعني يكون التشابه قبل الإضافة والتخصيص، فمثلًا إذا قلت: «سمع»، فيجوز أن يكون سمع الله ويجوز أن يكون سمع المخلوق، ولكن إذا قلت: (سَمْعُ زيدٍ أو سَمْع المخلوق)، فالله ﷻ لا يُشاركه في هذا. وإذا قلت: (سَمْعُ الله) فهو يخصه ﷻ، لا يُشاركه المخلوق فيه؛ وهكذا يُقال في سائر الصِّفات.

قوله: «بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ»، معنى «ضرورة»: الأمر الذي ما يحتاج إلى استدلال بنفس العقل؛ لأنه كيف يُلحق ربُّ العالمين أو صفاتُه بصفات المخلوق الضعيف؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَكِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، ثُمَّ إِنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ. وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ: ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ هو مِنَ التَّشْبِيهِ».

الشَّرح

كما إذا قلنا: (إن الله فوق)، قالوا: (الفوق يقتضي المكان، والمكان يعني أنه يكون جسمًا، فلا يجوز أن نثبته)!

نقول: هذا كله باطلٌ؛ لأنه لو قيل بقولكم هذا لاقتضى أنَّ الله ليس له وجودٌ، لأنهم يقولون: (ليس فوق، وليس تحت، وليس يمينا، وليس شمالا، وليس داخل العالم، ولا خارج العالم. . . ، إلى غيره).

ولهذا لما سمع هذا بعض الأمراء من بعض المتكلمين ـ وهو ابن فُورك ـ قال له: (لو قلت لك: صف لي العدم، هل تصفه بأكثر من هذا)؟ فهو يعني عدمٌ باطِلٌ ولا يدلُّ عليه كلام الله ولا كلام رسوله، بل يدلُّ على نقيضه وإبطاله.

وكونه يجعل الشيء مفسَّرًا بمعنى، مثل: المحبة، فيقول: (المحبة هي الميل إلى المحبوب، والميل هذا فيه افتقارٌ، فإذًا: ننفيه عن الله ﷻ).

فيُقال له: هذه محبة المخلوق، والله لا يُشبه المخلوق، فهو غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه. وهكذا يُقال إذا عيَّن معنًى من المعاني، فهو لا بُدَّ أنه شبَّه الخالق بالمخلوق في هذا المعنى فينفيه لأجل ذلك، وإن كان لا ينطق بالتَّشبيه، وإنَّما هذا يرتسم في ذهنه.

وهذه التَّشقيقات وهذه التَّفسيرات: يكون المسْلِم في غنى عنها؛ لأن الله فَطَره على الحقِّ، وعلى معرفة ربِّه ﷻ، فهذه التفسيرات المحدثة لا تأتيه إلا بالشكوك والظنون الكاذبة، فالإعراض عنها متعين.

قوله: «ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ»: مثال ذلك: «الرحمة» و«الغضب»؛ فإذًا أُثبت لله صفة تتعلق بذاته ﷻ مثل «الرحمة» = قَالُوا: (هذا تشبيه؛ لأن الرَّحمة نعرفها فينا أنها الميل إلى المرحوم والرِّقَّة عليه والحنو

عليه، فلا يجوز أن تُثبت الرحمة. وكذلك «الغضب» فنحن نعرف أنَّ «الغضب» هُوَ غليان دم القلب ثُمَّ طلب الانتقام، فَإِذا أثبت لله غضبًا، كان معنى ذلك أنك شبَّهت الله بالمخلوق)، فيقول: فإِذًا: إما أن تُفسره بالإرادة وإما أن تُفسره بشيءٍ مخلوق. أي: إما أن تقول: الغضب عذاب الله، أو تقول: إرادة الانتقام).

فيقال لهم: الإرادة الَّتِي تكون إرادة الانتقام أو إرادة الرحمة إِذَا كان تأويل الرحمة أَيْضًا أولوه بالإرادة، فيَقُول: (الإرادة: هي الميل إلى المُراد). فالذي فررتم منه تقعون فيه فِي مثل هذا، مع أنكم ضللتم وتركتم الخطاب الذي خوطبنا به.

ثُمَّ يُقال لهم: هذه الَّتِي تقولون: (إنها غليان دم القلب، ثُمَّ طلب الانتقام) أو: الميل إلى المرحوم والإحسان إليه)؛ أليس هذا من صفة المخلوق؟ والمخلوق ضعيفٌ، له صفاتٌ تليق به، والرَّبُّ ﷻ هُوَ الغنيُّ بذاته عَنْ كُلِّ ما سواه؛ وتعلمون أنه فِي ذاته ﷻ لا يُشبهه شيء، ولا بُدَّ من هذا، فهم يُقرون بهذا.

فَإِذًا: الرحمة والغضب وما أشبه ذلك مما يصفُ الرب ﷻ به نفسه، يجب أن يكون تبعًا لذاته؛ فكما أنه ﷻ فِي ذاته لا يُشبهه شيء فكذلك فِي صفاتِه، فصفاتُه لا يُشبهها صفاتُ المخلوقين؛ أمَّا مُجرَّد الاشتراك فِي اللفظ أو فِي المعنى العام البعيد فلا يقتضي تشبيهًا.

قوله: «**وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ: ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ هو مِنْ التَّشْبِيهِ**»؛ أي: أن التشبيه يكون بين الناس نسبيًّا؛ فكل من أثبت ما نفاه هذا سماه مشبهًا، فالمعتزلة ينفون الصفات ويثبتون أسماءً بلا صفات، فيقولون: (سميع بلا سمعٍ)، فيبادرون إلى نفي المعنى الذي يفهم من الاسم، ويقولون: (بصير بلا بصرٍ)، و(حي بلا حياة)... إلى آخره.

فإذا قال لهم الأشاعرة: إنهم يثبتون له سبع صفات، قالت المعتزلة: (أنتم مشبهة تثبتون الصفات)!

ثم أهل السنة إذا أثبتوا «اليد» و«الاستواء» و«العلو» و«المجيء» و«النزول»؛ قال لهم الأشاعرة: (أنتم مشبهة)!

إذًا: التَّشبيه يكون نسبيًّا؛ فإذا أثبت مثبتٌ خلاف ما يثبته هذا النافي رماه بالتشبيه، فيكون التشبيه على حسب اعتقاد الناس.

أمَّا أن يوجد قوم يقال لهم: «مشبهة»، ولهم كتبٌ ولهم علماء، فإنه لا يوجد أصلًا، ولهذا تجد ذكر النبز بالتشبيه كثيرا في كتب المتكلمين وأصحاب المقالات.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ يُفرِّقُ بَيْنَ لَفْظِ «التَّشْبِيهِ» و«التَّمْثِيلِ» وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ يَقُولُونَ: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ، فَمَنْ قَالَ إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا قَدِيمًا، أَوْ قُدْرَةً قَدِيمَةً، كَانَ عِنْدَهُمْ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا؛ لِأَنَّ «الْقَدِيمَ» عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ هُوَ أَخَصُّ وَصْفِ «الإِلَهِ» فَمَنْ أَثْبَتَ لله صِفَةً قَدِيمَةً فَقَدْ أَثْبَتَ له مَثَلًا قَدِيمًا، وَيُسَمُّونَهُ مُمَثِّلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ».

الشَرح

قوله: «**إنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ نُفاة الصِّفَاتِ يَقُولُونَ: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ للهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ**». وهذا من الأمور الواضحة البُطلان، ولهذا جعلوا نفي الصفات من مسمى التوحيد؛ لأنهم تصوروا أنَّه إذا كان له سمعٌ قديم وعلمٌ قديم ومحبةٌ قديمة وإرادة قديمة أنَّ هذه آلهةٌ، وأنها مشاركةٌ له في القدم فتكون آلهة! فمن أثبتها قالوا: (أنت مُشَبِّهٌ ومشرِكٌ).

وقد ردَّ عليهم الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في «كتاب الرد على الزنادقة والجهمية»، فقال: «فقلنا: نحن نقول: قد كان الله ولا شيء. ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلَهًا واحدًا بجميع صفته؟ وضربنا لهم في ذلك مثلًا. فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة؟ أليس لها جذع وكرب، وليف وسعف وخوص وجَمّار؟.. واسمها اسم شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها؛ فكذلك الله، وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد، لا نقول: إنه قد كان في وقت من الأوقات. ولا يقدر حتى خلق له قدرة، والذي ليس له قدرة هو عاجز، ولا نقول: قد كان في وقت من الأوقات ولا يعلم حتى خلق له علمًا فعلم...»[1] النخلة فيها عسيف وفيها خوص، وفيها ليف، وفيها... إلخ، واسم النخلة يُطلق عليها كلها.

وعلى كل حالٍ: فكلام المعتزلة باطِلٌ، والله ﷻ وصف نفسه بالأوصاف التي لم يزل موصوفًا بها ـ تعالى وتقدَّس ـ، وأوصافه ملازمةٌ له ـ تعالى وتقدس ـ.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة (ص١٤٠).

والأوصاف لا تكون آلهةً، ولهذا منع العلماء أن يقول الإنسان: «يا رحمة الله، يا عزة الله» فيدعوها؛ لأن الرحمة ليست إلهًا فتدعوها، وإنما تدعوا ربَّك بصفته، تقول: «أسألك برحمتك»، وتستغيث به بذلك. فالله بصفاته، وصفاته لا تنفكُّ عنه ملازمة له ـ تعالى وتقدس ـ، وهذا حتى في المخلوق، لكن المغالطات باتباع الباطل لا حيلة في صاحبها إلا أنْ يهديه الله.

المقصود: أنَّ هذا كلامٌ باطِلٌ؛ لأنه حتى المخلوق لا يمكن ينطبق عليه هذه الأشياء؛ فهم يقولون مثلًا: (إذا قلنا لله صفاتٌ قديمة وله معانٍ قديمة صارت هذه «القدماء» معه آلهة، فيكون إثبات آلهة كثيرة)، كأنهم يتصورون أنَّ الله ﷻ ذاتٌ مجرَّدَةٌ عن الصفات وعن غيرها.

هذا الذي يسمونه توحيدًا، يجرِّدون الله ﷻ من كل صفة، وهذا غير معقول لفظًا ولا معنًى ولا لغة، حتى الجماد له صفات، كالحصاة، ففيها صفات اليبوسة، وصفات القساوة، وغير ذلك، والشجرة مثلًا لها صفاتٌ من أغصان وورق وغير ذلك، وكلها اسم «شجرة».

ولهذا يجعلون «التوحيد» نفي الصفات عن الله ﷻ، لماذا؟ لأنك إذَا أثبتَّ الصفات أثبتَّ قُدماء كثيرين مع الله ﷻ، فلا بُدَّ أن تُعطِّل ربَّك ﷻ حتى تكون مُوحِّدًا؛ وهذا عكس الحقِّ تمامًا، جعلوا الباطل حقًّا والحقَّ باطلًا.

فالموصوف بصفاته يكون قديمًا أزليًا، ولا يكون ذلك اشتراكًا ولا تشبيهًا، فالذي يقول مثل هذا وأراد الحق، فالغالب أنه التبس عليه الأمر التباسًا ظاهرًا أو إنه يُريد الباطل.

المقصود: أنَّ قول المعتزلة: «(القِدم» أخصُّ وصف الإله، فمن أثبت لله صفة قديمةً فقد أثبت له مثلًا قديمًا) = هذا أمرٌ باطِلٌ؛ لأن أخص صفات الله أنه على كلِّ شيء قدير، وأنه بكلِّ شيء عليم، وأن له الكمال المطلق، وأنه ﷻ محيطٌ بكلِّ شيء.

أما القِدم فلم يأت ذكره في كتاب الله أصلًا، ولم يوصف بأنه قديمٌ، وإنما جاء تسميته بأنه الأول، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، وفسَّر ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ،**

وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»(١)، فله الكمال من البقاء، وله الكمال في الوصف والكمال في الفعل، والكمال في كل ما يتصف به ﷻ أو يفعله.

أما هؤلاء فإنهم يصفون الله ﷻ من عند أنفسهم بشيء يبتدعونه ثم يزعمون أنه هو الكمال، ومن أين جاء إثبات القِدم، أو أن القديم هو أخص الصفات؟ هذا لا وجود له.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا، بَلْ يَقُولُونَ: أَخَصُّ وَصْفِهِ حقيقةً مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ».

الشرح

يعني: ليس هذا فقط أخصَّ وصفٍ به، بل كلُّ ما هُوَ من صفاته يكون خاصًّا به، والمخلوق لا يُشارك الله ﷻ فِي شيءٍ منه، فالصفات كلها خصائص، وكذلك أفعاله ﷻ تخصه.

وقد سبق أن مثَّلت لكم فِي هذا: في «النزول» و«حساب الخلائق» و«سماع الخطاب والدعاء»؛ فالله يستمع لخلقه كلهم، الذين هم فِي السموات ملؤها وفي الأرض ملؤها فِي آنٍ واحدٍ، ولا يشتبه عليه هذا بخطاب هذا، أو دعاء هذا بدعاء هذا، هل يوجد مخلوق هكذا؟ لا يُمكن أبدًا.

وكذلك «الحساب»؛ يُحاسبهم كُلَّهم فِي آنٍ واحد على كثرتهم، ومثل ذلك «النزول»؛ أنه ينزل إلى السماء الدنيا، فهو بالنسبة إليه شيءٌ مُفرد واحد وإن تعدَّد بالنسبة إلى المخلوقين لأن أفعاله لا تُشبه أفعال المخلوقين.

ولهذا الذين فهموا هذا على حسب ما يفهمونه من أنفسهم ظَنُّوا أنَّ النزول إِذَا كان مُحدَّدًا فِي وقتٍ مُعين - وهو آخر الليل - أنه لا بُدَّ أن يتعدد ويكثر. يُقال لهم: هذا لو كان النزول هو النزول الذي تعهدونه من نزول الأجسام، الَّتِي هي مخلوقة ضعيفة.

أما إذا كان مُضافًا لله ﷻ فهو يخصُّه لا يُشاركه فيه أحدٌ، فالله ليس له مثيل.

وهكذا كل الصفات؛ ولكن هؤلاء لم يفهموا هذا ولم يُدركوه، وإنما ارتسم فِي أذهانهم التشبيه أولًا والاشتراك بين الرب ﷻ وبين المخلوق، فصاروا ينفون هذا الذي ارتسم فِي أذهانهم، وزعموا أن من أثبت الصفات أنه يكون مُشرِكًا لا يكون موحِّدًا، ولهذا جعلوا نفي الصفات هُوَ التوحيد!

قوله: «وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا...»، يعني: أن المعتزلة يقولون: (إنَّ أخصَّ وصف الله القدم)، ويجعلون الصفات غير الموصوف، وكل هذا باطلٌ.

أما أهل الحق فهم يقولون: (أخص وصفه حقيقةً ما لا يتصف به غيرُه، مثل كونه ربَّ العالمين، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير؛ كما وصف نفسه - ﷻ بما هو أهله، وهذا كما سبق مرارًا من أنَّ أوصاف الله خصائصُ تخصه ولا يشاركه فيها غيره.

وهو الرب ﷻ، الله، الرحمن، الخالق، المحيي، المتصرف، الذي له الكمال المطلق، لا أحد يتصف بهذه الصفات؛ فهي ﷻ فهو تخصُّه.

إذا زعموا أنها تشاركه أو أنها آلهةٌ، فنقول: إنكم أُوتيتم من قِبل أنفسكم وأوتيتم من عدم الفهم وعدم تقدير الله ﷻ ومعرفته، وهذا هو أصل الضلال.

قوله: «أَخَصُّ وَصْفِهِ حقيقةً مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ»، يعني: الصفة لا تكون قائمةً بنفسها، فلا تجد عِلمًا يقوم بنفسه مستقلًّا، بل لا بُدَّ أن يقوم بموصوفٍ يقوم به «العلم» و«الحياة» و«القدرة» وغيرها. ولهذا هم يقولون: (لو قلنا: إن لله صفاتٍ أزلية قديمة، لأثبتنا آلهةً كثيرةً!)، وهذا ضلالٌ بيّن، فالصفات لا تقوم بنفسها، ثم الصفات لا تكون آلهةً؛ ولهذا منع الإنسان أن يدعو الصفة كأن يقول: (يا رحمة الله، يا عزة الله، يا قدرة الله)، حتى عدَّه بعض العلماء من الشرك بالله ﷻ؛ لأنه لا يوجد شيء غيرُ قائم بنفسه يُدعَى، وإنَّما يُدعَى الله بصفاته ويُسأل بها، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالصِّفة لا بُدَّ أن تقوم بموصوفٍ.

ثم لا يمكن أن يكون الله ﷻ ذاتًا بلا صفاتٍ - بل حتى المخلوقات -، فكل هذه التَّصوُّرات الباطلة التي تنتجها أفكارهم، التي ينقشها الشيطان في نفوسهم = حتى يعطلوا الله ﷻ مما وصف به نفسه.

فلا يوجد «شيء» إلا وله صفةٌ، والصفة تقوم بالموصوف، فالذات المجردة عن الصفة خيالٌ يتخيلونه، ولهذا يُفرِّعون على هذا فيقولون: (هل الصفة غير الموصوف؟)، أو الصفة مع الموصوف؟)، أو الصفة للموصوف؟)، أو ما أشبه ذلك من الكلام الباطل، فلا يوجد صفة تقوم بنفسها تشاهَد.

ولهذا عند تقسيم الكون كله يقولون: (الموجود لا يخلو إما أن يكون جوهرًا أو عرضًا، ولا ثالث لهما).

ف «الجوهر»: الشيء الذي يقوم بنفسه ويُشاهَد ويُحَسُّ، و«العرض»: ما لا يقوم إلا بغيره، مثل الحياة والعلم والجهل والقدرة والسمع وغير ذلك، وعندما يأتون إلى صفات الله يقولون غير ذلك من هذه الأقوال الباطلة.

المعتزلة تقول لمن أثبت لله صفاتٍ قائمة بذاته لا تنفك عنه: (أنتم مشركون؛ لأنكم تثبتون آلهة كثيرة!)، وهذا ضلال بيِّنٌ ومغالطة، بل حتى الجماد لا بُدَّ له من صفة، فـ «الحصى» من صفاتها الصَّلَابة، ومن صفاتها القسوة، ولها صفات أخرى، وهكذا «الشجر» وغيرها، فلا بدَّ أنَّ كُلَّ شيءٍ قام بنفسه أن يتَّصف بصفات.

وربُّ العالمين له الكمال المطلق ﷻ، وبئس ما يسلكه هؤلاء من الاختلاف والتنازع في ربهم، ولهذا يؤول الأمر إلى بعضهم أنه لا يعبد شيئًا.

فالجهمية والمعتزلة لما قالوا مثل هذه الأقوال واعتمدوا على النفي كقولهم: (ليس فوق ولا تحت...) إلى آخره؛ لم يتمكن أتباعهم من النظر الدقيق في مثل هذه الأشياء، وانقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: قالوا: إن هذا يدل على أن الله في كل مكان، فعبدوا كل شيء.

القسم الثاني: قالوا: هذا النفي المحض الذي لا يمكن أن يتحقق أو يوجد، فصاروا ملاحدة لا يعبدون شيئًا.

فإذًا: لا وجود لمثل هذه الأشياء، فكلامهم هذا يؤول إلى باطل، ولكن الباطل قد يكون بعضه متفاوتًا عن بعض، وبعضه أعظم من بعض.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«مِثْلُ كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ».

الشَّرْح

يعني: أنَّ جميع أوصافه هي كمالٌ وخصائصُ تخصه، ومثل ذلك أيضًا أفعاله، فهي تخصه ولا يُشاركه فيها المخلوق؛ فمن ضاهى الله بشيءٍ من ذلك يُعذِّبه، كما أخبر الرسول ﷺ عن ربه أنه قال: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**»[1]، يعني: المصور؛ وإن كان هذا ليس خَلقًا ولا إيجادًا أو إبداعًا، لكن لأنه أخذ الصورة التي صوَّرها الله ﷻ، فهو ضاهى من هذا الباب، فجاء التعذيب من أجل ذلك؛ لأن هذا من خصائص الله، فكيف بالصفات الأخرى والأفعال الأخرى.

أما إذا قالوا: (إذا وصفتم الله ﷻ بصفةٍ فإما أن تقولوا إنها قديمة، أو إنها مُحدثة. فإن قلتم: «قديمة»، لزمكم أنكم جعلتم مع الله قدماء؛ وإن قلتم: «محدثة»، لزمكم أن تقولوا: «إن الله يحدث له ما لم يكن له»، وكلا الأمرين باطل).

فنقول: كل هذه التقديرات باطلة، فالله بصفاته أزليٌّ قديمٌ، والصفة لا تكون إلهًا وإنما هي مُلازمةٌ للموصوف، وهذا حتى في المخلوق صفاته تكون ملازمةٌ له.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب اللباس، باب نقض الصور (٧/ ١٦٧) برقم (٥٩٥٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٧١) برقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الصفاتية مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ: إِنَّهَا قَدِيمَةٌ...».

الشَّرح

معنى الصفاتية: الذين أثبتوا الصفات، وهؤلاء ينقسمون إلى **قسمين**:

القسم الأول: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يصفوا الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وهؤلاء هم أهل السنة، وهم الذين يجادلون هؤلاء المبطِلة.

القسم الثاني: أثبتوا بعض الصفات دون بعض، فهؤلاء متناقضون؛ لأنَّ بابَ الصِّفات واحدٌ، من أثبت شيئًا وجب أن يُثبت البقية، ومن نفى شيئًا وأثبت شيئًا يكون متناقضًا؛ لأن الذي نفاه مثل الذي أثبته.

قوله: «**ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الصفاتية مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ: إِنَّهَا قَدِيمَةٌ...**»، يعني: خوفًا من الوقوع فِي الخطأ؛ لأنه إِذَا قال: (قديمةٌ) كأنه فُهِمَ من أنها مُستقلَّةٌ بالقِدم = وهذا لا يجوز أن يُفهم؛ لأنَّ الصفات ما تنفكُّ عَنْ الموصوف، فالموصوف بصفاته قديمٌ.

وإذا قيل: هل الصفات غير الموصوف أو الصفات هي الموصوف؟

فالجواب: لا غير ولا هي، بل الموصوف بصفاته ﷻ.

ومثل ذلك: الأسماء: هل الاسم هُوَ المُسمَّى أو غير المُسمى؟ فيُقال: الاسمُ للمُسمى لا غيرُه ولا هُوَ، كما قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٨٠].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«بَلْ يَقُولُ: الرَّبُّ بِصِفَاتِهِ قَدِيمٌ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ وَلَا يَقُولُ: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ. . .».

الشَّرح

فلا يُقال: إن الصفة غيرُ الموصوف، ولا هي هو، بل يُقال: الصفة قائمةٌ بالموصوف فهي له، حتى لا يلزم أن يقول: قديمة أو غير قديمة، وهذا هو الحق؛ فالله ﷻ بصفاته قديمٌ.

مع أن كلمة «قديم» هذه لم تأتِ في وصف الله، بل هو اصطلاحٌ اصطلحوه، وإنما الذي جاء في أسماء الله أنَّه: «الأول، والآخر، والظاهر، والباطن»، وقد فسَّر ذلك رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم فقال: «**اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[(١)].

فالله بصفاته أوَّلٌ بلا بدايةٍ، كما أنه بصفاته لا يزال كذلك ـ تعالى الله وتقدس ـ، ولا يُقال: (إن الصفة هي الموصوف، ولا أنها غير الموصوف) فإنَّ هذا من البدع التي أنكرها السلف.

قوله: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ وَلَا يَقُولُ: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ**»؛ لأن الصفة ما تنفكُّ عَنْ الموصوف.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«.. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ؛ وَلَكِنْ يَقُولُ: ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الصِّفَةِ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ».

الشَّرح

لسنا بحاجة إلى أن نقول: (هو وصفاته قديمان)، بل نقول: (هو قديمٌ بصفاته - تعالى وتقدس -.

وقد سبق أن نبهنا أن كلمة (قديم) لم تأت في أسماء الله وأوصافه؛ لأن القديم يكون نسبيًّا، فكل ما حدث يكون الذي قبله قديمًا أقدمَ منه، كما قالوا في قصَّة يعقوب عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال ﷻ في القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩] العرجون القديم: هو الذي حدث به جديد، فإذا وجد الجديد صار الذي قبله قديمًا.

فدلَّ هذا على أن القديم ليس مرادفًا للأول، وإذا احتمل اللفظ أمرًا باطلًا وأمرًا حقًّا فإنه لا يأتي في أوصاف الله وفي أسمائه، فأوصاف الله ﷻ مُنزهَةٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، فله الكمال المطلق - تعالى الله وتقدس عن قول الظالمين -.

وهؤلاء الذين يتكلَّمون بهذه الأمور هم في الواقع يقعون في الشِّرك ولا يخرجون عنه إلا أن يتركوا مذهبهم؛ لأنهم شبَّهوه بالمخلوقات. فالتشبيه شركٌ في العلم والعقيدة، ومعلومٌ أن هذا هو الأساس في عمل الإنسان، فالعمل يتبع العلم والاعتقاد.

ولهذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله في مكانٍ آخر في هؤلاء: (إن هؤلاء لا ينفكون عن الشرك)، أي: يكون الشرك مُلازمًا لهم؛ لأنهم وصفوا الله ﷻ بما يُوصف به المخلوق، وإن زعموا أنهم يُنزِّهون الله، فهم لا يخرجون عن كونهم أشركوا حتى ولو نفوا الصفات عمومًا؛ فإذا نفوها قيل لهم: أنتم ألحقتموه بالعدم وشبَّهتموه بالمعدوم أو شبَّهتموه بالناقصات، وهذا من أعظم الشرك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ، بَلْ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتٍ».

الشرح

هذا تنزُّلًا معهم على اصطلاحهم؛ وإلا فالقديم والقدم كلُّها ألفاظٌ مُحدثة لم تأت في صفات الله ﷻ.

والصفات ليست إلهًا وليست قائمةً بنفسها، فلا توجد صفةٌ قائمة بنفسها، فلا توجد «سمعٌ» تُشاهده وتراه، ويكون قائمًا بنفسه، أو «علم» تُشاهده بذاته، أو «جهل» أو «مرض» أو «صحة»، أو غير ذلك!

الصفات لا تقوم بنفسها، فهي قائمةٌ بالموصوف لا تنفك عنه بحالٍ، أما إذَا كانت الصفات هي الأفعال، فالأفعال تتعلق بمشيئته. لهذا احتاج أهل السُّنَّة فِي هذا أن يُقسموا الصفات إلى قسمين:

القسم الأول: صفاتٌ ذاتية، وهي الَّتِي لا تنفكُّ عَنْ الموصوف بحالٍ من الأحوال، كالحياة والسمع والعلم والبصر وغير ذلك.

القسم الثاني: صفاتٌ فعلية، وهي الَّتِي تتعلق بالمشيئة ـ مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة ـ؛ فَإِذا شاء أن يفعل شيئًا من ذلك فعله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ».

الشَّرح

المقصود بـ«المجردة»: التي ليس لها صفة؛ ولا توصف بصفة، وهذه لا وجود لها أصلًا، حتى «الصفا» - وهو الصخر - له صفات؛ فمن صفاته القساوة والصلابة، وقد يكون من صفاته المُلوسةُ، وقد يكون غير ذلك.

فكلُّ شيءٍ له صفةٌ، ولا يوجد شيءٌ مجرَّدٌ عن صفة أصلًا، فكيف يجعلون مَن هو أكبر من كلِّ شيء وأعظم من كلِّ شيء مجردا عن الصفات؟! وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وله الكمال المطلق، وله الحمد كله، وله الملك كله، كيف يجعلونه شبيهًا بالناقصات أو المعدومات؟! لأنهم في الواقع تركوا الاسترشاد بما أمر الله ﷻ أن يُسترشد به فضلُّوا لما اعتمدوا على عقولهم.

قد يقول قائل: ما الفائدة من ذكر هذه الأمور، ونحن في غِنًى عنها، وقد سَلَّمنا الله ﷻ منها؟ فلا حاجة إلينا بها.

يُقال: إنَّ هذا لا يزال موجودًا عند كثيرٍ من الناس، وإن كان قد تختلف الأساليب وتختلف العبارات، لكن المعنى واحد. ولكن الإنسان الذي بعافية يستبعد هذه الأشياء، وكثيرٌ من الناس وقع فيها ولا يزال يقول بها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ يَقُولُونَ: الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا».

الشرح

الله ﷻ هو الأول وليس قبله شيء، فهو أول بصفاته كما أنه آخر بصفاته، ولا يكون هناك إله مجرَّد عن الصفات، فلا يعقل الموصوف قائمًا بنفسه بلا صفات، وهو مجرد خيال ووساوس من الشياطين، فلا بد أن يكون الموصوف قائمًا بصفاته، ورب العالمين لا يُقاس بغيره - تعالى وتقدس -.

وهذه الأقوال لا خير فيها، كلها أقوالُ أهلِ الباطل، وهي أقوالٌ مبنية على الخيال وتزيين الشيطان، حيث ينقش في أذهانهم أمورًا يبثونها في الناس ليبطلوا عقائدهم ويفسدوها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَطْلَقُوا عَلَى الصفاتية اسْمَ «التَّشْبِيهِ» و«التَّمْثِيلِ»، كَانَ هَذَا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ الَّذِي يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أُولَئِكَ، ثُمَّ تَقُولُ لَهُمْ أُولَئِكَ: هَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ بَعْضِ النَّاسِ تَشْبِيهًا، فَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَنْفِهِ عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ».

الشَّرح

قوله: «فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَطْلَقُوا عَلَى الصفاتية اسْمَ التَّشْبِيهِ...». والتشبيه لا ضابط له؛ لأنهم يقولونه بحسب اعتقادهم، ولهذا تجد مثلًا: المعتزلة يُسمون الأشاعرة مُشبِهةً؛ لأن الأشاعرة أثبتوا بعض الصفات، والأشاعرة يسمون من أثبت ما نفوه مُشبِّهةً؛ أما أن تكون هناك طائفة معينة لها كُتُبٌ ولها أئمة وعلماء تُسمى المشبهة فهذا لا وجود له.

ثم يقول: إنه قد يختلف «التشبيه» مع «التمثيل» كما سبق، فـ «التشبيه» لم يأتِ ذكرُه في كلام الله، وإنما جاء نفي «التمثيل»: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ لأن التشبيه فيه التباس وإيهام، ومثله لا يأتي في صفات الله ﷻ لا نفيًا ولا إثباتًا.

وقد جعل أهل البدع نفيَ التشبيه أساسًا لهم في نفي الصفات؛ فمن أثبت الصفة سموه مشبِّهًا. وهذا باطِلٌ؛ فالقرآن نفى «المثل» و«الكفء» و«الند»، وأما «الشبه» فهذا لم يأتِ في نصِّ القرآن ولا كذلك في ألفاظ السلف التي يُثبتونها لله ﷻ؛ مع أنه لا يجوز إحداث شيءٍ في أقوال الناس يكون لله ﷻ، فإن الصفات والأسماء توقيفية، ومعنى «توقيفية»: أنَّا نقف معها على النصِّ؛ إذا جاء النص بها قلنا به وإلا فيجب أن نتوقف.

والمقصود أن التشبيه صار فِي الحقيقة أمرًا نسبيًا؛ أما أن يكون هناك مثْلًا طائفة لها أئمة عُلماء وكُتب ومنهج تُسمى المُشبهة هذا لا وجود له فِي الأمة، ومعنى أنه نسبي فمثْلًا هؤلاء المُعتزلة الذين يقولون: إنَّ الذي يُثبت لله صفةً قديمة يكون مُشبهًا، الذي يُثبت الصفات لله يسمونه مُشبهًا.

ولهذا سموا أهل السُّنَّة مُشبهة بل وسموا الأشاعرة مُشبهة؛ لأن الأشاعرة أثبتوا سبع صفات وسموهم مُشبهة، ثُمَّ الأشاعرة لما صار عندهم تأويل الصفات واجبٌ، إما أن تؤولها أو تفوِّض، تقول: ليس لها معنى مثل ما سبق: أن التأويل لا يعلمه إلا الله؛ فصار الذي مثلًا يُثبت الصفات الَّتِي أوجبوا تأويلها أو تفويضها عندهم مُشبهًا.

فَإِذًا: يكون كُل من أثبت ما يعتقد هذا الذي يزعم أن هذا الشيء تشبيه إِذَا أثبته غيره سماه مُشبهًا، فهل هذا له حقيقة؟

يقول السلف: (ليس إثبات الصِّفات تشبيهًا؛ وإنما التَّشبيه أن تقول: «له وجهٌ كوجهي، ويدٌ كيدِي، وعلمٌ كعِلْمي»)، أما أن تُثبت الصفات فهذا ليس تشبيهًا؛ فَإِذا أُضيف إلى ذلك أنَّ الصِّفات خصائصُ تخصُّه زال هذا الوهم كلُّه.

قوله: «**وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ**». هذا هو الضابط الذي نرجع إليه، وليس إلى كلام الناس واصطلاحاتهم؛ لأنها تختلف باختلاف أنظارهم وأفكارهم، وعقل الإنسان قاصِرٌ محدودٌ لا يستطيع أن يحيط بالله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

والمقصود: أنَّ الأمور التي تأتي من قِبَل النفاة والمعطلة يعظمونها ويقولون: (من قال كذا فهو مشبِّهٌ وكافر)؛ يريدون به تنفير الناس مِن وصف الله ﷻ بما وصف به نفسه، وهذا باطل لا يوافقون عليه.

ويعسر على الذين لا يعرفون مذهبَ المعتزلة فَهْمُ مثل هذا الكلام؛ لأنَّ المعتزلة يقولون: (إذا أثبتَّ الصِّفات أثبتَّ آلهةً متعددةً)، وعندهم أنَّ الصفات توجد قائمةً بنفسها، وأنه لا بُدَّ أن يثبت الإنسان أنَّ الله ﷻ ذاتٌ مجرَّدةٌ ليس معه صفات؛ وإلا يقول: (يلزمك التشبيه والكفر وتعدد الآلهة)! وهذا الكلام لا حقيقةَ له في الخارج، وإنما هي أمورٌ يتصورونها في أذهانهم.

وقريب منه قولهم: (ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، وليس له مكانٌ، ولا يجري عليه زمان...)، إلى آخر هذا الهذيان الذي يقولونه، فهو وصفٌ للعدم المحض الذي لا وجود له. فإلههم الذي يعبدونه شيء يصورونه في أذهانهم فقط، أما خارج الأدمغة والفكر، فلا وجود له على هذا الوصف أصلًا، وبئس هذا الاعتقاد والقول.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَى مُسَمَّى «الْمِثْلِ» وَ «الْكُفْءِ» وَ «النِّدِّ» وَنَحْوِ ذَلِكَ وَلَكِنْ يَقُولُونَ: الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفأه وَلَا نِدَّهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّصِّ، وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّى «التَّشْبِيهِ» فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ».

الشرح

قوله: «وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَى مُسَمَّى الْمِثْلِ وَالْكُفْءِ»، ما هُوَ المُسمى؟ «المُسمى»: الذي يدخل تحت الاسم؛ فالله ﷻ يقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥] يعني: مثلًا.

فالْكُفْءِ يعني: اسم الْكُفْءِ، أو المِثل، أمَّا الشبيه والشِبه فما جاء فِي القُرْآن، ولم يأتِ نفيه ولا إثباته، وإنما جاء نفي المِثل والْكُفْءِ والنِّدِّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فالنِّدُّ يُطلق على الذي يُماثله أو يشترك معه فِي شيء يكونُ نظيرًا له.

ولهذا لما قَالَ رجلٌ للنبي ﷺ: **«ما شاء الله وشئت»**، فقَالَ: **«أجعلتني لله نِدًا؟!»**(١)؛ لأنه جمع مشيئته مع مشيئتِه بالواو الَّتِي تدلُّ على مُطلق الجمع، فصار تنديدًا بهذا الاشتراك.

أما **«الْكُفْءُ»** فهو الذي يُكافئه، و**«المِثل»**: الذي يُماثله. فـ «المُسمى»: الذي يُطلق عليه هذا الاسم. والقرآن قد نفى مسمَّى «المثل» و«الكفء» و«النِّدِّ» ونحو ذلك، فالله ﷻ لا مثل له ولا كُفْءَ له ولا نِدَّ له.

أمَّا كلمة «التشبيه» في اصطلاح المعتزلة فهم وضعوها عامَّةً، وبها أبطلوا صفاتِ الله ﷻ، حيث تخيلوا أنَّا إذا وصفنا ربنا ﷻ بصفةٍ من الصِّفات أنَّ ذلك تشبيهٌ بالمخلوقين؛ لأنهم يجدون مسمى تلك الصفات فيهم، فضلُّوا حيث لم يعرفوا ربَّ العالمين، المعرفةَ التي تعصمهم من هذه الظنون الكاذبة.

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفؤه وَلَا نِدَّهُ...»، هذا القول ما نحتاج إليه، وإنما هذا من باب المُجادلة والتَّنزُّل؛ وإلا فلا يُمكن أن يكون صفةٌ قائمةٌ بنفسها، ونَصِفُها بأنها قديمة أو غير قديمة كما سبق، الصفة لا بُدَّ أن تقوم بالموصوف كما سبق.

قوله: «وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ» في اصطلاحهم فقط، أما التشبيه الذي يكون مُشابهًا لمن شُبِّه به من كل وجه = فهو باطل، وكان الأئمة مثل: الإمام أحمد ونُعيم بن حماد وغيرهما يقولون: (التشبيه أن يقول: له وجهٌ مثل وجهي، ويدٌ كَيَدِي، وعينٌ كعيني وما أشبه ذلك هذا هو التشبيه، أما إثبات الصفات فليس تشبيهًا)؛ لأنه كمالٌ لله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُونَ: إِنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إِلَّا بِجِسْمٍ مُتَحَيِّزٍ، وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ، فَلَوْ قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ، وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ».

الشرح

وهذا باطلٌ من الوجهين:

أولًا: إنَّ الصِّفات تقوم بالجسم، و«الجسم» يختلفون فيه كما سبق. أما «التحيُّز» فلا يجوز أن يوصف الله ﷻ به، و«التحيز» قد يقصدون أنه منحازٌ في مكانٍ أو إن مكانًا يحوزه ويُحيط به، أو ما أشبه ذلك = فهذا باطل.

ثانيًا: قولهم: (إن الأجسام متماثلة) كذلك باطلٌ، فهل جسم الذرة يُشبه جسم السماء أو العرش أو غير ذلك؟ فكلا الأمرين باطل، وتمثيلهم لا يصحُّ.

ثُمَّ التَّمثيلات في هذه كلها في المخلوقات، والمخلوقات بينها الفروقُ المعروفة الواضحة الجلية، أمَّا أن يأتي تشبيهٌ بين الخالق والمخلوق فهذا إنما هو من باب التلبيس؛ أما في الواقع فليس كذلك.

قولهم: «**إِنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إِلَّا بِجِسْمٍ مُتَحَيِّزٍ...**» هذا لا يُسلَّم لهم، فهو في نظرِهم واعتقادهم وقولهم؛ لأنهم يجعلون أنفسهم أصلًا، ثم يقيسون عليها ربَّ العالمين، وهذا أصل البلاء ـ تعالى الله وتقدَّس عن قولهم ـ.

وقولهم: «**لَا تَقُومُ إِلَّا بِجِسْمٍ**» يجب أن يُسألوا: ما هو الجسم؟ هل يقصدون بـ«الجسم»: ما يقوم بنفسه ويشار إليه ويكون في مكان؟ فإن كانوا يريدون هذا فهذا لا يُسلَّم لهم؛ لأنَّ كُلَّ من كان كذلك يقولون عنه جسمًا.

فلا نصف الله ﷻ إلا بما وصف به نفسه؛ فإذا جئتم بشيء لم يصف الله ﷻ به نفسه نفيًا أو إثباتًا؛ فنقول: (إنه باطل ولا نقبله).

وأما «**التَّحيُّز**»: فكذلك فيه إجمال واشتباه، فلا يُقبل لا نفيًا ولا إثباتًا، بل لا بُدَّ من التفصيل:

* فإن كنتم تريدون بـ «التَّحيُّز»: أنه بائنٌ من خلقه وليس مخالطًا لهم؛ فنقول: (نعم، الله كذلك)، ولكن لا نقول: (إنه متحيزٌ)، بل نقول: (إنه مستوٍ على عرشه، وإنه في السماء فوق خلقه).

* وأما إن كنتم تريدون بـ «التَّحيُّز» شيئًا يحوزه ويحيط به من مخلوقاته؛ فنقول: (هذا باطل لفظًا ومعنى).

ومثله «الجوهر» و«العَرَض» وغيرهما مما يأتون به مجملًا ممَّا لم يصف الله ﷻ به نفسه، فلا يجوز قبوله، بل لا بُدَّ إذا كان القائل يريد الحقَّ أن يستفصل منه ويُسأل ما مراده؟ فإذا بيَّن أنَّ مراده باطل؛ فنقول: (اللفظ والمعنى كلاهما مردود)، وإن أراد معنًى صحيحًا؛ فنقول: (يجب أن تعبِّر عن هذا المعنى بما عبَّر الله ﷻ به).

فالمقصود: أن كلامهم في الإثبات يأتي مجملًا، أما كلامهم في النفي لله ﷻ فإنَّهم يفصلونه، ويدخل في النَّفي كلُّ موجودٍ.

وكلامهم في هذا لا يخلو إما أنهم يريدون أن يفسدوا عقائدَ النَّاس، أو أنهم ضَلُّوا في عقولهم وفي أفكارهم وفي إلههم الذي يعبدونه.

قولهم: «**وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ**»: هذا كَذِبٌ؛ فهل «الذَّرَّةُ» مثل «السماء»؟! هل «الذرة» مثل «الجبل»؟! هل «الجمل» مثل «الذرة»؟! فالأجسام ليست متماثلةً، بل هي متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، ولكن قد يقال بالتماثل؛ بمعنى أن كلها موجودة أو يجوز عليها ما جاز على بعضها.

وعلى كل حالٍ: فالتماثل الذي يقولونه باطل، فليست الأجسام متماثلةً، وفيه إجمالٌ، وفيه نفيٌ مطلقٌ، ولا تجدهم يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه في كتابه.

فعدم الاشتغال بهؤلاء هو المتعين، لولا البلوى التي بُلي بها المسلمون وأخذ كلامهم بعضُ الناس؛ كالأشاعرة الذين يدخلون معهم في كثير من هذه الأشياء، فيجب على الطالب السني أن يميز بين الحق والباطل، فيرد الباطل ويقبل الحق ويأخذه، والاستغناء بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ هو السبيل، ولكن لا بُدَّ من الفهم.

قوله: «**وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ**». هذا هو التشبيه المتخيَّل عندهم؛ وإلا فيقال لهم: (أخبرونا ما هو «الجسم»، وأخبرونا ما هو «التحيُّز»، وأخبرونا ما هي الصفات التي تقوم بنفسها)؟! هذا لا وجود له!

أما «الجسم» فهم في شك منه واختلاف كثير؛ فمنهم من يقول: (الجسم:

المركب)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما شغل مكانًا)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما صحَّت رؤيته)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما صحَّ أن تقول هو هنا وهناك، أو فوق أو تحت)؛ وكلها أقوال باطلة.

والصحيح: أن الجسم: هو البدن، كما قال الله ﷻ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ [المنافقون: ٤]، ولكن لا يجوز أن نصف رَبَّنا ﷻ بأنَّه جسمٌ أو أنَّ له جسمًا؛ لأننا لا نصف ربنا ﷻ إلا بما وصف به نفسه.

أما هؤلاء فهم أطلقوا ألسنتهم في الله ﷻ، فصاروا يخوضون في الباطل، فيَقُولون: (إنا لم نجِدْ عرضًا - كاللون والعلم وغيرهما - إلا ويقوم بجسمٍ، فهم جعلوا أنفسهم هو الأصل، فقاسوا ربَّ العالمين على أنفسهم، فصاروا ينفونَ الشيء الذي يكون من خصائصهم عَنْ الله ﷻ، فارتسم التَّشبيه عندهم أوَّلًا، ثُمَّ صاروا يُفرِّعون عليه نفي صفات رب العالمين، وأصله: الباطل الذي هُوَ التشبيه المُستكنُّ فِي نفوسهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَكَذَلِكَ يَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ مِنْ الصفاتية الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ عَلَى الْعَالَمِ فَلَا يَصِحُّ إلَّا إذَا كَانَ جِسْمًا، فَلَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَحِينَئِذٍ فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَلْزَمُ التَّشْبِيهُ».

الشَّرح

المقصود بهم: الأشاعرة، فَهُم الذين يُثبِتون بعض الصفات؛ ولكن مع ذلك يسمونهم صفاتية؛ لأنهم أثبتوا بعضها، ولهذا قَالَ: «**وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ على الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ**»؛ والْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ هي الَّتِي تتعلق بمشيئته - يفعلها إِذَا شاء -، فهم ينفون هذا.

فلا يثبتون العلو والاستواء؛ لأنهم يقولون: (يلزم منه أن يكون الله جسمًا)! فإذا قُصد بـ«الجسم» أنَّه القائم بنفسه الذي يُشاهَد ويكون له أيضًا تَشَخُّصٌ بنفسه = فهذا نقول فيه: إنَّ الله أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كل شيء، ومن لم يُثبت ذلك فمعنى ذلك أنه جعل الله معنًى من المعاني التي لا حقيقة لها، فلا بُدَّ من إثبات هذا.

والله أخبرنا ﷻ أنه أكبر من كل شيء، حتى في عباداتنا مثل الصلاة عند كل تنقُّلٍ منها نقول: «الله أكبر»؛ أي: أكبر من كل شيء عند هؤلاء؛ لأنهم يجعلون «الشيء»: القائم بنفسه الذي يُشاهد ويُرى ويشغل مكانًا يكون جسمًا، قعَّدوا هذه القاعدة، فقالوا الأجسام متماثلة، فكيف يقعدون من أنفسهم قاعدةً تقتضي على كلام الله وكلام رسوله ﷺ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

الواجب ألا يُلتفت إلى ما قالوا ولا يُنظر إليه، وإنما الاعتماد على ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، مع تعظيم الله وتنزيهه أن يكون مشابهًا لما يقولونه؛ فهم لم يعرفوا الله حقَّ المعرفة، وتصوَّروا أشياء باطلةً، فنفوا على أساس ذلك ما وصف الله ﷻ به نفسه وكذلك رسوله وأصحاب رسوله ﷺ ومن اهتدى بهديهم وقال بقولهم.

قولهم: «**فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ**»: هذا باطِلٌ، فهل السماء مثل الأرض؟! وهل السماء مثل الذرة؟! هذه لها جسمٌ والسماء لها جسم، فليست متماثلةً، فهو من أبطل ما يكون.

والمقصود: أنَّ إثباتهم كلُّه ليس لهم برهان يعتمدون عليه إلا ما يظنُّون أنَّه براهين عقلية، وهي في الواقع شُكوكٌ وليست براهينَ؛ فإن البراهين ما جاء به كتابُ الله وما قالته الرُّسُلُ.

فربُّنا ﷻ وصف نفسه بأوصافٍ، وسمى نفسه بأسماء ليست من هذه التي يقولها هؤلاء الضُّلَّال، ولو تبعوها وآمنوا بها لسلموا من هذه الانحرافات. أما أهل السنة والجماعة فهم لا يوافقونهم، لا في المعاني التي يقولونها ولا في الألفاظ، بل يردون هذا كلَّه، ويقولون: (هذا كله بدع جاءوا بها من عند أنفسهم).

✲ ✲ ✲

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا، وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا، كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ «الْإِرْشَادِ» وَأَمْثَالُهُ».

الشَّرح

قوله: «فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا، وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا». وهذا تناقضٌ بيِّنٌ واضحٌ؛ يُثبتون «الكلام» و«السمع» و«البصر» و«العلم» و«القدرة» و«الإرادة»، ثُمَّ ينفون البقيَّة مثل: «المحبة» و«الرضا» و«الغضب»، وكذلك «العلو» و«الاستواء»؛ فكيف يُثبَت شيءٌ ويُنفَى شيء؟! وهذا يشبه ما قال الله ﷻ في الذين أرادوا أن يفرقوا بين الله ورسله حيث يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، فالحقُّ يتضافر ويتساعد، بعضه يؤيد بعضًا، أما الباطل فهو المتناقض.

قوله: «كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ «الْإِرْشَادِ»...». صاحب «الإرشاد» هو الجويني، وهو الذي يُسمى «إمام الحرمين»؛ لأنَّه بقي وقتًا في مكة ووقتًا في المسجد النبوي، والجويني اثنان؛ الوالد والابن، والمقصود هنا الابن الذي هو صاحب «الإرشاد» وغيره من الكتب.

قوله: «وَأَمْثَالُهُ» مثل الفخر الرازي ونحوه من أئمة الأشاعرة؛ الذين جعلهم الأشاعرة عمدةً لهم يتبعونهم ويسترشدون بكتبهم، ولا يسترشدون بكتاب الله ﷻ.

وقد أقر هؤلاء الأشاعرة على أنفسهم بأنهم ما عرفوا شيئًا، ففي نهاية الأمر تحققوا أنَّ الأمر على خلاف معتقدهم، فهم في الواقع معتزلة؛ لأنَّ أصلهم الاعتزال، فنفوا عُلُوَّ الله ﷻ بناءً على أنَّ الذي يكون في العلو يكون جسمًا! هذا الهوس الذي نفوا بسببه ما هو أظهرُ الأشياء. ولهذا نقول: هذه الأقوال ليست مبنيَّةً على دليل، وإنما هي ظنون كاذبة.

يعجب الإنسان لما يسمع ماذا يقول الجويني لأصحابه وتلامذته، يقول: (إنه عثر على دليل في نفي العلو)، ولكن شرط شروطًا في تعليمهم هذا الدليل، فلما أتوا

بالشروط قال: (إن الرسول ﷺ يقول: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»(١)، وإن يونس بن متى التقمه الحوت فكان في بطن البحار، في بطن الحوت في ظلمات، ومحمد ﷺ صعد إلى السماء السابعة، فمعنى ذلك أن محمدًا ويونس عليهما السلام استويا بالنسبة لله)!

فرح بهذا «الدليل»، وحسب أنه يدل على نفي العلو!، مع أنَّ هذا اللفظ الذي ذكره لم يقله الرسول ﷺ!، وإنما قال ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ**»(٢).

كثير من أتباع الأشاعرة من أصحاب المذاهب الأربعة، من الحنابلة ومن المالكية ومن الشافعية ومن الحنفية؛ ولكن غالب الحنفية صاروا ماتُرِيدِيَّةً ولاسيما أهل الشرق؛ مثل: خُراسان وغيرهم من المناطق الشرقية، فهؤلاء أتباع أبي منصور الْمَاتُرِيدِيِّ، وهو قريبٌ من الأشعري، لا فرق إلا في أمور يسيرة بينهم.

* * *

(١) قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص١٢١): «... وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظا ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وفي رواية: «من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب». وهذا اللفظ يدل على العموم، لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى، ليس فيه نهي المسلمين أن يفضلوا محمدا على يونس» اهـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٩] (٦/ ١٢٤) برقم (٤٨٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ قد يُوَافِقُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ».

الشَّرح

القاضي أبو يَعلَى معروف أنه من أئمة الحنابلة؛ ولكن من المتكلمين؛ ففي الأمور العقدية ليس متبعًا للإمَام أحمد إلا فِي بعض الأشياء؛ خاض في الكلام وقال في بعض ما يقوله هؤلاء، وترك طريقة السلف في كثير من أقواله ووقع في الخطأ، وعنده من التناقض أشياء كثيرة. هذا مع كونه ردَّ على بعض المُتكلمين؛ فله كتاب «إبطال التأويل»، ردَّ على ابن فُورك فِي كتابه الذي سمَّاه: «تأويل مُشكل الحديث»، والواقع أنه تأويلٌ للصفات ـ وليس «مُشكل الحديث» ـ، حيث جعل الصفات مُشكلةً تأولها، وجعل فيه من الأحاديث الموضوعة وغير ذلك، وقال فيه أقوالًا لا يوافقه عليها أهل السنة، وهذا الكتاب مطبوع متداول.

والقاضي أبو يعلى وقع فِي أمورٍ مُخالفة لما عليه الإمَام أحمد وما عليه أهل السُّنَّة، ولهذا مثل به المؤلف. ومثل الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى: أبو الوفا ابن عقيل وابنُ الجوزي وغيرهما، وابن عقيل كان أولًا مُعتزليًا، ولكنه فيما يظهر رجع فِي آخر أمره.

و«الإرشاد» كتابٌ للجويني مطبوع ومنتشر، وهو في هذا الكتاب يقول عن المعتزلة: (فإنَّ ما أثبتوه وقدَّروه كلامًا؛ فهو في نفسه ثابتٌ، وقولُهم: «إن كلام الله تعالى؛ إذا رُدَّ إلى التحصل آلَ الكلام إلى اللغات والتسميات»؛ فإن معنى قولهم: هذه العبارات كلام الله؛ أنها خلقُه، ونحن لا ننكر أنها خلقُ الله، ولكن نمتنع من تسمية خالقِ الكلام متكلمًا به، فقد أطبقنا على المعنى، وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته).

ففي الواقع هم غيرُ مختلفين في كلام الله؛ فالمعتزلة يقولون: (مخلوق)، والأشاعرة يقولون: (هو معنى قائم بذات الله)، ويؤول ذلك إلى الخلق، فمثل هذا لا يكون كتابه إرشادًا، بل إضلالًا.

فالواجب في أقوال النَّاس وأفكارهم أن تُرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ولا يقبل منها إلا ما وافق الحقَّ، وما خالفه فإنه يجب أن يُردَّ على قائله مهما كان، ولكن إذا كان الإنسان له اتجاه معين، يريد أن يأتي بالأدلة التي تعضده، وإن كان فيها تعسُّف وتكلُّفٌ.

قوله: «مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ»؛ لأن أبا يعلى يُثبت «العلو والاستواء»، فيثبت الصفات، ولكنه وافقهم في (أن الأجسام متماثلة)، وهذا باطل؛ لأن الأجسام - كما سبق - غير متماثلة. وقصدهم بـ«الأجسام»: الشيء الذي تصحُّ الإشارة إليه، أو يُقال: «هنا وهناك ويُقال فوق وتحت وما أشبه ذلك»، أو أنه الذي يشغل مكانًا، أو أنه الذي يُشاهد؛ كما تقوله المعتزلة؛ ولهذا نفوا الرؤية على هذا الأساس؛ قالوا: (لأن الرؤية لا تقع إلا على جسم فلا يجوز أن نُثبتها حتى لا يلزمنا أن نقول: إنَّ الله جسم)؛ تعالى الله عن قولهم وظنونهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ولَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعُلُوَّ صِفَةً خَبَرِيَّةً، كَمَا هُوَ أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى، فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ».

الشَّرح

هؤلاء يجعلون صفة «العلو» من الصفات الخبرية، و«الفعل» يجعلونه هُوَ «المفعول»؛ والواقع أنَّ «الخلق» غيرُ «المخلوق» كما يقول أهلُ السُّنَّة؛ وكذلك الخبر عندهم الخبر الذي يُخبر عَنْ نفسه ويُخبر عَنْ مخلوق.

فَإذا كان الخبر عَنْ نفسه، صار من الصِّفات؛ فإنه أخبر ﷻ أنَّه العليُّ الأعلى. فهل يكون «العلي الأعلى» خبرًا عَنْ مخلوق؟! كلا! إما هُوَ خبرٌ عَنْ نفسه وهو يتعلق بذاته ـ تعالى وتقدس ـ، وإما أنها أمور خبرية تكون مُتعلقةً بالمخلوق.

فالصِّفات الخبريَّة التي جاءَ الخبر بها الكِتاب والسُّنَّة، ويُقابلها الصِّفات العقليَّةُ التي دلَّ عليها العقل. **ومقصود المؤلف بهذا**: أنَّ العلو دلَّ عليه العقل والفطرة مع الشرع:

فوجه دلالة العقل عليه أن يُقال لهؤلاء: أنتم تعلمون وتُقِرُّون بأن الله هو الخالق وحدَه، وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وغيرها من المخلوقات، فحينما خلق السماوات والأرض أين كان؟ هل كان في داخلها؟ أو كان في أسفل منها؟ تعالى الله وتقدس.

الله نزَّه نفسَه عن السُّفل، ولهذا أُمرنا أن نقول: «سبحان ربي الأعلى». **فإذًا**: لا بُدَّ أن يكون فوقَ؛ والفِطر واضحة وظاهرة في كون الإنسان إذا طلب من ربه وسأله أنه يجد من نفسه دافعًا يدفعه يطلب ربه من جهة العلو، ولهذا يرفع يديه.

وهذا أمرٌ شرعيٌّ أيضًا، كما جاء في الترمذي وغيره أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء (٢/ ٧٨) برقم (١٤٨٨)، والترمذي في سننه، في أبواب الدعوات (٥/ ٥٥٦) برقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه في سننه، =

فرفعُ الأيدي من أسباب الإجابة؛ وهي تُرفع، وليس كما يفعله بعضُ الناس يفتح يديه فقط، أو يُباعد بينهما وما أشبه، كأنه يُريد أن يمسك شيئًا أو يلمُّ إلى نفسه شيئًا. فالسُّنَّة هي رفعُ اليدين إلى الله، وهذا من أسباب إجابة الدُّعاء، كما في هذا الحديث: «**إنَّ اللهَ حييٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا**»، يعني: بلا عطاء أو بلا إجابة.

فالمقصود: أن «العلوّ» غير «الاستواء»، فـ«الاستواء» ثبت بالنصوص، أما «العلو» فهو ثابتٌ بالعقل والنص والفطرة، فهو لا يُماثله.

قوله: «**صِفَةً خَبَرِيَّةً**». الصفة الخبرية، ـ كما سبق ـ ما ثبت بالخبر، فيكفينا هذا. وبعض الناس يعيب هذا المصطلح فيقول: (الصفات الاختيارية لم تأتِ في كتاب الله)، ولكن مقصود المؤلف بها: الصفات التي يفعلها بمشيئته[1]؛ مثل «الاستواء»، و«النزول»، و«المجيء»، و«الخلق»، و«الرِّزق»، و«الإحياء»، و«الإماتة»، وما أشبه ذلك؛ فهذا لا مشاحة فيه، لأنه اصطلاح، فالخبرية: التي يخبر بها عن نفسه.

* * *

= في كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء (٢/ ١٢٧١) برقم (٣٨٦٥)، وأحمد في مسنده (٣٩/ ١١٩) برقم (٢٣٧١٤)، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٧ ـ ٢٢٤)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٣٠)، والحسنة والسيئة (ص١٠٤)، والنبوات (ص٣٥٧).

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ يَقُولُونَ: أَنَّ مَا يُثْبِتُونَهُ لَا يُنَافِي الْجِسْمَ، كَمَا يَقُولُونَهُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ».

الشَّرح

الكلام على «الجسم» - كما سبق - كلامٌ باطِلٌ، وكلامٌ بدعِيٌّ؛ فالله ﷻ لم يثبت لنفسه أنَّه جسمٌ، ولم ينفِ عن نفسه أنَّه جسمٌ، فيجب أن نسكت عن هذا.

فإذا قال: (إنه ليس جسمًا)، نقول: (كلامك باطل)؛ وإذا قال: (إنه جسم)، نقول أيضًا: (كلامك باطل)؛ لأن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه في النفي والإثبات، فلم ينفه عن نفسه هذا ولم يُثبته، فإثباته أو نفيه كلاهما باطِلٌ؛ وهذا هو الأصل، وهو الأساس في مثل هذا. أما الجري مع هؤلاء ومجاراتهم في كلامهم وفي تشقيقاتهم وفي مجادلاتهم فهي لا تُجدي شيئًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْعَاقِلُ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ الْأَمْرَ فِيمَا نَفَوْهُ كَالْأَمْرِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ لَا فَرْقَ».

الشرح

هذا من حيث العقل، لكن الدليل يجب أن يكون معتمدًا على قول الله وقول رسوله ﷺ، وكلٌّ كلامهم مخالفٌ لذلك فلا يَثبُت. والأمر إذا احتمل حقًّا وباطلًا، نتوقف فيه، فلا نُثبته ولا ننفيه؛ ويجوز أن تستوضح الأمر مِمَّن يقوله؛ فإذا تبين أنه يُريد باطلًا ردّ كلامه لفظًا ومعنًى، وإن تبين أنه يُريد حقًّا، فالحقُّ يُثبت ولكن يجب أن يُعبر عنه بالعبارات الشرعية التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ يسْتَلْزِم لِلتَّجْسِيمِ، وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ، وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا تَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى، وَتَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ، وَتَارَةً بِمَنْعِ كُلٍّ مِنَ الْمُقَدِّمَتَيْنِ وَتَارَةً بالاستفصال».

الشَّرح

يعني: أنَّ هذا لا يجوز قبوله مُطلقًا، بل لا بُدَّ أن يُفصَّل فيه، أو يرد جملة.

قوله: «وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ على أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ يسْتَلْزِم التَّجْسِيمِ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ»، يَقُولُون: ما نُشاهده من الأشياء والأجسام تقوم بالعرض ـ والصفات أعراض على حسب اصطلاحهم ـ؛ وإذا أثبتناها صارت الأجسام مُتماثلة = وهذا كله باطِلٌ؛ فالصفات لا تستلزم التَّجسيم، ثُمَّ التَّجسيم ماذا يُراد به؟ فهو لفظ مُجمل، وقد اختلفوا في تفسيره اختلافًا كثيرًا ـ كما تقدم ـ.

قوله: «وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا...»، يعني: حسب كلام المتكلم به في هذا؛ لأنه قد يقصد حقًّا فيستفصل منه، ويثبت الحقَّ ويرد الباطل. أما إذا كان معلومًا أنه مبطلٌ فيرد جميعُ قوله، فلا نقبل من قوله شيئًا؛ لأنها بدعٌ وضلالات، وأمور جئت بها من فكرك وعقلك وقياسك الفاسد.

وأصل هذا: أنكم تقيسون ربَّ العالمين على أنفسكم، فلا نقبل ما تقولون، ونكتفي بما قاله لنا ربُّنا وأخبر به رسولُنا ﷺ، وهذا هو الذي لا ريب فيه ولا شكَّ أنه الملجأ، وهو الطريق الصحيح، وما عدا ذلك فكله ضلالٌ.

أما «**الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى**» فيقولون: (إنه يستلزم التجسيم)، فنقول: لا يستلزم التجسيم، وإن كنتم تريدون بـ«التجسيم» أنَّ اليد والوجه وما أشبه ذلك جسمٌ، فهذا اصطلاحكم أنتم، ونحن لا نسمي هذه أجسامًا، وإنما نسميها كما سمَّاها ربُّنا ﷻ.

وأما «**الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ**»، وهي «أن الأجسام متماثلةٌ»، فما كان جسمًا فإنه يستلزم المماثلة، فهذا أيضًا يجب أن يُمنع؛ لأن الأجسام غيرُ متماثلة، فهي متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، فكِلَا المقدِّمتينِ ضلالٌ.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ مِن أصلِ أهل الضَّلال المتكلمين الذين اختلفوا في ربهم، فلم يعرفوه، وصاروا يصفونه بأوصاف يتنزه منها = أنهم بَنَوا هذا على أوهام، اعتقدوا أنها أصولٌ، وهي في الواقع ضلالاتٌ.

فقولُهم: (إنَّ الأجسام متماثلةٌ، وما جاز على واحدٍ منها جاز على الآخر)، **يقول المؤلف في الجواب**: إن الذين يثبتون الصفات، يعني: يتبعون الكتاب والسنة يجيبون هؤلاء بمنع المقدمة الأولى؛ وهي أن الصفات لا تدلُّ على الجسم، ليس كل متصفٍ بالصفة يكون جسمًا، أو بمنع المقدمة الثانية؛ وهي أن الأجسام ليست متماثلة، أو بالمنع جميعًا؛ وهذا هو الحق يمنع هذا وهذا؛ لأنَّ الله ﷻ لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وقد أخبرنا ﷻ أنه ليس كمثله شيء؛ وهذا مطلق في المماثلة، بخلاف التشبيه البعيد الذي يكون في الكلام قبل الإضافة والتخصيص، فإن هذا لا بُدَّ منه.

أما الاستفصال، فهو أنهم يسألونه: ماذا تريدون بـ«الجسم»؟ فإن بيَّنوا أمرًا محظورًا رُدَّ ذلك الأمر وقيل: (يجب أن تتبعوا الحق بالألفاظ الصحيحة)؛ ومثلُ ذلك: «الحَيِّز»، و«الجهة»، وما أشبه ذلك.

فالصحيح: منعُ المقدمتين كليهما؛ لأن الأجسام ليست متماثلةً، والله ﷻ لا يوصف بأنه جسمٌ، وإنما يوصف بما وصف به نفسه، فكلُّ هذا الكلام يكون مردودًا على قائله.

فنحن لا نَصِفُ ربَّنا ﷻ إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، وليس في صفاته شيءٌ مما يماثل الأجسامَ التي يجعلونها هي الأصل، حيث قاسوا رب العالمين عليها، فأبطلوا أوصافه التي تعرَّف بها إلى عباده، ولا شكَّ أن هذا عكس ما قاله الله ﷻ، وعكس ما جاء به الرسول ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ قَوْلٌ بَاطِلٌ، سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إِلَيْهِ، أَوْ بِالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْمَوْجُودِ، أَوْ بِالْمُرَكَّبِ مِنَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمَّا إِذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَى أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فَهَذَا يُبْنَى عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ، وَعَلَى إِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَعَلَى أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ، وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي ذَلِكَ».

الشَّرح

أي: يفسِّرون الجسم بما ذكر هنا، أحيانًا يفسرونه بأنه «الذي تصح الإشارة إليه»، وأحيانًا يفسرونه بأنه «ما كان في مكان»، أو «ما قام به غيره»، أو «ما قيل: أنه هنا وهناك»، أو «أنه المركب من الهيولى والصورة».

قوله: «**الْهَيُولَى**»، هذه كلمة يونانية، وهو الشكل الذي يتصف به؛ فمثلًا: البقرةُ غيرُ الشَّاة، والشَّاةُ غيرُ الظَّبي، فمجموعُ التركيبة: ـ الشَّكل مع الصورة ـ والهيئة الحاصلة منهما هو الهيولى، فكُلٌّ له صورةٌ، وكلٌّ له هيولَى عنده. وهم جعلوا الهيولى غيرُ الصُّورة، فهي حالةٌ يكون فيها نفس الجسم، وهو أمور تخيلوها، وقد لا تُعقل.

قوله: «**والصُّورة**»؛ أي: التي يتصور بها كلُّ مخلوقٍ؛ وهذا لا يجوز أن نقوله في حقِّ الله ﷻ، فالله ﷻ أحدٌ فردٌ ليس كمثله شيء.

قوله: «**وَنَحْوِ ذَلِكَ**» ممَّا يذكرونه؛ لأنهم لا يثبتون على شيءٍ؛ حيث جعلوا المرجع في ذلك على الأفكار والعقول، فكلٌّ يأتي بفكرٍ يخالِفُ الآخر؛ ولهذا اختلفوا اختلافًا كبيرًا في ربهم ﷻ.

والله ﷻ لا يجوز أن يقال فيه: إنه مركَّبٌ من الجواهر المفردة، ولا من الأعراض، ولا من غيرها.

قوله: «**الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ**»: فسروه بالمركَّب، أي: الجسم، وكل ذلك بناء على أن الأصل عندهم أنفسُهم. وكل كلامهم في الجسم باطل. ولكن هل رب

العالمين ﷻ يجوز أن يقال: إنه جسم؟ لا يجوز أن نصفه إلا بما وصف به نفسه. أما إثبات «الجواهر المفردة» أو «الجوهر» أو «العرَض» فكلها باطلة؛ لأن هذه في المخلوقات، فالموجود المشاهَد لا يخلو إما أن يكون جوهرًا أو عرضًا.

يقولون في «**الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَة**»: (إن الشيء ينتهي إلى جزء لا يتجزأ)، أي: أن الأجزاء لا تنتهي حتى تضمحلَّ وتنتهي، بل تصل إلى جزء لا يقبل التجزئة، وهو الذي يسمونه «الجوهر المفرد»، وكلُّها ظنونٌ مبنيَّةٌ على الحدْس والتَّخمين، ثُمَّ النَّاس في غُنْيَةٍ عن هذا.

والآن في عصرنا قد تبين أنه لا يوجد «جوهر فرد»، وأن هذا باطِلٌ، فالآن صارت الذرة تُفتت إلى ما له نهاية، فأصبح أن قَوْلهم: (أن الْجَوهر مُفْرَدٌ) أنَّه باطلٌ لا حقيقة له، فليست مُتَمَاثِلَةً، وليس هناك جوهرٌ مُفردٌ، بل الْجَوَاهِرُ مُختلفةٌ جِدًّا؛ فكلُّ هذا الكلام باطلٌ وهو مُركَّبٌ كلُّه من ظنونٍ وحدوثٍ دلَّت على الضلال البعيد.

قوله: «**وَعَلَى إِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَعَلَى أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ...**» هم مختلفون في إثبات «الجواهر المفردة»: هل هي توجد، أو لا توجد؟ ومعنى «**الجوهر المفرد**»؛ أي: أنه ينتهي إلى جزء لا يتجزأ، وهذا قد بطل الآن بتفتيت الذرة، فأصبح هذا الكلام غيرَ معتبرٍ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ التَّشْبِيهَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ تَجْسِيمًا بِنَاءً عَلَى تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ، وَالْمُثْبِتُونَ يُنَازِعُونَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ النَّصْبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رضي الله عنه، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ ناصبي؛ وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى».

الشرح

والمقصود: أنَّهم يطلقون التشبيه على من يخالفهم في الشيء الذي يثبتونه بعقولهم وأفكارهم، والذي يعتقدون أنها أجسام؛ ولهذا اعتقدوا أن إثبات الصفات تجسيمٌ وتشبيهٌ، والعلماء قد أبطلوا هذا، وقالوا: (إن إثبات الصِّفات ليس تجسيمًا، ولا تشبيهًا، وإنما هو توحيدٌ وإيمانٌ بالله ﷻ).

وهذا مثل ما سبق أنَّ التَّشبيه أمرٌ نسبيٌّ؛ فكل من خالف في شيء، ثم جاء مخالفه وأثبت ذلك الذي اعتقد أنه تشبيه سماه مشبهًا؛ ولهذا تجد المعتزلة يسمون الأشاعرة مشبهة؛ لأنهم يثبتون بعض الصفات، والأشاعرة كذلك يجعلون الذي يثبت اليدين، والاستواء، والعلو، جعلوه مشبهًا، وهكذا.

فالتشبيه لا ضابط له عند هؤلاء، وإنما هو على حسب عقائدهم، مع أنَّ التَّشبيه لم يأت نفيُه ولا إثباتُه في كلامِ الله ﷻ، وإنَّما جاءَ نفيُ المماثلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ لأنَّ التَّشبيه فيه إجمالٌ، وفيه عمومٌ؛ ولهذا لمَّا قال أهلُ الباطل من المعتزلة ممن عذبوا الإمام أحمد: (لا نتركك حتى تقول: إن الله لا يشبهه شيء بوجه من الوجوه)، أبى أن يقول هذا؛ لأنه يعرف أنهم يريدون بذلك نفي الصفات؛ لأنَّ عندهم: من أثبت السمع صار مشبِّهًا، ومن أثبت الكلام لله صار مشبِّهًا، ومن أثبت المحبة والرضا صار مشبِّهًا...، وهلم جرا.

فإثبات الصفات عندهم تشبيهٌ، ومن أثبتها سموه مشبهًا، لكن هذه التسميات لا تغير من الواقع شيئًا، ولا تجدي شيئًا، فالكفار سَمَّوا رسولَ الله ﷺ شاعرًا،

ومجنونًا وصابئًا، وغير ذلك، وهكذا أهلُ الباطل: كلُّ من خالفهم في باطلهم رموه بالشيء الذي يعتقدونه.

قوله: «كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ النَّصْبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما»؛ لأنه لا ولاء عندهم إلا ببراء، فلا يتولى عليًّا إلا إذا تبرأ من أبي بكر وعمر والصحابة، وهذا ضلالٌ بيِّنٌ. ويفرقون بين الصحابة، ويجعلون عليًّا هو الذي يجب أن يُتولَّى، أما البقية فيزعمون أنهم كفروا وارتدوا بكتمان الحق وكتمان الوصية = وكلها دعاوى كاذبة لا حقيقة لها. ثم يبنون على ذلك معتقدهم فيقولون: (لا ولاء إلا ببراء، فلا تتولى أهل البيت حتى تتبرأ من الصحابة)!

فالرَّافضة يسمُّون ناصبيًّا مَن تولَّى أبا بكر وعمر والصَّحابةَ؛ لأن في عقيدتهم أنَّ الصحابة ظلموا عليًّا، واغتصبوا الحق منه.

والناصبي: هو الذي يبغض أهل البيت؛ ولهذا يُطلَق الناصبي على الذين كانوا يسبُّون عليًّا ويلعنونه فيما سبق؛ وهذا كان لأمر دنيوي وانتهى، ولا يجوز أن يُرمى الجماعات الكثيرة بفعل فردٍ، أو أفرادٍ معينة.

وأهل السنة ليسوا ناصبيين، لأنَّ الناصبي يبغض أهل البيت، أو هو الذي ينصب العداء لأهل البيت أو لبعضهم أو لبعض الصحابة، مثل الخوارج، وبعض المعتزلة، وكل أصحاب الباطل يبنون مذاهبهم على أصول باطلة.

قوله: «...بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رضي الله عنه، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ ناصبي..». هذا أصلُ التَّفرقة بين الصَّحَابَة؛ لأنهم فرَّقوا بين علي وبين الصَّحَابَة؛ فقَالُوا: هؤلاء الصَّحَابَة أعداءُ علي، فأشدهم عداوةً أبو بكر الذي صار خليفةً؛ والخلافة كان يجب أن تكون لعلي، ثُمَّ تلاه عمر الذي صار خليفةً بعد أبي بكر، ثم كذلك عُثمان، ولهذا يلعنون الثلاثةَ، وأَحْيَانًا يلعنون أبا بكرٍ وعمر وغيرَهما.

ويجعلون عليًّا الوصيَّ، حيث يزعمون أن الرسول وصى بالخلافة إليه، فكل مذهبهم مبنيٌّ على الكذب والباطل، ثُمَّ صاروا يُفرِّعون على هذا أنَّ الصَّحَابَة كلَّهم ضُلَّالٌ أو كلهم كفرة؛ لأنهم كتموا الحق وغصبوا أهل البيت حقَّهم = فهذا مذهبهم.

قوله: «وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى». وفي كلِّ مذهبهم؛ لأنَّ مذهبهم كلَّه باطِلٌ؛ ولكن قصده بهذا حُبُّ أهل البيت؛ فإنَّ أهل السُّنَّة لا يُنَازِعُونَهُم فِي هذا؛ لأنَّ حُبَّ أهل البيت واجبٌ ودينٌ يُدَانُ به، ولكن هل هم يُحبون أهل البيت؟!

هم كَذبَةٌ، إنَّما هي دعوى أرادوا بها أن يُفسدوا دين الإِسْلَام؛ فما وجدوا أقرب من أنهم يتولون أهل البيت بالدعوة ويرمون الإِسْلَام من ورائه؛ وإلا فهم كذبوا عليهم وشوَّهوا سيرتهم بالكذب والأمور الَّتِي وضعوها عليها.

ولا يلزم من تولي عليٍّ معاداةُ أبي بكر وعمر، بل هم إخوةٌ ـ بعضهم من بعض ـ، والله ﷻ أخبر بأنه قد رضي عنهم ورضوا عنه، وأنَّ بعضهم يُؤثِرُ أخاه على نفسه.

هذه أفكار المتكلمين، فكلٌّ واحدٍ يأتي بفكرٍ ويعارضه الآخر فيبطل ما قاله، وقد يتَّفقون على شيء ممَّا لم يأتِ به كتابُ الله ولا سُنَّةُ رسوله ﷺ، ثم يجعلون هو الأصل، ويرمون من خالفه بالضلال والتشبيه.

وكل هذه الأمور التي ذكرها المؤلف تؤول حول نفي الصفات نفيًا لا حقيقةَ له في الواقع، وعمدتهم هذه الأفكار فقط.

والمسلم قد أغناه الله ﷻ عن هذا، ولهذا كان السلف ينهون عن الدخول في علم الكلام، ويقولون: (إنه ضلالٌ، والدخول فيه أو النظر فيه قد ينقش في القلب شيئًا من الاشتباه والشك، فالسلامة منه أسلمُ؛ فمن كان عنده معرفةٌ لما قاله الله ورسولُه؛ فإنَّه سيعلم أنَّه باطِلٌ، ومعلومٌ أنَّ التَّحرُّز من الباطل أمرٌ مطلوبٌ).

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَلِهَذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الشَّيْئَيْنِ لَا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهٍ، وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا فِيهِ حُجَجَ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَحُجَجَ مَنْ نَفَى ذَلِكَ، وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِهَا».

الشَّرح

قوله: «وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» في كتابه «درء التعارض»[1]، بَسَط هذه الأقوال وبيَّنها، وفي غيره من رسائله.

ولكن أقول: لا خيرَ لطالب العلم في النظر في هذه الأقوال؛ لأنها لا تؤدي إلا إلى شكوكٍ، وقد لا يتخلص الإنسان من شكوكهم التي يلقونها، فالأولى ألا ينظر فيها، وإنما يكون نظره في تفهُّم ما قاله الله وقاله الرَّسول ﷺ في أوصاف ربِّ العالمين.

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٥٤) (٥/ ١٨٨ ـ ١٩٢).

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَأَيْضًا، فَالِاعْتِمَادُ بِهَذَا الطَّرِيقِ عَلَى نَفْيِ التَّشْبِيهِ اعْتِمَادٌ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ تَمَاثُلَ الْأَجْسَامِ فَهُمْ لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحُجَّةِ الَّتِي يَنْفُونَ بِهَا الْجِسْمَ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمَ، وَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْجِسْمِ، كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ».

الشَّرح

يعني: أن هذا على حسب ما يقولونه؛ وإذا بطل قولهم: (أن الأجسام متماثلة)، بطل قولهم: (إن هذا يقتضي التشبيه).

وهذا مثال؛ وإلا فهذا يلزم في كل ما قعّدوه وقالوه، والحقيقة: أنَّ قواعدهم كلها باطلةٌ إلا ما وافق الكتاب والسُّنَّة، وهو قليلٌ. والمشكلة لَبس الحق بالباطل؛ فإنَّهم يلبسون على من لم يعرف مقصودهم؛ ولهذا تجدهم يقولون: (إن الله منزه عن الأغراض، والأعراض والأبعاض)؛ فالذي لا يفهم مراده ولا يفهم اصطلاحه يظن أنه تنزيهٌ، بينما وقصدهم بـ(الأغراض): أنَّ الله لا يفعل لحكمةٍ، وبـ(الأبعاض): أن الله ليس له وجه، وليس له يد، وليس له رجل، وبـ(الأعراض): أن الله ليس له سمع، وليس له بصر، وليس له علم.

فهم يأتون بالأمور المجملة على باطلهم؛ والذي لا يعرف مرادهم قد يتوهم أنهم يريدون حقًّا، وقد ينطلي عليه بعضُ كلامهم؛ فلهذا لا بُدَّ من بيان ذلك لطالب العلم الذي قد يقرأ كتب هؤلاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«لَا يَحْتَاجُ نَفْيُ ذَلِكَ إِلَى نَفْيِ مُسَمَّى «التَّشْبِيهِ»، لَكِنَّ نَفْيَ الجسم يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى نَفْيِ هَذَا التَّشْبِيهِ».

الشرح

يقال: مصطلح «**الجسم**» من أين أتى؟ هل جاء في كتابٍ أو سُنَّةٍ أنَّ الله ليس بجسم، أو أن الله جسمٌ؟ هذا لا وجود له، وإنما هو أمرٌ مخترعٌ؛ فلماذا نشتغل معهم في ذلك؟! نقول: (إنَّ الله ليس كمثله شيء) ويكفينا؛ لأنهم إذا قيل لهم: حددوا «الجسم»، فلا يستطيعون تحديده، وكل فريق منهم يحدده بشيء؛ فمنهم من يقول: (الجسم: ما صحت الإشارة إليه)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما صح أن يكون في مكان)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما قام بنفسه)، ومنهم من يقول: (الجسم: ما كان مركبًا من الجواهر، أو من غيرها).

فهم لا يتَّفقون على شيءٍ، وكثرةُ الاختلاف دليلٌ على الباطل، هذا في النظر إلى كلامهم؛ وإلا فالله ﷻ لا يجوز أن يوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ.

وسبق السبب في هذا: أنَّ الله غيبٌ لا يطلع عليه أحدٌ، وأنه ﷻ ليس له مثيل فيقاس عليه، فأصبح الأمر متعيّنًا أن يكون بالخبر الذي يأتينا عن ربنا ﷻ، فهو يتعرف إلى عباده بما يُعرِّفهم من صفاته، وأسمائه، وأفعاله؛ فالذي لا يتبع هذا لا بُدَّ أن يَضِلَّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«بِأَنْ يُقَالَ: لَوْ ثَبَتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ جِسْمًا، ثُمَّ يُقَالُ: وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ، فَيَجِبُ اشْتِرَاكُهَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ».

الشَّرْح

سبق أنَّ هذا كلَّه باطلٌ؛ من تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ، وبيَّنَّا أنَّ الصفات لا يلزم لها أن تقوم بالجسم، فاللهُ ﷻ تقوم به الصفات ولا يُسمى جسمًا، وإنما يُسمى بما سمى به نفسَه أو سمَّتْه به رُسُلُه.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يقرر هذه الأشياء بالتكرار وبالتمثيل، حتى يبطل كلامهم من كل وجه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«لَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مُعْتَمِدًا فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ، فَيَكُونُ أَصْلُ نَفْيِهِ نَفْيُ الْجِسْمِ؛ وَهَذَا مَسْلَكٌ آخَرُ سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى».

الشَّرح

وهذا المسلك باطلٌ أيضًا، والأول كذلك مسلكٌ باطل، والمؤلف أورد الكلام لأجل رَدِّهِ.

وليس إيراد المؤلف له لتقريره، أو أنَّ فيه شيئًا من الحقِّ، بل كلُّه باطِلٌ؛ لأنه بني على أفكار ليس لها أصل من الوحي، والله ﷻ لا يماثله شيء.

وهم يقولون: (إن الله ليس بجسم)، فإذا كان عندهم ليس بجسم، لا يكون له وجهٌ، ولا يكون له يدانِ، ولا يكون له رِجلانِ، ولا يكون أيضًا له علم، ولا سمع، وبصر؛ لأنهم يقولون: (لا نرى إلا أنها تقوم بأجسام، ولا نعلم إلا هذا).

فكان الأصل هو التشبيه عندهم بأنفسهم، فبنوا النفي الذي نفوا به ما ذكره الله عن نفسه، وما ذكره الرسول ﷺ على هذا الأساس، فيكون كله باطل.

المقصود: أن هذا مسلك الأشاعرة الذين سلكوا هذا الطريق؛ لأنهم نفوا الصفات بناء على أنها تدل على التجسيم، ولهذا يسمون من أثبت الصفات مجسمًا، ثم أهل السنة لا يوافقونهم لا في الأصل ولا في الفرع.

أولًا: أن الله ﷻ لا يجوز أن نقول: «جسم»، ولا يجوز أن يوصف إلا بما وصف به نفسه.

الثاني: أنه لو قيل: (إنه جسم)، فيجب أن يُستوضح؛ يقال: ما مرادكم بالجسم؟ فإذا كان المراد بـ«الجسم»: أنه الشيء الذي يقوم بنفسه، فالله أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، والله مستوٍ على عرشه، ولكن لا يجوز أن يطلق عليه أنه جسم - تعالى وتقدس -؛ لأنه لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، فيكون نفس البناء باطلًا، وإذا كان الأصل باطلًا فالتفريع كذلك باطل.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِمَادِ فِي نَفْيِ مَا يُنْفَى عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَا يُفِيدُ، إِذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ، بِخِلَافِ الِاعْتِمَادِ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وتعالى مُقَدَّسٌ عَنْهُ، فَإِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ صَحِيحَةٌ».

الشَّرح

يعني: أن القاعدة التي ذكرها سابقًا، وقال فيها: (إنَّ الاعتماد على نفي التشبيه المطلق أو الإثبات المطلق باطلٌ).

والمقصود: أنَّ الطريقة الصَّحيحة: اتباعُ ما قاله الله واتباع ما قاله الرسول ﷺ؛ فإن فيهما إثبات الصفات على الوجه الأكمل والأحسن، الذي لا يتطرق إليه عيبٌ ولا نقصٌ.

وكذلك إذا نفى ـ تعالى وتقدس ـ عن نفسه شيئًا، فهو نفي النَّاقصات، وإثبات الكمال أيضًا، كما سبق أنَّ النفي الخالص المحض لا يكون في صفات الله، كما أنَّ مجرد الإثبات لا يكون كذلك.

ولكن أهل السنة لا يقولون بهذا ولا هذا، وإنما يقولون: إنا نتبع ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ وفيه الهدى؛ فإثبات الصفات لله ﷻ يدل على الكمال، وله الكمال المطلق، وإذا نُفي عنه شيء فهو نفيٌ للنقص وإثباتٌ الكمال.

وأهل الكلام لا ضابِطَ لـ«التشبيه» عندهم كما هو معروفٌ، فإذا أثبت شيئًا قال: (إن هذا لا يقوم إلا بجسم، وإذا أثبتَّ «الجسم» لزمك أن تكون كافرًا مجسِّمًا، لأنَّك جسمت الله ﷻ)، بخلاف إثبات الكمال لله ﷻ ونفي النقص؛ فإنَّ هذا هو الذي يجب لله ﷻ، فله الكمال من كلِّ وجه، وينتفي عنه كلُّ نقص يتصف به المخلوق، ويتعالى ويتقدس عنه، هذا من ناحية الجملة؛ وبالتفصيل لا يجوز أن نثبت شيئًا إلا ما ثبت لله ﷻ في الكتاب، أو صحَّ عن رسول الله ﷺ؛ فإنَّ الله ﷻ تعرَّف إلى عباده بأوصافه وأسمائه، وبأفعاله التي أظهرها لهم، وشاهدوها، فعرفوا

ربهم بذلك، وهذه هي المعرفة الصحيحة؛ أما هؤلاء فهم مرتابون، لا يعرفون ربهم، بل يختلفون فيه، فكلٌّ فريق يثبت شيئًا، وينفي ما أثبته الآخر، فدلَّ هذا على أنهم على باطلٍ.

قوله: «**إِذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا ويَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ**»، فَيشْتَبِهَانِ في الوجود وما أشبه ذلك، وهذا لا يدل على التمثيل؛ فالله موجود والمخلوق موجود؛ فاللهُ ﷻ ليس كمثلِه شيء، والمخلوق ضعيفٌ سُبق بالعدم ويلحقه العدم كما هُوَ معروفٌ، والمخلوق يُطلق على جميع المخلوقات، فكذلك يختلفان مِنْ وَجْه اختلاف الخصائص.

قوله: «**وَنَحْوِ ذَلِكَ**»، يعني: من إثبات الكمال؛ لأن الكمال المطلق لا يكون إلا الله ﷻ، وبعض الناس إذا أثبت لله صفات الكمال يقول: هذا تشبيه، فهؤلاء لا ينظر إليهم.

❃ ❃ ❃

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ إِذَا أَثْبَتَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَفَى مُمَاثَلَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا، فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ: وَهُوَ أَنْ لَا يَشْرَكَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ. وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَى وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الصِّفَاتِ، وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ».

الشرح

قوله: «وَكَذَلِك إِذَا أَثْبَتَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَفَى مُمَاثَلَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا، فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ...». هذا الواجب؛ فإذا أثبت له صفات الكمال ونُفي عنه مُماثلة غيره من المخلوقات، فهذا الكمال الذي يجب لله ﷻ، فهو الذي يكون توحيدًا.

أما كونك تنفي الصفات وتقول: (إنك إذَا أثبتَّ الصفات كُنت مُشبهًا)، فهذا باطِلٌ، ولا يُسمى ذلك علمًا ولا توحيدًا؛ بل يُسمى جهلًا وضلالًا وتعطيلًا لله ﷻ.

والتوحيد في أسماء الله وصفاته أن تكون خاصة به لا يشاركه فيها مخلوق، كما أن التوحيد في العبادة أن يكون خالصًا له، ليس لأحد منها نصيب. أما هؤلاء المتكلمون فقد وقعوا في الشرك، فالشرك لا يفارقهم؛ لأنهم تصوروا أشياء باطلة فوصفوا الله ﷻ بها، ونفوا عنه الصفات. فلا يخلو إما أن يجعلوه مماثلًا للمخلوقات، وإما أن يجعلوه مماثلًا للمعدومات أو الناقصات، وكل هذا شركٌ. فهم يفرُّون من الحق ويقعون في الباطل، وهذا جزاء من يترك كلام الله وكلام رسوله ويتبع الآراء والأفكار.

قوله: «إِثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الصِّفَاتِ، وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ». هذا فِي الجُملة، وهذا مذهب أهل السُّنَّة في الجُملَة. وهو الضابط الذي يجب أن نعتمده؛ فلا نصف الله ﷻ إلا بما وصف به نفسَه، وأن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، ولو وافق الاسم الاسم، أو المعنى المعنى من بعيد.

مثل اليد؛ فالإنسان له يدٌ والله ﷻ له يدٌ، واليد معلومة لنا؛ ومثل السمع والبصر؛ فالإنسان له سمعٌ وبصرٌ، والله ﷻ له سمع وبصر، وهذا الاشتراك في اللفظ والمعنى يزول عند الإضافة والتخصيص، والتخصيص بأن تقول: هذه صفة الله؛ فهذا وصف يخصه ﷻ.

ثم التوحيد ألَّا يكون له مماثِلٌ؛ لا في أوصافه، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في حقه الذي أوجبه على عباده، وبناءً على ذلك لا شريك له لا في ذاته، فلا يكون معه إله، ولا في صفاته وأسمائه، ولا في خلقه وأفعاله، فهو متوحِّدٌ في هذا كله. واعتقادُه أنَّه واحد في ذلك، ثم دعاؤه وحده، وعبادته وحده = هو التوحيد الذي جاءت به الرسل.

فالذين نفوا عنه الصفات وقعوا في الشرك؛ لأنهم اعتقدوا أن المخلوقات تشابهه وتماثِلُه، فصاروا ينفون ذلك، ولهذا يقول: إنهم لا ينفكون عن الشرك، فهو ملازِمٌ لهم دائمًا؛ لأنَّ التوحيد يجب أن يكون في عبادة الله، وفي صفاته، وأسمائه؛ فلا يكون فيها شركٌ. فمن أشرك في صفاته وحقوقه وما يلزم له؛ فإنه في شركٍ عظيم وهو شركٌ في الربوبية، والشِّرك في الربوبية أعظمُ من شرك الإلهية، نسأل اللهَ العافية.

الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة: أنَّ له الكمال المطلق في كلِّ صفة يتَّصف الله ﷻ بها؛ سواءٌ كانت إثباتًا أو نفيًا؛ لأنَّ النفي في صفات الله ﷻ لا يأتي نفيًا محضًا خالصًا، بل لا بُدَّ أن يكون في النفي إثبات ضده، وإلا لم يكن فيه كمالٌ ولا مدحٌ.

مثال ذلك: قول الله ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فهذا نفيُ الظلم عن الله ﷻ، وفي نفي الظلم إثباتُ كمال العدل، وهكذا يقال في كلِّ ما جاء في النفي في حق الله ـ تعالى ـ، وهذا يدلُّ على الكمال.

وأما صفات الإثبات فهي مثل قوله: «الصمد»، «الأحد»، «الحي»، «القيوم»، وما أشبه ذلك؛ فيدخل فيها الكمال المطلق؛ فـ «الحي» الذي له الحياة الكاملة، التي تستلزم جميع ما يكون للحي من أوصاف وأفعال وغيرها، وكذلك «القيوم» القائم بنفسه المقيم لغيره، وكل شيء لا قيام له إلا به. وهكذا يقال في جميع صفاته، فله الكمال المطلق في كل صفةٍ واسمٍ من أسمائه، بخلاف ما يقوله أهل الباطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَوَجَبَ لَهُ مَا وَجَبَ لَهُ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ مَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ.

قِيلَ: هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ مَا يَمْتَنِعُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وتعالى، وَلَا نَفْيُ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا؛ كَمَا إِذَا قِيلَ: إِنَّهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَقَدْ سُمِّيَ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ حَيًّا سَمْعِيًّا عَلِيمًا بَصِيرًا، فَإِذَا قِيلَ: يَلْزَمُ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا. قِيلَ: لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَى الرَّبِّ تَعَالَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي حُدُوثًا، وَلَا إِمْكَانًا، وَلَا نَقْصًا، وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُنَافِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ».

الشَّرح

هذا قد سبق؛ فقد تقدم فِي أول الكتاب: أنه ﷻ سمى نفسه عليمًا وسمى المخلوق عليمًا، وهذا لا يقتضي التشبيه؛ لأن العليم غير العليم والقدير غير القدير؛ فإنه إذَا أُضيف الاسم أو الصفة أو خُصَّ به = زال هذا الاشتراك.

ولا نفهم ما خوطبنا إلا بهذا الاشتراك البعيد الذي يكون بين الشيئين؛ فلو لم يكن عندنا شيء اسمه وجه أو اسمه يَدٌ فيُخبرنا ربُّنا ﷻ أنَّ له وجهًا ويدًا = لم نفهم الخطاب، وإنما فهمناه لمَّا عرفنا مُسمَّى «الوجه» عندنا غير مُسمى اليد، فهذا لا يدلُّ على الاشتراك ولا التمثيل.

المقصود: أنَّ هذا تقدَّم في ذكر الأمثلة السابقة، كونه سمى نفسه عليمًا وسمى بعض خلقه عليمًا، فالاشتراك في التسمية وفي المعنى البعيد هذا لا يضرُّ، وهذا لا بدَّ منه، فليس معقولًا إذا قلنا: (إن الله موجودٌ والمخلوق موجودٌ) أن بينهم تشابهًا، إنما التشابه من كونه أُطلق على المخلوق موجود، وكذلك أُطلق على الله موجود، وهذا لا يضرُّ؛ لأن وجود الله يخصه كما سبق، ووجود المخلوق يخصُّه، والله

لا يشارك المخلوق في وجوده، كما أنه لا يشاركه في أوصافه، وما هي خصائصه، وكذلك المخلوق لا يشارِكُ الله في شيء من ذلك، فالتشبيه معناه أن يُجعل له شيء من خصائص المخلوقين، هذا هو التشبيه.

مثلًا: إذا قلت: (إن الله موجود، والمخلوق موجود)، فهل يقتضي هذا مماثلة بوجه من الوجوه؟! كلا، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فـ «الشيء» يطلق على كلِّ ما هو معقولٌ ومحسوسٌ، ومع ذلك ليس في هذا مشابهةٌ، فكيف إذا كانت الصفاتُ خصائصَ؟! ومعنى خصائص: أنه يختص بها.

فالتشقيقات والفرَضيَّات التي تفرض من هؤلاء ليست مقبولةً، ولا تدل على الحق، ولا تدل على نفي نقصٍ عن الله ﷻ؛ لأن كلها جاءت من ناقصين في عقولهم وفي أفكارهم، حيث أرادوا أن يصفوا الله ﷻ بالشيء الذي يخترعونه هم، وينفون عنه ما وصف به نفسه؛ فمن أثبت الإثبات الصحيح الظاهر يسمونه مشبِّهًا، حتى تجرأ بعضهم، وقال: (إن الأنبياء فيهم أربعة مشبهة)، كيف يصدر مثل هذا القول من مسلم يخاف الله ﷻ ويؤمن به ويؤمن بكتابه؟! وهؤلاء قصدوا بهم أولوا العزم، كما أخبر الله ﷻ عن «عيسى» قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ ومثل «موسى» حينما قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: طلب من ربه الرؤية، فيقول هذا المتجرئ: (كيف يطلب الرؤية؟)، لأن عندهم: الله لا يُرى. ومثل «محمد» ﷺ الذي قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا**»[(١)]، فسموا هذا تشبيهًا.

قوله: «فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ...»، فالجواب: أنَّ هذا غيرُ صحيح؛ فما من شيء إلا ويشبه الشيء الآخر من وجه - إما في الوجود، أو في الحياة، أو في كونه قائمًا بنفسه - ولو كان حجرًا، ولو كان غيره.

فالمخلوق العاقل السميع البصير يشابه الحصاة؛ لأن كلَيْهما يشتركان في الوجود، ويشتركان في كونهم شغلوا مكانًا، فالكلام في مثل هذا هو من باب المجادلة بالباطل.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ»، يعني: هذا تنزُّلٌ معه حتى يتوصَّل إلى إبطال كلامه.

المقصود: أنَّ كلَّ واحدٍ له ما يخصُّه؛ فوجود الله يخصُّه، وسمعه يخصُّه، ووجودُ المخلوق يخصُّه لا يشاركه الخالق فيه، وكذلك علم المخلوق يخصُّه؛ لأن الله ﷻ لا يشاركه فيه، كما أن الإنسان لا يشارك ربَّ العالمين في شيء من ذلك. ونفي هذا القدر يقتضي الإلحاد المحض الخالص؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون الله عدمًا لا وجود له، وهذا الذي آل إليه قوله بعضُهم.

قوله: «لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَى الرَّبِّ تَعَالَى». معنى هذا الكلام: أن الذي يشترك فيه الخالق والمخلوق هو مجرد الاسم والمعنى البعيد، ومشترك هذا الشيء كليٌّ لا يوجد في الخارج، وإنما هو في الذهن، فإذا أضيف الاسم والصفة زال هذا الاشتراك ولا وجود له.

فإذا قلت: «سَمْع الله» و«بَصَرُ الله»، أو «سَمْع زيدٍ» و«بَصَرُ زيدٍ»، زال الاشتراك نهائيًّا، فليس بينهما اشتراكٌ لا في الاسم ولا في المسمَّى؛ أما اشتراك القدر الذي بينهما فهو لا وجود له إلا في التصور فقط لا في الخارج، والمقصود بـ«الخارج»: خارج الذهن والفكر، والتَّصوُّر يأتي فيه أشياء لا حقيقة لها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَذَلِكَ أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ هُوَ مُسَمَّى «الْوُجُودِ» أَوْ «الْمَوْجُودُ» أَوْ «الْحَيَاةُ» أَوْ «الْحَيُّ» أَوْ «الْعِلْمُ» أَوْ «الْعَلِيمُ» أَوْ «السَّمْعُ» أَوْ «الْبَصَرُ» أَوْ «السَّمِيعُ» أَوْ «الْبَصِيرُ» أَوْ «الْقُدْرَةُ» أَوْ «الْقَدِيرُ»، وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ لَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ، وَلَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْوَاجِبِ الْقَدِيمِ، فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدُهُمَا يَمْتَنِعُ اشْتِرَاكُهُمَا فِيهِ».

الشَّرح

هذا معناه أننا إذا قلنا: «السميع»، «البصير»، «العليم»، «القدير» دون أن نضيفه، أو نخصصه بأحد؛ فهذا لا حقيقة له، ولا وجود له إلا في الكلام فقط؛ فلا تجد شيئًا اسمه «سميع»؛ لا يقوم به السمع، «بصير» لا يقوم به البصر.

أما إذا جاء التخصيص، وجاءت الإضافة؛ فإن كلَّ واحدٍ يخصُّه ما أضيف له، وما تخصص به، فسمْعُ الله يخصُّه ويليق بعظمته، وسمع المخلوق يخصه ويليق بضعفه.

أما المطلق الكلي فهو عدمٌ لا وجود له، و«المطلق الكلي» أن تأتي بما ذكر بلا إضافة ولا تخصيص، تقول: «علم»، فهذا لا يدلُّ على عالم، ولا يدل على أنه قام بأحد، فلا وجود له، أو قلت: «سمع»، أو قلت: «وجود»، أو قلت: «الحياة»، أو ما أشبه ذلك.

فلا بُدَّ أن تكون الصفة مضافة، أو مخصصة بمن اختص بها، فإذا وُجدت الإضافة، ووجد التخصيص زال الاشتراك نهائيًّا، فيبطل هذا التقدير، ويبطل هذا الكلام.

المقصود: أنَّ كلَّ هذا تبيينٌ لما مضى، والكلام هذا كله تفريعٌ على القاعدة، بحيث يجب أن نفهم الخطاب الذي خوطبنا به ومراد المتكلم به.

ولكن هذا الكلام المطلق الكلي لا حقيقة له في الخارج، وإنما هو شيء

يفرضه الذهن، فإذا قلت: «موجودٌ»، «وموجود»: أن بينهما اشتراكا مطلقا دون تقييد، فهذا الذي يقولون أنَّ فيه الاشتراك وهو الوجود المطلق، يقال لهم: الوجود المطلق هذا لا حقيقة له ولا وجود له.

وإنما يكون له حقيقةٌ إذا قُيِّد وقيل: «وجود المخلوق» أو «وجود الخالق»، فعند ذلك زال الاشتراك، وهذا تقدم مرارًا، والمؤلف يكرره ليبطل كلامهم الذي يبنون عليه ويجعلون الأجسام متشابهة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ كَمَالٍ: كَالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا لَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ هَذَا مَحْذُورٌ أَصْلًا، بَلْ إِثْبَاتُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْوُجُودِ، فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ مِثْلِ هَذَا، وَمَنْ نَفْيِ هَذَا لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ».

الشَّرح

هذا قد سبق؛ ويَلْزَمُ من قولهم هذا والعمل به أن يكون الرب ﷻ لا وجود له أصلًا؛ لأنهم إذا قالوا: (إذا قامت الصفة بشيء يكون ذلك الشيء جسمًا، والأجسام متماثلة)، وهم يعتمدون على نفي التشبيه، وأن الله لا يشبهه شيء = فهذا باطلٌ؛ لأنه على هذا الأساس: لا يجوز أن يوصف بصفةٍ من الصفات، وهذا باطل، والباطل لا يقوم أمام الحقِّ.

تجد مثلًا: لو قرأت كتب هؤلاء من أولها إلى آخرها لا تجد فيها آيةً إلا إذا جاءوا بها للتحريف؛ أما أن يأتوا بآيات أو بأحاديث يستدلون بها، فلا وجود لذلك، وإنما يأتون بها للتحريف، يحرفونها عما أريد بها.

فمثل هؤلاء خليقٌ بأنهم لا يوفَّقون، ولا يهتدون إلى الحق؛ لأنهم زاغوا من أول الأمر وردوا الحق، فمن ردَّ الحق، كان طريقًا لزيغه وضلاله، كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

قوله: **«فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ مِثْلِ هَذَا، وَمَنْ نَفْيِ هَذَا لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ»**. مفهوم «الوجود» يشترك فيه ربُّ العالمين الكامل من كلِّ وجه والمخلوق، ولكن لفظة «موجود» قبل أن تضاف إلى من تعلق به الوجود لا حقيقةَ له، فيكون اللفظ مطلقًا، وهذا مثل ما مضى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الجهمية سَمُّوهُمْ مُعَطِّلَةً، وَكَانَ جَهْمٌ يُنْكِرُ أَنْ يُسَمَّى اللهُ شَيْئًا، وَرُبَّمَا قَالَتْ الجهمية هُوَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، فَإِذَا نَفَى الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ مُطْلَقًا لَزِمَ التَّعْطِيلُ الْتَّامُّ».﴾

الشَّرح

المعطِّل: من العَطَل، وهو الخُلُوُّ الذي لا وجود له، كما قال الله ﷻ: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: ليس فيها آلة رفع الماء، ولا من يستعملها. وكذلك يقال: «جِيدٌ عَاطِلٌ» ـ والجيد هو الرقبة ـ، أي: ليس فيه حُلِيٌّ.

فالمعطلة أي: أنهم عطلوا الله عن أوصافه، وأساميه، وقد يكون التعطيل تعطيلًا للوجود، وقد يكون تعطيلًا للخالق عن المخلوق، أو المخلوق عن الخالق، أو غير ذلك، فله أقسام كما هو معلوم في كتب هؤلاء.

قوله: «**التَّعْطِيلُ الْتَامُّ**»؛ أي: ألا يكون لله وجودٌ، فلا يؤمن بذلك، وهذا هو نهاية الكفر.

إذًا: أقوال الجهمية والمعتزلة ومن تفرَّع عنهم أصلُها الكفر بالله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ سبحانه وتَعَالَى، كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْم وَالْقُدْرَةِ، بَلْ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ وَالْحَقِيقَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، تَجِبُ له لَوَازِمُهَا؛ فَإِنَّ ثُبُوتَ الْمَلْزُومِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ اللَّازِمِ، وَخَصَائِصُ الْمَخْلُوقِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ تِلْكَ مِنْ لَوَازِمِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ مِنْ وُجُودٍ وَحَيَاةٍ وَعِلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَلْزُومَاتِ خَصَائِصِهِمْ».

الشَّرح

أي: إن الأوصاف التي هي الصفات لها لوازمُ، وهي المعاني التي تتعلق بالمخلوق، فمثلًا: «الرحمة» لها أثر، وأثرها أنَّ الله يرحم الخلق، هذا من لوازمها، وليست فيها اشتراك أو فيها إثبات تجسيم أو تشبيه - تعالى الله وتقدس عن قول هؤلاء -.

فالحق لا يخرج عن قول أهل السنة؛ لأنهم اتبعوا كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ أما هؤلاء فجانبوا ذلك وكثُر ضلالهم وكثُر جدالهم، ولهذا سُمُّوا «أهل الكلام»، وكلامُهم لا فائدة فيه، وإنما هي شكوكٌ وأمورٌ قد لا يتخلص منها مَن دخل فيها؛ لأنَّ العقول تكون متكافئةً.

فإذا قال هذا: (أن عقله دلَّ على كذا وكذا)، جاءه إنسان آخر ربما يكون أعقل منه فأبطل قوله أو جاء بأدلة شبيهة بأدلته، فيبقون حيارى، أو أنهم يرتكبون أمرًا يعرف كلُّ عاقلٍ أنه باطِلٌ.

على كلِّ حالٍ: من سلم من هذه الأقوال والانحرافات واكتفى بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله، فهذا نعمة من الله ﷻ يمن بها عليه.

قوله: «وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ سبحانه وتَعَالَى...». هذا كرَّره كثيرًا؛ لأنَّ فيه إبطالَ مذهب هؤلاء، وخلاصة ذلك: أن للصفات والأسماء لوازم، مثل كونه قائمًا بنفسه أنه لا بُدَّ فيها من شيء يكون معلومًا، ولا يكون معلومًا إلا إذا كان

ذلك معروفًا عن المخلوق، أما لو كان مجهولًا أصلًا ليس للمخلوق فيه علمٌ، فلا يمكن أن يَفهم ما خوطبوا به، وهذا مثل ما مضى مرارًا.

فالاشتراك الذي يكون بين الخالق والمخلوق، بل بين المخلوق والمخلوق كما تقدم في ذكر الجنة والروح بعيدٌ في الاسم والمسمَّى، فهل يقول عاقل: إن وجود العرش مثل وجود الذَّرَّة؟!

وكلُّ واحدٍ يطلق عليه أنه موجودٌ، فكذلك الحالُ في الصِّفات؛ فالله ﷻ أعظمُ مبايَنَةً من مخلوقاته من مباينة مخلوق لمخلوق؛ فالله لا يجوز عليه ما يجوز على المخلوق، فالمخلوق وُجِدَ بعد أن لم يكن، فلا يقوم المخلوق بنفسه، ويلحقه العدم لأنه سُبق بالعدم، وكلُّ هذا لا يجوز أن يوصف به الرب ﷻ، فهو غنيٌّ بذاته عما سواه.

وكلُّ هذا يغني عنه قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]، فهو صمد قائم بنفسه مستغنٍ عن غيره، وكلُّ شيء لا يقوم إلا بقيامه. وكذلك قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فله الحياة المطلقة التي لا يلحقها نوم ولا سنة ولا نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، وله كذلك القيام بنفسه وإقامة غيره من المخلوقات.

فالمخلوق له خصائص، والخالق له خصائص، فخصائص المخلوق: أنه فقيرٌ، وأنه محتاجٌ، والفقر من جوانب عِدَّةٍ؛ من وجوده، فهو مفتقر إلى الوجود، فهو لا يُوجِدُ نفسه، ولا يُوجِده أبُوه ولا أُمُّه، وإنَّما الذي أوجَدَه هو الله ﷻ، فهذا فقرٌ إلى الله ﷻ. كذلك هو فقيرٌ إلى جلب المنافع، ودفع المضار، وفقيرٌ من نواحٍ كثيرةٍ.

أمَّا ربنا ﷻ فهو الغني عن كلِّ شيء، وغناه وصفٌ ذاتيٌّ له، بخلاف المخلوق، فإنَّ الفقر وصفٌ ذاتيٌّ له. أما الوجود، فإذا أضيف بأن قيل: «وجود الله»؛ فهو يخصُّه، وإذا قيل: «وجود المخلوق»؛ فهو يخصه، وهكذا يقال في الصفات.

فعلى كل حالٍ: العلم والرشاد والهُدى في كلام الله ﷻ وليس في كلام هؤلاء الضُّلَّال، ولكن إذا ابتلي المسلمون بهم، صاروا يتكلمون؛ والواجب أن يُرَدَّ كلامُهم ويُبيَّن لمن يشتبه عليه هذا الأمر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا الْمَوْضِعُ مَنْ فَهِمَهُ فَهْمًا جَيِّدًا وَتَدَبَّرَهُ، زَالَتْ عَنْهُ عَامَّةُ الشُّبُهَاتِ».

الشَّرح

يعني شبهات هؤلاء الذين يشبهون بها، وهي مجرَّدُ شُبَهٍ تنطلي على الذين لا يعرفون الحقَّ، وإلا فهي واضحة البطلان.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَانْكَشَفَ لَهُ غَلَطُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ».

الشَرح

وهذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وهو أن يبطل كُلَّ أقوالِ المتكلمين، وأن يكون الحقُّ واضحًا جليًّا، ولكن حتى يفهم الإنسانُ مآخِذَ أولئك وكلامَهم = ينبغي أن يفهمَ ما قاله المؤلف وما أبطل به شبههم.

وقصده بـ«الأذكياء»: هؤلاء الذين أُعْطُوا ذكاءً، ولكنهم لم يعطوا زكاء، أو أعطوا فهومًا، ولكنهم لم يعطوا علومًا نافعة؛ لأنهم جانبوا العلم الذي جاء به الرَّسول ﷺ، فوقعوا في الخطأ ولم يخرجوا منه، ولم يتخلَّصوا منه؛ ولهذا كبارُهم في النهاية يَحارون.

فكلُّ من ترك الكتاب والسنة، وإن كان عنده ذكاء ومعرفة فلا بُدَّ أن يحار في النهاية، ولو تتبع الإنسان تراجم هؤلاء وما كانوا فيه، وجد أنهم في حيرة وفي شكٍّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَبُيِّنَ فِيهَا أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا مُقَيَّدًا، وَأَنَّ مَعْنَى اشْتِرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ هُوَ تَشَابُهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ».

الشَّرح

يعني: الوجه البعيد مثل «الوجود»؛ فالله له وجودٌ، والمخلوق له وجودٌ؛ فلا يقال: إن هذا تشبيه. لأنَّ هذا إذا كان تشبيهًا بَطَل أن يكون هناك إله موجودٌ أصلًا!

وكذلك الأمور التي تقوم بالموصوف، إذا أطلقت ولم تضف ولم تُخصَّ به؛ فإنها تصبح لا وجود لها، ولا حقيقة لها، فيكون كلامًا في الذهن والتقدير فقط، والتقديرُ لا حقيقة له، وإنما الحقيقة في الشيء الثابت الموجود في الخارج.

قوله: «الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيّ». المقصود به الشيء الذي يشترك بين الأشياء في اللفظ والمعنى فقط؛ ولكن هذا لا حقيقة له فِي الخارج؛ فعلى سبيل المثال: إِذَا قلت: «إنسان» أو قلت «الإنسانية» أو «الوجود» أو «العلم» أو «البصر» أو غير ذلك، فهذا يشترك فيه ربُّ العالمين ﷻ مع المخلوق، ولكن هل هذا له حقيقةٌ؟ هذا لا حقيقة له حتى تُضيفه إلى شيءٍ مُعيَّن؛ فَإِذا أُضيف إلى الشيءِ المُعيَّن زال هذا الاشتراك نهائيًا.

وهذا الذي نقول: (إنَّه عند الإضافة أو عند التَّخصيص يزول الاشتراك والاشتباه)، إِذَا فهمه الإنسان انحلَّت عنه الإشكالات الَّتِي عند المُتكلِّمين.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَامَّ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، لَا أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْخَارِجِ لَا يُشَارِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهِ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مُتَنَاقِضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَتَارَةً يَظُنُّ أَنَّ إِثْبَاتَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ يُوجِبُ التَّشْبِيهَ الْبَاطِلَ».

الشَّرح

قوله: «الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ». هو ما لا بُدَّ منه؛ مثل إطلاق «اليد» و«السمع» و«البصر»؛ لأنَّ هذا فيه قدرٌ مشتركٌ. فالإنسان له يدٌ، وربُّ العالمين له يدٌ، والإنسان له بصرٌ، ورب العالمين له بصرٌ، فالقدر المشترك في الاسم، وفي المعنى العام قبل الإضافة والتخصيص؛ فإذا خُصَّ برب العالمين، أو خُصَّ بالمخلوق زال هذا الاشتراك.

ثُمَّ سبق أنَّ هذا الاشتراك لا بُدَّ لنا منه حتى نفهم الخطاب؛ وهذا كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما عندكم مما في الدُّنيا مما ذُكِرَ في الجنة إلا مجرد اسمه»[1]؛ مثل: عنب الجنة، والنخل، والزوجات، والخمر، واللبن والماء، وغير ذلك، كلها مجرد أسماء، أما الحقائق فلا تتشابه.

كما سبق أن القدر المشترك الكلي الذي يكون في الذهن فقط، ولا يكون في الخارج، مثل إذا قلت: «موجود»، أو قلت: «سمع»، أو قلت: «بصر»، أو قلت: «علم»، فهذا يكون فيه قدرٌ مشتركٌ بين الله وبين المخلوق الذي يتَّصف بهذا الشيء، ولكن هذا لا حقيقة له ولا وجود له أصلًا حتى يُقيد، تقول (سَمْعُ الله) أو (سمعُ زيد)، فإذا قُيِّد زال الاشتراك، فلا وجود له، وهذا تكرر مرارًا كما ذكرنا، وإلا المؤلف رحمه الله يريد أن يبين البيان الواضح لإبطال كلام هؤلاء أنه كلَّه مبنيٌّ على أمورٍ غير صحيحة، ولهذا كانت نتائجه باطلة.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«فَيَجْعَلُ ذَلِكَ لَهُ حُجَّةً فِيمَا يَظُنُّ نَفْيَهُ مِنَ الصِّفَاتِ، حَذَرًا مِنْ مَلْزُومَاتِ التَّشْبِيه».

الشَّرح

ملزومات التشبيه في زعمه؛ وإلا فلا يلزم التشبيه من ذلك القدر المشترك؛ لأنه قبل الإضافة والتخصيص، فإنَّه لا يلزم منه باطل ولا تشبيه، ولكنهم هكذا تصوَّرُوا هذا التصور الباطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَتَارَةً يَتَفَطَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا عَلَى تَقْدِيرٍ، فَيُجِيبُ بِهِ فِيمَا يُثْبِتُهُ مِنْ الصِّفَاتِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ مِنْ النفاة».

الشَّرْح

قوله: «**لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ...**»، يعني: إذا كان يثبت بعض الصفات فمن اعترض على اثباتها وقال: هذا تشبيهًا، قال له: هذا القدر المشترك لا بد منه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ وُجُودَ الرَّبِّ هَلْ هُوَ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ، أَوْ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهِ؟ وَهَلْ لَفْظُ «الْوُجُودِ» مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، أَوْ التَّوَاطِيءِ، أَوْ التَّشْكِيكِ؟ كَمَا وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي إِثْبَاتِ الْأَحْوَالِ وَنَفْيِهَا؛ وَفِي أَنَّ الْمَعْدُومَ هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ وَفِي وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ هَلْ هُوَ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهَا أَمْ لَا؟».

الشرح

قوله: «وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ...». كلُّ هذا باطلٌ وكلامٌ لا حقيقة له، فـ«الوجود» و«الماهية» و«الحقيقة» كلُّها شيءٌ واحدٌ، و«المعدوم» ينقسم إلى **قسمين**:

القسم الأول: المعدوم المنفي؛ وهو إذا كان نفيًا مطلقًا للعدم، وليس بشيء أصلًا.

القسم الثاني: المعدوم في وقت دون وقت، فلهذا نقول: إنه شيء موجود في علم الله وكتابته، وليس شيئًا في الوجود الآن، وإنما سيكون كما كَتَبه الله وعَلِمه، كما قال الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، فنقول: نعم، أتى عليه دهور طويلة ليس له وجود، ولكنه موجود في علم الله، وفي كتابة الله، وكقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]؛ أي: لم تكن شيئًا موجودًا.

والاشتباه وقع على هؤلاء الذين لم يعتصموا بكلام الله وكلام رسوله، في «أنَّ وجود الرب هل هو عين ماهيته؟».

ولا فرق بين «الوجود» و«الماهية»، فهذه أيضًا من شُبَه المتكلمين التي يُشَبِّهون بها على كثيرٍ من النَّاس، أو يقول: (زائدٌ على ماهيته)؛ أي: الوجود زائد على ماهيته.

وهذا كلُّه كلامٌ باطِلٌ، فلا يكون الوجود زائدًا على ماهية الموجود.

وكذلك **قوله**: «**وهَلْ لَفْظُ «الْوُجُودِ» مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ...**». الاشتراك اللفظيُّ سبق معناه.

قوله: «**أَوْ التَّوَاطِيءِ**»، سبق أنَّ اللَّفظ إذا دلَّ على المعنى مع لفظٍ آخر: أنَّ هذا «تواطؤ»؛ كما إذا قلت: «المشتري»، فـ «المشتري» يُطلَق على البائع وعلى المشتري، فكلاهما يُطلق عليه «المشتري»؛ وقد يُطلق على النجم، فهذا بعضهم يسميه مُشَكِّكًا، وبعضُهم يسميه متواطئ، وكلُّها من المنطق اليونانيِّ الذي يقول المؤلف فيه: «لا يزيد البليد شيئًا من الذَّكاء أو من العلم، ولا ينفع الذكي».

المقصود: أنَّ الماهيَّة هي حقيقةُ الشَّيء. والله ﷻ يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فنفسُه هو ﷻ؛ وكذلك الإنسان يقال: (ماهيته هي وجوده). ثُمَّ نقول: قولهم: (إنه غيرُ ماهيته، وغير حقيقته)، هذا كلُّه لا فائدة فيه، ولا يعطي شيئًا من العلم للإنسان، وإنما هو قد يوقعه في شُبَهٍ، فكلُّه كلامٌ لا فائدة فيه.

ولفظُ «الوجود»، يقول: «**مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ**»؛ هذا مثل ما سبق. **فإذًا**: الوجود بالاشتراك اللفظي لا حقيقة له، ولا وجود له أصلًا حتى يضاف هذا الوجود إلى شيء معين، فيكون له ذلك الحقيقة فيخصه، فتصبح المشاركة منفيَّةً في هذا.

اسم «الْوُجُودِ» و«الماهية» و«العين» ونحو ذلك، هو من كلام الفلاسفة الَّذِي قد يرجع إلى معنًى واحدٍ، وهي ألفاظٌ تختلف باختلاف مفاهيم الناس، وحقيقتها شيءٌ واحدٌ؛ فوجوده هُوَ كونه موجودًا أو بذاته، وذاتُه لا تكون غيرَ وجوده، وهكذا المخلوقات؛ ولكن هذه الأمور إِذَا أمعن الإنسان فيها وأوغل، يجد خلاف الناس فيها ثُمَّ يشتبه عليه الأمر.

فالمقصود: فَهْمُ الاشتراك اللفظي أو الاشتراك المُطلق العام، الذي إِذَا فهمته زال عنك كثيرٌ من الشُبه، المُطلق العام مثل ما مثلنا ما سبق فمثْلًا لو ما كان عندنا شيء اسمه يد أو وجه، ما فهمنا خطاب ربنا ﷻ لما يَقُول: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

فَإِذا قلنا: (يدٌ أو وجهٌ) هكذا مُطلقٌ، ليس له وجود حتى تُعَيِّنَه، تقول: يد فُلان أو يد الإنسان؛ أو قد تكون مثْلًا يد الآلة أو ما أشبه ذلك، أما إِذَا قلت: يد وجه فهذا لفظٌ مُطلق لا حقيقة له حتى يُعين أو يُخصَّ، فَإِذا قلنا: وَجْهُ رَبِّكَ، وَجْهُ الله صار خاصًّا به لا يُشارِكُه فيه غيره، وهكذا يُقال فِي سائر الصفات ـ كما سبق مرارًا ـ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ الِاضْطِرَابُ وَالتَّنَاقُضُ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، فَتَارَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ..».

الشَّرح

قوله: «**مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ**»؛ أي: الذين ينظرون في المعاني بعقولهم، ويقول المؤلف بأنَّ فيه اضطرابٌ وتناقضٌ، وهذا جزاءٌ من ترك كلام الله ﷻ وذهب إلى هذه التُّرَّهات، فلا بُدَّ أن يقع في التناقض ويقع في الاضطراب والحيرة، ولكن هذه الحيرة تكون للأذكياء منهم، أما المقلِّدون فيرون أن هذا حقٌّ، فيسيرون عليه ويتمسكون به، وهذا أمثلته كثيرة وقعت لكثيرٍ من الناس. ثم الكلام في المنطق والفلسفة ونحوهما لا تهدي أحدًا ولا تُوجِد عِلمًا، وإنما تنتج شبهات وشكوكًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَيَحْكِي عَنِ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا، وَتَارَةً يَبْقَى فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ».

الشَّرْح

قوله: «وَيَحْكِي عَنِ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا...».

وهذا يوجد بكثرة؛ أنَّ الإنسان مثلًا يظنُّ أنهم قالوا كذا، أو يظنُّ أن هذا الأمر مجمَعٌ عليه، فيقول: (أجمَعُوا على كذا)، أو: (أجمع السلف على كذا)، مثل ما يقول ابنُ بَطَّالٍ في شرحه للبخاري، عندما جاء إلى قول الرَّسول ﷺ: **«لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ»**[(١)]، قال: «وأجمعت الأمة على أن الله لا يجوز أن يوصف بأنه شخص»[(٢)]، هل هذا معقول؟! الأُمَّةُ تجمع على خلاف قولِ الرَّسول ﷺ؟!

هذا ظَنٌّ منه فقط، وإلا فهو لا يقصد مخالفة الرسول ﷺ، وهذا كثيرًا ما يقع من المتكلمين، يزعمون إجماعاتٍ، وهو على حسب ظنهم، ويكون ظنهم في غير محله.

قوله: «وَتَارَةً يَبْقَى فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ» وهذا لبعضهم ـ كما سبق ـ.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل (٢/ ١١٣٦) برقم (١٤٩٩)، من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٤٤٢)، ينظر: شرح شيخنا لكتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٩).

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ بَسَطْنَا مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، مَا وَقَعَ مِنَ الِاشْتِبَاهِ وَالْغَلَطِ وَالْحَيْرَةِ فِيهَا لِأَئِمَّةِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ، مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ.

وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ هُوَ مَاهِيَّتُه الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ، بِخِلَافِ الْمَاهِيَّةِ الَّتِي فِي الذِّهْنِ فَإِنَّهَا مُغَايِرَةٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ، وَأَنَّ لَفْظَ «الوجود» كلفظ «الذَّاتِ» وَ «الشَّيْءِ» وَ «الْمَاهِيَّةِ» وَ «الْحَقِيقَةِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ، وهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُتَوَاطِئَةٌ».

الشرح

قوله: «مُتَوَاطِئَةٌ»، يعني: أنها تدلُّ على الشيء الواحد، وكذلك «الوجود»، «الماهية» و«الحقيقة» وغيرُها؛ فإذا فرق بينهما فهو تفريق باطل. وقد سبق معنى «التواطئ»، «الاشتراك»؛ وأنَّ «التواطؤ»: هو الشيء الذي يواطئ هذا اللَّفظ لفظًا ومعنى، و«الاشتراك»: قد يكون مشتركًا في الحروف، وقد يكون في الجملة، أو في أكثرها، وسبق المثال على هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهَا مُشَكِّكَةٌ، لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا، فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَاعَى فِيهِ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ، سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى مُتَفَاضِلًا فِي مَوَارِدِهِ أَوْ مُتَمَاثِلًا».

الشرح

المشكِّك عندهم هو اللفظ الذي جاء بالحروف كلها، واختلف معناه فقط؛ كما إذا قلت: «عينٌ»، فهل تقصد العين الجارية، أو العين الباصرة، أو عين الذهب؟ فمثل هذا يسمى مشكّكًا، ولكن إذا أضيف الشيء وخُصَّ به؛ زال هذا التشكُّك.

واللفظ: يتبين بالسياق والقرائن، وكذلك ما يكون في حالة المتكلم وما يكون الكلام فيه، كل هذا يبيِّن المراد، ويزول بها التشكك. فإذا قال: «المشتري» مثلًا، قلت: المشتري يطلق على الآخذ والمعطي كلاهما، المتبادِلَين كلاهما، يقال له: مشتري، كما قال الله ﷻ في قصة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ﴾ [يوسف: ٢٠]، شروه، يعني باعوه بدراهم بخس معدودة، ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف: ٢٠]، وقد يطلق على نجم المشتري.

يقولون: هذا هو «المشكّك»، وفيه نوعٌ من «التواطؤ».

على كلِّ حالٍ: هذه ألفاظٌ يونانية، وألفاظ منطقية لا تعطي شيئًا، أما اللغة العربية فهي واضحة، ليس فيها شيء من ذلك؛ لأنها إذا جاءت لغة فإنها تكون مقترنة بالمراد، مبينة للمقصود.

هذه الاصطلاحات مثل «الاشتراط اللفظي» أو «التواطيء»، أو «التشكيك»؛ كلها اصطلاحات أُخذت من المنطق اليوناني؛ ولكن قد يوجد لها أمثلة في اللغة العربية، فمثلًا المُشتري هذا مُتَوَاطِئٌ ومُشكك؛ لأن المُشتري يُطلق على البائع ويُطلق على الآخذ الذي يأخذ بالعوض، ويُطلق على النجم نجم المُشتري، فَإِذا قيل: المُشتري فقد يقصد هذا وهذا ـ كما سبق ـ. ولسنا بحاجة إلى أن نقول: هذا مشكِّكٌ ولا غير مشكِّكٍ.

قوله: «فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ...» التشكيك والتواطؤ والاشتراك وغير ذلك هذا من علم المنطق الذي لا يغني ولا يسمن من جوع، ولا يزيد الذكي ذكاءً، ولا يفيد البليد شيئًا، فهو مشغلة وملهاة ولا خير فيه. وقد أغنانا الله ﷻ باللغة العربية.

ولكن لما عُرِّبت كتب اليونان في زمن المأمون دخلت هذه الألفاظ في كتب المسلمين وكثرت فابتلوا بها، فأصبح الإلمام بها متعينا حتى يُعرف اصطلاح الناس ويعرف مرادهم.

هذا مثل ما مضى أنَّ «الماهية» هي «الوجود»، وأن التفرقة بينها غيرُ صحيحةٍ، وكذلك سبق الكلام عن «المتواطئ»، و«المشكك»، وأنه يطلق كل واحد منهما على الآخر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ، لَا فِي الْخَارِجِ».

الشَّرح

قوله: «الْمَعْدُومَ..». المعدوم قد يقصد به: العدم المطلق، وهذا ليس بشيء، ولا يسمى شيئًا، وقد يقصد به العدم الوجودي، كونه موجودًا فيكون له وجود في العلم والكتابة في علم الله وكتابته، حتى يوجد في الخارج على حسب علم الله وكتابته، فهذا مثل ما قال الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أتى عليه وقت طويل ما كان مذكورًا، يقول: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، يعني شيئًا موجودًا مشاهدًا مرئيًا، ولكنه شيء في العلم والكتابة؛ لأن الله كتب كل شيء، وعلم كل شيء، ولا يقع شيء إلا بعلمه وكتابته ـ تعالى ـ وتقدس. فقوله: «**وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ، لَا فِي الْخَارِجِ**». العِلمُ بالشَّيء، ليس هو حقيقته، وكذلك كتابته ليس حقيقته، وإنما حقيقته إذا وُجد وبرز وظهر في الوجود، وبهذا يُعرف أنَّ الذي قيل له: (اعمل كذا) أو: (لا تعمل كذا)، فيقول: (مكتوب عليه كذا كذا)، فهذا كلامٌ باطلٌ، وما يدريك أنَّه مكتوب عليك كذا كذا؟ وإنما تريد أن تبرر فعلك وتجعل اللوم على الكتابة وعلى القدر، وهذا حقيقة الأمر؛ وإلا فالقدر والكتابة هي كتابة علم الله في هذا المخلوق أنه سوف يفعل كذا باختياره وقدرته، ولا أحد يرغمه على هذا، فالكتابة لا ترغم أحدًا وكذا القدر، فالعلم يقوم بالعالم، ولا يقوم بالمعلوم الذي سيوجد.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثُّبُوتِ وَالْوُجُودِ، لَكِنَّ الْفَرْقَ ثَابِتٌ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَيْنِيِّ، مَعَ أَنَّ مَا فِي الْعِلْمِ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ، وَلَكِنْ هُوَ الْعِلْمُ التَّابِعُ لِلْعَالِمِ الْقَائِمِ بِهِ».

الشرح

قوله: «**الْعَيْنِيِّ**»: الوجود العيني، يعني: ذات الشيء وعينه، وأما «الوجود العلمي»؛ فيدخل فيه الكتابة وعلم الله، أنه سيوجد. والله ﷻ يخبرنا عن يوم القيامة وبالأفعال الماضية، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، «جاء»: فعل ماضي؛ وهذا ـ كما يقول العلماء ـ: لتحقق الوقوع، أي: أنه لا بُدَّ منه، وكلُّ هذا سيأتي كما أخبر الله ﷻ به، ممَّا أخبر به من تطاير الصحف، والنار، والجنة، والجزاء والمخاطبة، والمحاسبة، وغير ذلك، فهو ثابتٌ بعلم الله الآن، وسيوجد كما عَلِمَهُ الله ﷻ، ومثل ذلك الأمور الماضية.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ الَّتِي تَتَمَاثَلُ فِيهَا الْمَوْجُودَاتُ وَتَخْتَلِفُ، لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ، وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ إِلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ، وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا الْمُعَيَّنَةُ، فَتَتَشَابَهُ بِذَلِكَ وَتَخْتَلِفُ بِهِ».

الشرح

«**الأحوال**» هي صفات، إلا إذا أُريد به الأحوال التي اصطلح عليها بعض المتكلمين مثل أحوال أبي هاشم التي يقولون لا حقيقة لها، فهو يقول: (هي حالة بين الصفة وبين الفعل) أو ما أشبه ذلك، وهذه جعلوها من عجائب الكلام التي لا حقيقة لها، مثل كسب الأشعري ومثل طفرة النظَّام، فهذه لا خير فيها ولا اشتغال بها، فهي مشغَلة بلا فائدة.

هذه الأحوال لا حقيقة لها؛ لأنها أحوال إضافات؛ ولهذا بعضُ المتكلِّمين يجعل صفات الله أحوالًا، والتماثل كما سبق يكون في الذِّهن فقط، أما في الموجود المعين فلا تماثل فيه إلا بين المخلوقات، أما بين الخالق والمخلوق، فلا تماثل البتَّه.

قوله: «**وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ إِلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ**»؛ أي: الشيء الذي تعيَّن وقام بنفسه، ويُرى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَأَمَّا هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُخْتَصَرَةُ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنْبِيهُ عَلَى جُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ جَامِعَةٍ، مَنْ فَهِمَهَا عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِهَا، وَانْفَتَحَ لَهُ بَابُ الْهُدَى، وَإِمْكَانُ إِغْلَاقِ بَابِ الضَّلَالِ؛ ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ؛ إِذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ».

الشَّرح

ولكن الموفَّق من يُعافيه اللهُ ﷻ من هذه الأمور الَّتِي دخل فيها المُتكلمون، فيكون في منأى من هذه الشكوك ومن هذه الأوهام، وليس بحاجةٍ لها؛ لا فِي دينه ولا فِي عقيدته.

فهو يأخذ عقيدته من الكلام الواضح الجلي الذي هُوَ كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ ولهذا نجزم جزمًا أكيدًا بأنَّ الصَّحَابَة لم يعرفوا هذه الأمور، وهم أكمل الناس إيمانًا وأتمهم عملًا وأقربهم إلى الله ﷻ مقامًا.

قوله: «ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ؛ إِذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ»: هو بسطها وشرحها في كتاب «الصفدية» وغيره؛ ردًّا على هؤلاء وغيرهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ: هُنَا أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ فِيمَا يُنْفَى عَنِ الرَّبِّ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ - كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُصَنِّفِينَ - خَطَأٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ طُرُقِ النَّفْيِ الْبَاطِلَةِ».

الشرح

قوله: «وَالْمَقْصُودُ: هُنَا أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ». المقصود بـ«الحجة»: ما تقدم من كلامهم، وهو أنهم يقولون: (إن الاشتراك في اللفظ والمعنى يعتبر تشبيهًا)، و(أن الأجسام متماثِلَة)، و(أن ما جاز على هذا الجسم يجوز على الجسم الآخر)؛ فهذه الأمور كلها باطلة ولا حقيقة لها.

والمسلم قد أغناه الله ﷻ عن هذه الأصول التي تورث الشك، لأنها خلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

(فَصْلٌ)

«وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ: مَا يَسْلُكُهُ نفاة الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا، إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَمَّا يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ، مِثْلَ أَنْ يُرِيدُوا تَنْزِيهَهُ عَنْ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ حَتَّى رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ اللهُ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْتَجُّ عَلَى هَؤُلَاءِ بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: لَوْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ لَكَانَ جِسْمًا أَوْ مُتَحَيِّزًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ».

الشَّرح

قوله: «وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ: مَا يَسْلُكُهُ نفاة الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا...»، يعني: أن هذا من الأمور الواضحة في الضلال؛ فاليهود قالوا: (في الله تعالى اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه)[١]، وقالوا: (إن الله فقير، وإن الله بخيل، وإنه تعب لما خلق السماوات والأرض واستلقى على ظهره وَاضِعًا إحدى رِجْلَيْهِ على الأخرى للاستراحة)!![٢] فيأتون بالتشبيه الخبيث الذي هم أهلُه، ولكلٍّ من قال قولًا وارثٌ يرِثُه، ولهذا قال ﷺ: **«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»**، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: **«فَمَنْ»**[٣].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٥/ ٢٢٥). (٢) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٣١٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤/ ١٦٩) برقم (٣٤٥٦)، واللفظ له، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٤/ ٢٠٥٤) برقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وإن كان هذا ضلاله ظاهرًا، فالمشركون عبدوا غيرَ الله ﷻ، فعبدوا أصنامًا وشجرًا وجعلوها شركاء لله وسموها آلهة، وهذا كفرٌ وضلالٌ بيِّنٌ ظاهرٌ.

ولا يزال هذا الأمر عند كثيرٍ من النَّاس، فيعبد معبودات متعددة غير الله ﷻ، وقد يعبد شيئًا ناقصًا هو أكمل منه، كمن يعبد الميت، فالميت لا يملك شيئًا ولا يستطيع أن يزداد حسنة، فكيف يذهب إليه ويدعوه ويقول: (أعطني كذا وامنع عني كذا)؟! فهذا ضلالٌ في العقل وفي النهج.

وكالذي يعبد البقر، ويعبد الشجر، ويعبد الحجر، ويعبد الماء، وكل ذلك إما متابعة للضَّالِّين السابقين، وإما انحرافٌ في العقل والفكر والنظر بعد الانحراف عما قاله الله ﷻ وقاله رسوله ﷺ؛ وتتبُّع ضلالات الناس أمرٌ متعِبٌ.

قوله: «وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ على الْيَهُودِ: الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ حَتَّى رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ اللهُ...». هذا يقوله بعض اليهود - قاتلهم الله، هم الذين يصفون الله ﷻ بالنقائص، فهم الذين قَالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهم الذين قَالُوا: (إنه بكى على الطوفان، وأنه تعب لما خلق السموات واستراح وكان ذلك يوم السبت)؛ ولذلك يجعلون يوم السبت لهم عيدًا ولا يعملون فيه يرتاحون.

فيرد أهل الكلام على هؤلاء المبطلين: (بأنه لو كان مثل ما تقولون لكان جسمًا، ولكن ليس بجسم)، وهذا غير مقنع، وغير صحيح، بل الله ﷻ منزَّهٌ عن النقائص والعيوب، فهو ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في أوصافه. وهذا الذي تقولونه - أيها اليهود - أمرٌ مختَرَعٌ من عندكم، ليس لكم عليه دليل، وإنما وصفتموه بالنقائص فكفرتم بذلك.

أما أن يقول: (ليس بجسم؛ إذ هذا لو صار كذا، لزم أن يكون جسمًا)، فهذا جواب قاصرٌ وضعيفٌ؛ فالجسم الذي يقولون: (إن الله منزه عنه): ما دليلك أنه ليس بجسم؟!

فالرد على اليهود بمثل هذه الحجج باطل، لا يصح، لا البناء ولا المبني عليه؛ فرد الباطل بالباطل؛ باطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَبِسُلُوكِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقِ اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ الْمَلَاحِدَةُ، نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ لِوُجُوهٍ: . . .».

الشَّرح

قوله: «اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ الْمَلَاحِدَةُ»؛ أي: غلبوهم وظهروا عليهم بالحُجَّة؛ وإذا كان الْمَلَاحِدَة يستظهرون عليهم، فمعنى ذلك أنهم أسوأ حالًا من المَلاحِدة، و«المُلحد»: هو الذي لا دين له.

والفلاسفة الذين لا يؤمنون بوجود الله ولا يؤمنون بجنة ولا بنار، ولا بآخرة ولا ببعث، قالوا: (إن هذا الكون لم يزل ولن يزال، وإنما يموت قوم ويحيا بعدهم آخرون)، وقالوا: (إنَّ قولهم: «إن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين. . . إلى آخره» هذا دليل لنا؛ لأننا نقول: إنَّ الله ليس له وجود؛ وكذلك لا وجودَ للأمور الموعود بها، وإنما هي تخيُّلاتٌ؛ وأنَّ الناس ما يصلحهم إلا هذا. فالأنبياء تخيلوا شيئًا لا وجود له)، ومعنى ذلك: أن الأنبياء يكذبون ـ حاشاهم ذلك ـ فقالوا: إن هناك جنة ونارًا وبعثًا حتى يتخلَّق الناس بالأخلاق الحسنة، وحتى يمتنعوا من ظلم بعضهم بعضًا خوفًا من النار، وكذلك يتخلقوا بالأخلاق الحسنة طلبًا للجنة، وإلا الواقع أنه لا وجود لجنة ولا نار.

وإذا قال المتكلمون: (إن هناك آخرة وجنة ونارًا). قالت الفلاسفة: (أنتم تقولون: «إن الله لا فوق ولا يمين ولا داخل العالم ولا خارج العالم»؛ فإذًا لا وجود له؛ ومثل ذلك الجنة والنار والبعث. وإذا تأولتم الصفات وقلتم: «إن الرحمة هي إرادة الإحسان»؛ فنحن نتأول نصوص المعاد مثل ما تأولتم أنتم ذلك، ونحن أولى بهذا).

وهذا معنى **قوله: «اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ الْمَلَاحِدَةُ»**؛ ظهروا عليهم بالحجة والدليل، وهي حجة باطلة، ولكن الذين أوّلوا الصفات هم على باطل، كما أنَّ الذين احتجوا بهذه الأشياء هم على باطل أيضًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«أَحَدُهَا: أَنَّ وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مَنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ مِنَ الِاشْتِبَاهِ وَالنِّزَاعِ وَالْخَفَاءِ مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ، وَكُفْرُ صَاحِبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ، وَمُبَيِّنٌ لَهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ بِالْأَخْفَى، كَمَا لَا يُفْعَلُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْحُدُودِ».

الشَّرح

قوله: «**أَحَدُهَا: أَنَّ وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مَنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ...**». وصف الله ﷻ بالنقائص كالبكاء أو الحزن أو البُخل، ما يصدر إلا ممن هو شرُّ خلق الله، كاليهود الذين يتنقصون الله ﷻ، وكذلك يتنقصون أنبياء الله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠]. فالإنسان بحاجة إلى أن يعرف فضل الله عليه في هدايته، ويعرف عداوة هؤلاء لله ﷻ فيُعاديهم.

وهؤلاء المتكلمون اختلفوا في ربهم وحاروا في ذلك، ووصفوه بما يصفون به أنفسهم، بل منهم من أراد أن يُوجِد قواعدَ وأصولًا من عند نفسه يجعلها طريقًا للتَّنزيه، وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ طريق التنزيه هو الكتاب والسنة الذي جاء عن الله ﷻ.

فهو له الكمالات المطلقة، وليس له في وجهٍ من الوجوه في صفاته، ولا في ذاته، ولا في أفعاله شيءٌ من النَّقص ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهؤلاء الذين يجعلون نَفي «التجسيم» و«التحيز» و«الجهة» هو الأصل في نفي النقائص؛ كما قال المؤلف: (يأتون بشيء ضعيف غامض لينفوا به كفرًا ظاهرًا جليًّا).

ومعلومٌ أنَّ هؤلاء الذين يقولون: (إنه بكى، وإنه تعب، وإنه حَزِنَ)، هؤلاء بعضُ اليهود، كالذين قالوا: (إنه بخيل، وأن يده مغلولة) ـ تعالى الله وتقدس عن قولهم ـ.

فهذا كفرٌ صريحٌ لا يُشَكُّ فيه، فكيف تَرُدُّه بأصول مختلف فيها، وأمور لم

تثبت، وأمور هم أنفسهم مختلفون فيها؟! حيث لم يتفقوا على تعريف «التَّحيُّز» و«الجسم»، ونحوهما؛ لأن «التحيز» يحتمل كما سبق أوجُهًا؛ فيحتمل أن الأحياز: التي تحوزه وتحيط به، ـ والأحياز بمعنى الجهات ـ؛ وهذا باطلٌ باتفاق العقلاء، واتفاق من يؤمن بالله ورسله.

و«التجسيم» كذلك؛ فمنهم من يقول: (الجسم: الذي يشغل المكان)، أو: (يتصف بالصفات)، أو: (أنه ما قام بنفسه)، أو: (ما رُكِّب)، أو: (ما أشير إليه)، أو غير ذلك. فهُم يختلفون فيه اختلافًا كبيرًا، فكيف يكون قاعدةً يُردُّ به الكفر والباطل؟!

و«**الملاحدة**» هم: الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يؤمنون بجنة ولا نار، مثل الفلاسفة الذين يجعلون الميعاد هو عود الأرواح إلى أبدان أخرى فقط، والذي يسمونه «التناسخ». أما أنه يكون هناك معادٌ، فهذا يقولون عنه: (إنه من الكذب)؛ لأن الكذب واجب عندهم في مثل هذا؛ فلا يصلح للعوامِّ وجمهور الناس إلا أن يقال لهم: (إنَّ فيها نارًا عظيمةً بعد موتكم، فمن خالف أُلقي فيها، ومن كان صالحًا له جنة عظيمة).

وحقيقةُ قول الفلاسفة: أنه ليس هناك جنة ولا نار، وإنما هي أمور تخيلية، فهؤلاء ينكرون وجودَ الله ﷻ وصفاته، وينسبون الأمور إلى طبيعة، ولو كُلِّفوا بتفسير الطبيعة ما استطاعوا أن يأتوا بشيء يُقنِع عاقلًا، أو ذا الفطرة السليمة.

المقصود: أن هذا الوجه يقول المؤلف فيه: إنَّ وصف الله ﷻ بالنقائص كفرٌ، والكفر هذا كفرٌ ظاهِرٌ، فظهوره أظهرُ من الدليل الذي استدلُّوا به ـ وهو أنه ليس جسمًا ولا متحيِّزًا ـ؛ فإنَّ هذا لا دليل عليه، وإن كانوا يقصدون بالجسم ألَّا يكون مشابهًا للمخلوقات ففيه خفاءٌ ولا يظهر لكثير من الناس؛ فكيف يكون الأمر الخفيُّ دليلًا مبطلًا للأمر الواضح الجلي؟!

فالذي يصف الله ﷻ بأنه تعب أو أنه بكى يكون كافرًا؛ لأنه لم يعرف الله ﷻ، وقد وصف اللهَ بالنقائص التي يتصف بها المخلوق، فكيف يُرَدُّ عليه بشيء خفي؟!

قوله: «فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ بِالْأَخْفَى». فإنَّ وجود الله مِن أظهر الأدلة وأوضحها، فلا يُشَكُّ فيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فكيف يسلك هذا المسلك الخفي، ويقال: (إن الأعراض لا تقوم إلا بجسم؛ فإذَن: الله ﷻ لا يكون جسمًا)؟!

ونَقُولُ في استدلالهم على وجود الله وقولهم: (إنَّ المخلوق فقيرٌ ويحتاج إلى مُوجِدٍ، والموجد لا بُدَّ أن يكون غنيًّا بذاته.... إلى آخره): وجودُ الله أظهرُ من هذا، والرسل لم تأمر قومها بالنظر في مخلوقاته للاستدلال على وجود الله وعبادته، ولو قُدِّر أنه طريق صحيح فهو نفعه قليلٌ؛ لأنَّ قُصارَى الأمر في هذا أن يثبت وجود الله، وأنَّه قادر عليمٌ، وأنه ﷻ على كلِّ شيء قديرٌ، وهذا لا يكفي ليكون الإنسان مسلمًا، فضلًا عن أن يكون ناجيًا، فلا بُدَّ من عبادة الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الصِّفَات يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ وَيَنْفِي التَّجْسِيمَ، فَيَصِيرُ نِزَاعُهُمْ مِثْلَ نِزَاعِ مُثْبِتَةِ الْكَلَامِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَيَصِيرُ كَلَامُ مَنْ وَصَفَ اللهَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَصِفَاتِ النَّقْصِ وَاحِدًا، وَيَبْقَى رَدُّ النفاة عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِطَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ».

الشرح

هذا الوجه معناه: أنه مبنيٌّ على عقيدتهم في تسميتهم إثبات الصفات تجسيمًا، وهذا باطلٌ ـ كما سبق ـ.

فهُم إذا قالوا للملاحدة: (أنتم تصفون الله بالنقائص، وإنه يتعالى ويتقدس عنها، هذه النقائص ما يتصف بها إلا جسمٌ، فيكون متحيِّزً، أو من تقوم به الأعضاء والأبعاض).

فيقول لهم هؤلاء الملاحدة: (نحن لا نصفه بـ«الجسم» ولا بـ«التحيز»، ولكن نقول: «إنه يكون كذلك ـ كما سبق ـ، مع كوننا لا نصفه بجسمٍ ولا تحيُّزٍ).

فيسقط استدلال المتكلمين نهائيًا، فيصبح هذا باطلًا؛ لأنَّ لازم الباطل يكون باطلًا، فيكون كما يقول المؤلف: (في غاية الفساد)، يعني: تكون هذه الطريقة فاسدةً.

وإنما يُرَدُّ على هؤلاء بما أثبته الله ﷻ لنفسه من الكمالات، وأنَّه الغنيُّ الذي غِناه ذاتيٌّ ملازِمٌ لذاته، وهو له الكمال من كلِّ وجهٍ ـ تعالى وتقدس ـ، وما نسبوه إلى الله من النقائص فهذه صفات المخلوقين الضعفاء الذين يحزنون، ويبكون على ما فاتهم؛ حيث لا يستطيعون استدراكه.

قوله: «أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الصِّفَات يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ...»؛ أي: وإن كانوا لم يقولوا بذلك؛ غيرَ أنَّ هذا إمكان عقليٌّ، والإمكانُ العقليُّ تقديره لا يلزم هؤلاء ولا نقول بذلك، ولكن أهل السنة يقولون:

(نصفه بصفاتٍ، ولا نقول: «إن الصفات تجسيمٌ»، بل هي صفات كمال كما قال الله ﷻ. وإنَّما هذا اصطلاحكم، ولا يدلُّ على الحقائق ـ كما مضى ـ.

المقصود: أنَّ هذا الوجه الثاني يقول ﵀: إذا قلتم لليهود هذا الكلام: (إن الله ليس بجسم)، فيمكن أن يقولوا لكم: (نحن لا نصف الله ﷻ بـ«الجسم» ولا بـ«التحيز»)، فيصبح دليلهم مردودًا عند هؤلاء، فلا يكون دليلًا، فيصبح الكلام لا فائدة فيه؛ مع أنَّ كلا الأمرين باطلٌ:

ـ الاستدلال الذي استدلَّ به المتكلمون ممن يريدون أن يفسدوا هذا الكلام الكفري.

ـ الوصف من هؤلاء الكفرة لله ﷻ بهذه النقائص التي بطلانها أظهرُ من الاستدلال عليها بما قاله هؤلاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثَّالِثُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَاجِبٌ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ».

الشرح

قوله: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ»؛ أي: إذا قيل لهم: «إن لله وجهًا، وله يدين، وله سمعًا، وبصرًا»، قالوا: (إن الله ليس بجسم، وهذه لا تقوم إلا بالأجسام)، فيكونون قد ردوا ما اتصف الله به من الصفات والكمالات.

قوله: «فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ». معنى «الطريقة»؛ أي: كونه لا يكون جسمًا ولا متحيزًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الرَّابعُ: أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُتَنَاقِضُونَ، فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنَ الْإِثْبَاتِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنَ النَّفْيِ، فَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ ـ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ ـ إِذَا قَالَتْ لَهُمْ النفاة كَالْمُعْتَزِلَةِ: هَذَا تَجْسِيمٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ، وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْجِسْمِ، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ إِلَّا جِسْمًا، قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ: وَأَنْتُمْ قَدْ قُلْتُمْ: إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَقُلْتُمْ: لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَوْجُودًا حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إِلَّا جِسْمًا، فَقَدْ أَثْبَتُّمُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا عَلِمْتُمْ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَثْبَتُّمْ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا، بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ؛ وَهَذَا تَنَاقُضٌ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ».

الشرح

كلُّ هذا مجادَلَةٌ لإبطال مذهب هؤلاء المعتزلة والجهمية فيما يثبتونه، فيقال: إنَّ الشيء الذي تثبتونه يلزم منه ما نفيتموه ـ من أنَّه جسمٌ أو أنه متحيِّزٌ أو ما أشبه ذلك ـ، حتَّى الموجود هل يوجد موجودٌ في غير مكانٍ؟! هل يوجد موجودٌ لا يقوم بنفسه وينظر ويرى؟!

فقصدُ المؤلف بهذا إلزامهم أن يثبتوا الشيء الذي نفوه؛ لأنه لازِمٌ له، وإلا يكونون متناقضين.

ومثل ذلك يقال للأشعرية الذين أثبتوا الصفات السبع: لماذا تركتم الصفات الأخرى؛ كالغضب والرضا والرحمة وتأولتموها؟!

قالوا: إن هذه تقتضي التشبيه.

فيقال: وكذلك السمع والبصر والكلام على هذا السبيل يقتضي التشبيه كما قلتم.

وإذا قالوا: إنه اجتمع عليها السمع والعقل على هذه الصفات السبع.

فيقال: وكذلك يدلُّ على الصفات التي تأولتموها السمع مع العقل.

وكلُّ معطِّل أو متأوِّل يجادِلُ بما أثبته، فيقال له: (إنك إن لم تثبت البقية تكون متناقضًا).

والمقصود من هذا الذي ذكر، هؤلاء الأشاعرة الذين يثبتون سبع صفات، مثل: «**الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ...**».

وتقول لهم المعتزلة: (هذا تجسيمٌ؛ لأننا لا نشاهد من تقوم به الحياة، ولا العلم والقدرة... إلى آخره، إلا ما هو جسم)! وسبق أنَّ هذا أصل التشبيه - أوَّلًا -؛ لأنهم جعلوا أنفسهم أصلًا، فقاسوا ربَّ العالمين عليه.

فيجيبهم هؤلاء بقولهم: (أنتم قلتم أيضًا: إنه حيٌّ، عليمٌ، قدير... إلى آخره، ونفيتم الجسم فنحن كذلك).

فإذن: كلُّ فريقٍ قابَلَ الفريق بمثل حُجَّتِه، ودلَّ على التَّساقُط من جميع الوجوه.

ثُمَّ ليعلم أنَّ المعتزلة يثبتون الأسماء، ولا يثبتون الصفات، ويبادرون إلى نفي الصفة، فيقولون: (حيٌّ بلا حياة، عليم بلا علم، سميع بلا سمع... إلى آخره). أما هؤلاء الذين قابلوهم من الأشاعرة، فيثبتون هذه الصفات السبع، وأمَّا بقيَّةُ الصِّفات فيؤولونها أو يفوضونها؛ بمعنى أنها لا يُعلم لها معنى.

وكلا المذهبين باطلٌ، ولكن المقصود: الاستفادة من بطلان أحدهما بأدلة الآخر؛ فكلُّ واحدٍ يُبطِل أدلة الآخر، فدَلَّ على أن الاثنين باطلانِ.

قوله: «**أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُتَنَاقِضُونَ**»؛ أي: المُتكلمون، فمثَّل بالذين يُثبتون بعض الصفات مع المعتزلة، فالمعتزلة تقول: (مُثبِتُ الصفات مُجسِّم مُشبِّه؛ لأننا لا نعرف صفاتٍ تقوم بنفسها وإنما هذه الصفات هي أعراض لا تقوم إلا بجسم). فيجيبهم هؤلاء بمثل هذا الجواب، يقولون: (أنتم أثبتم الأسماء مثل كونه: «العليم والحليم والحي والقادر... وغير ذلك»؛ ونحن لا نعرف أنَّ شيئًا تُثبَتُ له هذه الأسماء إلا جسمًا).

فكل هذه مُجادلات؛ كل واحد يُجادل الآخر بمثل ما يقول الآخر، ولكن هل هذه تؤدِّي إلى حقٍّ أو إلى شيءٍ يجب أنه يُعتقد؟! هؤلاء ليس عندهم أصلٌ يبنون عليه كلامهم، وإنما هي كلها تخرصات، وعقولهم التي دلت على هذا؛ أما لو كانوا يرجعون إلى كتاب الله ﷻ فما احتاجوا إلى مثل هذه المآزق.

أما نحن معاشر أهل السنة فنقول: نؤمن بأنَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير، وأن له الصفات كما أخبر ﷻ، ونقتنع بكلامه ﷻ، ونأخذه على حقيقته، وأنه هُوَ الشفاء والهُدى.

كما سبق أن المعتزلة يقولون: إذا أثبتم لله سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وإرادة كنتم مشبهة؛ لأننا لا نعرف من تثبت له هذه إلا ما هو جوهر؛ لأن هذه أعراضٌ، والأعراض لا تقوم إلا بالجواهر.

يقول لهم المثبتة: وأنتم أثبتم أن الله عالم بلا علم، وقادر بلا قدرة وبصير بلا بصر، وسميع بلا سمع، نفيتم الصفة وأثبتم الاسم، ونحن نعلم أن الأسماء لا تقوم إلا بمسمى، فنفس الذي تقولونه نقوله لكم، فهي لا تقوم إلا بجسم على حسب اصطلاحكم؛ فإذًا كلامكم باطلٌ، فيُبطل من هذا، مع أنَّا لا يجوز أن نوافقهم بأنه لا تقوم إلا بأجسام ولا نوافقهم بأنَّ الرب ﷻ لا يوصف بهذه الصفات لئلَّا يكون جسمًا.

كلُّه باطِلٌ، ولكن مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن يبين تناقضهم وأنهم على باطلٍ، فنفس كلامهم الذي أثبتوه، ونفوا الصفات خوفًا من التجسيم، يعني: الذي أثبتوه يلزم منه ما نفوه خوفًا من التجسيم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتَةُ إِذَا قَالُوا لِمَنْ أَثْبَتَ أَنَّهُ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ أَوْ مَنْ وَصَفَهُ بِالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، إِذَا قَالُوا: هَذَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَا يُوصَفُ بِذَلِكَ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ، قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ: فَأَنْتُمْ قَدْ وَصَفْتُمُوهُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَهَذَا هَكَذَا؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا الْجِسْمُ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُوصَفَ بِأَحَدِهِمَا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ؛ فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ».

الشَّرح

قوله: «ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتَةُ». المقصود بهم: الأشاعرة؛ يسمونهم مُثْبِتَةً لأنهم أثبتوا بعض الصفات؛ ولكن يؤولون الصفات الأخرى ـ كالغضب والرضا ـ؛ أما أهل السُّنَّة فهم يُثبتون جميع الصفات، وجميع ما أثبته اللهُ ﷻ لنفسه.

وينفون: «**الِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ**». الإِتْيَان والمَجِيءِ شيء واحد.

وكلام المؤلف هذا مع الأشاعرة الذين أثبتوا الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر، فقالوا: (هذه ثبتت بالعقول وبالسمع؛ وأما الغضب والرضا والمحبة والنزول والاستواء؛ فهذه لو أثبتناها للزم من ذلك التجسيم؛ لأن الغضب غليان القلب، ثم يطلب الغاضب الانتقام، وكذلك الرضا هو انفعالات في النفس تدل على السرور، وعلى الميل إلى هذا الذي رضي به، والميل لا يجوز أن نصف الله ﷻ به، فإن هذا يدل على الحاجة وهذا تشبيه).

فيقال لهم: وكذلك الصِّفات التي أثبتُّموها ـ كالعلم ـ، فإنه لا يقوم إلا بجسمٍ كما هو مشاهَدٌ، فلا تجد علمًا قائمًا بنفسه، فيلزمكم هذا الذي قلتموه فيما أثبتموه. وكذلك «الإرادة»، فهي الميل إلى المراد، والميل إلى المراد فيه حاجة كما قلتم في الرضا.

فالمقصود: أنهم يُلزَمون بالشيء الذي تأولوا الصِّفات من أجله؛ كما زعموا حينما أثبتوا سبعَ صفاتٍ، فيُلزَمُون بأن يكون الطَّريق واحدًا؛ إمَّا أن ينفوا نفيًا مطلقًا كالمعتزلة، وإمَّا أن يثبتوا الذي نفوه مثلما أثبتوا السَّبعة. وقولُهم: «إنَّه اجتمعت عليه الأدلة»، فيقال لهم: والذي تأولتموه أيضًا اجتمعت عليه الأدلة.

هم يقولون لأهل السُّنَّة: هذا تجسيمٌ، وهذا تشبيهٌ.

فيقول لهم أهلُ السُّنَّة: أنتم أثبتم الحياة والعلم والقُدرة والسمع والبصر؛ فالشيء الذي تقولونه لنا، نقوله لكم فِي هذه الصفات؛ فقد فقلتم: (إنَّكم لا تعرفون إثبات الغضب ـ مثلًا ـ إلا بجسم، وأنه غليان دم القلب ثُمَّ طلب الانتقام، فسبق أن هذه صفة المخلوق وليس صفة الله، **هذا أوَّلًا**.

وثانيًا: أنَّ الحياة والعلم والقُدرة لا نعرف إثبات الحياة والقُدرة والعلم إلا بجسمٍ، فما نجد أنها قائمةٌ بنفسها.

كل هذا من باب الجدال؛ ولكن هل هذا هو الحق؟! ليس هذا هو الحق، بل الغرض هو إبطال الباطل فقط؛ وإلا فحياة الله وغضبه وعلمه وقُدرته ورحمته كلها صفاتٌ تقوم بالرب ﷻ على الوجه الحقيقي الذي لا يُشبهه شيءٌ من خلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

المقصود: أنَّ قول أهل السُّنَّة الذين ردُّوا على الأشعرية، فقالوا: أنتم أثبتم أن له حياة، وله علمًا، وله سمعًا وبصرًا، ونفيتم الرضا والغضب والمحبة، والاستواء والنزول، والمجيء وما أشبه ذلك من الوجه واليدين والرجلين وما أشبه ذلك مما جاءت به النصوص بحجَّة أنكم تقولون: إننا لا نعرف متَّصِفًا بهذه الصفات إلا ما هو جسمٌ، والتجسيم ـ وهو جعل وصف الله بأنه جسمٌ ـ كفرٌ.

فيقول لهم أهل السنة: وأنتم كذلك لما أثبتم هذه الصفات السبع، قلتم: إنه حي، وإنه عليم، سميع، وقدير، وبصير، ومتكلم، نحن لا نعرف في المخلوقات التي أنتم تجعلونها أصلًا يتَّصِف بهذه الصفات التي قلتموها إلا ما هو جسمٌ، فبَطَلَ استدلالهم بذلك، والمقصود بهذا: أن الاستدلال على نفي الصفات، أو نفي النقائص، بأنه ليس بجسمٍ ولا متحيِّزٍ!، استدلالٌ باطلٌ لا يستقيم بوجه من الوجوه.

وبيانُ التَّناقُض بينهم؛ وأنهم مُتناقضون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ اللهَ تَعَالَى بِالنَّقَائِصِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ طَرِيقًا فَاسِدًا: لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالأَئِمَّةِ، فَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَقِّ اللهِ بِالْجِسْمِ لَا نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَلَا بِالْجَوْهَرِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا عِبَارَاتٌ مُجْمَلَةٌ لَا تُحِقُّ حَقًّا وَلَا تُبْطِلُ بَاطِلًا؛ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ: مَا هُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، بَلْ هَذَا هُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ».

الشَّرح

قوله: «لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَةِ»؛ لأنَّ السَّلَفَ أغناهم الله ﷻ بكتابه عن هذه المهاترات وهذه الضَّلالات، فاكتفَوا به وهذا هو الواجب؛ لأنَّ هذه المسالك الكلامية لا تورِثُ إلا الشكوك والاغتراب أو الإلحاد ـ وهو الكفر بالله ﷻ ـ؛ أما العلم والهدى، فلا يوجد فيها!

الرَّدُّ على هؤلاء يكون بالنصوص التي جاءت عن الله ﷻ، وهي تدلُّ على الكمال، فيكفي العبد في مثل هذا أن يقول: إن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وأنه ﷻ قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، فهذا الكمال، ويرد عليهم بهذا.

أمَّا تصوُّراتهم، فهي تصوُّراتٌ في المخلوق؛ حيث جعلوا المخلوق هو الأصل ـ كما سبق ـ، ثم قاسوا على ذلك نفيَ الصفات؛ لأنهم زعموا أنه إذا أُثبتت، صار مثل المعهود لهم مما يشاهدونه من أنفسهم، فهذا أصلُ الضَّلال والانحراف.

سبق أن بينا: أنَّ كوننا نردُّ على أهل الباطل بأنَّ الله ليس بجسمٍ ولا متحيِّزٍ ولا غير ذلك، فهو **أوَّلًا**: كلامٌ مجملٌ، والإجمال الذي ليس فيه تفصيلٌ ما يكفي في الردِّ. **وثانيًا**: أنه باطِلٌ؛ لأن الله ﷻ ما يوصف بهذا، بل هو ﷻ مقدَّسٌ عن مشابهة المخلوقات، وإن كان هو أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، ولكن لا يجوز

أن نصفه إلا بما وصف به نفسه، ولا نسميه إلا بما سمى به نفسه؛ لأنه ـ كما سبق ـ لا مثلَ له ولا تُضرب له الأمثال، ولا أحد يشاهده حتى يَصِفَه بوصفٍ يمكن أن يكون مطابقًا للموصوف، بل الخلق عاجزون عن وصفه بما هو أهله. ، فهو كما وصف نفسه.

قوله: «**وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ...**»، يعني: ردَّ اللهُ ﷻ عليهم بما هُوَ واضِحٌ بأنه على كل شيءٍ قدير، وأنه ﷻ خلق السموات والأرض فِي ستة أيامٍ وما مَسَّه من لغوبٍ ومن إعياء وتعبٍ، وأنه ﷻ يداه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء، وأنه ﷻ هُوَ الغني عَنْ كلٍّ ما سواه، فردَّ عليهم بالشيء الذي هو ثابتٌ له ـ تعالى وتقدَّس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

فَصْل

«وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ: فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إِثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، إِذْ لَوْ كَفَى فِي إِثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ وتعالى مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ..».

الشَرْح

قوله: «**وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ...**». إنَّ ما يُثبَت لله لا بُدَّ أن يكون كمالًا مطلقًا، ولا يُستعمل في حقه القياسُ؛ سواءٌ كان قياسَ تمثيلٍ أو قياسَ شمولٍ، وإنما يجب أن يكون المثبت له كمالًا مطلقًا. ومعلومٌ أنَّ هذا زائدٌ على ما مضى، فيُثبَت له ما أثبته لنفسه ﷻ، وإذا اكتفى بهذا فإنه كافٍ، ولكن نقول زيادة على ما مضى: هذا أُخِذَ من الصفات نفسها، فهي دالة عليه.

والجانب الثَّاني: النفي، ولا يُكتفى به فيقال: يُنفى عنه التشبيه فقط، بل يجب أن يُنفى عنه النقائص كلها.

ثُمَّ الأمور المجملة لا يجوز إقرارها حتى تستوضح ويعلم ما المراد بنفي الشيء المجمل، فلا بُدَّ أن نسلك الكتاب والسنة، فنقول: نثبت ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسولُه ﷺ، وننفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ؛ هذه هي الطريقة السليمة، وهي التي تبطل ما يقوله هؤلاء.

أما أن نسلك طرقًا نبتدعها، ونأتي بها من عند أنفسنا فإنَّها قد تكون متناقضة، وقد يأتي من ينقضها كما هو الواقع، فإنَّ الواقع بين المتكلِّمين أنَّ كلَّ فريق ينقض دليل الآخر.

فإذا خرجنا عَنْ الكتاب والسنة، وقعنا فيما وقع فيه المُتكلمون المُتهافتون الذين صاروا يتهاترون فيما بينهم، وكلٌّ واحدٍ يُبطل حُجة الآخر؛ لأنها ليس مبنيَّةً على أصلٍ صحيح. أما إذا أخذنا كتاب الله وجعلناه أصلًا لنا؛ فإذا قال لنا: من أين

لكم هذا؟ نقول: مِنَ الله، هل أنتم أعلمُ أم الله؟! فاللهُ أعلمُ بنفسه وبغيرِه من خلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

ونحنُ نُحاجُّكم بهذا الآن فِي الدُّنيا؛ وبين يدي الله إذا سألَنا نقول: (هذا قولك، وقولُك هُوَ الحقُّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)، وهؤلاء ماذا يقولون إذا قَالَ لهم اللهُ ﷻ: (لِمَاذَا قلتم هذا القول؟ من أين لكم؟) هل سيقولون: من عقولنا؟! وهل أنتم كُلِّفتم باتباعها؟! يَقُول: (ثُمَّ عقولكم صارت مُختلفة، كل واحدٍ له عقلٌ، وكل واحدٍ يردُّ على الآخر)؛ هذا المقصود.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

« . . إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَكَمَا لَوْ قَالَ الْمُفْتَرِي: يَأْكُلُ لَا كَأَكْلِ الْعِبَادِ، وَيَشْرَبُ لَا كَشُرْبِهِمْ، وَيَبْكِي وَيَحْزَنُ لَا كَبُكَائِهِمْ وَلَا حُزْنِهِمْ، كَمَا يُقَالُ: يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ، وَيَفْرَحُ لَا كَفَرَحِهِمْ، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِهِمْ، وَلَجَازَ أَنْ يُقَالَ: لَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا كَأَعْضَائِهِمْ، كَمَا قِيلَ: لَهُ وَجْهٌ لَا كَوُجُوهِهِمْ، وَيَدَانِ لَا كَأَيْدِيهِمْ. . . حَتَّى يَذْكُرَ الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ وَالذَّكَرَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللهُ ﷻ عَنْهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

الشَّرح

هذا شرحٌ لقوله: «إنه لا يكفي أن يُنفى النفي الذي فيه نفي التشبيه فقط؛ فلو كان كذلك لجاز أنه يُثبت كذا وكذا مع نفي التشبيه)، يعني: من باب العقل والمجادلة، لكن الله ﷻ لا يجوز أن يُثبت له إلا ما أثبته لنفسه، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه نفيًا وإثباتًا ـ كما سبق ـ.

ولكن قصده بذلك أن يبطل هذه الطريقة التي يقولون فيها: (نحن نبطل ما يقوله اليهود وغيرهم مما يصفونه بأن نقول: «إنه ليس بجسم وليس مشابهًا للخلق»). فلو كانت هذه كافيةً لقيل مثل ما ذكر المؤلف؛ إنه له أعضاء، وله كذا وكذا، ولا تُشبه الخلق.

مقصود المؤلف بهذا: مُجادلة هؤلاء عقلًا، حتى يبين أن هذا المسلك الذي سلكوه فاسدٌ.

قوله: «لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سبحانه مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ»؛ أي: أنا نصفه مَثَلًا بأنَّ له كبدًا، وبأنَّ له أذنًا،

وبأنَّه ليست كبده ككبد الناس، ولا أُذنه كأُذن الناس، وننفي التشبيه؛ هذا المقصود.

ولكن هذا لا يكفِي، بل يجب علينا أن نتقيد بما جاء عَنْ ربنا ﷻ، والله ﷻ تعرَّف إلى عباده بما وصف به نفسه وسمى به نفسه. فيُعرِّفنا بنفسه بذلك، وإن كان التعريف به أَيْضًا أعمُّ من هذا؛ فإنا قد عرفناه أَيْضًا بمخلوقاته، ومن أكبرها: السموات والأرض، ولهذا يذكرها كثيرًا عندما يأمرُ ﷻ بعبادته.

قوله: «كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ...». يعني: أن هذه الأمور لم يوصف الله ﷻ بها؛ فإذا قال قائل: (أنا أقول: إنه يبكي بلا كيف، ويحزن بلا كيف، ويجوع بلا كيف!). فيقال: هذا باطل أصلًا؛ لأنه نقصٌ، والنقص لا يدخل في صفات الله ﷻ، وإنما يوصف الله بالكمال، ولا ينفع القول: «بلا كيف»؛ لأن هذا يكون فيما أثبت له من صفات الكمال، فكيفيتها غيرُ معلومةٍ؛ لأنها تحتاجُ إلى النَّظَرِ والمشاهدة، ولا أحدَ يشاهد الله ﷻ.

فالكيفُ الذي نُفي إنَّما هو في علم المخلوق، أما في صفات الله ﷻ فلا تُنفى عنه الكيفية، وإنما يُنفى علمها عن المخلوق.

قوله: «يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ...». الضَّحِكُ ثابتٌ لله؛ فالله ﷻ يضحك، ولا نثبت إلا ما أثبته لنفسه، ولا نعلم كيفية الضَّحِك؛ لأنَّها مجهولةٌ بالنسبة للمخلوقين، كما قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وهذا يقال في جميع الصفات.

قوله: «... حَتَّى يَذْكُرَ الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ...» هذه كلها أمورٌ لا ينبغي ذكرها؛ لأنها أمورٌ باطلة، وكل مُسلم يعلم أنها باطلة، وأنَّ الله يتعالى ويتقدس أن يُضاف إليه شيءٌ من ذلك، فاللهُ ﷻ لَيس كمثله شيء وهو الصمد - تعالى وتقدَّس -.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ نَفَى ذَلِكَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَمَا أَثْبَتَّهُ إِذَا نَفَيْت التَّشْبِيهَ، وَجَعَلْت مُجَرَّدَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَافِيًا فِي الْإِثْبَاتِ؟ فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ فَرْقٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ».

الشَّرح

هذا كلام تقديري؛ أي: عند هؤلاء الذين نفوا الصفات، وجعلوا لهم طرقًا في نفيها يرجعون إليها، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن هذه طرق باطلة.

لا يكفي لإثبات الكمال أن يقال: (إنه لا يشبه شيئًا، وأنه لا يشبه الخلق)؛ لأنَّ المبطل يأتي بأوصافٍ من أوصاف النقص، ويقول أيضًا: (هو لا يشبه الخلق فيها)، فتبين بهذا أنَّ هذا طريق فاسد.

وعلماء أهل السنة اتفقوا على أن الصفات توقيفية، نقف فيها على النَّصِّ فقط، فإذا جاء النص من الكتاب والسنة قلنا به، وإلا فلا نَصِفُ الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ثم كيف يجرؤ الإنسان أن يقول مثل هذا الكلام الكفري الظاهر، ولا يخاف الله جَلَّ جَلَالُهُ، فربما إذا تكلم بشيء من ذلك عوجل بالعقاب العاجل كما وقع لبعضهم، بل إنه لما تكلم في الله جَلَّ جَلَالُهُ بكلامٍ يشبه هذا نزلت عليه صاعقةٌ أحرقته.

قوله: «مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَمَا أَثْبَتَّهُ...». الفرق: هو أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ غيبٌ، وهو كاملٌ لا يعتريه نقصٌ، فلا يثبت له إلا ما أثبته لنفسه، والذي أثبته لنفسه هو الكمال المطلق، ونفى عن نفسه النقائص، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا هو الفرق.

فالبكاء والحزن والجوع وما أشبه ذلك نقائصُ، ولا يجوز أن تُثبتها لله، فالله لا يوصف بالنقص - تعالى وتقدس -، وليست هي كالضحك والفرح الذي أخبر الله جَلَّ جَلَالُهُ به؛ فإن هذا كمالٌ، فالذي يضحك من المخلوقين أكمل من الذي

لا يضحك، والذي يفرح من المخلوقين أكمل من الذي لا يفرح، والله ﷻ له الكمال المطلق، وليس ضحكه كضحك المخلوق، بل هو يليق بعظمته وجلاله.

ثم إذا قال: إن هذه الصفة التي يريد أن يثبتها، أقول كذلك إنه ليس كضحك المخلوق، فيقال: أتثبتَ شيئًا قد نفاه الله ﷻ عن نفسه مجملًا، فالله ﷻ ليس له سمي، وله الكمال، فهذا نقصٌ ولا يجوز إثباته أصلًا، وقولك: بلا كيف؛ لا ينفع في هذا.

لا بُدَّ من إثبات الكمال له فيما وصف الله ﷻ به نفسه كما دلَّت عليه النصوص.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قيل: الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ، فَمَا جَاءَ السَّمْعُ به أَثْبَتَهُ، دُونَ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ السَّمْعُ».

الشرح

قوله: «الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ...». هذا كلام باطل، فالسمع نفاها، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ٢]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذه كمالاتٌ؛ فأثبت الكمال لنفسه ونفى النَّقصَ عن نفسه، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وما أشبه ذلك من الآيات. فليس مجرد كونه لم يرد بالسمع كافيا في إثبات صفة.

ونقول: إنَّ ورود السمع لا ينفي كونه يوصف بشيء آخر؛ لأنه يجب ألا نصف ربنا ﷻ إلا بما وصف به نفسه، وسبق أنَّ باب القياس في هذا ممنوعٌ؛ لأن الله ليس له نظير حتى يقاس عليه.

قوله: «... السَّمْع» المقصود به: الكتاب والسنة، وهذا هو الحقُّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«قِيلَ لَهُ: أَوَّلًا: السَّمْعُ هُوَ خَبَرُ الصَّادِقِ عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ».

الشَرح

نعم، هو الحق الذي يجب أن يسلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ، وَالْخَبَرُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ، فَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ، إذَا لَمْ يَكُنْ قد نَفَاهُ».

الشَّرح

ولكن الثابت في نفس الأمر: الكمال، أمَّا إذا وُجِد نقصٌ فلا يكون ثابتًا، ولا يدلُّ عليه السَّمع أيضًا، بل السمع دلَّ على أنَّ الله الكمال المطلق، ودلَّ السمع أيضًا على أن أوصاف الله ﷻ لا تنحصر فيما ذُكِرَ، وكذلك أسماؤه ـ تعالى وتقدس ـ، ولكن ربنا ﷻ أخبرنا ببعضها، ليكون البقية على هذا المنوال، فيُكتفى بما ذكره الله ﷻ، ويقف العبد عند ذلك، ولا يجوز له أن يتجاوزه؛ فإن تجاوُزَه لا يخلو به الأمرُ إما كونه معاندًا ومكابرًا لله ﷻ، ولرسله، أو أنه جاهلٌ يحتاج إلى تعليم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ لَمْ يَنْفِ هَذِهِ الْأُمُورَ بِأَسْمَائِهَا الْخَاصَّةِ».

الشرح

هي الأمور التي يقولونها؛ لم يأت السَّمع إلا بما هو كمالٌ لله ﷻ من إثبات الكمالات، ونفي النقائص، وسبق أنَّ النَّفي لا يُقصد لذاته، بل لإثبات كمال ضدِّه، كما في نفي الظلم في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، فدل على نفي الظلم - وهو وضع سيئات ليست عليه، فهذا لا يقع -، وإثبات كمال العدل لله ﷻ. فهذه هي الطريقة السليمة التي هي طريقة الكتاب والسنة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا يَنْفِيهَا مِنَ السَّمْعِ، وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ نَفْيُهَا، كَمَا لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهَا».

الشرح

أي: ما لم يأت الكتاب والسنة بها فلا تثبت؛ فإذن: نحن مقيَّدُون بما جاء به الكتاب والسنة، كما قال السلف: (إن صفات الله توقيفية).

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَأَيْضًا، فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُثْبَتُ لَهُ وَيُنْفَى عنه، فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ: يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ، فَلَا بُدَّ مِنَ اخْتِصَاصِ الْمَنْفِيِّ عَنِ الْمُثْبَتِ بِمَا يَخُصُّهُ بِالنَّفْيِ، وَلَا بُدَّ مِنَ اخْتِصَاصِ الثَّابِتِ عَنِ الْمَنْفِيِّ بِمَا يَخُصُّهُ بِالثُّبُوتِ».

الشرح

قوله: «وَأَيْضًا: فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ...». هذا جوابٌ لِمَا لو قيل: (أنا أصفه بالبكاء أو بالحزن أو بغير ذلك)، ثم يقول: (إنه ليس كحزن المخلوق وغيره)، فهذا معناه أنه عكس الدليل، فيقال: إن الله ﷻ له الكمال المطلق، والصفات التي وصف بها نفسه في كتابه كمالٌ، وما نفاه فهو باطِلٌ: وعلى كل حالٍ: هذا تكرارٌ لما سبق، وزيادة إيضاحٍ.

المقصود في هذا: أنَّ النفي أو التنزيه المطلق لا يكفي، بل لا بُدَّ من الإثبات، فالاعتمادُ على العقل أو على القياس لا يكفي؛ لأنَّ هذا القياس لا بُدَّ أن يكون على موجودٍ، والله ﷻ لا مثيلَ له حتَّى يقاس عليه ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، فأصبح الأمر محصورًا فيما جاء به الكتاب والسنة، لا يجوز أن نتعدَّاه.

كلمة «الجسم» أو «التحيز» أو «التشبيه» أو غير ذلك فهذه أمورٌ مجملةٌ يجب أن تُرجع إلى النصوص، فإن دلت على معان ثابتة لله رددنا اللفظ، والمعنى الحق قبلناه وعبَّرنا عنه بألفاظ ثابتة بنصوص الوحي.

والوحي حقٌّ وما دلَّ عليه حقٌّ، فالاقتصار عليه والاكتفاء به هو الواجب، في النفي والإثبات.

خُلاصة الكلام؛ أننا يجب أن نتقيَّد بما وصف اللهُ ﷻ به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، أما الأمور العقلية التي يُقدِّرها الذهن أو يفرضها، فهذه لا دخل لها في ذلك، بل يجب أنها تُنفى ويجب ألَّا يُثبت منها شيء، والذي أثبته ربُّنا ﷻ لنفسه هو الكمال الذي يجب أن يتَّصف به ربُّنا ﷻ ويُكتفى بهذا.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ اللهِ تعالى، كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ، وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، فَمَا الْفَرْقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا؟».

الشَّرح

المقصود بذلك أن السمع كافٍ في الإثبات والنفي، إثبات الكمال ونفي النقائص. وقد اكتفى به سادة الأمة من الصحابة وأتباعهم فاهتدوا؛ وضلَّ من لم يكتفِ به.

فيقول المؤلف أنَّ السمع كافٍ في هذا: «وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللهِ كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ».

ولهذا قال: **«وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ فَمَا الْفَرْقُ؟»**. أي: ما الفرق بين قوله هذا، والفرق بين ما ثبت في السمع؟ يقول: لا فرق؛ فإذَن: هذا القول باطلٌ، ونكتفي بما قاله الله ﷻ وقاله الرَّسول ﷺ، وهذا هو الحقُّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَيُقَالُ: كُلّ مَا نُفِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ للهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، فَإِنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الآخَرِ، فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ قَدِيمٌ وَاجِبُ الْقِدَمِ، عُلِمَ امْتِنَاعُ الْعَدَمِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ».

الشَّرح

وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه؛ أنه واجب الوجود بنفسه، وواجب القدم، فهو ﷻ لا مبدي له، فهو أوَّلٌ بلا بداية، وهو كذلك الآخر بلا نهاية.

وأمَّا أن نقول: «قديمٌ»؛ فهذا لأجل مخاطبة أهل الاصطلاح، وإلا فـ «القديم» ليس من أسماء الله ﷻ؛ لأنَّ القديم قد يكون نسبيًّا، فهو قديم بالنسبة لما جاء جديدًا من نوعه، فيصبح لا يدلُّ على الأوَّلِيَّة، ولا على كونه ﷻ لا مبدي له - وقد تقدم هذا مرارًا -.

والمؤلف رحمه الله إذا قال: «هو واجب الوجود»، أو: «أنه قديم واجب القدم»، يقصد نفي الحدوث عنه، أو نفي الحاجة إلى شيء من الأشياء؛ فهذا المقصود، لكن ينبغي أن نكتفي بما جاء في كتاب الله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، فهذا يكفينا عن ذلك.

أما «**واجب الوجود**»: فهو اصطلاح اصطلحوا عليه، ومعناه: الغني بذاته عن كل ما سواه، الذي استغنى بنفسه عن كل شيء؛ ويغني عن هذا قولُه ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وقولُه: ﴿ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]، وقولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، وقولُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١]، وقولُه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، كلُّ واحدةٍ من هذه الآيات يكفي عن قولهم: «أزلي»، أو: «قديم»، أو: «واجب الوجود»، فهي اصطلاحات اصطلحوا عليها، لكن معانيها موجودةٌ في كتاب الله بأوضح عبارةٍ، وأقرب إلى الفهم وأسلم من الاعتراضات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَعُلِمَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْمُفْتَقِرُ إِلَى مَا سِوَاهُ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَفْسِهِ، لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، بَلْ بِنَفْسِهِ وَبِذَلِكَ الآخَرِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فَلَا يُوجَدُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وتعالى غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَكُلُّ مَا نَافَى غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ قَوِيٌّ، فَكُلُّ مَا نَافى قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ قَيُّومٌ، فَكُلُّ مَا نَافَى حَيَاتَهُ وقيوميته فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ، فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه، كَمَا يَنْفِي عَنْهُ الْمِثْلَ وَالْكُفُؤَ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ الشَّيْءِ نَفْيٌ لِضِدِّهِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ. وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ، كَمَا يَعْرِفُ إِثْبَاتَ ضِدِّهِ، فَإِثْبَاتُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ نَفْيٌ لِلآخَرِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُهُ».

الشرح

يعني: أنَّ السمع أثبت له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فأثبت له الكمال، ونفى عن نفسه النقائص؛ فأضدادُ أسمائه نقصٌ. فكلُّ من أتى بخلاف ذلك فيجب أن يُرَدَّ عليه قولُه، فالله لا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له، وليس له سميٌّ ـ تعالى الله وتقدس ـ. فالمقصود أنَّا نستغني بالوحي عن كلام هؤلاء، وهذا أمرٌ واجِبٌ وحتمٌ؛ وإلا يضلُّ الإنسان ولا بُدَّ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الاكتفاء بالوحي كافٍ في إثبات الكمال ونفي النقائص، فلا نحتاج إلى ما يقوله المتكلمون مِن (أنَّه يجب علينا أن ننفي عنه الجسمية أو كونه متحيزًا أو غيرَ ذلك)، فهذا القول أوَّلًا في نفسه باطِلٌ؛ لأنَّه قد يُراد به أمورٌ متفاوتةٌ، وإذا عُيِّن فلا بُدَّ من الاستفصال فيما يريد، فإن تبين أنه يريد حقًّا، قيل له: (إن ما تقوله ألفاظُها باطلةٌ، وأما المعنى الحق ففي الوحي ما يغني عنه، فلسنا بحاجة إلى ذلك.

والوحي أثبت الكمال لله ﷻ ونفى عنه النقائص، فوجود الله ﷻ واجبٌ بنفسه، بمعنى أنه مستغنٍ عن كلّ ما سواه. أما لو كان بحاجة لوجوده إلى شيء آخر، لم يكن وجودُه بنفسه؛ بل كان وجوده بنفسه وبغيره = وهذا لا يكون كاملًا، بل هذا نقصٌ، والله منفيٌ عنه النَّقص؛ وهكذا يقال في بقية الصفات.

قوله: «**وَبِالْجُمْلَةِ: فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ**»، ويعني بـ «السَّمْع»: خبر الله ﷻ وخبر رسوله ﷺ، «**قد أَثْبتَ لله الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ**»، فهذا هو المسلك الحق الذي يجب أن يُسلك وغيره باطلٌ.

قوله: «**فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه**»، يعني: أن الذي يضادُّ الكمال ويضادُّ الحسن فالشرع ينفيه. فإنَّ الإثبات الذي في أسماء الله ﷻ يقتضي إثباتَ كمال المسمَّى وما له ﷻ من أفعالٍ وأسماءٍ، وهذا الذي دلَّ عليه مجرَّد الخطاب هو الكمال الأحسن؛ بخلاف ما سلكه المتكلمون حيث إذا أُثبِت شيءٌ من ذلك قالوا: (هذا يستلزم التشبيه)؛ كمن أثبت العلو، فقالوا: (إنه يستلزم أن يكون في مكانٍ، والمكان لا يكون فيه إلا جسمٌ، والأجسام متشابهة)، وما أشبه ذلك من الكلام الباطل؛ فيبطلون به ما وصف الله ﷻ نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ.

وهذا لا يخرج عن القاعدة السابقة، وهي أن الله ﷻ لا يوصَف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله. وقد عُلِمَ أنَّ العقل لا يحيط إلا بالشيء الذي يدركه، والله ﷻ لا تدركه الأبصار، وهو غيبٌ لا يشاهده أحدٌ حتَّى يَصِفَه.

ثُمَّ الذي يقول المتكلمون يقتضي العدم، فيؤول أمرُهم إلى أنهم لا يثبتون شيئًا، لأنه إذا أثبت شيئًا فهو نفى أن يكون أفعالُه بحكمة أو جوَّز أنه يظلم ـ تعالى وتقدس ـ؛ فإذا أثبت ﷻ أنه عليم؛ فإنه ينفي أن يكون قد فاته شيء من المعلومات.

قوله: «**وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ، كَمَا يَعْرِفُ إِثْبَاتَ ضِدِّهِ...**» مقصوده بالعقل: الذي تجرَّد عن الهوى ونظر بإنصافٍ، فالعقول قد تنحرف، وقد تكون غير مستقيمة، فلا بُدَّ أن يكون العقل مستقيمًا؛ وإلا فعقول الناس متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، ولا سيما في هذا الأمر؛ فإنَّ الحق يخفى على كثيرٍ ممَّن عندهم عقولٌ في مثل هذا، أو أنهم يتعمدون الباطل.

فالمقصود: أنَّ إثبات أَحَدِ الضِّدَّينِ نفيٌ للآخر ولما يستلزمه، فإثبات الكمال نفيٌ للنقص.

قال رحمه الله تعالى:

«فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ، لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الِاقْتِصَارِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ كَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ، الَّذِينَ تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ، حَتَّى أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا احْتَجَّ عَلَيْهِ مَنْ نَفَاهُ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ».

الشَّرح

قوله: «فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ»، أي: الطرق العقلية التي تكون مبنيَّةً على الدليل؛ لأنَّ العقل لا بُدَّ أن يُقيَّد بالوحي، فإذا تقيَّد بالوحي فالوحيُ هو الأصل الذي ينتمي إليه، والوحي جاء بإثبات الكمال لله ﷻ ونفي النقص من كلِّ وجه.

ليس معنى كلام المؤلِّف هنا: **«فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ»**؛ أنا نأتي بشيء جديد من عند أنفسنا فنُثبته لله ﷻ؛ **لكن قصدُه بهذا:** أنَّا نَسِيرُ على القاعدة الشرعية.

فاللهُ ﷻ أخبر عَنْ نفسه أنه ﷻ له الصفات وله الأسماء الحُسنى، ونزَّه نفسه عَنْ مُشابهة المخلوقات، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا نهي واضِحٌ، يدخل فيه التنديد فِي العبادة والتنديد فِي الأسماء والصفات وغير ذلك.

وكذلك قَوْله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وكذلك قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١، ٢].

يقصد هذه الأمور الَّتِي جاءت عامة تنفي كل المُماثلة أو المُشابهة أو غيرها، فما يخرج عَنْ التقيد بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ؛ ولكن قصده الطرق الَّتِي دلت عليها هذه النصوص.

قوله: «فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ»، يعني: هذا من ناحية التنزيه؛ لأنها تؤول إلى القاعدة التي دلَّ عليها كتابُ الله تعالى من كونه لا ضِدَّ له ولا نِدَّ ولا شريكَ.

وكذلك كونه الصمد، فلا كُفْء له، فقال ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، والنِّدُّ: أن يكون مماثلًا ومساويًا له ولو في بعض الوجوه.

والمقصود: أنَّ ما يعتمده المتكلِّمون من قولهم: (إن إثبات الصفات فيه تشبيه) لا يكفي في التنزيه، بل لا بُدَّ من إثبات الكمال أوَّلًا. والإثباتُ أكمل من النَّفي، والنَّفيُ في صفات الله لا يأتي مقصودًا لذاته، وإنما لإثبات الكمال لله ﷻ.

وهذا تكرَّر عند الشيخ كثيرًا؛ لأنَّ كثيرًا من المتكلِّمين يزعمون نفي التشبيه، والتشبيه الذي عندهم غيرُ منضبط، فلا بُدَّ أن نرجع إلى فصول مطردة ليس فيها تناقضٌ ولا تستلزم نقصًا، وهذه لا تكون إلا في كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَكَذَلِكَ احْتَجَّ الْقَرَامِطَةُ عَلَى نَفْيِ جَمِيعِ الْأُمُورِ حَتَّى نَفَوْا النَّفْيَ، فَقَالُوا: لَا يُقَالُ مَوْجُودَ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَلَا حَيَّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالْمَوْجُودِ أَوْ الْمَعْدُومِ. فَلَزِمهمَ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ، وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ امْتِنَاعًا، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَعْظَمُ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالْأَحْيَاءِ الْكَامِلِينَ، فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى هَذَا».

الشرح

هذا المثال قد سبق، هذا القول للقرامطة، وهم لا يريدون حقًّا، وإنما يريدون أن يبطلوا الدين الإسلامي، فجاءوا بأشياء غير معقولة فقالوا: (إنه لا يقال: «موجود» ولا «ليس بموجودٍ»)، إذن ماذا يكون؟! يكون عدمًا أو أنه مشبَّهٌ بالمعدومات، وهذا كما سبق أنه أسوأ الأقوال وأخبثها.

وهذا بلا شك من أعظم الباطل، وظاهرٌ جدًّا أنهم لا يثبتون شيئًا، فهم لا يقولون: (إن الله ليس موجودًا) ثم يسكتون، حتَّى يتوهم من لم يعرف مرادهم أنهم ينزهون الله، وهم ينفون وجودَه أعظم النفي؛ لأنَّ هذا لا يشك فيه عاقلٌ أنه كفرٌ بالله وجحودٌ له، ولكن يأتون بالمتناقضات، ويروجون على من لم يعرف مرادهم ومقصودهم.

قوله: «فَقَالُوا: لَا يُقَالُ مَوْجُودَ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ» هذا كلام باطلٌ لا حقيقة له، فهو يدلُّ على كفرهم المتناهي وإلحادهم فيه، وقد يقولون ذلك للتمويه.

قوله: «فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى هَذَا»؛ أي: لا بُدَّ أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله في ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَا يُنْفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ وتعالى - النَّفْيُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِثْبَاتِ، إِذْ مُجَرَّدُ النَّفْيِ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ..».

الشرح

يعني: «يُنْفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ وتعالى - النَّفْيُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِثْبَاتِ».

النفي المُطلق المحض لا يأتي فِي صفات الله، لا بُدَّ أن يكون النفي يتضمن نفي ذاك المخصوص وإثبات كمال ضده.

مثل ما سبق، أن قوله ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، أن المقصود بذلك إثبات كمال العدل مع نفي الظلم، نفى الظلم المُعين وأثبت كمال العدل لله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]؛ كما سبق أن هذا فيه نفيُ الإعياء والتعب وإثبات كمال القُدرة والقوة، وهكذا فِي كل نفيٍ يوصف اللهُ ﷻ به، فليس المقصود به مُجرد النفي.

النفي المحض الخالص من الإثبات؛ وهذا حتى في الأفعال، والأعمال،

لو قيل مثلًا: «لا إله»، فهذا النفي لا يصلح، بل لا بُدَّ أن تقول: «إلا الله»، فمجرد الوقوف على النفي فقط قد يكون كفرًا، فكذلك النفي في قولهم: (إنه ليس فوقَ)، أو: (ليس جسمًا)، أو: (ليس كذا وكذا) = لا يكفي في التنزيه، بل هو يدل على النقص.

فإذا جاء النفي في صفات الله، فالمقصود به نفيُ المذكور وإثباتُ كمال ضِدِّه، وهو ﷻ يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣]؛ لأنه ﷻ أولٌ بلا بداية، وقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ٣]، يعني أنه ﷻ غنيٌّ بذاته عن كل ما سواه، وكل الخلق لا بُدَّ لهم من الولادة، حيث يتوالد بعضهم من بعض؛ إلا أباهم فإن الله خلقه من تراب، ثم خلق له زوجًا فصاروا يتناسلون، وهكذا الحيوانات وغيرها من كل حي.

فربُّنا ﷻ غنيٌّ بنفسه عن كلِّ شيء، فله الكمال المطلق من كلِّ وجهٍ، فلا يشبه المخلوقات لأنها ناقصةٌ، وهو ﷻ أثبت لنفسه الكمال، فيجب أن نتبعه فيما أثبت

لنفسه، ويجب كذلك أن نتبعه فيما نفى عن نفسه من النقائص، وبذلك نسلم من الانحراف. أما الذي يترك هذا المسلك، فلا بُدَّ أن يقع في الخلل والكفر والضلال.

الكلام في الله ﷻ لا يشبه الكلام في الخلق، ولا يشبه الكلام في المعاني، فيجب أن يكون الإنسان على حذَرٍ، أن يقع بمزالق اللسان، أو الفكر، أو غير ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ، وَالْمَعْدُومَ لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُود، وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا لَهُ؛ لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ فِي صِفَاتِ النَّقْصِ نَقْصٌ مُطْلَقًا، كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ، يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

الشرح

قوله: «وَالْمَعْدُوم لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُود»؛ لأنه ليس بشيء أصلًا، وإذا وصف الشيء بالنفي فإنَّ معناه أن هذا نقصٌ إلا إذا كان في ضمنه إثبات كمال ضد ذلك المنفي، ولهذا يُنزَّه الله ﷻ عن مثل هذا الكلام.

وعلى كل حالٍ: لما توسع الناس في هذا، احتجنا إلى أن نرجع الكلام إلى قواعد من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فكلُّ ما خالفهما يكون مردودًا؛ لأنه مخالفٌ لأفراد ما ذكره الله ﷻ عن نفسه، وكذلك مخالِفٌ للقواعد التي أخذت من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وخلافُ الناس لا حصرَ له.

قوله: «كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ، يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». «التشبيه»: هو أن يُجعَلَ لله ما هو من خصائص المخلوقين، أمَّا المشاركة في الاسم أو في المعنى البعيد فلا بُدَّ منه، وليس فيه تشبيهٌ ـ كما سبق تفصيله ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالنَّقْصُ ضِدُّ الْكَمَالِ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ وَالْمَوْتُ ضِدُّ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ النَّوْمُ وَالسِّنَةُ ضِدَّ كَمَالِ الْحَيَاةِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، وَكَذَلِكَ اللُّغُوبُ نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ فِيهِ افْتِقَارٌ إِلَى مَوْجُودٍ غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْغَيْرِ وَالِاعْتِضَادَ بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إِلَيْهِ وَالِاحْتِيَاجَ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَحْمِلُهُ أَوْ يُعِينُهُ عَلَى قِيَامِ ذَاتِهِ أَوَ أَفْعَالِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لَيْسَ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ بِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ؟! وَالْآكِلُ وَالشَّارِبُ أَجْوَفُ، وَالْمُصْمَتُ الصَّمَدُ أَكْمَلُ مِنَ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ صمدا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ».

الشَّرح

هذا مثالٌ لما سبق، فكلُّه شرحٌ وتمثيلٌ بأن النفي يدلُّ على إثبات الكمال في صفات الله ﷻ، وليس كما يقول المتكلِّمون؛ حيث يأتون بنفيٍ محضٍ خالصٍ.

قوله: «وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ» ما جاء في هذا نص، ولكنه نقصٌ؛ لأن الَّذي يفتقر إلى الأكل والشرب افتقر لإخراج الفضلات، ولهذا كانت الملائكة أكملَ من بني آدم؛ لأنَّ الملائكة صُمُدٌ لا تأكل ولا تشرب.

قوله: «وَلِهَذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ صُمُدًا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ» لأنها تستغني بالتسبيح، فهو قوتها.

ولكن الأكل والشرب نقصٌ، وكذلك غيره من النقائص التي يتَّصِف بها الإنسان، مثل كونه سبقه العدمُ؛ فهذا دليلٌ على نقصه؛ لأنَّ الذي أوجده غيرُه، أوجده بعد ما كان عدمًا، لذلك يلحقه الموت؛ لأنه أيضًا ناقصٌ.

أمَّا رب العالمين ﷻ فهو حيٌّ له الحياة الكاملة التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها موتٌ، ولا أيضًا تتصف بسِنَةٍ ـ وهو النُّعاس ومبادئ النوم ـ، ولا النوم؛ لهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لكمال حياته، وكذلك القيوم لكمال قيامه بنفسه، فلا قيام لأحد إلا به، فهو قام بذاته،

وأقامَ غيرَه، ولا قيام لأحد إلا به؛ فلهذا جاءت صيغة المبالغة: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

ومعنى ذلك: أنَّه هو الذي يُنيل عباده ما يحتاجون إليه، ويرزقهم إياه، وهو الغني عن كل شيء، غنيٌّ بنفسه عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ هذا يفهم من كلام الله ويُعلم، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وما أشبه ذلك.

والكلام الذي يقوله هؤلاء لا يأتي إلا بالنقائص، ولا يعطي الإنسان لا زيادة إيمان ولا زيادة علم، وإنما قد يورثه شُكوكًا تحول بينه وبين الحقِّ. والواقع أنه حالت هذه بينهم وبين معرفة الله ﷻ عقابًا من الله لهم؛ لكونهم انصرفوا عن مصدر العلم والإيمان إلى أفكارهم وأنظارهم القاصرة، فعوقبوا بأن صارت نهايتهم الحيرةُ والضَّلالُ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ».

الشَّرْح

أي: لا بُدَّ تقييدُ هذا، فكل كمال ثبت لمخلوق لا نقصَ فيه بوجهٍ من الوجوه، فالخالق أولى به؛ لأنه هو واهبه.

والمخلوق ما يستطيع أن يُوجِدَ الكمال لنفسه، فمثلًا: الذي يتكلم أكملُ من الذي لا يستطيع الكلام، والذي يبصر أكملُ من الأعمى الذي لا يبصر، والذي يقوم ويذهب ويأتي أكملُ ممن لا يفعل ذلك، فالنقائص موجودةٌ في المخلوقات كلِّها.

وإذا حصل في المخلوق كمالٌ، فلا يكون كمالًا من كلِّ وجهٍ، ولكن مقصود هذا مثل الكلام؛ نقول عنه: إنه كمال، فمعلومٌ أنَّ الذي يتكلَّم أكملُ من الذي لا يتكلم، فكيف يُقال: إن الله لا يتكلم - تعالى الله وتقدس -؟! فواهِبُ الكمال هو الله ﷻ، وواهبه لا يكون فاقدًا له.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ».

الشرح

نعم هذا مطلقٌ؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]؛ أي: الأنثى، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ١٧]، ومع ذلك قالوا: (إنَّ الملائكة بناتُ الله)، تعالى الله وتقدس؛ لأنَّ الملائكة جاء وَصفُهم بالتَّأنيث؛ لأنهم جماعاتٌ كثيرةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾ [الصافات: ١ ـ ٢]؛ فهذه مؤنثة لأنها جموعٌ، والجموع كلُّها مؤنثةٌ؛ ولهذا نقول: (قالت العرب)، (قالت الجماعة)، وما أشبه ذلك.

فهُم قالوا: (ما دامَ أنها جاءت بألفاظ مؤنثة فهي إناث)، وقالوا: (إنها بناتُ الله)، وقالوا: (إنه صاهرَ إلى الجنِّ) ـ تعالى الله وتقدس ـ، فنفى ربُّنا ﷻ عن نفسه هذا النَّقص، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣]، لأن ما قالوه شركٌ وكفرٌ بالله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالسَّمْعُ قَدْ نَفَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ٢]، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ».

الشَّرح

قوله: «وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ...». هذا قولٌ من أقوال المفسِّرين في تفسير «الصمد»، الذي لا جوف له؛ أي: لا يأكل ولا يشرب.

والتَّفسير الثَّاني: أنَّه هو الذي صمد بنفسه؛ أي: قام بنفسه، فاستغنى عن كلِّ شيء، وصمد إليه الخلائق لحاجتهم وافتقارهم إليه في الوجود، وفيما يستلزم وجودهم، فكل مخلوقٍ مفتقرٌ إلى الله ﷻ؛ فإنَّه عدم قبل وجوده، فلما أوجده افتقر أيضًا إلى ما يقيمه في حياته وغير ذلك. فـ «**الصَّمَدُ**»: هو الذي استغنى بنفسه وصمدت إليه الخلائقُ بحاجتها، فلا قيامَ لمخلوقٍ إلا به، وهو مُستغنٍ عن كُلِّ شيء.

ولا منافاة بين القولين؛ فكلمة «الصمد» يدلُّ على هذا وهذا، والله غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه، وهذا معنى قولهم: «واجب الوجود»، ولكن التعبير القرآني أفضل وأكمل من تعبير المتكلمين.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ نَسَبُ الرَّحْمَنِ أَوْ هِيَ الأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ».

الشَّرح

قوله: «نَسَبُ الرَّحْمَنِ». المقصود هنا: الصفة، كما ثبت ذلك في الحديث[1]؛ وسببُ قَوْله: «إنها نَسَب الرحمن»؛ لأنَّ الكُفَّار قالوا للنبي ﷺ: «انسب لنا ربك»، فأنزل الله هذه الصُّورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

أمَّا النسب في بني آدم وغيرِهم فهو لا بُدَّ أن يكون له فرعٌ وأصلٌ؛ واللهُ ﷻ ليس له أصلٌ وليس له فرعٌ ـ تعالى اللهُ وتقدس ـ، فلا يَلِدُ وَلَم يُولَدْ، فهو الأولُ قبل كل شيء، وهو الغنيُّ عَنْ كُلِّ شيء، وهو الآخِرُ بعد كُلِّ شيءٍ، ويتصرف في كُلِّ المخلوقات كيف يشاء؛ هو خلقها وأوجدها لحكمةٍ، وليس لأنه يحتاج إليها ـ تعالى الله وتقدس ـ.

قال الله ﷻ في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]؛ أثبتت الكمالات ونفت النقائص كلها، ولهذا تسمى هذه السورة بسورة «الإخلاص»؛ لأنها خالصةٌ في وصف الله ﷻ، وهي تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الصَّحيحين عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يُرَدِّدُهَا، فلمَّا أصبحَ جاءَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذلك لهُ، وكأنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**[2]، ويقول العلماء: السبب في أنها تعدل ثلث القرآن؛ لأن القرآن نزل لثلاثة أغراض:

أحدها: وصفُ الله ﷻ بما له وما يتنزَّه عنه؛ وهذا كثيرٌ.

والثاني: في الأمر والنَّهي.

والثالث: في الأخبار الماضية والمستقبلة، وماذا يكون للعاملين.

وسورة «الإخلاص» خالصةٌ في المعنى الأوَّل، فصارت بهذا المعنى تعدل ثلث القرآن؛ وهذا هو أصحُّ الأقوال في هذا.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى».

الشرح

أي: كيف يكونانِ إلهينِ وهُما يأكلان الطعام، والذي يأكل الطعام لا يكون إلهًا؛ لأنه ناقصٌ ومحتاجٌ، فأبطل ﷻ بهذه العبارات الوجيزة كفرهم وشركهم، وما يقوله هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، ووصفوا الله ﷻ بما يوصَف به المخلوق، تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وقوله عن المسيح وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾، يعني: أن المسيح وأمه كانا بَشَرَينِ يأكلان الطعام، ولو كانَا إلهينِ لما احتاجَا إلى أكل الطعام، فالإله لا يكون محتاجًا إلى الطعام والشراب. فالأكل يدلُّ على النقص فلا يكون إلهًا، وإذا أكل الطعام فهو محتاجٌ مفتقِرٌ إليه، وإذا أكل الطعام أيضًا احتاج إلى شيء آخر.

والأدلة على الحق وعلى إثبات الكمال لله متضافرة غير الذي جاء نصًّا، والذي جاء ضمنًا مثل هذه الآيات وغيرها كثير.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ: هِيَ أَعْضَاءُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، فَالْغَنِيُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ: مُنَزَّهٌ عَنْ آلَاتِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ».

الشَّرح

الطريق في إثبات صفات الله ﷻ هو الكتاب والسُّنَّة، فقد أغنانا الله ﷻ بهما، فلسنَا في حاجةٍ إلى الطرق الكلامية، ولا إلى ما يقَعِّده هؤلاء ويؤصِّلونه، فإنه ناقص ومتناقضٌ، ولا يدل على حق، وإنما يدل على باطل، بخلاف ما جاء في كتاب ربنا وفي أحاديث رسوله ﷺ فإنه حقٌّ وصدقٌ وكمالٌ.

قوله: «بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ»؛ أي: يثبت له ﷻ اليدُ والوجه والرِّجل ونحو ذلك، وإن كان المخلوق له هذه الأشياء، فالمخلوق يختص بما وصف به من هذه الأمور، والرب ﷻ يختص بما وصف به ما يليق به، وليس بينهما اشتباهٌ إلا في الاسم والمعنى البعيد الذي يُفهَم به المعنى؛ وكثير من الناس يزعم أن فيه تشبيهًا، وليس كذلك.

ثُمَّ كلمة «التشبيه» صار فيها إجمالٌ وإيهامٌ، وفيها حقٌّ وباطِلٌ، فلا بُدَّ من إيضاح الأمر في هذا ومعرفة مراد المتكلِّم بذلك، فإذا صار فيه حقٌّ فالحقُّ يجب أن يُقبل والباطل يُرَدّ، والمرجع في هذا ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ.

ومن المعلوم أنَّ وصف الله ﷻ لنفسه كمالٌ ليس فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، وصار هذا أمرًا ملزمًا لمن يجب أن يعرف ربه ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«إِذْ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْفِعْلِ».

الشَّرح

معناه أنَّ الذي يفعل قادرٌ، واليد الرجل من الكمال، فمعلومٌ أنَّ هذا في المخلوق، فالإنسان الذي له يَدَانِ أكملُ ممَّن له يدٌ واحدةٌ، والإنسان الذي رِجلٌ كذلك، ولكن سبق أنَّ الطَّريق الصحيح في الكمال: (أنَّ الله أولى بالكمال من المخلوق؛ لأنه هو واهبه ومعطيه، فلا يكون واهب الكمال ومعطيه فاقدًا له).

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ، وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحُزْنُ: هُوَ مُسْتَلْزِمٌ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ، الَّذِي يُنَزَّهُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَكَمَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ، وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ وَبِالْحَيَاةِ دُونَ الْمَوْتِ، وَبِالسَّمْعِ دُونَ الصَّمَمِ، وَبِالْبَصَرِ دُونَ الْعَمَى، وَبِالْكَلَامِ دُونَ الْبُكْمِ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِالْفَرَحِ دُونَ الْحُزْنِ، وَبِالضَّحِكِ دُونَ الْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

الشرح

يعني: يوصف بالكمال ويُنزه عن النقص؛ وكلُّ هذا شرحٌ لهذه الجملة فقط.

قوله: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ». سبق الكلام على هذا؛ بأنَّه مُنَزَّهٌ عَنْ الصَّاحبة والولد؛ و«الصَّاحبة»: الزوجة، و«الولد»: الذي يتولد من الزوج والزوجة.

ولكن هل هذا خالف القاعدة الَّتِي سبق ذكرها أَنَّ النفي فِي حقِّ الله يأتي مُجملًا ولا يأتي مُفصلًا؟! لا، لأن القاعدة أغلبية، وليست مُطردة، فلم يُخالف هذا القاعدة؛ لأن هذا له سبب، والشيء الذي له سببٌ خاص، ما يكون خارمًا للقاعدة ومُخالفًا لها.

والسبب الخاصّ: أَنَّ الكُفَّار أضافوا إلى الله الزوجة ـ تعالى الله وتقدس ـ، فقَالُوا: (إنَّه صاهَرَ إلى الجن)، وأضافوا إليه «الولد» فقالوا: (الملائكة بناتُ الله) ـ تعالىٰ الله وتقدَّس عن قولهم ـ، وجعلوا أيضًا الملائكة إناثًا؛ ولهذا قَالَ ﷻ: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩]، يُسأَلُونَ عَنْ هذا القول يوم القيامة؛ سيسألهم اللهُ ﷻ وهم ليس لهم على ذلك علمٌ.

فالملائكة جنسٌ غيرُ معروف لِبَنِي آدم، فلا يجوز أن يقال إنهم ذكور أو إناث، يقال: (إنهم ملائكة؛ رُسُلُ الله ﷻ)؛ لأنهم غيبٌ، والغيب ما يتكلم فيه الإنسان إلا بالوحي الذي جاء عن الله ﷻ.

قوله: «... **وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحُزْنُ: هُوَ مُسْتَلْزِمٌ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ الَّذِي يُنَزَّهُ اللهُ عَنْهُ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ: فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ؛ فَكَمَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ... إلخ**»؛ كلٌّ هذا الكلام لا يُخالف القاعدة، ولا يُخالف كونَه لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ولكن مقصوده بهذا: أنَّ صفات الله تعالى التي جاءت فِي القُرْآن، فيها الغِنى عما يقوله المُتكلِّمون، فلو اقتصروا على هذا لهدوا، ولكنهم ضلوا حيث تركوا الأصل، ومن ترك الأصول ضاعَ، فلا بُدَّ من الدَّليل وإلا يكون الإنسان تائهًا ضائعًا لا هادي له.

فالمقصود بهذه القاعدة: أنَّ النفي يجب أن يكون مُجملًا في حقِّ الله ﷻ؛ لأنَّه أكمل، خلافًا للنفي المُفرد الخاص الذي يخص شيئًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَا كُفُؤَ لَهُ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ».

الشَّرح

سبق أنَّ العقل لا يستقلُّ بالمعرفة؛ إذ لا بُدّ أن يُرشَد ويُدَلَّ، والذي يرشده ويدلُّه هو الوحيُ.

وليس معنى كلام المؤلف أنَّ العقل يُعتمد عليه في هذا، ولكن العقل يكون مُسترشدًا مُستدلًّا بالسَّمع، فالسَّمع دلَّه على هذا والعقل لا يُخالفه، فهذا معنى الموافقة.

والعقول تختلف، فعقل أبي بكر رضي الله عنه ليس كعقل أبي جهل، وعقل الرُّسُل عليهم السلام ليس كعقل الكافرين، وكذلك المؤمنون عقولهم تختلف، والله فاوتَ بينها، فقد يُعطى الإنسان عقلًا كاملًا بالنسبة له، وقد يكون ناقصًا، فكيف يكون الضَّابط في هذا؟!

قوله: «وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَا كُفُؤَ لَهُ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ...»؛ وهذا تقدَّم مرارًا، فالله جل جلاله فردٌ صمدٌ، لا يشبهه شيءٌ، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فيدخل فيه التَّنديد بالفعل ـ أي: في العبادة ـ، والتَّنديد بما يوصف به من الأسماء والصفات، وما يكون له من الخصائص؛ فلا يشبهه شيءٌ في ذلك، ولا يشاركه فيه إلا بمجرد الاسم البعيد والمعنى الذي يفهم به الكلام فقط، وأما الحقائق الثَّابتة التي لا تتغير ولا تتبدل فهو جل جلاله له الثبوت في الكمال كله، ولا يجوز أن يتطرق إليه نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لا بأفعاله، ولا بأوصافه، ولا بأسمائه، ولا في ذاته ـ تعالى وتقدس ـ.

ولا يقدر أحدٌ أن يقول: إنَّه في ذاته يشبهه شيءٌ؛ فإذا كان كذلك فيجب أن يكون أصلٌ يُرجع إليه فيما يتعلق بالذات؛ لأن الأسماء والصفات والأفعال تبعٌ للذات؛ فإذا كان له الكمال في ذاته، فله الكمال في أوصافه وأفعاله.

وسبق أنه يجب أن يكون الله ﷻ مختصًّا بما له من الصِّفات، وكذلك ما له من الأفعال، فأفعالُه لا تشبه أفعال المخلوقين ـ تعالى وتقدس ـ، وكذلك يجب أن يكون الحقُّ الذي أوجبه لنفسه على عباده له وحده خالصًا، ولهذا إذا وقع فيه شيءٌ من الاشتراك؛ فإنَّه يردُّه ﷻ ولا يقبله، بل يكون صاحبُه من أسوإ خَلقِ الله كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَا حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا السَّمَوَاتِ وَلَا الْكَوَاكِبِ، وَلَا الْهَوَاءِ وَلَا الْمَاءِ وَلَا الْأَرْضِ، وَلَا الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ، وَلَا غَيْرِ ذَلِك، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَتَهُ عَنْ مُمَاثَلَاتِ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ أَبْعَدُ مِنْ سَائِرِ الْحَقَائِقِ، وَأَنَّ مُمَاثَلَتَهُ لِشَيْءٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مِنْ مُمَاثَلَةِ حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لِحَقِيقَةِ مَخْلُوقٍ آخَرَ».

الشَّرح

كل هذا دلَّ عليه قولُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ودلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقولُه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، فنصوص القُرآن دلت على هذا. ويريد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبين أننا مستغنين عن كلام المتكلمين وتُرَّهاتِهم التي أفسدوا بها العقول والأديان.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إِذَا تَمَاثَلَتَا: جَازَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأُخْرَى، وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا، وامتنع عليها ما امتنع عليها، فَيَلْزَمُ أَنْ يَجُوزَ عَلَى الْخَالِقِ الْقَدِيمِ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ مِنْ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةِ».

الشَّرح

هذا التَّقدير فاسدٌ؛ فلو قُدِّر أنه ـ على ما يقولون ـ جاز عليه ما يجوز على المخلوق، والمخلوق أول ما يجوز عليه الموت، وألَّا يكون أيضًا غنيًّا بنفسه، ويجوز عليه كل ما يعتريه من أمراضٍ وأسقام وضعف؛ لأنه كان عدمًا فوُجِد، وصار أوَّلَ وجودِه ضعيفًا، ترقَّى إلى الكمال، ثم ينحط إلى الضعف، وهكذا؛ لأنه لا وجود له من نفسه، ولا غِنى له بنفسه؛ فإنَّ أمره بيد غيرِه، يتصرَّف فيه كيف يشاء = فدلَّ على نقصه، والله ﷻ له الكمال.

وكل الموجودات: إما واجب الوجود بمعنى: أنَّ وجوده لا يحتاج فيه إلى غيره، أو يكون فقيرًا أوجده غيرُه، وسائر المخلوقات هكذا، فيبقى ربُّنا ﷻ هو الغني بنفسه وحده، هو الذي أوجد كل موجود، وهو الذي يتصرف كيف يشاء.

قوله: «...فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إِذَا تَمَاثَلَتَا جَازَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأُخْرَى، وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا...». هذا إذا كان مماثلًا للمخلوق، وهو ﷻ لا يكون مماثلًا لشيء، فله الكمال المطلق المختص به، والمخلوق أوصافه وأفعاله تُناسِب ضعفه وحاجته، وكذلك وجود المخلوق، فوجوده مفتقر إلى مُوجِدٍ، فهو فقيرٌ بالذَّات إلى ربه ﷻ فقرًا لا ينفك عنه بحالٍ من الأحوال، وربُّنا ﷻ بعكس ذلك، فهو غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه، وغِناه لازمٌ له ـ تعالى وتقدس ـ.

وهذا لا يشتبه إلا على من أضله الله في عقله وفطرته وفي علمه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَنْ يُثْبَتَ لِهَذَا مَا يُثْبَتُ لِذَلِكَ مِنَ الْوُجُوبِ وَالغنى فَيَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ، مَوْجُودًا مَعْدُومًا، وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ بُطْلَانُ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَصَرٌ كَبَصَرِي، أَوْ يَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا».

الشَّرح

أي: يصفون الله بهذا. لكن هل يوجد طائفة تقول هذا القول؟! كان طائفة يقولون ذلك، ولكنهم انقلبوا فيما بعد فصاروا معتزلةً نفاةً.

و«المشبِّه»: هو الذي يقول: (إنَّ يده كيد المخلوق، وبصره كبصر المخلوق، وكلامه ككلام المخلوق)، وهذا لا شَكَّ في كفره، ولكن هذا الذي يقول ذلك هل يقال: إنه مثل المعطِّل، أو المعطِّل أشرُّ منه؟

الذي يعطل الله ﷻ عن أسمائه وصفاته، وعن وجوده وعن خلقه، وعن تصرُّفه، وعن أن يكون على كل شيء قدير = شرٌّ من المشبِّه؛ فـ «التشبيه» فيه شيء من إثبات باطل، أما «التعطيل» فهو نفيٌ.

هذا «التشبيه» المذكور في كلام المؤلف؛ نص عليه العُلَمَاء، بأن تكون صفاته كصفات المخلوق، كأن يقول له: (علمٌ كعلمي، أو يدٌ كيدي، أو بصرٌ كبصري). أما إثبات «العلم» و«القدرة» و«البصر» و«السمع» فليس بتشبيه؛ لأنه ﷻ يكون خاصًّا به كما سبق، فإنَّ أوصاف الله كلها خصائص لا يشاركه فيها المخلوق.

قوله: «الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَصَرٌ كَبَصَرِي، أَوْ يَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ...». وهذا لا يقول به أحدٌ، وإذا قُدِّرَ أن أحدًا قاله؛ فكلُّ عاقلٍ يمقته ويعلم أنَّه كلام باطلٌ. فالمخلوق فقيرٌ من كلِّ وجهٍ؛ فقد سبقه عدم، وسيلحقه العدم، ثم لا يستطيع أن يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فهل يوصف ربُّ العالمين ﷻ بالنَّقائص؟! فمن فعل ذلك فلا شَكَّ أنَّه خارجٌ عن العقل والفطرة وعمَّا أنزله الله ﷻ على رسله.

ولهذا أجاب العلماءُ مَلِكَ الهنود الذي أورد عليهم لما فتحوا بلادَ الهند، فقال لهم: (هل ربُّكم قادرٌ على أن يخلق مثل نفسه؟ فإن قلتم: نعم، صار له مثيلٌ. وإن قلتم: لا؛ صار عاجزًا). فأجابوه بمثل هذا الكلام: قالوا: (هذا سؤالٌ باطل، وهو مُمتنعٌ؛ لأن الله ﷻ ليس له مثيل وليس له شبيه، فمُمتنعٌ أن يخلق مثله؛ لأن هذا من أشد المُمتنعات)، فكان هذا جوابه[1].

وليس كما يقول السيوطي لما ذكر في آخر «سورة المائدة» لما قال في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠]، قال: «خصَّ من ذلك العقل ذاته فليس عليها بقادرٍ»[2]، فهذا كلامٌ باطلٌ مُمتنِعٌ مِن أشدِّ المُمتنعات، فاللهُ ﷻ لا نظيرَ له ولا شبيه له، ويمتنع أن يوجد إلهانِ، كما أخبر ﷻ بأنه لو كان في السموات والأرض إله غيره لفسدتا، ولا يُمكن أن تقوم على ما هي عليه، وليست قدرة الله محدودة، وهو على كل شيء قدير، فلا يستثنى شيء لا يقدر الله عليه - تعالى وتقدس -.

* * *

---

(١) ينظر: جواب الاعتراضات المصرية (ص١٢١).

(٢) تفسير الجلالين (ص١٦١).

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا اسْتِيفَاءَ مَا يَثْبُتُ لَهُ، وَلَا مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ، وَاسْتِيفَاءَ طُرُقِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى جَوَامِعِ ذَلِكَ وَطُرُقِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيه سَكَتْنَا عَنْهُ فَلَا نُثْبِتُهُ وَلَا نَنْفِيه، فَنُثْبِتُ مَا عَلِمْنَا ثُبُوتَهُ، وَنَنْفِي مَا عَلِمْنَا نَفْيَهُ، وَنَسْكُتُ عَمَّا لَا نَعْلَمُ نَفْيَهُ وَلَا إِثْبَاتَهُ، وَاللهُ تعالى أَعْلَمُ».

الشَّرح

أي: نثبت الكمال المطلق لله ﷻ في «القدرة» و«العلم» وفي كلِّ ما يتصف به؛ أمَّا مجرد النفي فإنه لا يكفي. ثُمَّ لا بُدَّ من الرجوع إلى العصمة، والعصمة تكون في كتاب الله ﷻ، فهو المعصوم عن الخطأ؛ والذي تكلم به أعلمُ ممن يتكلَّم بالعقل أو بالقياس والنَّظر.

فالله أعلم بنفسه وبغيره من خلقه، وقد وصف نفسه بأوصافٍ ألزمنا بأن نتبعها ونؤمن بها على ما وصف به نفسَه، فالخروج عن هذا يعتبر خروجًا عن الحقِّ والميل إلى الباطل.

قوله: «وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى جَوَامِعِ ذَلِك وَطُرُقِهِ...». انتهت القاعدةُ هذه، لكن المؤلف يريد أن يقول: أنَّ النهاية والخلاصة أنا نستغني بما عرّفنا الله ﷻ به عن نفسِه، وما ثبت في الكتاب والسنة وبينه الرسول ﷺ من أوصاف الله ﷻ، فهي تغني عن طرق المتكلمين واصطلاحاتهم وما يقولون، مع أنهم أنفسهم في شكوك وفي حيرة؛ لأنَّ ما يسمونها «براهين»، في الواقع إنما هي شكوك.

قوله: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيه سَكَتْنَا عَنْهُ فَلَا نُثْبِتُهُ وَلَا نَنْفِيه...».

نسكت عن الذي لم يصف الله ﷻ به نفسه أو يصفه به رسوله، ولا نتكلم فيه؛ أما ما وصف الله ﷻ به نفسه أو وصفه به رسوله فنصفه به ونتبع قَوْله وقول الرسول ﷺ.

والله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وله الكمال المطلق، فلا يثبت له إلا ما هو كمالٌ، ويُنفى عنه النقص ـ تعالى وتقدس ـ؛ مع علمنا أنه لا مثيل له لا في ذاته، ولا في أوصافه، ولا حتى في أفعاله، ولا حتى في حقوقه، فهذه أمور أربعة لا بُدَّ منها، أن تثبت لله ﷻ.

فأمره ونهيه: ﷻ لا يشبه المخلوق في أمره ونهيه، فأمره يجب أن يطاع ويمتثل، ومن لم يفعل ذلك وقع في الشرك، وصار من أهل النار؛ **أمَّا في ذاته**: فكلُّ المتكلمين يقولون: (إنه لا مثيل له في ذاته).

وإنما اختلفوا في الأسماء والصفات؛ فمنهم من يثبت شيئًا، ومنهم من ينفي خوفًا من الوقوع في التشبيه.

والسبب في هذا: أنهم ما عرفوا الله حقَّ المعرفة، كما أنهم تركوا الطريق الذي يُهتدى به ـ وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ، والله ﷻ حكمٌ عدْلٌ يجزي عبده بما يستحقُّ، وما يليق به.

❁ ❁ ❁

الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ

قال رحمه الله تعالى:

«الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنْ يُقَالَ: إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ السَّمْعُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا، وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ، وَيُرْشِدُ إلَيْهِ، وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَإِنَّهُ ﷻ بَيَّنَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَا أَرْشَدَ الْعِبَادَ إلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ؛ كَمَا بَيَّنَ أَيْضًا مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَمَا دَلَّ عَلَى الْمُعَادِ وَإِمْكَانِهِ».

الشَّرح

مضمون **القاعدة السابعة** في الواقع موجود في القواعد السابقة، ولهذا في أكثر النسخ حُذفت هذه القاعدة(١)، وإنما وُجدت في بعض النسخ الخَطِّية(٢)، فقد يكون فيها فائدةٌ.

هذه القاعدة: يُبين فيها أنَّ القرآن ـ الذي يسمونه «السَّمع» ـ لا يُخالف العقل، ولكن بشرط أن يكون العقل مُستقيمًا؛ لأنَّ العقول تختلف باختلاف التربية واختلاف المناهج واختلاف السلوك، وغير ذلك، فليس كلُّ عقلٍ يكون صحيحًا؛ كما أنه قد يأتي في النقل ما هو ضعيفٌ فلا يكون حُجَّةً، وإنما الرجوع في معرفة الله ﷻ وفي معرفة دينه إلى ما جاءت به الرُسل.

المؤلف يُريد بهذا: أنَّ الذي جاءت به الرُّسل لا يُخالف العقل، بل هو يُرشد العقل وينبِّهه ويدل عليه، والعقل السليم يدل على مسالك الطُرق الصحيحة، ولهذا يريد أن يَرُدَّ على القائلين: (بأن هناك منافرةٌ ومُخالفة بين العقول وبين ما جاءت به الرُسل).

---

(١) نسخة الإمام البعلي رحمه الله عام (٧٨٨هـ)، ـ والتي تعتبر من أتقن النسخ ـ، خالية من هذه القاعدة!.

قال العلامة ابن عثيمين في «تقريب التدمرية» (ص١٣): «ومما حذفتُ: القاعدة السابعة؛ لأنها غير موجودة في بعض النسخ، ويُغني عنها ما سبقها من القواعد» اهـ.

(٢) كنسخة الشيخ نعمان الآلوسي رحمه الله، المنسوخة عام (١٣٠٠هـ). للاستزادة: ينظر مقدمة تحقيق د/ دغش العجمي للرسالة التدمرية.

والرسل قد تأتي بشيء لا تدركه العقول، أو تحار فيه؛ لأن العقول قاصرةٌ لا تُدرك الأمور الغائبة، وما يُخبر بها ﷻ عن نفسه خبرٌ عن غائب، غيرَ أنها معانيها مُدرَكةٌ لمن كان عنده عقلٌ مُستقيم مُسترشدٍ بوحي الله ﷻ.

فالمقصود بهذه القاعدة: الرَّدُّ على المُتكلمين القائلين: (بأنَّ «العقل» يختلف مع «السمع»؛ وإذا اختلفَا فلا يخلو الأمرُ:

* إمَّا أن نقدم السمع، وهذا ممتنعٌ؛ لأن العقل هو الذي دلَّنا على صحة السمع، هو الذي دلنا على صدق الرسول وما جاء به؛ فكيف نجعله فرعًا بعدما كان أصلًا؟!

* أو أننا نقدم العقل، وهذا هو الأصل).

وهذا كلامٌ باطل! فالعقول لا تستقل بشيءٍ غائبٍ عنها؛ وإنما العقول مُهمتها ووظيفتها القياسُ، حيث تقيس الغائب على الشاهد؛ سواءٌ كان معنًى أو محسوسًا، ولله ﷻ فيما يُخبر به عن نفسه خصائصُ تخُصُّه لا يشاركه فيها مخلوقٌ، فلا يجوز أن يُستعمل في حقِّه قياسٌ؛ لا قياس عقلي ولا قياس تمثيل.

فقياسُ العقل هو قياس الشمول؛ فهذا يستعملونه كثيرًا في حق الله ﷻ، وهذا باطِلٌ؛ فإن الله لا تُضرب له الأمثال، فـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

وأخبرنا بالأمور المعقولة أنَّ له سمعًا وعلمًا، وله قدرةٌ تامة، ولا يُعجزه شيء، وأنه على كل شيء قدير، وهو عالٍ على خلقه؛ وكلُّ إخباراته التي يُخبر بها لا تختلف مع العقل الصحيح، وإن زعم أولئك أنها مُختلفة فهي في عقولهم، وليست عقول من استرشد واستهدى بما جاءت به الرُسل.

قوله: «إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ السَّمْعُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا...». خُلاصة القاعدة هذه: أنَّ العقل السليم الصحيح لا يُنافي العلم الثابت عن الله وعن رسوله ﷺ، بل يتفق معه؛ العقل السليم الصحيح لنقل الصحيح.

وهذه القاعدة ألَّف فيها المؤلِّف مؤلَّفًا كبيرًا، وهو: «درء تعارض العقل والنقل».

وهذا الكلام مضمونه أنَّ السمع لا يخالف العقل بل يتفق معه، ولكن المقصود بـ«العقل» هو الذي يكون سليمًا عن الانحراف ويكون مستقيمًا، ولا بُدَّ أن العقل يسترشد بالوحي، أمَّا أن يأتي بأمرٍ مستقلٍّ فهذا لا بُدَّ أن يقع في الخطأ.

فمقصوده بهذا أن يبطل كلام المتكلمين الذين يقولون: الأصل هو العقل؛ لأنه هو الذي دلَّنا على صدق الرسول، فلا يجوز أن يكون الفرع الذي هو السمع حاكمًا

على العقل، فنقول: بالعكس العقل لا يأتي بشيء مستقلٍّ مما تأتي به الرسل ويعجز عن ذلك، وإنما عليه أن يستدلَّ بذلك، ولكنه لا يخالف السمع، بل يتفق معه.

والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فهذا تنبيه على النظر إلى المخلوقات حتى يستدلَّ على كماله وقدرته، فهي آيات لأُولي الألباب؛ ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا كثيرٌ في كتاب الله ﷻ.

فهو ينبه العقول إلى الاستدلال، والله ﷻ هو الذي يتصرف في الكون كلِّه؛ لأن هذه المذكورات ـ خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار ـ على هذا النمط المتقن، ومسير النجوم والشمس والقمر = شيءٌ عجيب جدًّا، فهو في غاية الإتقان، ولا يمكن أن تكون هذه الأجرام وهذه المخلوقات هي التي أوجدت نفسَها وهي نظَّمت مسيرها على هذا المنوال، فلا بُدَّ أن لها موجدًا عليمًا قديرًا حكيمًا عليمًا بكلِّ شيء، ولهذا في آخر الآية قال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾، والآيةُ هي الدلالة على ما وضعت له، فكلُّ آيات الله ﷻ على هذا المنوال.

أما العقول فهي قاصرةٌ لا تستقلُّ بمعرفة الله ﷻ، ولا تحيط به ولا تستطيع إلا من وجهٍ بعيدٍ لا يكفي في معرفة الله والإيمان به كما أمر، فكونُ المخلوق له خالقٌ وكونُ الأثر له مؤثِّرٌ لا يكفي في الإيمان، وإنَّما يجب أن يكون المرجع في هذا هو ما قاله وأخبر به عن نفسه ـ تعالى وتقدس ـ.

وأما الاستدلال البعيد أو الاستدلال بالجملة فلا يكفي في معرفة الله ﷻ؛ وقد أخبر الله عن المشركين الذين يعبدون الأصنام وغيرها أنهم إذا سئلوا من خلقهم، قالوا: (الله)، فهم يقرون بأن الله هو خالقهم، وكذلك إذا سئلوا من خلق هذه الأجرام وهذه الموجودات التي يشاهدونها، قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ومع هذا لا يكفي في كونهم مسلمين، فضلًا عن كونهم عرفوا الله وآمنوا به.

فالمقصود: أن العقل لا يستطيع أن يعرف ربه ﷻ المعرفةَ التي أوجبها الله عليه، وإنما يعرف في الجملة، وأما التفاصيل في الوصف والاسم والفعل فيجب أن يكون متلقًّى عن الله ورسله الذين يأتون بالوحي.

قال رحمه الله تعالى:

«فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ شَرْعِيَّةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الشَّارِعَ أَخْبَرَ بِهَا، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهَا».

الشَّرْح

قوله: «المَطَالِبُ»: المقصود بها المطالب التي جاءت في كتاب الله وفي أحاديث رسوله، والمطلب يُطلق على الأوامر والنواهي. فالله أمرنا بأشياء ونهانا عن أشياء؛ وبيَّن لنا أشياء أوجب علينا أن نعتقدها ونؤمن بها من أسمائه وصفاته فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] وغير ذلك كثيرٌ في كتاب الله ﷻ، يُخبرنا بأنه ﷻ يختص بذلك، ويأمرنا بأن نؤمن بها. والإيمان يقتضي العلم، ثم العمل، أن نعلمها على حقيقة ما أخبرنا بها، وليس على قياس أنفسنا وقياس المخلوقات؛ فإن هذا مُخالفٌ لأمره ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَقَدْ بُسِطَ هذا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَهِيَ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا».

الشَّرح

أي: الأمثال التي يضربُها ﷻ كقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]، ويقول: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٧]. يعني: أنهم كانوا يأنفون من البنات، فإذا بُشر أحدهم أنه أتاه بنت يتغير وجهه، ويُفكر: أيُمسك هذا المولودة على هوان، أم يدسُّها في التراب ويرتاح منها؛ لأنهم يزعمون أنه ناقص، ولأنه لا يدفع ولا يمنع، وبعضهم كان يقول: (أخشى أن تَجلب عليَّ عارًا بأن تقع في فاحشة) أو ما أشبه ذلك؛ ثم بعد ذلك كُله يقولون: (إن الله اتخذ بنات؛ وأن الملائكة بنات الله)! فكيف يتنزهون عن هذا ثم يُضيفونه إلى رب العالمين ـ تعالى الله وتقدس ـ؟!

إنَّ الله ﷻ له الكمال المُطلق، وكذلك هو ﷻ سميعٌ بصيرٌ لا يخفى عليه شيء؛ لأنَّه ـ تعالى وتقدس ـ خلق خلقه، وأمرهم بأوامره وهو الرقيب عليهم، المُشاهد لأعمالهم، الذي لا تخفى عليه في صدورهم خافية، ولا من أعمالهم الظاهرة شيءٌ وإن دق، فلا يجوز أن يُستعمل في حقه شيءٌ مما يكون من خصائص المخلوقين.

وإنما أوصافه وأفعاله تخصُّه وحدَه، وهذا قد تقدَّم في القاعدة السابقة؛ غيرَ أنه يريد بهذا أن يُبين أنَّ كلَّ ما تقدَّم: قد اشتمل عليه كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِه ﷺ، ونحن لسنا بحاجةٍ إلى العقول التي تختلف؛ ولهذا هؤلاء الذين يستعملون العقول في حقِّ الله؛ لا تجد منهم اثنين يتفقان؛ كُلهم مختلفون وفي النهاية يحارون ولا يتحصلون على طائل كما صرح به كُبراؤهم.

والأمثالُ هي في الواقع خصيصة العقل يختصُّ بها؛ فيقيس عليها غيرَه، ولكن الأمثال في المخلوقات، وفيما أُمرنا به من الأوامر، وما وُعدنا به من الجنة،

والجزاء وغير ذلك، أما ربُّنا ﷻ فلا يجوز أن يُستعمل في حقه قياسٌ؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ومعنى سميًّا: يعني يُساميه، ويماثله ويناظره، وهذا لا وجود له.

فلا يُستعمل في حقه شيءٌ من الأقيسة؛ إلا أن العلماء استثنوا قياسَ الأولى، ومعناه: «أن كل أمرٍ تنزه المخلوق عنه لا يكون فيه نقصٌ بوجه من الوجوه؛ فالله أولى أن يتنزه عنه، وكل كمالٍ اتصف به المخلوق وطلبه ليس فيه نقص بوجه من الوجوه فالله أولى به؛ لأنه هو واهب الكمال».

قوله: «عَقْلِيَّةٌ...»، يعني: الأدلة العقلية؛ نُسبت إلى العقل من جهة أنها تُعلم به، ولكن العقل لا يستقلُّ بشيءٍ من أوصاف الله ﷻ وأسمائه، وإنما يوافق السمعَ فقط ولا يُخالفه.

وقد يأتي السمع بما لا يُدركه العقل ولا يستطيعه؛ كما أن: «الرسل تُخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول»[1]، تأتي بمحارات العقول ولا تأتي بما يُخالف العقول؛ تحار العقول فيه ولا تُدركه.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٤٤)، والصواعق المرسلة (٣/ ٨٣٠).

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ «الْأُصُولُ الْعَقْلِيَّةُ»؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إِخْبَارِ الصَّادِقِ، وَخَبَرُ الصَّادِقِ الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ».

الشرح

الذي جاء به الرسول ﷺ هو الذي يُبين ويوضح، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]. هذه لآيات التي ذكرها ﷻ يُرشد بها العقل، ولذلك قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

وكثيرٌ ممن يُخاطب هذا الخطاب إما أن يكون مُعرضًا وذاهلًا عن ذلك، أو يكون غير مُهتمًا، فلا يُهمه ما جاء به الرسول ﷺ؛ فهذا قد ضَلَّ، وإنما الذي ينتفع هو الذي يتنبه ويقبل على ما جاء به الرسول ﷺ، مسترشدًا مُستهديًا طالبًا الهدى من ربِّه ﷻ.

فالقرآن هو الذي يدلُّ على المطالب العظيمة التي تهدي إلى السعادة؛ سعادة الدُّنيا والآخرة، أما العقل فهو لا يستقلُّ بشيء.

المقصود: أنَّ قوله: **«وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ «الْأُصُولُ الْعَقْلِيَّةُ» لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ...»**، هذا كلامُ المُتكلمين، وليس هذا صحيحًا؛ لأن العقل قاصرٌ وإنَّما يُرشد إلى الهُدى، ولهذا إذا قالَ اللهُ ﷻ الأدلَّة قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

ففيها آيات علامات دالة واضحة لمن عقل ذلك ونظر فيه، على أن الله ﷻ هو

المعبود، وهو الذي له المُلك كله، وهو الذي أوجد هذه الموجودات. فالكُفَّار بهذا الاعتبار لا عقل لهم؛ وإلا فلماذا يعبدون حِجارةً ويعبدون أشجارًا؟ ولهذا وصف الله ﷻ أنهم لا عقول لهم؛ لأنهم لو استعملوا العقل لهداهم لهذا.

فالعقول ما تستقل بجلب النفع ولا بدفع الضرر، فقد تُوقع صاحبها في الزلل والخطأ؛ كما وقع المُتكلمون الذين يسمون أنفسهم «عُقلاء»، وقعوا في الخطأ ووقعوا في الحيرة، من كان أذكى وأكبر عقلًا حار في النهاية، وأصبح ما يدري ماذا يُريد؟!

مثل ما يُذكر عن الرَّازي ويُذكر عن الجويني وغيرهما:

«قال الرازي - في آخر حياته -:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]. ومن جرّب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي»[(١)].

(ما استفدنا من علمنا طول بحثنا إلا الأذى والوبالُ سوى أن جمعنا قيل وقالوا)، أين فائدة العلم إذًا؟!

والجويني يقول: (يَا أَصْحَابنَا لَا تشتغلوا بالْكَلَام فَلَو عرفت أَن الْكَلَام يبلغ بِي إِلَى مَا بلغ مَا اشتغلت بِهِ)[(٢)]. ويقول عند موته: (اشْهَدُوا عَليّ أَنِّي قد رجعت عَن كل مقَالَة قلتهَا أُخَالِف فِيهَا مَا قَالَ السّلف الصَّالح وَإِنِّي أَمُوت على مَا تَمُوت عَلَيْهِ عَجَائِز نيسابور)[(٣)]، يعني: ما علمت شيئًا، كل الذي أنا علمتُه ذهبَ.

وقال أيضًا: (لقد خضت البحر الخِضَمَّ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم،

---

(١) النبوات لابن تيمية (ص٥٠٨). (٢) كتاب العلو للعلي الغفار للذهبي (٥٨٠).
(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٦١٧)، وكتاب العلو للعلي الغفار للذهبي (٥٨٠).

ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني)[١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم في الفلسفة والكلام: ابن واصل الحموي كان يقول: «أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء»[٢]؛ لأن الأدلة تتكافئ عنده.

فالمقصود: أنَّ العقل لا يهدي صاحبه إذا صار غيرَ مُسترشدٍ بالوحي الذي جاء به الرَّسول ﷺ. ولهذا يقول بعض العلماء: (أكثر الناس شكًّا عند الموت: المُتكلمون)، يشكون ويرتابون؛ فكان الواحد يُمضي عمره في البحث والتنقيب وفي المُناظرات، ثُمَّ في النهاية إذا جاءت الحقائق وجاءت الملائكة لقبض روحه، ذهب البهرج وذهب الباطل كله وبات حائرًا!

يقولون: (إن هناك مخالفةً بين «العقل» وبين «السمع»)، فإذا حصل اتِّفاقٌ بينهما فلا كلام، ولكن إذا حصل الاختلاف: أيهما نعتمد؟

إن اعتمدنا على «السمع» يقولون: (صار فيه تناقض؛ فكيف نعتمد على فرعٍ ونترك الأصل؟ وإنما الاعتماد يكون على العقل).

والصحيح: أن هذا باطلٌ، بل الاعتماد يجب أن يكون على «السمع»؛ لأن «السمع» هو الذي أرشد «العقل»، وبيَّن له الطرق التي يجب أن يسلكها؛ سواءٌ في صفات الله ﷻ، أو في إثبات النبوة التي جاءت بها أدلة واضحة، من كونه يأتي بالمعجزات وبغيرها، بل بأفعاله وأقواله، وكذلك ما يأمر به، وكذلك تأييده وتأييد ما جاء به.

* * *

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٤٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٨).

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا:

فَطَائِفَةٌ تَزْعُمُ: أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ؛ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ».

الشَّرح

قوله: «ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ...»؛ أي: هذه أمورٌ تختلف باختلاف أنظارهم؛ لأنَّ الواجب على كُلِّ مُكلَّف أن يُصدِّق بما جاء به الرَّسول ويؤمن به؛ سواءً علم حقائق ذلك أو لم يعلم؛ والرُّسل لا بُدَّ أن تأتي بأدلة تُرغم العاقل المُتبصِّر بأنه حقٌّ، وأنه جاء من عند الله ﷻ.

ثُمَّ هذه الأدلة تختلف؛ فقد تكون أدلَّةً في نفس الرسول، كأن يُعلم أن حياته كُلَّها مبنية على الحُسن والكرم، والابتعاد عن سفاسف الأخلاق كالكذب والغش والزنا والسرقة وغير ذلك؛ فلهذا استدلَّ بذلك أولوا العقول على إثبات النبوة، فقالوا: (إنه لم يُجرَّب عليه الكذب على الناس في نفسه، فكيف يذهب يكذب على الله؟! فهذا لا يُمكن). ولهذا قالت زوجه خديجة ﵂: «كَلَّا والله، لا يخزيك الله أبدًا»، حين قال: «**إني خفت على نفسي**»؛ أول ما جاءه الملك، جاءه ثم ضَمه ضمًّا شديدًا، هذا ما عهده ولا عرفه، فلما جاء إليها قال: «**خفت عَلَى نَفْسِي**»، قالت: «كَلَّا وَاللهِ: لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ...» إلخ[1]، فاستدلَّتْ بأفعاله وأخلاقه على أنه لا يقع في شيءٍ مكروه، وكذلك قال مثل هذا هرقل - عظيم الروم - لما سأل عن ذلك.

ثُمَّ كذلك الذي يأتي به الرسول هي دلائل تدلُّ على الحق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في باب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/ ٧)، برقم (٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٣٩)، برقم (١٦٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

ثُمَّ الأمور التي تحُفُّ به، وهذا كثيرٌ؛ مثل إجابة الدعاء، ومثل الآيات التي يأتي بها وغير ذلك.

ولهذا أكثر ما قابل الكفار الرسل به العناد والمكابرة بالتحدي كما قالت قُريش للنبي ﷺ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣] وهذا من باب المُعاندة والتَّكبُّر، ومثل هذا لا يُوفَّق. ومثل هؤلاء: الذين يقترحون شيئًا على حسب أنظارهم وعقولهم؛ فهؤلاء لا بُدَّ أن يضلُّوا فيُضلهم الله ﷻ.

والله ﷻ يهدي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، ولكن الهدى له أسبابٌ، والضَّلال له أسباب:

فمن أسباب الهدى: أن يذعن للأمر من أول ما يأتيه، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي: أنهم ما قبلوه أول الأمر، بل أعرضوا عنه وتركوه فأزاغ الله قلوبهم.

وهذه الأسباب بيد العبد؛ غيرَ أنَّ الله ﷻ يمُنُّ على من يشاء، ويهيئ له أسباب الهدى، ويمنع هُداه وفضله عمن يشاء، وربُّك ليس بظلام للعبيد ـ تعالى الله وتقدس ـ.

قوله: «فَطَائِفَةٌ تَزْعُمُ: أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ».

«تَحْسِينَ الْعَقْلِ» معناه: أنَّ ما حسَّنه العقل يكون حسنًا مأمورًا به، وما قبَّحه يكون قبيحًا منهيًّا عنه، وهذا لا بُدَّ له من ضابط؛ لأنَّ العقول مثل ما يقول عليٌّ رضي الله عنه: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه»(١)؛ ولكن العقل قاصرٌ.

والتحسين والتقبيح فيه خلافٌ كبيرٌ عند المتكلمين، ومعناه: إذا كان الشيء حسنًا في العقل فهل يضاف إلى الله ويقول: إنه يفعله أو أنه يتصف به؟

وكذلك إذا صار الشيء قبيحًا في العقل؛ فهل ينزه عنه، ولا يدخل في أفعاله، وأيضًا الأحكام التي يفعلها الإنسان هل يرجع فيها إلى مثل هذا؟

الواجب أن يكون الرجوع إلى الوحي، والوحي جاء بالعدل والحكمة، والله أحكمَ آياتِه كما أحكم أفعالَه ﷻ.

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ص (٤٦).

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ».

الشَّرح

هذا على حسب عقولهم القاصرة، والتكذيب بالقدر يكون تكذيبًا بصفات الله ﷻ؛ لأنَّ معنى الإيمان بالقدر: «أن الله ﷻ بكلِّ شيءٍ عليم، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، ولا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته ـ تعالى وتقدس ـ، وهو الخالق وحدَه»، وكُلها عائدةٌ إلى صفاته ـ تعالى وتقدس ـ، ولكن هؤلاء يقترحون أمورًا يريدون أنها تكون على وفق معقولاتهم؛ وهذا غيرُ واقعٍ، إذ لو حصل ذلك لفسدت السماوات والأرض كما قال الله ﷻ.

قال محقِّق الكتاب: (فلعل أصل العبارة: ويجعلون التكذيب بالقدر مما يقتضيه ـ أو يثبته ـ العقل!)[1].

فالعبارة مستقيمةٌ؛ فإنَّهم كذَّبوا بالقدر وقالوا: (إنَّ العقل قد دلَّ عليه) يعني: على تكذيبهم، ويقولون: (إنَّ الله ﷻ كتب عليه الأشياء ثم يُعذِّبه، وهذا خلاف العقل)، كما في المناظرة التي يقول فيها عبد الجبار المعتزلي: (إنه لا بُدَّ أن يكون الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وهو الذي يستقل بها؛ فهو الذي يكفر بإرادته وقوته وخلقه، وهو الذي يؤمن كذلك؛ فإذًا: هذا تكذيبٌ للقدر.

والخُزى على من خالف الحق، وسلك الباطل، واتهم الله ﷻ بأنه ليس على كل شيءٍ قدير، وأنه يُشاركُهُ الخلق في التَّدبير ـ تعالى الله وتقدس ـ؛ فهذا يكذِّب بالقدر ويزعم أنه يقتضيه العقل.

والعلماء ينهون عن التوغل في القَدَر.

* * *

(١) التدمرية لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد بن عودة السعوي (ص١٤٨)، طبعة مكتبة العبيكان الطبعة السابعة ١٤٢٣هـ.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وطَائِفَةٌ تَزْعُمُ أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ، وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ».

الشَّرح

هذه قاعدةٌ سلكوها وجعلوها هي الدين، وزعموا أنَّ الذي لا يعرفُها لا يكون مُسلمًا ـ نعوذ بالله من ذلك ـ؛ فحكموا على الأمة بأنها ضالة، حتى إنه قيل لأحدهم: (قولك هذا وزعمك يقتضي أن يكون أبوك وأمك وأخوك وأقرباؤك ليسوا مُسلمين فيكونوا في النار)، فقال في الجواب: (لا تحتجَّ عليَّ بكثرة أهل النار)!.

انظر كيف أنه يزعم أنه لا بُدَّ من ذلك، وأنَّ الذي يُخالفهُ يكون من أهل النَّار؟! نسأل الله العافية.

فالله ﷻ لما ذكر الرُسل التي ذكرهم، قالت لقومها: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي: ما أحدٌ يشكُّ في هذا. ومعنى ﴿فَاطِرِ﴾: خالق السماوات والأرض. واستدلوا عليهم بأكبر المخلوقات المُشاهدة؛ لأنها لا يُمكن أن توجد دون موجد، كما يقول أصحاب الصُّدفة، فالصدفة لا حقيقة لها، إذ لا بُدَّ أن يكون لها موجد، وهي لا تُوجِد نفسها، ولا يُوجِدُها مثلها.

فالموجودات كُلها تدل على وجود الله ﷻ؛ ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [سورة الذاريات: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، كُلها أدلة عقلية باهرة. ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾، يعني: خلقوا من غير خالق؟! هل أحدٌ يجد سيارة ـ مَثَلًا ـ ويقول: هذه خرجت من هذا الجبل وما لها صانعٌ؟! هذا لا يُمكن أن يُصدِّقَه عاقلٌ.

وهذا أمرٌ مركوزٌ في نفوس النَّاس وفي فطرهم وخلقهم؛ حتى الصبي الصغير، لو يضربه ضاربٌ ثم تقوله: «اسكت لم يضربك أحد»؛ هل سيقتنع؟! أبدًا لا يقتنع، حتى يقول له: (سأعاقب الذي ضربك وأضربه)؛ وكذا كلُّ حدَثٍ لا بُدَّ له من مُحدِثٍ.

أمَّا أن يجعلوا أنفسهم هي الأصل ثم يقيسوا عليها ربَّ العالمين، فهذا عكس

ما أخبر الله ﷻ به، وهو الذي يزعمون أنه لا بُدَّ منه، والواقع: أنَّ هذا ضلالٌ بيِّنٌ.

فمن اكتفى بكتاب الله سلم من الوقوع في شكوك هؤلاء، ولهذا يقول أحدهم: (أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب هذه المقالات؛ أصحاب الكلام)؛ إذا جاءه الموت يذهب البهرج، وتذهب الأمور التي كان يتصورها، وليس عنده شيءٌ يتيقنه، فيشُكُّ، وبئس الحالة، ولكن هذا عقابٌ من الله ﷻ؛ فمن ترك الحقَّ وترك كتاب الله؛ فلا بُدَّ أن يُعاقَب عقابًا يجدهُ في نفسه، ونتائجُه وخيمةٌ، نسأل الله العافية.

قولهم: «وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ». «الصَّانع» ليس من أسماء الله، وإنَّما هذا من الأخبار التي تعارفوا عليها كثيرًا في كتب الكلام، فيطلقون «الصَّانع» على الله ﷻ، و«الصانع» قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا. فبابُ الخبر: أن يخبر بالشَّيء ولا يوصف به، ويأتي كثيرًا، فيحمل ذلك على الخبر.

ومعرفة الله ﷻ بالمخلوقات تكون في الجملة، أمَّا في الوصف والتسمية وما يجب له من الكمال فلا يستطيعه العقل ولا يدركه.

المقصود أنَّ قوله: «وطَائِفَةٌ تَزْعُمُ أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ...». هذا زعمٌ باطلٌ. فهُم يقولون في هذه: (أن حدوث العالم من هذه الأصول، وأن العلم بالصانع لا يمكن إلا بإثبات حدوث العالم، وإثبات حدوث العالم لا يمكن إلا بحدوث الأجسام، وحدوثها يُعلم إما بحدوث الصفات ـ لأن الصفات تكون أعراضًا، والأعراض لا تقوم إلا بالجواهر ـ، وإما بحدوث الأفعال القائمة؛ لأن الأفعال تدل على الحدوث، وكل ما قام به الحدث أو اتصل به يكون محدَثًا)، هذا قولهم، فيجعلون نفي أفعال الرَّبِّ ونفي صفاته من الأصول التي لا يمكن إثبات النبوة إلا بها، وبها يعرف عندهم رب العالمين!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إِمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا».

الشَّرح

قوله: «وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إِمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ...». «الصفات» يُقصَد بها التغيُّرات التي تُصيب الأجسام، مثل: المرض والصحة، ومثل الجهل والعلم، وغير ذلك؛ فهذا يقولون: حادثة، وهي وقعت في ذاتٍ فدلَّت على أنَّ الحوادث كلّما وقعت فيه تدُلُّ على أنه حادثٌ؛ وهذه قاعدةٌ باطلةٌ أيضًا، ليست صحيحة ولا مُطردة.

المقصود: أنَّ كثيرًا من المُتكلمين يجعلون حدوث الأجسام هو الدليل على وجود الله ﷻ، مع أنَّ هذا أمر فطري ضروري، مثل ما قالت الرُسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني: خالق السماوات والأرض، وهي أكبر المخلوقات.

فهل السماوات والأرض خلقت نفسها؟! أو خلقها سمواتٌ أخرى مثلها؟!

هذا لا يُمكن، فاستدلوا بالفعل على الفاعل، ولا بُدَّ أنَّ الأدلة تكون أدلة واضحة جلية حتى تكون عقدية.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ، وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إِلَّا بِهَا».

الشَّرْح

فيجعلون التكذيب بصفات الله من هذا الباب، ولكن أصلهم ما صدقوا بها، والله ﷻ أخبرنا عن دوامِ أهل الجنة، ومعلومٌ أنَّ أهل الجنة من بني آدم وممن شاء الله يدومون ما دامت السماوات، بينما هم زعموا أنَّ هذا لا يدوم، ولهذا طوائفُ منهم قالوا: (إنهم يفنون)، وبعضهم قال: (تفنى حركاتهم)، بناءً على هذه القاعدة الفاسدة.

وعلى كل حال فقولهم هذا باطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ ـ وَهُوَ أَصْلُهُ ـ فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ وَالسَّمْعُ: إِمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ».

الشرح

قوله: «وطَائِفَةٌ تَزْعُمُ أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ... ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» يقصد به: الرازي ومن سلك مسلكه؛ لأنَّ هذه قاعدته.

قد قلنا: بأنَّ الله ﷻ يُضِلُّ من ضَلَّ؛ فيُصبح مقتنعًا بضلاله فلا يقبل الحقَّ ويسُدُّ الباب على نفسه ويقول: (إنَّ هذه لا تدلُّ إلا على ظنون، ولا تدل على يقينٍ ولا على علم)، ويزعم أنَّ الذي يدُلُّ على اليقين والعلم هي العقول! وهي في الواقع ليست عقولًا صحيحةً، بل هي عقولٌ فاسدةٌ؛ فكلُّ ما خالف ما جاءت به الرُسل فهو فاسِدٌ بلا شكٍّ، فالرُسل هم أعقلُ الخلق وأعلم الخلق وأقربهم إلى الله ﷻ، ولم يأتِ واحدٌ منهم يدعو الناس إلى هذه الأمور التي يقولها هؤلاء.

وإذا استعرض الإنسان كتابَ الله، يجد كُلَّ دعوةٍ من دعوات الرُسل يبدؤها بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فهل تجد فيها دعوة يقول: «فكروا في أنفسكم ثم فيما حولكم حتى تستدلُّوا على وجود الله؟!

ثم هذا لا يُجدِي شيئًا، حتى لو أن الإنسان اكتفى بإثبات وجود الله، ما يجعله ذلك مسلمًا، فضلًا أنه يكون من العلماء؛ لأنَّ الله أخبرنا عن جميع الكفار أنهم إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: (الله)، وإذا سئلوا من خلق السماوات والأرض قالوا: (الله)، ومع ذلك هم كُفار ضالون! فلا بُدَّ من عبادة الله، ولا بُدَّ أن يُثبت أنَّ الله هو الخالقُ لكلِّ شيء، والمالك لكلِّ شيء، المُتصرِّف في كلِّ شيء، وأنَّه هو الذي يُعبَد وحدَه، وأن تكون عبادته مقصورةً عليه؛ وإلا فلا يكون مُسلمًا.

قوله: «ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ ـ وَهُوَ أَصْلُهُ ـ فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ».

أصل هذا من عقوبة الله لهم، وذلك لكونهم لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسُّنَّة؛ فأزاغ الله قلوبهم، كما قَالَ ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. يعني: حينما ردُّوه عوقبوا بتقليب القلوب والأبصار عقوبةً، فصاروا لا يقبلون ذلك على الدوام. وأعظمُ العقوبات أن يُقلب قلب الإنسان فيُصبح الحق عنده خفيًّا أو باطِلًا، والباطل عنده جليًّا أو هو كأنَّه الحق.

قوله: «**لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ ـ وَهُوَ أَصْلُهُ ـ فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ**». هذا زعمٌ زعموه وظنٌّ ظنوه، وإلا فـ «السمع» إذا كان صحيحًا فإنه لا يخالف «العقل» إذا كان سليمًا. فـ «النقل الصحيح» يتفق مع «العقل السليم».

والعقل السليم وهو السالم من الانحراف، ويجب أن يسلم للوحي وينقاد له.

والأصل في ذلك هو ما أخبر الله ﷻ به أو أخبرنا به رسوله ﷺ.

ومعلومٌ أنَّ الرسل جاءت بما لا يخالف العقل، ولكن جاءت بما لا يدركه العقل ولا يحيط به من الأمور التي هي غائبةٌ عن الخلق، كأوصاف الله ﷻ وأسمائه.

فالمقصود: أن هؤلاء اقتنعوا بضلالهم، وهم مع هذا ليسوا على هدى ولا على صواب، بل على ضلالٍ بيِّنٍ عند من سبر حالهم ورزقه الله الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

❋ ❋ ❋

قال رحمه الله تعالى:

«وَالسَّمْعُ: إِمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ».

الشَّرح

هذا قول الأشاعرة، فهم يسلكون التأويل أو التفويض، ويزعمون أنَّ هذا دل عليه العقل، والواقع أنه إنما دلَّ عليه الضلال والانحراف، وإلا فما الذي يوجب تأويل الكتاب أو تفويضه؟!

و«التفويض» شَرٌّ من «التأويل»؛ لأن التفويض معناه الجهل؛ حيث يُرد إلى قائله بلا بحث ولا نظر. ولهذا يقول العلماء: (التفويض شرٌّ من التأويل)، وكلاهما شر؛ لأن التأويل **المقصود به**: (صرف الكلام عَنْ ظاهره إلى معنًى آخر لا يدلُّ عَليه إلا بدليلٍ آخر)، و«الدليل» عندهم ليس دليلَ السمع، بل يجعلونه دليلَ العقل، وعقولهم ضالة، فكيف تكون دليلًا؟!

المقصود: أنَّ **قوله**: «**وَالسَّمْعُ: إِمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ**». ليس السمع كله عندهم يؤول أو يفوض، وإنَّما هذا فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

وهذه من العجائب، حيث إن الأمور الكبيرة العظيمة والأصول تفوض أو تؤول، والأمور التي هي فروعٌ عنها لا يجوز أن يدخلها التفويض ولا التأويل، مثل الأحكام وغيرها!

و«التأويل» عندهم: (هو صرف الكلام عن ظاهره المتبادر من اللفظ إلى معنى لا يدُل عليه بظاهر لفظه، وإنما يدُل عليه بدليلٍ خارج عن اللفظ).

ثُمَّ الدليل الخارج عندهم «العقل»، فالدليل هو «العقل»، فرجعت الأمور كُلها إلى العقول، وأما الكتاب فنبذوه وراءهم ظهريًا، وجاءوا بهذه القواعد لنبذ الكتاب.

وقد علم المُسلمون أنَّ الله يحُثُّ ويحضُّ على فهم كلامه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، أي: يأمرنا بالتدبر ثم يقول لنا شيئًا لا نفهمه؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِمْ، لِمَا تَقَدَّمَ».

الشَّرح

قوله: «وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»، والسبب أنهم يقولون: (الكتاب والسنة لم يدلَّ على اليقين، وإنما دلَّ على أمورٌ ظنية).

أما «السُّنَّة» فيردونها من وجهين:

الوجه الأول: أنها أخبارُ آحاد، وخبر الآحاد عندهم لا يُفيد العلم.

والوجه الثاني: أنها لا تدُل على العلم واليقين.

أما «القرآن» فيردونه من وجه، يقولون: (وإن كان قطعيَّ الثبوت؛ غيرَ أن دلالته ظنِّيَّة، فلا نقبلُها).

فإذًا: المقبول هو أفكارهم وما زعموا، مع أنهم مختلفون في هذا اختلافًا كبيرًا، فلا تجد طائفتين تتفقان على شيء، بل بينهم التضليل والتكفير.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ: . . .».

الشَّرح

والحقيقة هذه القاعدة وهذا الكلام قد وُضع للعلماء ولطلبة العلم الذين يجادلون هؤلاء ويقعون معهم في مناظرات، فوُضعت هذه لهؤلاء.

فكثير ممن يسمع هذا الكلام قد لا يفهمه؛ والسبب **أولًا**: هو بُعده عن الواقع من ناحيتهم، **وثانيًا**: أن هذه القواعد مبنيّة على مجادلاتهم ومصطلحاتهم، حيث يزعمون أنها أمورٌ واجبة وأنه لا يسعُ المُسلم إلا اتباعُها.

لكن لا تجد للصحابة رضوان الله عليهم كلمة واحدة صدرت منهم في هذه الأمور، وإذا استدل أحدهم، استدل بكتاب الله أو بحديث رسوله، وهذا أمرٌ واضح.

ثم إذا نظرنا في كتاب الله وجدنا فيه أسماء الله وصفاته كثيرة جدًّا، فقلَّ آية إلا وفيها شيءٌ من ذلك.

ثم إذا نظرت في حالة الصحابة، ولو اجتهدت كل الاجتهاد؛ ما تجد أن واحدًا منهم وقف فيها أو سأل الرسول عنها، أو أن هذه تدل على الظاهر أو على الباطن.

فعدم السؤال وعدم التوقف يدلُّ على أنهم فهموها على ظاهرها وقبلوها تمامًا، حتى إنَّ الرسول ﷺ يحدِّث الناس مرةً ويقول لهم: **«إنَّ الله ينظرُ إليكم أزَلِّين قنطين»**، يعني: في حالة الجدب، في حالة إذا تأخر المطر، **«ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك، يعلمُ أن فرجه قريب»**، فقال له أعرابيٌّ حاضرٌ: يا رسول الله، أويضحك ربُّنا؟ قال: **«نعم»**، قال: «إذًا لا يُعدمُنا خيرًا إذا ضحك»، وفي رواية: «لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا»(١)، فاستدل بالضحك على الرضا، وأنه يُنيلهم الخير، وأقرَّه الرسول ﷺ على ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٤) برقم (١٨١)، وأحمد في مسنده (٢٦/ ١٢١) برقم (١٦٢٠٦)، من حديث أبي رزين رضي الله عنه.

فالمقصود: أنَّهم فهموا هذه الخطابات على وفق ما جاءت بها اللُّغة التي خوطبوا بها وهم أهل اللغة، يعرفونها تمامًا.

ولما دخل في الإسلام من دخل، ممن أسلم ظاهرا وكان في قلبه حاقدًا على الإسلام وأهله؛ حيث إنهم قد سُلبت قوتهم وسُلبت دولتهم، وسُلب مُلكهم بأيدي أناسٍ كانوا يرون أنهم من أحقر الناس من العرب؛ والعرب لم تكن لهم قوة ولم تكن لهم دولة؛ بخلاف الفُرس والروم؛ فإنهما دولتان كبيرتان، كانت كل واحدةٍ تُصارع الأُخرى، وكل واحدةٍ تُريد الزعامة لها، فيكون بينهم القتال، والكرة مرةً تكون إلى هؤلاء ومرةً إلى هؤلاء.

فلما سُلبوا على أيدي هؤلاء الضعفاء، ما استطاعوا أن يستسيغوا ذلك؛ فواجهوهم بكل ما يستطيعون، فهزمهم الله في كل موطن، فلما لم يستطيعوا مواجهة المسلمين بالقوة لجأوا إلى الحيل؛ فدخلوا في الإسلام تستُّرًا، لا يريدون الإسلام وإنما يريدون أن يُفسدوا عقائد المسلمين.

ولهذا أول ما بدؤوا به: هو التشكيك في الله، فقالوا: (إن الله لا يتكلم، وإن الله لا يُحِب ولا يُحَب)، أي: جاءوا للمسلمين بأصلٍ قبلوه عن الرسول ﷺ.

ثُمَّ جاء إنكار القدر وجاء إنكار الأصول، ثم حدثت المُهاترات والقتال الكلامي، والكُتب الكثيرة التي كُتبت وغير ذلك، فحصل التمزيق للأمة، وإلى الآن الأمة تعيش آثار الاختلافات التي بينهم، فتجد هذا جهميًا، وهذا مُعتزليًا، وهذا أشعريًّا، وهذا ماتريديًا... إلخ.

كُلها بسبب هذه الأمور التي دخلوا فيها، وهذا الذي أراده الأعداء؛ لأنَّ الخلاف إذا وقع - ولا سيما في العقائد -، لا يُمكن أن تكون لهم دولة أو قوة، وإنما القوة في الاجتماع، كما أمرهم الله بذلك، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ فإذا حصل الاختلاف في العقيدة فلا بُدَّ من التَّفرُّق، فهذا هو الأصل في هذه الأمور.

أما ما ذكره المؤلف في هذه القاعدة فإنَّ فيه غموضًا للإنسان العادي، وإنما - كما قُلت - إنه وضعه للعلماء لحاجتهم إليه؛ لأنَّ الأُمة بُليت بهؤلاء الذي يجادلون في الله ويُخاصمون فيه.

المقصود: أنَّ قوله: «**وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ: ...**» يدل على أنَّهم مُتناقضون،

وتناقضهم ظاهرٌ معروفٌ، حتى الأمور الثبوتية التي يُثبتونها يُفسِّرونها بأمورٍ غير معقولة، فمثلًا: «الكلام»: يُثبتونه ولكن بلا حروفٍ ولا أصواتٍ تُسمع، يقولون: (الكلام هو المعنى الواحد القائم بذات الرب ﷻ). وهذا غيرُ معقول؛ فكيف يكون معنًى واحدًا وكيف يكون قائمًا بالرَّبِّ؟! كيف أمر ونهى والكلام معنًى واحدٌ قائمٌ بنفسه فقط؟! ثُمَّ إذا جاء الكتاب وغيرُه قالوا: (هذه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله).

وكذلك لما أثبتوا الرؤية لكثرة النصوص فيها فسروها بأمورٍ غير معقولة!

وفي قولهم تناقض؛ لأنهم نفوا «العلو»، فقال لهم الناس: (أنتم تقولون: «إن الله يُرى من أين يُرى؟ فهل يُرى من أسفل، أو من يمين أو من تحت أومن أين؟). فأجابوا: (يُرى لا من جهة!).

فالتناقض والحيرة والكلام الباطل واضحٌ جدًّا، ثُمَّ في النهاية اضطروا أنهم يفسرون «الرؤية» بزيادة «العلم»، قالوا: (العلم وإلا كَشفُ الحُجُب). إذن: معناه إذا زاد العلم في هذه الدنيا وقعت الرؤية، وإذا زالت الحُجب وقعت الرؤية.

فالمقصود: التمثيل بالحيرة والضلال والتناقض.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«مِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ ـ الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ ـ مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ: شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً».

الشَّرح

هذا البيان مع الوجازة والبلاغة والظهور الجلي بيانٌ عجيبٌ!

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، أي: العقل يُقدر الأمور في مثل هذا:

* فإما أن يوجد هذا الشيء بلا مُوجِدٍ؛ وهذا مُستحيل ممتنع.
* أو يوجد نفسه، وهذا مُستحيل.
* أو أن يكون له مُوجِدٌ ولا بُدَّ.

فأبطل الباطل وسكت عن الحقِّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٣٥]، هذا لا يُمكن، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا لا يُمكن؛ فلا خُلقوا من غير شيء، ولا هُم الخالقون.

إذَن: بقي التَّقدير الثَّالث الذي سُكت عنه، وهو أنَّ لهم خالقًا خلقهم هو الله ﷻ، فيفكرون فيه.

فهذه أمور عقلية، وأمور قريبة جدًّا إلى من نظر فيها وتبصَّر فيها، وهكذا جميع كتاب الله ﷻ، فمع الوجازة والبلاغة، فيه الحجة والبرهان على أكمل وجه.

أما هؤلاء فيأتونك بأمور بعيدة وطويلة منها: (الجسم حادث، والحادث وُجِد بعد العدم، وكل ما وجد بعد العدم فلا بُدَّ أن يلحقه بالفناء، وكذلك هو محلٌّ للحوادث، والذي يكون محلًّا للحوادث يكون حادثًا!...) إلخ؛ وهكذا يأتون بهذه الأمور، مع أنها لا تجدي شيئًا، وأغنانا الله ﷻ عنها.

وإن كانت أحيانًا صحيحةً، ـ ولكن لا تكون مثل ما جاء به كتاب الله ـ ﷻ من الوجازة والبلاغة والبيان، أما إذا كانت مُخالفةً فليست صحيحة قطعًا.

قال رحمه الله تعالى:

❁ «ومِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا».

الشَّرح

أي: كون العقل دلَّ على صدقه. و«العقل» هنا حصروه في المُعجزة؛ قالوا: (لا بُدَّ أن يأتي بالمُعجزة، التي هي الآيات، فالله ﷻ سماها آياتٍ للرُسل، وكل رسولٍ أُعطي آيةً آمن على مثلها العقلاء، وإن كان أكثرُ أقوامهم لا يقتنع بها؛ ولكن لا عبرة بمن صدَّ وأعرَضَ، فهؤلاء المتكلمون يريدون هذا، وهذا في الواقع قصورٌ عظيمٌ، وإن كان هذا في نفسه يكون صحيحًا، ولكن غيرُه أوضح منه وأبْيَن وأصْلَح وأقرب للعقول.

فالرُّسُلُ لا بُدَّ أن يأتوا بآياتٍ تدلُّ على صدقهم، ولهذا يذكر الله ﷻ القومَ الهالكينَ أنهم كذَّبوا بآيات الله. وقد تكون هذه الآيات ظاهرةً جدًّا، وقد يكون فيها خفاء عند بعض الناس ولكنها ظاهرةٌ في الواقع.

والآيات على نوعَين:

الأول: آياتٌ تكون في أنفسهم، مثل: الاستقامة، والصدق، والخوف من الله، والعمل بطاعته، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الحسنات.

الثاني: آيات تكون خارجةً عن أنفسهم، وهي الآيات التي يوجدها الله ﷻ وتكون خارقة لعادة البشر، مثل انشقاق القمر، والقرآن الذي نزل من الله، وإجابة الدعاء، ونصر أوليائه، وتكثير الطعام القليل، ونبوع الماء من اليد وتكثيره؛ وهي كثيرةٌ جدًّا لنبينا ﷺ، وكذلك للرسل ﷺ، كما قال ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ - مِنَ الآيَاتِ - مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ»**(١)؛ أي: من الآيات؛ ومنها ما هو باهِرٌ جِدًّا، مثل عصا موسى، وناقة صالح، وما أشبه ذلك من آياته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، وأول ما نزل (٦/ ١٨٢) برقم (٤٩٨١) ورقم (٧٢٧٤)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٤) برقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومعلوم أنَّ الإنسان إذا قال: «أنا نبي» فلا يخلو من حالين:

الحالة الأولى: أن يكون خيرَ الناس وأفضلَهم وأصدقَهم وأتقاهم.

الحالة الثانية: أن يكون شَرَّ الناس وأفجرَهم وأكذبَهم، وهذا لا يلتبس بذاك عند كل عاقل.

فالمقصود: أن الرسل جاؤوا بآيات تدل على صدقهم، والذي يكذِّبهم لا عذر له، ولهذا كلُّ من كذَّب الرسل فهو في النار.

قوله: «**إِلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا**»، يعني: الطريقة العقلية أو الطريقة التي عيَّنوها بأنه لا بُدَّ أن يأتي بالمعُجزة، والتي تدلُّ على صدقِه؛ لأنَّ هذه طريقٌ قاصرةٌ جِدًّا، فالأدلة على صدقِ الرسول لا حصرَ لها.

فمثلًا: كون الرسول يأتي وحده إلى أُمَّةٍ كافرة ثُمَّ يتحدَّاهم ويقول لهم ما قال هود عليه السلام لما قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، «اعتراك» يعني: أصابك بعضُ آلهتنا بجنون فصِرْت مجنونًا؛ لأنك تأمرنا بأن نُخلص العبادة لله وحده! حيث قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤، ٥٥] يعني: لا تتأخروا ساعة، الآن اجتمعوا أنتم وآلهتكم فأْتوا بما تستطيعون، لن تستطيعوا أن تصلوا إليه، فتحدِّيه لهم وحدَه وليس معه قوة ولا معه جنود.

كذلك قال نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، إلى آخره. يقول ذلك وهو وحده في هذا؛ لأنَّه واثقٌ بالله جل جلاله؛ فهذا من أكبر الأدلة.

ثُمَّ الإنسان إذا قال: (أنا رسول) فلا يخلوا الأمر من حالين ـ كما سبق ـ: إما أن يكون صادقًا أو كاذبًا؛ فإن كان كاذبًا فهو أكذب الخلق وشرُّ الخلق؛ لأنه كذَب على الله، وإن كان صادقًا فهو أبرُّ الخلق وأقربُهم إلى الله وأتقاهم وأعلمهم، فهل يلتبس هذا بذاك؟! لا يُمكن أبدًا.

المقصود: أنَّ الأدلة لا حصر لها، وذلك لظهور هذه الأدلة ووضوحها وجلائها، والكتب في هذا كثيرةٌ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ».

الشَّرح

نعم؛ لأنَّ طُرق التَّصديق كثيرة، والمقصود بـ «الطُّرق»: آياته؛ وهي تكون في نفسه، وتكون فيما حوله، وتكون فيما جاء به، وتكون في إمضاء أمره وتأييد الله له وإظهاره على الدين كُله، وفي غير ذلك. ولا تزال آياته إلى يوم القيامة؛ لأنَّ كُلَّ ما يحدث لأمته من النصر والتأييد والقوة هو من آياته؛ كما قال ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»؛ هذا ليس خاصًا به فقط؛ بل هذا لأمته أيضًا، ولكن بشرط أن يستقيموا على طريقته، وإذا لم يستقيموا فهُم مثل الناس. «**وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً...**»[(١)]، إلى غير ذلك.

المقصود: أن آياته باهرة وظاهرة كثيرة جدًا، ولهذا ألَّف فيها العلماء مؤلَّفاتٍ مُستقلَّةً، يسمونها «دلائل النبوة»، وبعضهم قد يُسميها «مُعجزات».

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التيمم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦] (١/ ٧٤) برقم (٣٣٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشَّرح

ولهذا هرقل لما جاءه الكتاب الذي يدعوه إلى الدخول في الإسلام؛ قال لقومه: «انظروا هل عندنا أحدٌ من قومه؟»، فوجدوا أبا سُفيان وهو كافر في ذاك الوقت لمَّا يدخل الإسلام بعدُ، ومعه بعضُ إخوانه على شركهم وكُفرهم، فجاءوا بهم إليه وصار يسأله، فقال لترجُمانه: سلْهُم أيُّهم أقربُ نسبًا إلى هذا الرَّجل الذي يزعمُ أنَّه نبيٌّ.

قال أبو سفيان: فقلتُ: أنا أقْرَبُهُمْ إليه نسبًا.

قال: ما قرابةُ ما بينك وبينهُ؟

فقلْتُ: هو ابن عمِّي. وليس في الرَّكب يومئذٍ أحدٌ من بني عبد منافٍ غيري.

فقالَ قيصرُ: أدنُوهُ.

وأمرَ بأصحابِي، فجعلُوا خلْفَ ظهري عند كتفِي، ثمَّ قال لترجُمانه:

قُل لأصحابه: إنِّي سائلٌ هذا الرَّجل عن الذي يزعُمُ أنَّهُ نبيٌّ، فإنْ كذَبَ فكذِّبُوهُ.

قال أبو سفيان: والله لولا الحياءُ يومئذٍ، من أنْ يأثُرَ أصحابِي عنِّي الكذبَ، لكَذَبْتُهُ حين سألَنِي عنهُ، ولكنِّي استَحييْتُ أنْ يأْثُرُوا الكذِبَ عنِّي، فصدقْتُهُ.

ثمَّ قال لترجُمانِهِ: قُل له كيف نسبُ هذا الرَّجلِ فيكُم؟

قلْتُ: هو فِينا ذو نسبٍ.

قال: فهل قال هذا القْلَ أحدٌ منكُمْ قبْلهُ؟

قلتُ: لا.

فقال: كنتم تتَّهِمُونهُ على الكذبِ قَبلَ أنْ يقولَ ما قال؟

قلتُ: لا.

قال: فهل كان منْ آبائِهِ من مَلِكٍ؟

قلتُ: لا.

قال: فأشرَافُ النَّاس يتَّبِعُونهُ أم ضُعفاؤُهُم؟

قلْتُ: بلْ ضُعفاؤُهُم، قال: فيزِيدُونَ أو ينقُصُونَ؟

قلتُ: بل يزيدُونَ.

قال: فهل يرتدُّ أحدٌ سَخطةً لِدينهِ بعْدَ أن يدخُلَ فيه؟

قلتُ: لا.

قال: فهل يَغدِرُ؟

قلتُ: لا. ونحنُ الآن منهُ في مُدَّةٍ، نحنُ نخافُ أنْ يَغْدِرَ.

قال أبو سفيان: ولمْ يُمكِنِّي كلِمةٌ أدخِلُ فيها شيئًا أنْتَقِصُهُ به، لا أخافُ أنْ تُؤثرَ عنِّي غيرُها -.

قال: فهل قاتَلتُمُوهُ أو قاتَلكُم؟

قلتُ: نعَمْ.

قال: فكيفَ كانت حربُهُ وحربُكُمْ؟

قلتُ: كانتْ دُولًا وسِجالًا، يُدالُ علينا المَرَّةَ، ونُدَالُ عليه الأخرى، قال: فماذا يأمُرُكُمْ به؟

قال: يأمُرُنا أنْ نعبُدَ الله وحدهُ لا نُشركُ به شيئًا، وينْهانَا عمَّا كان يعبُدُ آباؤُنَا، ويأمُرُنَا بالصَّلاة، والصَّدقةِ، والعفافِ، والوفاءِ بالعهْدِ، وأداءِ الأمانةِ.

فقال لِترجُمانِهِ حين قلتُ ذلك لهُ: قل لهُ: إنِّي سألْتُكَ عن نسبِهِ فيكُم، فزَعمتَ أنَّهُ ذو نَسبٍ، وكذلكَ الرُّسُلُ تُبعثُ في نَسَبِ قومِهَا.

وسألْتُكَ: هل قال أحدٌ منكم هذا القول قَبْلهُ، فزعمتَ أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ منكم قال هذا القول قبلهُ، قلتُ رجُلٌ يأتمُّ بقولٍ قد قيلَ قبلهُ.

وسألتُكَ: هل كنتم تَتهِمُونهُ بالكذِبِ قبل أن يقول ما قال، فزعمتَ أن لا، فعَرَفتُ أنَّهُ لم يكن لِيدعَ الكذِبَ على النَّاس ويكذِبَ على الله.

وسألتُكَ: هل كان من آبائهِ من مَلِكٍ، فزَعمتَ أن لا، فقلتُ لو كان من آبائهِ

مَلِكٌ، قلتُ يطلُبُ مُلْكَ آبائِهِ، وسألْتُكَ: أشرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونهُ أم ضُعفاؤُهُمْ، فزَعمتَ أنَّ ضُعفاءَهُمُ اتَّبعُوهُ، وهم أتباعُ الرُّسُلِ.

وسألْتُكَ: هل يزيدُون أو ينقصُون، فزعمتَ أنَّهُمْ يزيدُون، وكذلك الإيمانُ حتى يتِمَّ، وسألْتُكَ هل يرتَدُّ أحدٌ سخْطَةً لِدِينِهِ بعْدَ أنْ يدخُلَ فيهِ، فزَعمتَ أنْ لا، فكذلِكَ الإيمانُ حين تخلِطُ بشاشَتُهُ القُلُوبَ، لا يَسخَطُهُ أحدٌ.

وسألتكَ هل يَغدِرُ، فزعمتَ أن لا، وكذلك الرُّسُلُ لا يغدِرُونَ.

وسألتكَ: هل قاتلتُمُوهُ وقاتَلَكُمْ، فزعمتَ أن قد فعَلَ، وأنَّ حربكُمْ وحَرْبَهُ تكونُ دُوَلًا، ويدالُ عليكم المرَّةَ وتُدالونَ عليه الأُخرى، وكذلك الرُّسُلُ تُبْتلى وتكونُ لها العاقِبَةُ.

وسألتكَ: بماذا يأمُرُكُم، فزعمتَ أنَّهُ يأمُرُكُمْ أن تعبُدُوا الله ولا تُشركوا بهِ شيئًا، وينهاكُمْ عمَّا كان يعبُدُ آباؤُكُمْ، ويأمُرُكُمْ بالصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والعفافِ، والوفاءِ بِالعهدِ، وأداءِ الأمانة.

قال: وهذه صفةُ النَّبِيِّ، قد كنْتُ أعلمُ أنَّهُ خارجٌ، ولكن لم أظُنَّ أنَّهُ منكم، وإنْ يكُ ما قُلتَ حقًّا، فيُوشِكُ أنْ يَملِكَ موضِعَ قدَمَيَّ هاتَينِ ولو أرجُو أنْ أخلُصَ إليهِ، لتَجشَّمْتُ لُقِيَّهُ، ولو كُنْتُ عندهُ لغَسَلتُ قدَمَيهِ[١].

والأدلة واضحةٌ وكثيرةٌ، مثل ما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ الذي هو من أعلم اليهود في وقته ـ؛ يقول: لمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صلَى اللهُ عليه وسلَم انْجَفَلَ النَّاسُ عليه، فكُنْتُ فيمنِ انْجَفَلَ، فلمَّا تبيَّنْتُ وجْهَهُ عرَفْتُ أنَّ وجْهَهُ ليس بِوجْهِ كذَّابٍ»[٢]؛ لأن الإنسان إذا قال: أنا نبيٌّ، لا يخلو الأمر إمَّا أن يكون هو أفجرُ الناس وأكذبُهم، وأبعدهم عن الله، أو يكون أصدق الناس وأبرهم وأقربهم إلى الله، ولا يُمكن أن يلتبس هذا بهذا عند جميع العقلاء.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة... (٤/٤٥) برقم (٢٩٤٠)، من حديث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٣٧٨٤)، والترمذي برقم (٢٤٨٥)، وابن ماجه برقم (١٣٣٤)، والحاكم برقم (٤٢٨٣).

قال رحمه الله تعالى:

❁ «ومِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً».

الشَّرح

نعم؛ والظَّنُّ لا يُغني عن الحقِّ شيئًا، وكلُّ ما هم عليه ظنونٌ، وليس عندهم فيها يقينٌ، وإنما اليقين فيما جاء به الرسول ﷺ، وما جاءت به الرُسل، وقد علمنا أنَّ العقل لا يستقلُّ بمعرفة الغائبات، ولا يستقلُّ بمعرفة ما جاءت به الرُّسل؛ فلا بُدَّ أن يسترشد بما جاءت به الرُسل وينقادَ لذلك؛ فإن فعل زاده الله هُدًى ونورًا ويقينًا، وإن لم يفعل فهو يتنقل من شكٍّ إلى شكٍّ حتى يُصبح حائرًا أو بعيدًا عن الله.

قوله: «**ومِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ...**»؛ هذا شأنهم في أمرهم كلهم، يظنون أنَّ الشيء صحيحٌ وهو باطلٌ، خصوصًا فيما يتعلَّق بالله ﷻ وبأوصافه.

أما كونهم استدلوا بالمخلوق على الخالق فهذه طريق صحيحة؛ لأنهم استدلوا بالحوادث على أنَّ لها محدِثًا، ولكنها لا تكفي لمعرفة الله ﷻ، ولو كانت تكفي لما احتاج الناس إلى الرسل، ولهذا أرسل الله الرسل لتبين أمره ونهيه، وتُبين ما يجب له وما يمتنع عليه.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ، وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنْ الْمَجْهُولَاتِ؛ لَا مِنْ الْمَعْقُولَاتِ، وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشَّرح

قوله: «السَّمْع»؛ أي: كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

والقاعدة التي قعدوها أنَّ «السمع» لا يخلو من حالينِ:

الأُولى: أن يكون متّفقًا مع العقل، وهذا يُقبل ويُتَّبع.

الثَّانية: أن يكون مخالفًا للعقل. ففي هذه الحالة: فإما أن يُقبل «السَّمع»، وهذا محال عندهم؛ لأن «السمع» فرعٌ عن «العقل»؛ ولأنهم استدلُّوا بالعقل على صدق الرسل، فإذَن: «السمع» إما أن يوقف وإما أن يُؤول.

وهذا كلام باطل؛ لأن التقسيم باطلٌ، وذلك أنَّ «السمع» لا يمكن أن يكون مخالفًا للعقل الصريح، فكونُهم يذكرون أنَّه مخالفٌ:

- إما أن يكون «السمع» هذا الذي جاءهم غير صحيح وغيرُ ثابت عن الرسول ﷺ.

- أو أن يكون نظرهم وتقديرهم فاسدًا، فحكموا على شيء لم يحيطوا به؛ وإلا فالأصل في ذلك هو «السمع» الذي جاءت به الرسل.

ثُمَّ كونه ينصبُ خلافًا بين «العقل» و«السمع» ضلالٌ، فالواجب أنَّ الإنسان يخضع ويقبل ما قاله الله وقاله الرسول، كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، ويجب تحكيمه في كل شيء، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ سواءٌ كان من الأمور العقلية أو الخلافية التي تكون بينهم؛ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، فنفى الإيمان حتى يكون الإنسان بهذه الصفة.

فكيف تكون عقول البشر القاصرة معارضةً لكلام الله وكلام رسله، وكلامُ الرسل هو من كلام الله؟! فإنهم يتكلمون بالوحي الذي يوحيه الله ﷻ إليهم.

هذا الكلام من القواعد التي يعتمد عليها المتكلمون في معارضتهم لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ، وكُلها كما **يقول المؤلف**: «**مِنَ الْمَجْهُولَاتِ؛ لَا مِنَ الْمَعْقُولَاتِ**»؛ لأنَّ «الكتاب والسنة» الذي جاء من عند الله لا يُمكن أن يكون مُخالفًا للواقع أو مُخالفًا للعقل الصحيح.

ولكن العقول لا تُدرِكُ ما جاءت به الرُسل؛ فقد تحار فيه، وأكثر التكليفات من هذا الباب؛ لأن الله ﷻ أراد أن يبتلي عباده فيُظهِرَ بالعمل من يقف عند نظره وفكره، ويقول هذا لا أعقله، ومن يقول: سمعت وأطعت فهمت أو لم أفهم.

وهذا الذي يجب أن يكون عليه المُسلم أنَّه يقول لما قاله الله ولما قاله الرَّسول: (سمعًا وطاعةً)، ويعلم يقينًا أنَّه لم يأتِ بما يُخالف العقل، ولا الفطرة، ولا المحسوسات.

وإلا فكثيرًا ما إذا عرضوا ما جاء به الرسول على عقولهم، اعترضوا عليه حتى في الأوامر الظاهرة، حتى في الأمور التي أُوجبت على كل أحد؛ مثل الوضوء، مثل الغُسل من الجنابة، ومثل الحج، وما أشبه ذلك؛ فكثيرٌ منهم يقول: (لماذا إذا أردنا أن نقوم للصلاة نغسل وجوهنا وأيدينا، ما الحكمة؟). هذا لا يجوز، بل الواجب أن يقول: (سمعًا وطاعةً لما أمر ربي به)، ويمتثل ولا يقف عند ذلك يقول: (ما الحكمة في كذا وكذا؟)؛ وكذلك في أمور الحج يقول: (لماذا نقصد مكة مع أن الجو فيها حرٌّ، وفيها كذا وفيها كذا، ولماذا نقف في عرفات، ولماذا نرمي الجمرات...؟).

فكُلها أمورٌ يأتي بها الشيطان حتى يُزين لهم عقولهم، وأنهم يدركون ما لم يأت به الوحي، ومعلومٌ أنَّ من كان بهذه المثابة فإنه لم يؤمن بالله ولم يؤمن برسوله ﷺ. ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، مع العلم بأنه ﷻ لا يكلِّف نفسًا إلا وُسعَها.

وهكذا في الأمور التي هي أمورٌ غيبيَّةٌ ـ وهي أعظمُ ـ، فهي التي يقيسونها بعقولهم، مثل أسماء الله وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ، ومثل ما يعد به حتى يُصبح يحكم على الله بأن أفعاله وجزاءه ليس عدلًا، وأنه جورٌ؛ كما يقول الزنادقة والكفرة: (عُمر الإنسان ستون سنة؛ فلماذا يُعذب في النار أبد الآبدين؟). نقول:

لأنك كفرتَ وأبيتَ أَمْرَ الله، ولا يليق بك إلا جهنم تصليك وتدوم فيها أبدًا؛ فهذا جزاؤك، فهذا جزاءُ العدل من رب العالمين ﷻ، والله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]؛ لأنه هو الرب المُتصرف المالك لكل شيء ـ تعالى وتقدس ـ، فهو يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد.

قوله: «**وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ**». وذلك في كتابه «درء تعارض العقل مع النقل»، وقد أكثرَ فيه من الدلالة على هذا المعنى، وأبطل كلام المتكلمين في ذلك.

المقصود: أنَّ الأدلة التي يقولون: (فيها تعارض بين «السمع» و«العقل»)، هي مبنية على هذه الظنون ـ مثل: (أن العقل دلَّ على صدق الرسول، فيكون أصلًا، فلا يكون «السمع» قاضيًا على العقل، بل ينبغي العكس) ـ، **والصَّحيح**: أنَّ هذا كلَّه باطِلٌ، وأنَّ «السمع» هو الذي يجب أن يُعتمد، وهو الذي أرشد العقول إلى الأدلة الصَّحيحة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ حَيٌّ؛ كَمَا أَرْشَدَ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]».

الشَّرح

قوله: «**أَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ...**»؛ فَمَثَلًا: الله ﷻ أمَرَنا بالدعاء وأوجبه علينا، وهل يُدعى من لا يسمع؟! أو يُدعى البخيل الذي لا يجود على من يدعوه؟! أو يُدعى الذي يكون بعيدًا؟ فكلُّ صفاته وأوامره تدلُّ على الكمال المطلق له ﷻ.

قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، إذ كيف يخلق الشيء وهو لا يعلمه؟! فهذا تقريرٌ؛ لأنهم أنكروا أن يكون الله يعلم ما في نفوسهم، ويعلم أعمالهم التي يعملونها خفاءً، والله ﷻ يعلم السر وأخفى، فعِلمُ الله محيطٌ بكلِّ شيء، وعلمُه لا يمكن أن يفوته شيء، وعلمه في الأزل كعلمه في الحال وكعلمه في المُستقبل الأبدي كُلِّه، يعلمه على ما هو عليه تمامًا، لا يفوته شيء؛ وكلُّ شيء يقع من حركة أو سكون أو عزٍّ أو ذل أو حياة أو موتٍ؛ فإنه بعلم الله، وقد بيَّن ذلك ﷻ في كتابه في آيات متعددة.

فمعرفة الشيء تقتضي كمال التصور له. فهذا من ناحية العقل؛ وهل يكون إثبات «العلم» لله بهذه الطريق فقط؟ لا؛ لأنَّ الله نَصَّ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥]؛ ولكن المقصود: التمثيل فقط، فهو يقول: (إنَّ الصفات دلَّ عليها العقل، والمقصود بـ«العقل»: المُعتدل السليم الذي لم ينحرف.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ: عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ - عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ - أَنَّهُ حَيٌّ؛ عَلِيمٌ؛ قَدِيرٌ؛ مُرِيدٌ؛ وَكَذَلِكَ السَّمْعُ؛ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ. يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ منهم».

الشَّرح

الأدلة على ذلك كثيرة؛ فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فهذا أمرٌ بالدعاء، وهذا أوَّلًا يدلُّ على صفة «السمع»؛ لأن الذي لا يَسمع لا يُدعى، ويدل كذلك على «الكرم»؛ لأن البخيل لا يُدعى، ويدل أيضًا على «القُدرة»، وغير ذلك.

قوله: «...مُرِيدٌ» «المُريد» ليس من صفات الله؛ ولكن مقصوده بهذا مخاطبة القوم باصطلاحهم؛ وإلا فلم يأت في أسماء الله «مُريد»، وإنما جاء: «فعالٌ لما يُرِيد»، ومثل ذلك «المُتكلم» لم يأتِ في أسماء الله، وإنما جاء: «كَلَّم» و«يُكلِّم» و«يتكلَّمُ».

و«السمع» نفسه أرشد إليها ودل عليها؛ ولكن الأصل في هذا «السمع» - الذي هو الكتاب والسُّنَّة -. ولماذا يُسمى سمعًا؟ لأنه يُسمع كلامٌ يُتكلم به.

الأصل أنه لا يأتي شيءٌ من الكتاب والسُنة يُخالف العقل، ولكن هل كُلِّفنا بنظر العقول؟! فلو كان التكليف بنظر العقول لم يتفق اثنان على شيء؛ لأن كُلّ شخص له عقلٌ ونظرٌ، وكُلّ له فكرٌ يخالف الآخر، حتى في الماديَّات الظاهرة، تجدهم يختلفون فيها؛ فكيف بالأمور الغائبة؟!

ولكن التكليف جعله الله ﷻ لحكمةٍ ورحمةٍ لما جاءت به الرُسل؛ فإذا أدرك الإنسان الحكمة في ذلك والعلة؛ فليحمد الله وليُثنِ عليه؛ لأنه فضله.

وإن لم يُدرك ذلك فليقل: كما قال الشافعي رحمه الله: «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله» علمتُ ذلك أو لم أعلمه، فهذا الذي يجب على المُسلم؛ لأن الواجب

عليه امتثال أمر الله ﷻ ظاهرًا وباطنًا؛ أما إذا جاء الاعتراض بالعقل فمعنى ذلك أن الإنسان يكون مقتديًا بإبليس، فالشيطان لما أمره الله ﷻ أن يسجد لآدم؛ أبى وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [سورة ص: ٧٦]؛ فهذا أول من اعترض بعقله وبقياسه، وهكذا هؤلاء، يصنعون كما صنع إبليس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ، يُمْكِنُ إِثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ».

الشَّرْح

مقصودهُ بـ «الْحُبُّ»: الذي يتصف الله ﷻ به، وكذلك «الرضا»: الذي يتصف به؛ لأنَّ هؤلاء يقولون: (ما نعقل من الحُبِّ إلا الميل إلى المُلائم، والميل إلى المُلائم هذا ضعفٌ وحاجةٌ، والله يتنزه عن الحاجات).

فالجواب أن يُقال لهؤلاء: هذا الذي تذكرونه هو محبة المخلوق، أمَّا صفة الله فهي تليق بعظمته وجلاله، ولا يجوز أن تتصوَّر أنه يُشارك المخلوق فيما يتَّصف المخلوق به؛ فإنْ تصور ذلك فهذا نوعٌ من الشرك؛ لأنَّ الشرك يقع في الصفات كما يقع في الأفعال.

فالله ﷻ في صفاته واحدٌ لا شريك له فيه، وكذلك هو في أفعاله لا يُشاركه فيها أحد، كما أنه في حقِّه الذي أوجبه على خلقه يجب أن يكون له وحدَه؛ فإن شُورك فيه فهو الشرك الأكبر الذي من فعله ومات عليه يكون في جهنم خالدًا فيها مُخلَّدًا.

فالمقصود: أنَّ الاتصاف بالمحبة كمالٌ؛ فالذي يتَّصف بالحُب أكمل ممن لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ. ومثل ذلك «الكلام» و«السمع» و«البصر» وغيرها، وكلُّ صفات الله ﷻ كمالٌ، وهي خصائصُ.

ومعنى كونها خصائص: أنه يختص بها لا يُشاركه فيها أحدٌ، كما قال ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]. يقول ابن عباس: «هل تعلم له مماثلًا ومناظرًا يناظره أو يُساميه!»؛ لا وجودَ لذلك أصلًا.

كذلك يقول ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، و«الأنداد»: الأمثال والنظراء؛ سواءٌ في الحق الذي أوجبه أو فيما يتَّصف به ﷻ أو فيما يفعله، فهذه الأمور يجب أن يُخلص العبدُ لله ﷻ فيها، ولهذا سبق أنَّ الشرك يكون أقسامًا ثلاثةً، يقع في الأفعال ويقع في الصفات، ويقع في الأمر الذي أوجبه الله ﷻ على عباده.

وكذلك صفة «الغضب»؛ فالله ﷻ أخبر أنه يرضى على من يشاء، ويغضبُ على من يشاء، وهذا من الكمال، وغضبُه يليق به كما أنَّ رضاه أيضًا يليق بعظمته وجلاله، ولا يكون المخلوق مشاركًا للخالق في شيءٍ مما يتصف الله ﷻ به، وقد سبقت القاعدة التي تقول: «لو لم يكن عندنا شيءٌ يُسمَّى غضبًا، أو يسمى رِضًا، أو يسمى حُبًّا؛ ما عرفنا ما خُوطبنا به ولم نفهمه»؛ فصار فيه قدرٌ مُشترك في الفهم، وفي اللفظ، وفي المعنى البعيد.

ثم قيل لنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ فإذَنْ: ليس كمثله شيءٌ لا في الحُب ولا في الرضا ولا في الغضب، ولا في ذاته، ولا في فعله، ولا في شيءٍ مما يخُصه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، من الأشياء.

قوله: «**يُمْكِنُ إِثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ**»؛ لأنَّ هذا كمالٌ، والذي يُحبُّ أكملُ ممَّن لا يُحب، و«الرضا» كذلك و«الغضب» كذلك؛ فإثباتها مُمكن بالعقل، وكلُّ هذا ردٌّ على الذين يقولون: (إنَّ العقل هو الأصل، والسمع يجب أن يكون خاضعًا للعقل).

بل العقل موافقٌ للسمع وليس مستقلًّا بهذا، ولكن مقصود المؤلف أنهم أوَّلوا هذه الصفات بحُجَّة أنَّ العقل دلَّ على وجوب التَّأويل أو أنها تدلُّ على المشابهة والمماثلة للمخلوقين، فيُثبِتُ أنَّ هذا ليس كما قالوا، بل العقل يدلُّ على ما قاله الله ﷻ إذا كان سليمًا، فالعقول تتفاوتُ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا أَثْبَتَهُ بِذَلِكَ الأَئِمَّةُ: مِثْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ، وَمِثْلُ: عَبْدِ العزيز الْمَكِّيِّ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّاب».

الشَرح

عُلُوُّ الله ﷻ مما اتفقت عليه الرسل وأمم الرسل؛ وليس فلانًا وفلانًا فقط. ثُمَّ إنَّ الله ﷻ فطر عليه عبادَه، والله ﷻ لما خلق المخلوقات؛ وخلق السماوات والأرض، لم يدخل فيها، ولا يُمكن أن يتصور ذلك عاقل؛ تعالى الله وتقدس؛ وإلا كان أسفل؛ لأن السُّفل نقصٌ، فهو فوقها - تعالى وتقدس -.

ولهذا شرع لنا عند كُلِّ حركة من الحركات أن نقول: (الله أكبر)، فالله أكبر من كلِّ شيء، والرسول ﷺ كان يُعلِّم أصحابه إذا كانوا مُسافرين وهو معهم أنهم إذا صعدوا مُرتفعًا أن يُكبروا يقولوا: «الله أكبر، الله أكبر»؛ لأنَّ الله فوق كُلِّ رفيعٍ وأكبر منه، وعلمهم إذا هبطوا في مُنخفض أن يُسبحوا، فيقولوا: «سبحان الله، سبحانَ الله»؛ لأنَّ الله ﷻ يتنزه عن المُنخفضات والتحت - تعالى الله وتقدس -.

ثم الفِطرة التي فطر الله عليها عباده، أنَّ كُلَّ داعٍ أثناء دعائه يجد دافعًا من نفسه أن يطلب ربه من فوق، حيث يرفع يديه؛ لماذا تُرفع الأيدي؟ طلبًا واستجداءً ممن هو فوق السماوات والأرض.

بينما من انتكس عقله وفطرته يقولون: (إن الله ليس فوق، ولا تحت ولا يمينًا، ولا شمالًا، ولا داخل العالم، ولا خارجَ العالم، ولا يجري عليه زمانٌ، ولا يكون في مكانٍ)؛ فأين يكون؟! أليس هذا هو العدم المحض، ولو قيل لقائلٍ: صِفْ لنا «العدم»، فهل يَصِفُه بأكثرَ من ذلك؟!

فهؤلاء ضُلَّالٌ يريدون أن يُفسدوا عقائدَ المسلمين، ولكلِّ سلفٍ خلفٌ، ولا يزال هذا في الناس منذ أن باء الشيطان بغضب الله ﷻ؛ لأنه يُزيِّن لكثيرٍ من الناس، وأقسم لربه ﷻ بذلك؛ قال تعالى عن الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: ٣٩].

ولكن استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٤٠]، فقال الله ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٤١ ـ ٤٢]، يعني: الذين يتبعونك هم الغواة الذين غووا، و«الغاوي» هو الذي ليس عنده عقلٌ يهديه ولا سمعٌ يقتدي به، فغوى وتبع الشيطان ـ نسأل الله الجنة ـ.

ثم خُلقت جهنمُ، ولا بُدَّ أن تُسكن، ولا يسكنها إلا مُجرمٌ ممن لا خير فيه، أما الذي طهَّر فكره، وطهَّر قلبه من قاذورات التشبيه، ومن نجاسة التعطيل؛ فإنه لا يسمعُ حسيسها، وهو فيما اشتهت نفسه خالدٌ مخلَّدٌ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، تعالى الله وتقدس.

فعلو الله ﷻ من أظهر الأشياء؛ يقول ربنا ﷻ فيما قصه علينا في قصة موسى، أنَّ فرعون قال لوزيره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، معنى هذا: أنَّ موسى قال: (إنَّ ربنا في السماء فوقَ، عالٍ على السماوات والأرض)؛ فأراد فرعون أن يموِّه على السُّذَّج وعلى أتباع كل ناعق، بأن يبني صرحًا حتى يصل إلى السماء؛ وكل هذا دجلٌ وكذب وزور وبُهتان، وإلا فلا يستطيع أن يصل ولا إلى السحاب.

فالمقصود: أنَّ عُلُوَّ الله ﷻ أمرٌ فطريٌ عقليٌّ سمعيٌّ دينيٌّ جاءت به الرُسل كُلُّها، واتَّفق عليها الأُمم، ولسنا نقول: إنه قال به فُلان وفلان، فالتعداد بفلان وفلان هذا فيه شيءٌ من التضعيف، وإنما يُعَدُّ الذي أنكره؛ فالذين ينكرون هم الذي يُعدون؛ لأنهم قلائلُ.

قوله: «**عَبْدِ الْعَزِيز الْمَكِّيِّ**..» الكنانيُّ صاحب «الحيدة»، التي ناظر بشرًا المريسيَّ فيها عند المأمون في مجلسه، وبعضُ الناس يُنكر هذه المُناظرة؛ كما أنكرها الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ، وإنكارُه إياها لا يقدح فيها؛ لأن العلماء أثبتوها ونقلوا عنها.

وشيخ الإسلام نقلها كاملةً في كتابه «درأ التعارض»، ولم يذكر شيئًا يدلُّ على التردد في ذلك؛ بل يجزم؛ وقال: «ذكره عبد العزيز بن يحيى المكي المشهور صاحب الحيدة»[١].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١١٥).

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يصح إسناد كتاب الحيدة إليه [عبد العزيز الكناني]، فكأنه وضع عليه»[١].

وإنكار الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ بناه على أمرين:

الأمر الأول: أنَّ السند الذي رُوي به، فيه رجلٌ مجهول، ورجلٌ ضعيف.

الأمر الثاني: عدم رجوع المأمون عن رأيه في خلق القرآن؛ استبعاد أن تكون هذه المُناظرة حصلت بين يدي المأمون، ثُمَّ لم يرجع إلى الحق.

وهذا غير صحيح:

أولًا: الكتب ما يلزم أن تثبت بالأسانيد؛ فإذا استفاض الكتاب بين الناس استفاضت نسبته، تكفي استفاضته عن سنده؛ وإلا لو طولبنا بكتب العلماء أن نُسندها إلى أصحابها، ما استطعنا ذلك، وإنما نكتفي بشهرتها واستفاضتها ونسبتها إلى أهلها.

وكذلك ما فيها من الكلام؛ فالإنسان إذا عرف أسلوبَ الرَّجُل وعرف طرقه وعرف كلامه، ما يشتبه كلامه بكلام غيره؛ لأن كُلًّا له طريقته.

و«الحيدة» مطبوعة عدة طبعات، سماها «الحيدة»؛ لأن الكناني كلما ألزم بشرًا بالدليل حادَ وعجز أن يأتي بالدليل فيقول: حادَ.

المُناظرات التي بين العلماء وبين أهل الباطل = كثيرةٌ، فقد ذكروا عدة مُناظرات وقعت بين أهل الحق وبين بشر المريسي أو أحمد بن أبي دؤاد، هما كانا ممن تبنوا الباطل ودعوا إليه وألزموا الناس به.

ويُقال: إنَّ شيخًا قدم على الواثق من الثَّغْر الشامي، مُقَيَّدٌ طوَالٌ، حَسَنَ الشَّيْبة، فسلَّم غيرَ هائِبٍ، ودَعَا فأوجز، فرأيت الحياءَ منه في حَمَالِيق عَيْنَي الواثقِ والرَّحمةَ عليه.

فقال: يا شيخُ! أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دُؤاد عمَّا يسألك عنه. فقال: يا أمير المؤمنين! أحمد يَصْغُرُ ويَضعفُ ويَقِلُّ عند المُناظرةِ. فرأيتُ الواثقَ وقد صار مكان الرَّحمة عليه والرِّقة له غَضَبًا، فقال: أبو عبد الله يَصغُرُ ويَضعفُ ويَقِلُّ عند مُناظَرتِكَ؟ فقال: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين! أتأذن في كَلامهِ؟ فقال له الواثقُ: قد أذنت لك.

---

(١) ميزان الاعتدال (٢/ ٦٣٩).

فأقبل الشيخ على أحمدَ بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد! إلامَ دَعوتَ النَّاسَ؟ فقال أحمدُ: إلى القولِ بخلقِ القرآن، فقال له الشيخُ: مقالتُكَ هذه التي دَعَوْتَ النَّاسَ إليها من القولِ بخلقِ القرآن، أداخلة في الدين فلا يكون الدِّينُ تامًا إلا بالقولِ بها؟ قال: نعم. قال الشيخُ: فرسولُ الله ﷺ دَعَا النَّاسَ إليها أم تَركَهم؟ قال: تركهم. قال له: فَعَلِمَها أم لم يَعْلَمها؟ قال: عَلِمَها. قال: فلم دَعوتَ النَّاسَ إلى ما لم يَدعُهُم رسولُ الله ﷺ إليه وتَركَهُم منهُ؟ فأمْسَكَ. فقال الشيخُ: يا أمير المؤمنين! **هذه واحدةٌ.**

ثم قال له: أخبرني يا أحمد! قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية؛ فقلت أنت: إن الدِّين لا يكونُ تامًا إلا بِمقَالَتك بخلقِ القرآن، فالله ﷻ أصدقُ في تَمامِهِ وكَمالِهِ أم أنت في نُقْصَانِكَ؟ فأمسك. فقال الشيخُ: يا أمير المؤمنين! **وهذه ثانيةٌ.**

ثم قال بعدَ ساعةٍ: أخبرني يا أحمدُ! قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، فمقالتُكَ هذه التي دَعَوْتَ النَّاسَ إليها فيما بلَّغهُ رسولُ الله ﷺ إلى الأُمَّةِ أم لا؟ فأمْسَكَ. فقال الشيخُ: يا أميرَ المؤمنين! **وهذه ثالثةٌ.**

ثم قال له بعدَ ساعةٍ: أخبرني يا أحمد! لَّما عَلِمَ رسولُ الله ﷺ مَقَالتك هذه التي دعوت النَّاس إلى القول بها: اتَّسع له أنْ أمسك عنهم أم لا؟ قال أحمدُ: بل اتَّسعَ له ذلك. فقال الشيخُ: وكذلك لأبي بكرٍ؟ وكذلك لِعُمرَ؟ وكذلك لعثمانَ؟ وكذلك لعليٍّ ﷺ؟ قال: نعم. فصرَفَ وَجْهَهُ إلى الواثقِ وقال: يا أمير المؤمنين! إذا لم يَتَّسِع لنَا ما اتَّسع لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع الله علينا. فقال الواثقُ: نعم! لا وسَّع اللهُ علينا إذا لم يتَّسع لنا ما اتَّسعَ لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه. ثم قال الواثقُ: اقطعُوا قُيُودَهُ. فلمَّا فُكَّت جَاذَبَ عليها، فقالَ الواثقُ: دعُوهُ! ثم قال: يا شيخ! لم جَاذَبْتَ عليها؟ قال: لأني عَقَدتُ في نيَّتي أنْ أُجاذب عليها، فإذا أخذتُها أوصيت أن تُجعل بين بدني وكفني حتى أقول: يا رب! سل عبدك: لم قيَّدني ظلمًا وأراع فيَّ أهلي؟ فبكى الواثق، وبكى الشيخ، وبكى كل مَنْ حَضرَ. ثم قال له الواثقُ: يا شيخ! اجعلني في حلٍّ، فقال: يا أمير المؤمنين! ما خَرجتُ من منزلي حتى جَعَلتكَ في حلٍ إعْظَامًا لرسولِ الله ﷺ ولقَرَابتِكَ منه. فتهلَّل وجهُ الواثقِ وسُرَّ،

ثم قال له: أقم عندي آنسُ بك، فقال له: مكانِي في ذلك الثَّغر أنفع، وأنا شيخٌ كبيرٌ، ولي حاجةٌ، قال: سَلْ ما بَدا لك. قال: يأذن أميرُ المؤمنين في الرجوع إلى الموضِع الذي أخرَجَني منه هذا الظَّالِمُ. قال: قد أذنت لك، وأمر له بجائزةٍ فلم يَقبَلهَا(١).

فالمقصود: ليست المُناظرة ترد الناس عن اعتقاداتهم وعن تصوراتهم إلا ما شاء الله.

قوله: «**عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ**»؛ ابنُ كُلَّابٍ له أتباعٌ، ومذهبه أصلُ مذهب الأشعرية، ولكن أقرب إلى السُّنَّة منهم. وقد جاء ببدعٍ؛ لأنه رَدَّ كلام المُتكلمين بكلامٍ مثله بأمورٍ عقلية؛ خلاف عبد العزيز الكناني، فعبدُ العزيز من أهل السُّنَّة وتقيَّد بكلامِ الله.

ولهذا لما بدأت المُناظرة قال: (لا بدَّ أن يكون بين المُتناظرين أصلٌ يرجعون إليه حتى لا يضيع الوقت، فنجعل بيننا ألفاظَ القُرآن؛ لأنه لا أحد يختلف أنَّه حقٌّ)، فاتفقوا على هذا، وبشرٌ لا يستطيع أنه يُجيب.

* * *

(١) الإبانة لابن بطة (٢/ ٢٦٩)، والاعتصام للشاطبي (٢/ ٦١).

قال رحمه الله تعالى:

«بَلْ وَكَذَلِكَ إِمْكَانُ الرُّؤْيَةِ: يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ».

الشرح

المقصود بـ «الرؤية»: رؤيةُ المؤمنين اللهَ ﷻ يومَ القيامة؛ وقد بينت النصوص أنَّ كلَّ واحدٍ من المؤمنين سوف يرى ربَّه، ويقول العلماء: (كل آيةٍ في كتاب الله، وحديثٍ في كلام رسول الله جاء فيه ذكر اللقاء فإنه يتضمَّن المُعاينة والرؤية؛ كقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ ﷿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ**»(١).

فلو تكلف إنسانٌ عنده من البلاغة والفصاحة ما عنده؛ وأراد أن يتكلَّم بكلام بليغ فصيح واضح ما استطاع أن يقول مثل ما قال الرسول ﷺ؛ فإنه يقول: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سَحَابٌ وَلَا قَتَرٌ**»(٢)، يعني: أنها رؤية واضحة جلية لا إشكال فيها.

كيف يسوغ لمن يزعُم أنه مُسلم أن يعترض على هذا الكلام ويُرده؟! وكيف يقول: (إن هذا لا يدلُّ عليه العقل)؟! مع أن العقل مثل ما مضى ليس فيه ضابط، فعقل أبي بكر رضي الله عنه غيرُ عقل أبي جهل، وعقل موسى عليه السلام غير عقل فرعون، وكذلك عقل المؤمن غير عقل الكافر.

فالعقول تختلف، فيجب أن تُرشَد وتُقاد، أما أن تكون هي التي تستقلُّ بالمعرفة فلا، والعقل وُضع حتى يقوم بالتكليف من امتثال الأمر واجتناب النهي. ولهذا إذا فُقِد لا يُكلف الإنسان؛ ولا يُكلف إلا العاقل المُستطيع.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣] (٩/ ١٣٢) برقم (٧٤٤٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة... (٢/٧٠٣) برقم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

أما أنه يكون عقلا يحكُم على الله ويحكم على صفاته وعلى أفعاله = فهذا ممنوعٌ، بل مثله يجب أن يُقال له: (قف حيث أُوقفت)، أمَّا مجال العقل فهو المخلوقات؛ كما قال المُصطفى ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ** ﷻ»[1]؛ لأن التفكير لا يجدي شيئًا، وكلُّ شيءٍ تتصوره فهو فوقه وأعظم منه وأكبر ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فالمقصود: أنَّ المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة رؤيةً واضحةً بُينت في الكتاب والسُّنة:

* فيقول الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

* ويقول ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْحُسْنَى: الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ**»[2]، ـ تعالى الله وتقدَّس ـ.

* ويقول ﷻ في الأشقياء: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، إذا حُجب الأشقياء، فالأتقياء يرونه ـ تعالى وتقدس ـ.

ورؤيةُ الله مُفصَّلة ومُبينة في الكتاب والسُّنة، وليست موكولةً إلى الذين يُرجعون الأمور إلى نُحاتة أفكارهم، وزُبالة أذهانهم؛ التي هي قذرة ونجسة في مثل هذا، نسأل الله العافية.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/٢٢١٩) برقم (١٢١١١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٢٥٠) برقم (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٢١٠) برقم (١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٦٢) برقم (١١٩)، عن عبد الله بن عمر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ».

الشرح

المتكلمون دائما يقررون: (أنَّ كلَّ موجودٍ تصحُّ مشاهدته)؛ ولا يثبتونها بقول الله وقول رسوله ﷺ، وهذا ضلال.

وهم هكذا؛ يرجعون إلى الأمور المحسوسة ويقيسون عليها ربَّ العالمين، ويقيسون صفاته عليها.

ويُعرِضُون عن الرُّشد الذي جاء به المُصطفى ﷺ، ويُعرضون عن قول الرَّبِّ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، ويعرضون عن قول المُصطفى المعصوم - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، ويكفي بهذا ضلالا للإنسان إذا كان في هذه المنزلة؛ ومن ضل فإنما يضل على نفسه ولن يضُرَّ الله شيئًا، وكذلك لن يضير الحق شيئًا؛ فالباطل يُغبِّر، ولكن غُباره لا يضرُّ الحقَّ، ولكن يضرُّ نفسه.

فالحق ثابتٌ بلا شكٍّ، وثبوته بطرقٍ متعددة، ولكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يتكلم على سبيل التنزل، فهو يتنزل لهم عند الشيء الذي يقولونه هم؛ حتى يُحَاجَّهُم فيه بحججهم فيُبطلها بذلك؛ وهذه طريقته، وهي التي سلك في هذا الكتاب وفي غيره.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ».

الشَّرح

قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ»؛ أي: أنَّ القائم بنفسه يكون له ذاتٌ ويكون في حيز ولا بُدَّ من رؤيته، وهم الذين نفوها، فيقولون: (إنها تدلُّ على «التَّشبيه»)، ونفوا صفاتِ الله من أجله، وقالوا: (إنَّ البصر لا يقع إلا على جِسم، وإذا لم يكن أمامه جسمٌ لا يمكن أن يرى شيئًا، فإذا أثبتنا رؤية الله أثبتنا أنه جسمٌ)، وهكذا فيما ينفونه على هذه الطريقة. والله ﷻ هو أكبرُ من كلِّ شيء، وأعظم من كل شيء، وتلك عقول منحرفة، لا يجوز أن يُرجع إليها في مثل هذه المسائل؛ فإنَّ هذا من الغيب الذي يخبر الله به عباده؛ ليؤمنوا به ويعرفوا ربهم.

قوله: «وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ» أصحُّ لأنها توافق ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، وهؤلاء يقولون: عندهم أدلة حسيَّةٌ مُشاهَدة في نفي الرؤية!، مثل من يقول: أنه يلزم من إثبات الرؤية التشبيه!

يقولون: ما يُرى إلا الشيء الذي يصدم به النظر، إذا ما كان أمامك شيءٌ يرُدُّ النظر فما رأيت شيئًا، والشيء الذي يصطدم به النظر لا بُدَّ أن يكون جسمًا، وهم يقولون: (اتفقنا أن الله لا يكون جسمًا).

فكلُّ هذه المُقدمات والنتائج باطلة، ولا يجوز أن نَقِف عندها؛ لأنها من باب قياس الخالق على المخلوق ـ تعالى الله وتقدس ـ، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

ثم إنهم يختلفون في «الجسم»:

وعلى كل حالٍ: فقد أغنانا الله ﷻ عن هذه الأمور كلِّها، ولا خير في بحثها والدخول فيها؛ لأنها إما أن تُوجِدَ شُبَهًا، وإما أنها لا تُغني من الحق شيئًا؛ فالحق كُله فيما قاله الله وقاله رسوله ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ».

الشرح

يقصد الإمكان العقلي؛ وإلا فلا يجوز أن يُشكَّ في رؤية الله ﷻ بعد الثبوت الذي جاء في كتاب الله وأحاديث ورسوله ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«بِتَقْسِيمٍ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا يُقَالُ: إِنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ، فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ: أَحَقَّ بِهِ مِنَ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ».

الشَّرح

معنى هذا الكلام: أنَّ الرؤية تكون لكل شيءٍ موجودٍ، وليس هناك أعظم من وجود الله؛ فهو الذي لا يحتاج في وجوده إلى غيره، فهو الأول قبل كل شيء، كما أنه هو الآخر بعد كل شيء ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء.

وإذا شك الإنسان في مثل هذا؛ فيُمكن أن يشك في وجوده هو نفسِه، فيدخل في الشكوك التي لا نهاية لها، وهذا قد يكون جزاء لمن وقف هذه المواقف؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما سَنَّه الله ﷻ في خلقه؛ فإنَّ لله سُننًا في خلقه ـ تعالى الله وتقدس ـ يجب أن يُعتبر بها، ولهذا لما ذكر هلاك الأمم فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فهي سنن ثابتة؛ فمن شك في الله فقد شك في كل شيء.

قوله: «إِنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ»؛ المقصود بالأمور الوجودية: أن يكون ضد العدم؛ لأنه إذا نفيت رؤيته فهذا النفي عدمٌ، والمعدوم لا يُرى؛ لأنه لا وجود له، أو يكون معنًى لا يقوم بشيء ـ والمعنى مثل الألوان والعلم والجهل وغير ذلك ـ؛ فلا بُدَّ أن يقوم بمن يقوم به من يتصف به. والله ﷻ له الأوصاف الكاملة، وهو أعظم من كلِّ شيء، ومن أضلُّ ممَّن ضلَّ في رب العالمين، ويُلْحِقُه بالناقصات أو بالمعدومات؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشَّرح

الكلام على هذا قد بسطه في كتابه: «درء التعارض»[1]، وهو مطبوع في عشرة مجلدات؛ وهذا الكتاب لا نظير له في الوجود؛ إلا كتاب الله ﷻ، وحديث رسوله ﷺ؛ فإنَّ فيها النور والهُدى والرُشد لمن أراد أن يسترشد؛ أما كلام الناس فكُلُّه فرعٌ عليها، وكله استنتاجٌ منهما.

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٣) و(٢٢٧ ـ ٢٣٧) وغيرها.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الأَئِمَّةُ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ: لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالأُخْرَى».

الشَّرح

قوله: «وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ...». مقصوده «بِنُظَّارِ السُّنَّةِ»: المناظرون للملاحدة والشُّكَّاك الذين عطَّلوا الله ﷻ من أوصافه ومن خصائصه التي يختص بها.

والمناظرات ينبغي أن تقام إذا كان هناك من يهتدي بها، أما إذا كانت مُجرد مُغالبة بحيث كلُّ واحدٍ يريد أن يغلب الآخر، فهي لا تُجدِي شيئًا، ولكن قد يستفيد منها السامع؛ فيعرف الحقَّ من الباطل في ذلك؛ لأنَّ كثيرًا من هؤلاء يُلبِّسون على الناس تلبيسًا يعسر عليهم معرفة مقصودهم، كما هو معروفٌ في كلامهم وفي كُتُبهم، فيقولون مثلًا: (إنَّا نريد التنزيه)، وهم في الواقع يريدون التعطيل؛ فلهذا يقولون: (إن الله مُنزَّهٌ عن الأبعاض والأغراض).

فالذي يجهل مُرادهم قد يقول: (إنَّ هذا حقٌّ)، ولكن هم يقصدون؛ (نفي الأغراض)، أي: أنه لا يفعل لحكمة، ولا يأمرُ لمصلحة، ولا غير ذلك، و«نفي الأبعاض»: أي: ليس له يد، وليس له وجه، وليس له سمع، وليس له بصر إلى آخره؛ فهكذا كلامُهم باطلٌ، يشتمل على كُفر بالله ﷻ.

فالمقصود بالنظَّار: هم الذين يناظرون المتكلمين بالعقل والدلائل التي يقتنعون بها أو لا يقتنعون بها، المهم أنهم يقابلونهم بمثل ما يقولون، ولكن بالضوابط التي دل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويبينون الخطأ والضلال الذي سلكوه؛ سواء في الكلام العربي الذي تكلَّم الله به أو بالقواعد التي قعَّدوها، فيبينون بطلانها وأنها لا تدلُّ على قولهم؛ وليس كل أحد بهذه الصفة.

ومعنى ذلك أيضًا: أنَّ هذا ليس لازمًا؛ لأن أهل الباطل إذا سلكوا باطلًا خارجًا عن الوحي لا يلزمنا أن نُجارِيَهم، وإنَّما نقول كما قال الرَّسول ﷺ: «**يُوشِكُ**

أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَام حَرَّمْنَاهُ»(١)، وكلام الله ﷻ وكلام رسوله واضحٌ جليٌّ لا يخفى على من عنده عقلٌ ونظر؛ فإذا خولف هذا فلا عذر لمن خالفه؛ لأن الكلام إذا كان واضحًا وجليًّا ويدل على الذي وُضِعَ له دلالةً ظاهرةً فإنه يجب قبوله، والقبول يحتاج إلى هداية، والهداية هي فضل من الله ﷻ، إذا منّ بها على عبده اهتدى، وإذا منعه فضله فإنه يضلُّ ولا شكَّ، وإذا وكِل إلى عقله ونظره ضلَّ.

قوله: «لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْن». لو لم يكن موصوفًا بالعلم صح أن يوصف بالجهل، ولو لم يكن موصوفًا بالحياة صح أن يوصف بالموت. . .، وهكذا؛ وهذا من الأمور العقلية. وقد علمنا أنه ﷻ له الكمال المُطلق في كل شيء ـ تعالى الله وتقدس ـ.

مقصوده بـ «الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْن»: مثل العلم والجهل، ومثل الحياة والموت، مثل السمع والصمم، هذه التي تتقابل.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤/ ٢٠٠)، برقم (٤٦٠٤)، والترمذي في سننه، في أبواب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (٥/ ٣٨) برقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتغليظ على من عارضه (١/ ٦) برقم (١٢)، من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبكم.

﴿ وَطَرْدُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ؛ فَسَلْبُ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْن عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى، وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ، يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَى».

الشَّرح

قوله: «فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ...»؛ أي: المُتقابلات.

قوله: «فَسَلْبُ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْن عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى»؛ أي: إذا نفى صفةً من صفات الله، فإنَّه يلزمه أن يثبت ما يقابلها، فمثلًا «السمع» يقابله «الصمم»، و«الكلام» يقابله «البكم»، و«الوجود» يقابله «العدم»، و«الكمال» يقابله «النقص»؛ وهكذا.

يقول غلاتهم: (إذا وُصف الله ﷻ بالسمع فمعنى هذا أنه يحتاج إلى أدوات، ويحتاج إلى إدراك الأشياء، وهذا لا نعقله إلا من حيوان)، فينفون السمع عنه.

فنقول: إذا لم تصفه بالسمع لزمك أن تصفه بعدمه ـ وهو الصمم ـ فلا يسمع، وإذا نفيت عنه العلم لزمك أن تصفه بضده ـ وهو الجهل ـ. ولهذا كانت الأسماء التي سمى الله ﷻ بها نفسه لم تدل على شيء من النقص، بل دلت على الكمال المطلق.

وكون الصفات المُتقابلات لا بُدَّ من وجود واحدةٍ منهما = أمرٌ عقلي؛ ومعلومٌ أنَّ الله ﷻ لا يتَّصف إلا بالكمال، فهو مُنزَّهٌ عن كُلِّ نقصٍ وعَيب ـ تعالى الله وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

۞ «وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا: إنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى، فَإِنَّ طَرِيقَ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا.

۞ وَقَدْ اعْتَرَضَ طَائِفَةٌ مِنْ النفاة عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِاعْتِرَاضٍ مَشْهُورٍ لَبَّسُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ؛ حَتَّى صَارَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ يَظُنُّ صِحَّتَهُ وَيُضَعِّفُ الْإِثْبَاتَ بِهِ، مِثْلَ مَا فَعَلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ النُّظَّارِ حَتَّى الآمدي وأمثاله، مَعَ أَنَّهُ أَصْلُ قَوْلِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الجهمية.

۞ فَقَالُوا: «الْقَوْلُ» بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ؛ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ، مَعَ كَوْنِهِ حَيًّا: لَكَانَ مُتَّصِفًا بِمَا يُقَابِلُهَا فَالتَّحْقِيقُ فِيهِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَقَابِلَيْنِ، وَبَيَانُ أَقْسَامِهِمَا.

۞ فَنَقُولُ: أَمَّا الْمُتَقَابِلَانِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَهُوَ إمَّا أَن لَّا يَصِحَّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ: أَوْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ.

۞ فالأول هما الْمُتقابلان بالسلب وبالإيجاب، وَهُوَ تَقَابُلُ التَّنَاقُضِ».

الشَّرح

هذه مثل ما سبق: لا تخرج عَن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأنَّ الله ﷻ وصف نفسه بهذه الصفات؛ فإذا لم يوصف بها لزم أن يكون موصوفًا بضدها؛ لأنَّ الشيء لا يخلو من الشيء أو ضد الشيء؛ أمَّا أن يكون خاليًا من هذا وهذا فهذا عدمٌ.

قالوا: «بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ»، لا تصف بالصمم، وكذلك العمى وكذلك البكم، يعني: هذا ضد **«كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ**

وَالْكَلَامِ؛ مَعَ كَوْنِهِ حَيًّا: لَكَانَ مُتَّصِفًا بِمَا يُقَابِلُهَا؛ فَالتَّحْقِيقُ فِيهِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَقَابِلَيْنِ».

ما معنى «**بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَقَابِلَيْنِ**؟!»؛ أي: «لا بُدَّ أن تعرف حقيقة هذا وحقيقة هذا»، وهذا كلامٌ باطل؛ لأنَّ هذا وصفٌ ظاهرٌ؛ فإذا لم يتَّصف بهذا اتَّصف بضده؛ فالذي لا يكون حيًّا يكون ميتًا، والذي لا يكون سميعًا يكون أصمَّ، والذي لا يكون عالمًا يكون جاهلًا...؛ وهكذا، فلا يحتاج إلى أن نعرف مُقابل هذا وإنما هذه من المُغالطات.

المقصود بـ«**السلب**»: النفي، و«**الإيجاب**»: الإثبات، ولا بُدَّ من واحدٍ منهما؛ فإذا ما ثبت له الإيجاب، ثبت له السلب؛ فهذا أمرٌ عقلي.

وليس معنى ذلك أنه من الأمور الشرعية، التي جاء بها الكتاب والسُنة، ولكن الكتاب والسُنة لا يُخالف هذا؛ لأنها أمورٌ عقليةٌ ثابتة، والكتاب والسُّنة يثبتانها، ولا ينفيانها.

ولكن هذا لا يكفي في إثبات الكمال لله، وإنما إثبات الكمال لله هو وصفه بما وصف به نفسه، ونفي ما نفاه عن نفسه ـ تعالى وتقدس ـ، وكذلك ما وصفه به رسوله ﷺ، وما نفاه عنه؛ هذا هو الكمال، وهو الذي يجب على العبد أن يتبعه ويقول به، وإلا فلا بُدَّ من الوقوع في الخطل والزلل.

❋ ❋ ❋

قال رحمه الله تعالى:

«وَالتَّنَاقُضُ هُوَ اخْتِلَافُ الْقَضِيَّتَيْنِ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ لِذَاتَيْهِمَا؛ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، زَيْدٌ لَيْسَ بِحَيَوَانٍ».

الشَّرح

يعني بذلك: طريقةَ المناطقة التي يجعلون الكلام يرجع إليها، وقد أغنانا الله ﷻ عنها باللغة الواضحة الجلية؛ مع أنَّ هذا لا طائل تحته.

قوله: «كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، زَيْدٌ لَيْسَ بِحَيَوَانٍ»، يعني: أنَّ كل واحدةٍ منهما تصحُّ؛ فإذا قلت: (زيد حيوان) معناه: أنَّه حيٌّ وناطق ومتكلم؛ ولهذا قالوا: في تعريف الإنسان: (حيوانٌ ضاحك، أو حيوانٌ مُتكلم)، حتى تخرج الحيوانات الأخرى. ولا نحتاج إلى هذا ولا حتى الصبيان؛ فالحيوان هو المُتحرِّك المُتكلم أو الآكل والشارب وغير ذلك، وليس كما يقولون.

فالمقصود بـ«الحيوان»: الذي فيه الحياة[1].

* * *

(١) نهاية السول شرح منهاج الوصول (ص٢٢)، والتحبير شرح التحرير في أصول الفقه (ص٢٧٧)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٤٤٢).

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْ خَاصِّيته اسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ طَرَفَيْهِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، أَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَلَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إلى الآخر.

... من جهة واحدة وَلَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ؛ إِذْ كَوْنُ الْمَوْجُودِ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ وَمُمْكِنًا بِنَفْسِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ.

فَإِذَا جَعَلْتُمْ هَذَا الْقَسِيمَ، وَهُمَا النَّقِيضَانِ مَا لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ» فَهَذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ وَلَيْسَ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ، فَلَا يَصِحُّ حَصْرُ النَّقِيضَيْنِ - اللَّذَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ - فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ.

وَحِينَئِذٍ فَقَدْ ثَبَتَ وَصْفَانِ - شَيْئَانِ - لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ؛ وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ؛ وعَلَى هَذَا فَمَنْ جَعَلَ الْمَوْتَ مَعْنًى وُجُودِيًّا فَقَدْ يَقُولُ: إِنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ لَا يَخْلُو مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْجَهْلُ وَالصَّمَمُ وَالْبُكْمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ».

الشرح

المؤلف رحمه الله لا يزال يرد على النُّفاة الذين نفوا أسماء الله ﷻ وصفاته بناءً على أنها مِثل صفات المخلوق، وأولوا في ذلك حتى نفوا النفي فلا يُثبتون شيئًا.

فيقول: إذا لم يُثبَتْ شيءٌ فنقيضُه نفيُه، والله ﷻ أكبرُ من كُلِّ شيءٍ، وأعظم من كل شيء؛ فلا يجوز أن يُلحق في شيءٍ من صفاته بصفات المخلوقين. ولهذا ألزمهم بكلامهم؛ لأنَّ الشيء لا يخلو إما أن يكون ثابتًا أو يكون منفيًّا، أو يكون موجودًا أو يكون معدومًا، وهم لا يُثبتون لا هذا ولا هذا، فهذا خارجٌ عما يقوله العقلاء، فضلًا عما جاءت به رُسل الله ﷻ وكُتبه.

ومعلومٌ أنَّ هذا لا يتصوره المسلم، فالمسلم يعبد ربه على أنه خالق السموات والأرض، وخالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ قدير، وهو عليمٌ بكل شيء، وهذا ثابتٌ عند كل مسلمٍ عَرف ما يقول وقَبِل ما جاء به الرسول ﷺ؛ ولكن هؤلاء

لا يؤمنون بالرُّسل ولا بما جاءت به الرسل، وإنما يقولون هذا الكلام لأجل أن يُفسدوا عقائد المسلمين، وأقلُّ الأمر أن يُوجِدُوا شُبَهًا يشغلونهم بها، ولهذا سبق أن قلنا: إن هذا الكلام يجب أن يُعرَض عنه نهائيًّا لثلاثة أسباب:

أولًا: لأنَّ عوام المسلمين لا يفهمونه.

ثانيًا: لأنه مبنيٌ على باطل.

ثالثًا: لا فائدة في الاشتغال به؛ إلا عند مَن علقت الشبه في قلبه من هذا الكلام، فيجب أن يُبيَّن له ويوضح؛ وإلا ما تجد أوضح وأجلى وأظهر من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ؛ فالله هو الأول وليس قبله شيء، وهو الآخر وليس بعده شيء، وهو الظاهر وليس فوقه شيء، وهو الباطن وليس دونه شيء، تعالى الله وتقدس عن قول هؤلاء الملاحدة.

قوله: «**وَمُمْكِنًا بِنَفْسِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ**»؛ أي: إذا قيل: «واجب لنفسه»، كذلك الموجود، ليس من المنطق أن يقال: إنه معدومٌ، والسميع لا يكون أيضًا متصفًا بضد ذلك، فالتقابل هو أن يقابل بنقيضه.

كذلك كونه غنيًّا فقيرًا: لا بُدَّ أن يكون غنيًّا، وإذا كان غنيًّا لا يكون فقيرًا، وكما أنه إذا كان حيًّا لا يكون ميتًا.

وقولهم: «**يجب أن يكونا متماثلين**» كذبٌ، ولا يكون ذلك حتى في المخلوقات.

قوله: «**لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ**». «الاجتماع»: أن يكون كلاهما موجودينِ، و«الارتفاع»: هو ألا يكونا موجودين.

قوله: «**السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ**»: «السلب»: هو النفي، و«الإيجاب»: هو الإثبات، ولكن المتقابلين لا يكونان موجودين معًا، فلا بُدَّ أن يكون أحدهما موجودًا والآخر مفقودًا، فلا يكون الإنسان مثلًا حيًّا ميتًا في آنٍ واحدٍ ـ فهذا ممتنع ـ، أو يكون قائمًا جالسًا في لحظةٍ واحدةٍ ـ هذا ممتنعٌ ـ، هذه هي المتقابلة، وهذا معنى قوله: «**فَلَا يَصِحُّ حَصْرُ النَّقِيضَيْنِ ـ اللَّذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ ـ**»، يعني: لا يوجدان في آنٍ واحد.

وأما قوله: «**وَلَا يَرْتَفِعَانِ**»، يعني: لا بُدَّ من وجود أحدهما.

وكل هذا مجادلات باطلة يجادلون في ربهم ﷻ، وهو أكبر من كل شيء، وأظهر من كل شيء ـ تعالى وتقدس ـ، فأي ضلال بعد هذا الضلال؟!

قال رحمه الله تعالى:

❁ «الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: هَذَا التقسِيمُ يَتَدَاخَلُ؛ فَإِنَّ الْعَدَمَ وَالْمَلَكَةَ يَدْخُلُ فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْهُ والمتضايفان، يَدْخُلَانِ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ إنَّمَا هُمَا نَوْعٌ مِنْهُ.

❁ فَإِنْ قَالَ: أَعْنِي بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ: ما لا يَدْخُلُ فِيه الْعَدَم وَالْمَلَكَة، وَهُوَ أَنْ يُسْلَبَ عَنْ الشَّيْءِ مَا لَيْس بِقَابِلٍ لَهُ، وَلِهَذَا جُعِلَ مِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ طَرَفَيْهِ إلَى الآخِرِ.

❁ قِيلَ لَهُ: عَنْ هَذَا جَوَابَانِ:

❁ أَحَدُهُمَا: أَنَّ غَايَةَ هَذَا أَنَّ السَّلْبَ يَنْقَسِمُ إلَى نَوْعَيْنِ:

❁ أَحَدُهُمَا: سَلْبُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُ الشَّيْءِ بِهِ. وَالثَّانِي: سَلْبُ مَا لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهِ.

❁ فَيُقَابلُ الْأَوَّلُ إثْبَاتُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ وَلَا يَجِبُ، وَالثَّانِي: إثْبَاتُ مَا يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ سَلْبُ الْمُمْتَنِعُ، وَإِثْبَاتُ الْوَاجِبِ، كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، فَإِنَّ هَذَا إثْبَاتٌ وَاجِبٌ، وَزَيْدٌ لَيْسَ بِحَجَرٍ، فَإِنَّ هَذَا سَلْبٌ مُمْتَنِعٌ».

الشَّرْح

سبق الكلام على ذلك، وأنَّ هذا التقرير على سبيل استعمال المنطق الذي يستعملون فيه الفِكر أو التراكيب التي اصطلحوا عليها؛ وقلنا: إنَّ هذا كله لا فائدة فيه، وإنما هي أمورٌ تشغل الفِكر ولا تُعطي من العلم شيئًا؛ وإلا فكيف «السلب» يُسلَّط على من هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء؛ ربِّ العالمين؟!

و«السلب» يقصدون به النفي، ومعلوم أن النفي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نفي مطلق، وهذا ليس بشيء أصلًا، فكيف يوصف به رب العالمين ـ تعالى وتقدس ـ؟!

القسم الثاني: سلبٌ يكون ممكنًا. والسلب يكون في الزمن المحدد، وقد يكون في الماضي، وقد يكون في المستقبل، وقد يكون مطلقًا، فهذا يصح استعماله، ولكن لا يجوز أن يُستعمل في حق الله ـ تعالى وتقدس ـ.

وهذا الذي سبق لا نستفيد منه في شيء؛ لأنه من مهاترات المتكلمين التي لا تؤدي إلى علم، وإنما هي مجادلات ومهاترات على خلاف ما أمر الله ﷻ به، فالاختلاف في الله ﷻ من أكبر المضلات، والله ﷻ بين هذا ببيان ما يحتمل مناقشة؛ فأوصافُه وأفعالُه من أظهر الأدلة التي بيَّنها لعباده، فكيف يُلجأ إلى مثل هذه الغامضات المبهمات التي إذا كدَّ الإنسان ذهنه وأتعب فكره ما يتحصل على طائل ولا خير فيها؟!

قوله: «**فَإِنَّ الْعَدَمَ وَالْمَلَكَةَ**». «**المَلَكَة**» في اصطلاح المتكلمين حالةٌ تعرض للشيء بسبب ما يحيط به، وينتقل بانتقاله؛ كالتعميم والتقميص؛ فإنَّ كُلًّا منهما حالةٌ للشيء بسبب إحاطة العمامة برأسه والقميص ببدنه.

قوله: «**المتضايفان**» هما ما لا يعقل أحدهما إلا مع الآخر؛ كالأبوة والبنوة. وقد سبق تعريفها في قوله: «بعض الطوائف يصف اللهَ بالإضافات»، والإضافات سبق أن قلنا: إنها مثل قولهم: (أصل الوجود أو ماهية الوجود) أو ما أشبه ذلك، وبعضهم يُفسِّرها أنه: خالق السمع، خالق البصر، خالق العلم، ويقول: (إنه يوصف بهذه؛ لأنه يوصف بالإضافات كخالق النور، وخالق الظُلمة وما أشبه ذلك).

ولكن الأول هو الظاهر. أعني القائل: (مبدأ الموجودات وعلة الكائنات)؛ فيقولون: (هذه المُتضايفان مبدأ وعلة)، فكلها اصطلاحات كلامية لا تدلُّ على خير.

هذه الأمور كلها لا نحتاج إليها، وهذه مُجادلات بين أُناسٍ لا يقتنعون بالدليل من كتاب الله وسُنة رسوله؛ وإنما يجعلون لهم اصطلاحاتٍ يسيرون عليها ويزعمون أنها أدلة، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يُجيبهم على هذا الشيء، وهو يُريد أن يُبطل كلامهم هذا، ويُبين أن هذه ليست أدلة؛ بل هي في الواقع توهمات وأمورٌ خيالية لا يثبت بها شيء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَالْمُمْكِنَاتُ الَّتِي تَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، كَقَوْلِنَا: الْمُثَلَّثُ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، يَكُونُ مِنْ قِسْمِ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْقِسْمَ يَخْلُو فِيهِ الْمَوْصُوفُ الْوَاحِدُ عَلَى الْمُتَقَابِلَيْنِ جَمِيعًا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ عَنِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَصِفَاتُ الرَّبِّ كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لَهُ، فَإِذَا قِيلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا أَوْ عَلِيمًا أَوْ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا أَوْ مُتَكَلِّمًا؛ أَوْ لَا يَكُونُ: كَانَ مِثْلُ قَوْلِنَا: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا؛ وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ، وَهَذَا مُتَقَابِلٌ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، فَيَكُونُ الْآخَرُ مِثْلُهُ، وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ».

الشرح

المقصود: هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير قياسٍ أو تشبيه؛ قياس للمخلوق أو إلحاق له به؛ فإنَّ ﷻ ما وصف به نفسَه أو وصفته به رُسله = خاصٌ به لا يُشاركه فيه أحدٌ.

ثُمَّ الكلام هنا من حيث الإثبات والنفي؛ لأنهم ينفون صفة الله ﷻ، فهو يُريد أن يُبين أنَّ الإثبات لا بُدَّ منه؛ فإذا ثبت أنَّ لله ﷻ الصفات والأسماء التي سمى بها نفسه، فإنها تكون خاصةً به، ولا يكون المخلوق مشاركًا له، فيكون كل كلامهم على القياس المعهود باطلًا؛ لأنه في حق من ليس له شبيهٌ ولا سَميٌّ.

هم ينفون صفات الله ﷻ؛ زاعمين بأنَّ هذه الترهات أدلَّةٌ؛ لأنه يقول: (لا بُدَّ أن نعرف حقيقة المُتقابلين حتَّى نبني عليه)؛ لكن هل نحتاج أن نعرف حقيقة العمى وحقيقة البصر؟! فهذا أمرٌ واضحٌ. فنفيُ الشيء يفيد إثباتًا لضده، ولكن هذا يُقال في المخلوق: يُمكن أن يُجادل في بعض المخلوقات الأشياء من باب نسبته لرب العالمين ﷻ يقال له مثل هذا الكلام؟! الجواب: أنَّ هذا بعيدٌ جدًّا، ولا يجوز أن يُقال مثل هذا؛ لأنه سبحانه أظهر من كلِّ شيء، وأجلى من كل شيء، وهو ﷻ الذي أوجد كل شيء، فكيف يقال مثلًا: إن صفاته مثل هذا الكلام الباطل؟!

غيرَ أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يُريد أن يُبطل كلام كل طائفةٍ من طوائف أهل الضلال ويُبين أنه ليس عندهم عقول، وأن الذي يزعمون أنها «عقليات» هي جهليات في الواقع؛ جهليات وتوهمات وضلالٌ هذا هو المُراد، وإذا تبين ذلك تبين أنهم ليس معهم شيء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قيلَ: هَذَا لَا يَصِحُّ حَتَّى يُعْلَمَ إِمْكَانُ قَبُولِهِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ. قِيلَ لَهُ: هَذَا إِنَّمَا اشتُرِط فِيمَا أَمْكَنَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ وَيَزُول كَالْحَيَوَانِ؛ فَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَى: فَإِنَّهُ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا لَهُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ، ضَرُورَةَ أنه لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهَا وَبِعَدَمِهَا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ تَارَةً حَيًّا وَتَارَةً مَيِّتًا، وَتَارَةً أَصَمَّ وَتَارَةً سَمِيعًا وَهَذَا يُوجِبُ اتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ؛ وَذَلِكَ مُنْتَفٍ قَطْعًا، بِخِلَافِ مَنْ نَفَاهَا، وَقَالَ: إِنَّ نَفْيَهَا لَيْسَ بِنَقْصٍ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا، فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ مَعَ إِمْكَانِ الِاتِّصَافِ بِهَا لَا يَكُونُ نَفْيُهَا نَقْصًا فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ».

الشرح

وفساد الأول أيضًا معلومٌ؛ لأنَّ هؤلاء بنَوا على ما يعهدونه ويُشاهدونه من أنفسهم، وربُّ العالمين ﷻ ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ـ تعالى الله وتقدس ـ؛ وصفاته كذلك لا تشبه الصفات، وأفعاله كذلك.

وسبق أنَّ ضربنا مثلًا لهذا حتى يتبين أنَّ كلام هؤلاء من أبطل الباطل وأبعد ما يكون عن الحق بل وعن الثبوت، وقلنا: إنَّ الله ﷻ يستمع إلى خلقه في آنٍ واحد وكلُّهم يتَّجهون إليه بالدعاء والعبادة، مع كثرتهم لا يشغله كلام هذا عن هذا، وسؤال هذا عن سؤال هذا؛ فكيف إذا كان يوم القيامة هو يجمعهم جميعًا ثُمَّ يحاسبهم في وقتٍ واحد، وكل واحدٍ يظن أنه يُحاسب وحده وهو يُحاسب الكُلَّ ﷻ وهو سريعُ الحساب.

فهذا مثالٌ لأفعاله ﷻ أنها لا تُشبه أفعال الخلق، وبناءً على هذا، فحلُّ الإشكالات التي يُريدونها بناءً على القياس = فاسد، أعني قياس رب العالمين على المخلوق ـ تعالى الله وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: أَنْتَ فِي تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، إِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ الطَّرَفَيْنِ: لَمْ يَصِحَّ أَنْ تَقُولَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ؛ إمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ؛ وَالْمُمْتَنِعُ الْوُجُودِ إمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ؛ لِأَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ هُنَا مَعْلُومُ الْوُجُودِ. وَالْآخَرَ مَعْلُومُ الِامْتِنَاعِ».

الشرح

كل هذا كلامٌ لا فائدة فيه وتقديراتٌ باطلة قد لا يتصورها العقل أصلًا. إذا كانت تُقدر هذه بالنسبة لرب العالمين ﷻ إما «واجب الوجود» وإما جائز الوجود إلى غيره! والذي يقول مثل هذا ما آمن بالله ﷻ، فهو متشكِّكٌ حتى في وجود الله ﷻ، وسبق أنَّ الواجب الذي استغنى بنفسه عن كُلِّ شيء، والجائز هو الذي احتاج إلى غيره.

كيف يُقال عن ربِّ العالمين ﷻ: أنه يُمكن أن يكون موجودًا، ويُمكن أن يكون معدومًا؛ يُمكن أن يكون سميعًا ويُمكن أن يكون أصمَّ؟!

هذا مُمتنعٌ، ولا يقوله مُسلمٌ، في مثل هذا الكلام، لكن - مثل ما سبق - هذا باب المُجادلات، أراد أن يُبين أن النافي لصفات الله ليس معه دليلٌ، وإنما معه أمورٌ يتوهمها أدلَّةً أو أنه مُبطل في الباطن وفي الظاهر ويُريد أن يُشكِّك الناس ويُربك أذهانهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ أَحَدِهِمَا صَحَّ أَنْ تَقُولَ: إمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ إنْ كَانَ مُمْكِنًا صَحَّ التَّقْسِيمُ وَإِنْ كَانَ مُمْتَنِعًا كَانَ الْإِثْبَاتُ وَاجِبًا وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا يُفِيدُ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ يُقَابِلُ السَّلْبَ وَالْإِيجَابَ وَنَحْنُ نُسَلِّمُ ذَلِكَ، كَمَا ذُكِرَ فِي الِاعْتِرَاضِ؛ لَكِنَّ غَايَتَهُ: أَنَّهُ إمَّا سَمِيعٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِسَمِيعِ، وَإِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرِ؛ وَالْمُنَازِعُ يَخْتَارُ النَّفْيَ.

فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ: فَالْمُثْبَتُ وَاجِبٌ؛ وَالْمَسْلُوبُ مُمْتَنِعٌ، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَاجِبَةً لَهُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ، وَالْقَوْلُ بِالِامْتِنَاعِ لَا وَجْهَ لَهُ؛ إذْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِ.

بَلْ قَدْ يُقَالُ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ بُطْلَانَ الِامْتِنَاعِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى امْتِنَاعِ ذَلِكَ إلَّا بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى إبْطَالِ أَصْلِ الصِّفَاتِ؛ وَقَدْ عُلِمَ فَسَادُ ذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ فَيَجِبُ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ طَرِيقَةً مُسْتَقِلَّةً فِي إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ، فَإِنَّهَا إمَّا وَاجِبَةٌ لَهُ، وَإِمَّا مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِ».

الشرح

قوله: «وَالْقَوْلُ بِالِامْتِنَاعِ لَا وَجْهَ لَهُ؛ إذْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِ...» هذا كما سبق، أن المتقابلان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وكل هذه التقديرات من باب المجادلة، ولكن الأمر الذي يجادلون فيه هو رب العالمين! ـ تعالى وتقدس عن الظنون الفاسدة ـ غير أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجادلهم بما يقولون ويبطل كلامهم بما يقولون، والمراد حماية عقائد المسلمين، وإلا فهم لا يرجعون، ولو أُبطلت حججهم ـ كما

سبق - أن هذا من عقاب الله لهم؛ لأنهم لا يريدون الحق، ولو كانوا يريدون ما عدلوا عن الأمور الواضحة إلى مثل هذه المجادلات!

تقول له: تثبت الله ﷻ بلا صفات أو تثبته بصفات؟

فإن قال الأول، يُقال له: هذا لا دليل عليه ولا يُمكن وجوده حتى في المخلوق، فلا بُدَّ إذَن من إثبات الصفات له ﷻ؛ لأن كلَّ مخلوقٍ موجودٍ فلا بُدَّ له من صفةٍ، حتى الجماد، كالصفا، والحصى، الحجر ونحوها لها صفات من الصلابة والقوة والقساوة وغيرها.

فالمقصود: أنَّ الموجود لا بُدَّ أن يكون له صفة، والله ﷻ هو أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، ولكن مثل هذا ما يُفيد المسلم بشيء، وإنما الفائدة في تلقي المعلومات من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والله ﷻ قد تعرَّف إلى عباده في كتابه بأوصافه التي يتَّصف بها، وأخبر ﷻ أنَّه هو الخالق، وكثيرًا ما يذكر ﷻ أنَّه خلق السموات والأرض بالحق.

فالخالق ﷻ من خصائصه: الكمالُ؛ كالكلام والعلم والسمع والبصر وغير ذلك مما هي أوصافٌ له، فتُتلقَّى من قوله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ثُمَّ بعد ذلك ما قاله الرسول ﷺ وما سار عليه أصحابُه في هذا الباب ففيه العصمةُ.

والاشتغال في مثل هذه التُّرَّهات وهذه التَّقديرات الفاسدة لا يعطي لا علمًا ولا إيمانًا ولا قُوَّةً في العلم، وإنَّما يُورثُ جدلًا وقَسوةً في القلب وبُعدًا عن الله ﷻ، وهذا من وباب الدَّعوة إلى الحق، فقد يَعرِضُ لبعض الناس شُبهة؛ أو من باب المُجادلة فلا بُدَّ للمسلمين من ردِّ الباطل؛ وإذا رُدَّ الباطل بنفس أقيستهم ومنطقهم يكون هذا أبلغ كما فعل المصنف هنا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَيتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لَهَا خَالِيًا عَنْهَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لِمَنْ سَلَكَهَا مِنَ النُّظَّار.

الْجَوَابُ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ: فَعَلَى هَذَا إِذَا قُلْنَا: زَيْدٌ إِمَّا عَاقِلٌ، وَإِمَّا غَيْرُ عَاقِلٍ؛ وَإِمَّا عَالِمٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِعَالِمٍ، وَإِمَّا حَيٌّ وَإِمَّا غَيْرُ حَيٍّ، وَإِمَّا نَاطِقٌ وَإِمَّا غَيْرُ نَاطِقٍ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ سَلْبُ الصِّفَةِ عَنْ مَحَلٍّ قَابِلٍ لَهَا، لَمْ يَكُنْ هَذَا دَاخِلًا فِي قِسْمِ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ، وَخِلَافُ اتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَخِلَافُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا تَتَنَاقَضُ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ يَلْزَمُ مِنْهُ صِدْقُ إِحْدَاهُمَا كَذِبُ الْأُخْرَى، فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، فَهَذِهِ شُرُوطُ التَّنَاقُضِ مَوْجُودٌ فِيهَا.

وَغَايَةُ فِرَقِهِمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا قُلْنَا: هُوَ إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، كَانَ إِيجَابًا وَسَلْبًا وَإِذَا قُلْنَا: إِمَّا بَصِيرٌ؛ وَإِمَّا أَعْمَى: كَانَ مَلَكَةً وَعَدَمًا.

وَهَذَا مُنَازَعَةٌ لَفْظِيَّةٌ، وَإِلَّا فَالْمَعْنَى فِي الْمَوْضِعَيْنِ سَوَاءٌ، فَعُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ فِي حَدِّ ذَلِكَ التَّقَابُلِ: أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَى الْآخَرِ، فَإِنَّ الِاسْتِحَالَةَ هُنَا مُمْكِنَةٌ كَإِمْكَانِهَا إِذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ «الْعَمَى».

الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنْ يُقَالَ: التَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ أَنْ يُقَالَ: الْمُتَقَابِلَانِ إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَإِمَّا أَلَّا يَخْتَلِفَا بِذَلِكَ، بَلْ يَكُونَانِ إِيجَابِيَّيْنِ أَوْ

سَلْبِيَّيْنِ، فَالْأَوَّلُ هُوَ النَّقِيضَانِ، وَالثَّانِي: إِمَّا أَنْ يُمْكِنَ خُلُوُّ الْمَحَلِّ عَنْهُمَا، وَإِمَّا أَلَّا يُمْكِنَ، وَالْأَوَّلُ: هُمَا الضِّدَّانِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ. وَالثَّانِي: هُمَا من مَعْنَى النَّقِيضَيْنِ وَإِنْ كَانَا ثُبُوتِيَّيْنِ كَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَالْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ، وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالْقِيَامِ بِالْغَيْرِ، وَالْمُبَايَنَةِ وَالْمُجَانَبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

﴿ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالصَّمَمَ وَالْبُكْمَ وَالسَّمْعَ، لَيْسَ مِمَّا إِذَا خَلَا الْمَوْصُوفُ عَنْهُمَا وُصِفَ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ بَيْنَهِمَا كَالْحُمْرَةِ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِهِمَا فَإِذَا انْتَفَى تَعَيَّنَ الْآخَرُ.

﴿ الْوَجْهُ الرَّابِعُ: الْمَحَلُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَنَحْوِهَا، أَنْقَصُ مِنْ الْمَحَلِّ الَّذِي يَقْبَلُ ذَلِكَ وَيَخْلُو عَنْهَا، وَلِهَذَا كَانَ الْحَجَرُ وَنَحْوُهُ أَنْقَصَ مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَى.

﴿ وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا كَانَ الْبَارِئُ مُنَزَّهًا عَنْ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ مَعَ قَبُولِهِ لَهَا فَتَنْزِيهُهُ عَنْ امْتِنَاعِ قَبُولِهِ لَهَا أَوْلَى وَأَحْرَى، إِذْ بِتَقْدِيرِ قَبُولِهِ لَهَا يَمْتَنِعُ مَنْعُ الْمُتَقَابِلَيْنِ، وَاتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ مُمْتَنِعٌ، فَيَجِبُ اتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِ قَبُولِهِ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ لَا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَا بِصِفَاتِ النَّقْصِ، وَهَذَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا، فَثَبَتَ أَنَّ اتِّصَافَهُ بِذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَأَنَّهُ وَاجِبٌ لَهُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُسْنِ.

﴿ الْوَجْهُ الْخَامِسُ أَنْ يُقَالَ: أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ فِيمَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِثُبُوتٍ، فَإِن عَنَيْتُمْ بِالْإِمْكَانِ الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ، وَهُوَ أَنْ يُعْلَمَ ثُبُوتُ ذَلِكَ فِي الْخَارِجِ، كَانَ هَذَا بَاطِلًا لِوَجْهَيْنِ:

﴿ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُلْزِمُكُمْ أَنْ تَكُونَ الْجَامِدَاتُ لَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا لَا حَيَّةٌ وَلَا مَيِّتَةٌ، وَلَا نَاطِقَةٌ وَلَا صَامِتَةٌ، وَهُوَ قَوْلُكُمْ، لَكِنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ مَحْضٌ، وَأَلَّا فالعرب يَصِفُون هَذِهِ الْجَمَادَاتِ بِالْمَوْتِ وَالصَّمْتِ.

۞ وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١] فَهَذَا فِي» الْأَصْنَامِ» وَهِيَ مِنَ الْجَمَادَاتِ، وَقَدْ وُصِفَتْ بِالْمَوْتِ.

۞ وَالْعَرَبُ تُقَسِّمُ الْأَرْضَ إِلَى الْحَيَوَانِ وَالْمَوَتَانِ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمَوَتَان، بِالتَّحْرِيكِ: خِلَافُ الْحَيَوَانِ، يُقَالُ: اشْتَرِ الْمَوَتَانِ وَلَا تَشْتَرِ الْحَيَوَانَ، أَيْ: اشْتَرِ الْأَرَاضِين وَالدُّوْرَ، وَلَا تَشْتَرِ الرَّقِيقَ وَالدَّوَابَّ. وَقَالُوا أَيْضًا: الْمَوَاتُ مَا لَا رُوحَ فِيهِ.

۞ فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا إِنَّمَا يُسَمَّى مَوَاتًا بِاعْتِبَارِ قبوله «لِلْحَيَاةِ»، الَّتِي هِيَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ.

۞ قِيلَ: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْحَيَاةَ أَعَمُّ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ، وَأَنَّ الْجَمَادَ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ إِذَا كَانَ قَابِلًا لِلزَّرْعِ وَالْعِمَارَةِ.

۞ وَالْخَرَسُ ضِدُّ النُّطْقِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «لَبَنٌ أَخْرَسُ»، أَيْ: خَاثِرٌ لَا صَوْتَ لَهُ فِي الْإِنَاءِ، و«سَحَابَةٌ خَرْسَاءُ»، لَيْس فِيهَا رَعْدٌ وَلَا بَرْقٌ، وَ «عَلَمٌ أَخْرَسُ»، إِذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ فِي الْجَبَلِ صَوْتُ صَدًى، وَيُقَالُ: «كَتِيبَةٌ خَرْسَاءُ»، قَالَ أَبُو عبيد: هِيَ الَّتِي صَمَتَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدُّرُوعِ لَيْسَ لَهُ قعاقع.

۞ وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ الصَّمْتُ وَالسُّكُوتُ؛ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِهِ الْقَادِرُ عَلَى النُّطْقِ إِذَا تَرَكَهُ؛ بِخِلَافِ الْخَرَسِ، فَإِنَّهُ عَجْزٌ عَنِ النُّطْقِ، وَمَعَ هَذَا فَالْعَرَبُ تَقُولُ: «مَا لَهُ صَامِتٌ وَلَا نَاطِقٌ»، فَالصَّامِتُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَالنَّاطِقُ الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ، فَالصَّامِتُ مِنْ اللَّبَنِ: الْخَاثِرُ وَالصَّمُوتُ: الدِّرْعُ الَّتِي صَمَتَ إِذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ صَوْتٌ.

۞ وَيَقُولُونَ: دَابَّةٌ عَجْمَاءُ، وَخَرْسَاءُ، لِمَا لَا يَنْطِقُ وَلَا يُمَكِّنُ مِنْهَا النُّطْقُ فِي الْعَادَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ».

﴿ وَكَذَلِكَ فِي «الْعَمَى» تَقُولُ الْعَرَبُ: عَمَى الْمَوْجُ يَعْمِي عمًى إِذَا رَمَى بِالْقَذَى وَالزَّبَدِ؛ و«الأعميان»: السَّيْلُ وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ، وَعَمِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ إِذَا الْتَبَسَ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [القصص: ٦٦].

﴿ وَهَذِهِ الْأَمْثِلَةُ قَدْ يُقَالُ فِي بَعْضِهَا: إِنَّهُ عَدَمُ مَا يَقْبَلُ الْمَحَلَّ الِاتِّصَاف بِهِ كَالصَّوْتِ؛ وَلَكِنْ فِيهَا مَا لَا يَقْبَلُ كَمَوْتِ الْأَصْنَام.

﴿ الثَّانِي: أَنَّ الْجَامِدَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْجَمَادَاتِ حَيَاةً، كَمَا جَعَلَ عَصَى مُوسَى حَيَّةً تَبْلَعُ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ.

﴿ وَإِذَا فِي إِمْكَانِ الْعَادَاتِ: كَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ، وَأَنْتُمْ أَيْضًا قَائِلُونَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ.

﴿ وَإِذَا كَانَ الْجَمَادَاتُ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَوَابِعِ الْحَيَاةِ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَيَكُونُ الْخَالِقُ أَوْلَى بِهَذَا الْإِمْكَانِ.

﴿ وَإِنْ عَنَيْتُمْ الْإِمْكَانَ الذِّهْنِيَّ، وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ بِالِامْتِنَاعِ، فَهَذَا حَاصِلٌ فِي حَقِّ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ امْتِنَاعُ اتِّصَافِهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ».

الشَّرح

قوله: **«وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَيتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لَهَا خَالِيًا عَنْهَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لِمَنْ سَلَكَهَا مِنَ النُّظَّار»**، يعني: الامتناع، وهذا ظاهر، ويقصد الامتناع العقلي، بغض النظر عن أدلة الكتاب والسنة، فإذا بطل هذا التقدير الثاني تعين الأول، فتكون هذه طريقة مستقلة في إثبات الصفات لله تعالى، مع أننا لسنا بحاجة إليها؛ لاستغنائنا بالكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

قوله: **«... وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ سَلْبُ الصِّفَةِ عَنْ مَحَلٍّ قَابِلٍ لَهَا، لَمْ يَكُنْ هَذَا دَاخِلًا فِي قِسْمِ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ»** لأن هذا في محل واحد، ويراد بذلك إثبات صفة واحدة في محل واحد.

قوله: **«وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا تَتَنَاقَضُ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ يَلْزَمُ**

مِنْهُ صِدْقُ إِحْدَاهُمَا كَذِبُ الْأُخْرَى...»، يعني: أن هذا التقدير ظاهر جدًا؛ لأنه في محل واحد ورد عليه قضيتان أحدهما سلب والأخرى إيجاب، فلا بد أن احداهما صادقة والأخرى كاذبة.

قوله: «**وَغَايَةُ فِرَقِهِمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا قُلْنَا: هُوَ إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، كَانَ إِيجَابًا وَسَلْبًا...**» هذا حسب اصطلاح المنطق، وإلا في الواقع لا فرق بينهما.

قوله: «**... وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ فِي حَدِّ ذَلِكَ التَّقَابُلِ: أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَى الْآخَرِ، فَإِنَّ الِاسْتِحَالَةَ هُنَا مُمْكِنَةٌ كَإِمْكَانِهَا إِذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ «الْعَمَى»**»، يعني: عدم الفرق بين التعبرين، والاستحالة لاجتماع الحالتين.

قوله: «**الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنْ يُقَالَ: التَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ أَنْ يُقَالَ: الْمُتَقَابِلَانِ إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَإِمَّا أَلَّا يَخْتَلِفَا بِذَلِكَ...**» وبهذا يبطل دليلهم الذي تعلوا به، ويتبين أنه من جهة المغالطة، ولهذا قصدوا التعمية! شأن أهل المكابرة والعناد، وسبق أن المقصود إبطال أدلتهم وأن لا يُغتر بها.

قوله: «**وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالصَّمَمَ وَالْبُكْمَ وَالسَّمْعَ، لَيْسَ مِمَّا إِذَا خَلَا الْمَوْصُوفُ عَنْهُمَا وُصِفَ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ بَيْنِهِمَا...**» وهذا عام في كل المتقابلات، ولا يخفى على العاقل ظهور ذلك.

قوله: «**... وَلِهَذَا كَانَ الْحَجَرُ وَنَحْوُهُ أَنْقَصَ مِنَ الْحَيِّ الْأَعْمَى**» الْحَجَر لا يوصف لا بالسمع ولا بشيء من صفات الحي، فتمثيلهم به - على طريقتهم - قصدهم التعمية والمغالطة!

قوله: «**وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا كَانَ الْبَارِئُ مُنَزَّهًا عَنْ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ مَعَ قَبُولِهِ لَهَا فَتَنْزِيهُهُ عَنْ امْتِنَاعِ قَبُولِهِ لَهَا أَوْلَى وَأَحْرَى...**» يقصد أن العقل - الذي هذا التقدير - من ثمرته يتفق مع الأخبار التي جاءت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بوجوب اتصاف الله تعالى بالكمال من كل وجه وامتناع ضد ذلك، وليس هذا من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عدول عن أدلة السمع، ولكنه يقصد الرد على الذين لا ينظرون فيها، فيُبطل دليلهم بطريقتهم التي يعتمدون عليها ويُلزمهم بالحق، وإن كانوا - في الغالب - لا ينتفعون بذلك، ولكن يظهر لغيرهم بطلان طريقتهم.

قوله: «**الْوَجْهُ الْخَامِسُ أَنْ يُقَالَ: أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ فِيمَا يُمْكِنُ**

اتِّصَافُهُ بِثُبُوتٍ، فَإِن عَنَيْتُمْ بِالْإِمْكَانِ الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ...» سبق بيان الملكة عند المنطقين؛ وهو اصطلاح قد تتفق مع لغة العرب عليه.

ومعنى «**الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ**»، يعني: خارج الذهن، يعني الذي لا يوجد مشاهدًا، فإذا كان ذلك باطلًا، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فهو لا حقيقة له.

وبين وجه بطلانه من وجهين:

أحدهما: أنه يلزم منه عدم وصف الجمادات بأنها لا حية ولا ميتة، ولا ناطقة ولا صامتة! وهذا خلاف الواقع، وقد ثبت في كتاب الله ولغة العرب، وذكر الأدلة من كتاب الله ومن لغة العرب ـ ولا يقال إذا شاء الله تعالى جعلها حية ـ لأن الكلام في الواقع الحاضر، الذي يعيشه الناس، وليس في قدرة الله تعالى، فإن الله على كل شيء قدير، فقد جعل عصى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيَّةً تَسْعَى، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: ١٧ ـ ٢١]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٤ ـ ٥]، والأعضاء تتكلم، وفي أحاديث أشراط الساعة، قال ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ**»(١) وغير ذلك، فهذا لا يدخل في ذكر.

والحقيقة أن هؤلاء الذين احتيج للاستدلال عليهم بما ذكر خارجون عن المعقولات؛ لأن المقصود من ذلك إثبات اتصاف رب العالمين بالصفات، ولهذا يستغرب هذا، ولكن ـ كما سبق ـ أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد إبطال مذهبهم بقواعدهم ومنطقهم.

وهذه الأوجه التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: كلها مبنية على المحسوس المشاهد من المخلوقات، وأن الذي يتصف بالسمع والبصر والكلام والفعل والقدرة أكمل مما يضاده، ومعلومٌ أنه لا يجوز أنا نقيس ربَّ العالمين جَلَّ جَلَالُهُ على شيءٍ من مخلوقاته؛ لأنه جَلَّ جَلَالُهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١١٧٩٢)، والترمذي في «سننه» برقم (٢١٨١)، وابن حبان في «المستدرك» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسبق أنه من القواعد التي يجب أن تكون معلومةً عند طالب العلم: أن الله ﷻ غيبٌ لا يُشاهده أحد، وأنه تعالى لا يُقاس بشيء؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فيُثبت له ﷻ السمع والبصر بعد نفي المماثلة لشيء من الأشياء؛ فدلَّت الآية على أنَّ السمع والبصر من خصائصه، وليس كسمع المخلوق ولا كبصر المخلوق، فهكذا يكون كلُّ صفاته التي يتصف بها.

أما هؤلاء الذين يردُّ عليهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهم يتكلَّمون على أنفسهم وعلى ما يُشاهدونه من المخلوقات، وعندهم: أنَّ الاتصاف بهذه الأوصاف التي يعرفونها من أنفسهم نقصٌ، ولهذا نازعهم المؤلف وغيره.

بل كل العقلاء يُنازعهم فيه؛ فمعلومٌ أنَّ الذي يتكلَّم أكملُ ممن لا يتكلَّم، وأن البصير أكملُ من الأعمى، وأن الحيَّ المتحرِّكَ أكملُ من الجماد؛ وهكذا.

فكل هذه مجادلاتٌ في القياس، ومجادلاتٌ لهؤلاء الذي لا يؤمنون إلا بالمحسوس المشاهد، ونحن نؤمن بأنَّ الله ﷻ ليس كمثله شيءٌ، وأنَّ له الكمال المطلق.

ولهذا لما ذكر عن العرب الذين يأنفون من البنت أن تولد لأحدهم، يقول: (كيف تُنزهون أنفسكم من هذا ثم تضيفونه إلى رب العالمين ﷻ؟!) فهو جَورٌ وظلمٌ في العقل والميزان.

وكل شيءٍ يُتَّصف به المخلوق فلا بُدَّ أن يكون إمَّا كاملًا وإما ناقصًا، بخلاف رب العالمين فإنه لا يتصف إلا بالكمال، فله الكمال المطلق من كلِّ وجهٍ - تعالى وتقدس -.

فلسنا بحاجة إلى المنطق وإلى القياسات؛ لا العقلية ولا الأقيسة التمثيلية التي يذكرونها هنا، فهذه تُستعمل في المخلوقات ولا يجوز استعمالها في رب العالمين. وكذلك كونُه على تقدير قولهم: إما أن يقبل السلب أو الإيجاب، أو يقبل: الاتصاف أو لا يقبل، فهو مثل ما يُقال: (هل هو يقبل الوجود أو يقبل العدم؛ فأي فائدة في هذا الكلام الذي لا يصدر إلا من جاهل بربِّ العالمين ﷻ، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

فهم لم يعرفوا قدر الله ﷻ، بل لم يعرفوا الله ﷻ، وربما هذا الكلام يُقصد به

التضليل والتشكيك والتعمية في الحق، وهو الظاهر من فعل هؤلاء؛ وإلا فلسنا بحاجة إلى مثل هذه الأشياء.

هذا الكلام الذي يستنتجونه من المهاترات والأفكار لا نحتاج إليه، ولا يحتاج إليه كلُّ عاقلٍ في أوصاف الله ﷻ وأسمائه، وإنَّما هذا يقيسونه على أمور وجودية عندهم، فيقدرون هذه الأشياء ويستعملونها في ذلك المنطق الذي لا يحتاج من يعرف اللغة العربية إلى شيء منه، والله قد أغنانا عن كلام المتكلمين وعن تقديراتهم وعن أفكارهم المنحرفة.

وصفات الله ﷻ التي ذكرها في كتابه واضحة وجلية، فإذا أثبت شيئًا فهو ينفي ضده، وله الكمال المطلق من كل وجه.

فهذا كله كلام قد لا يفهمه أكثر الناس، بل الذين يتكلمون به؛ لأنه مبنيٌّ على المنطق الذي لا يحتاج إليه من عرف اللغة العربية، ونحن خُوطبنا بكلام واضح جلي لا إشكال فيه، ولكن الشيخ رحمه الله تعالى يريد أن يبين أن أقوالهم باطلة فلا يغتر بها؛ لأن كثيرًا من الناس يعظمها ويرى لها وزنا!.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الْوَجْهُ السَّادِسُ أَنْ يُقَالَ: هَبْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِمْكَانِ الْخَارِجِيِّ، فَإِمْكَانُ الْوَصْفِ لِلشَّيْءِ يُعْلَمُ تَارَةً بِوُجُودِهِ لَهُ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِنَظِيرِهِ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِمَا هُوَ الشَّيْءُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ: ثَابِتَةٌ لِلْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةِ، وَمُمْكِنٌ لَهَا، فَإِمْكَانُهَا لِلْخَالِقِ تَعَالَى أَوْلَى وَأَحْرَى؛ فَإِنَّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَهُوَ قَابِلٌ لِلِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ؛ وَإِذَا كَانَتْ مُمْكِنَةً فِي حَقِّهِ فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَاتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا».

الشرح

هذا مثل الوجه السَّابق، ولكن قوله: «**مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِمْكَانِ الْخَارِجِيِّ**»، يعني بـ«الإمكان الخارجي»: ما يُشاهد ويُحس ويُرى، ويُقابله «الذهني»: الذي يُتصور في الذهن فقط ولا وجود له في الخارج. فوصل الحد إلى هذه التقديرات وهذه الأشياء فيمن هو أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء!

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يُريد أن يُبطل كلامهم من كل وجه؛ لأنه لا يتصوره كثيرٌ من العقلاء؛ لأنها تخمينات وتقديرات فاسدة عن تصوراتٍ باطلة ومبنيةٌ أيضًا على باطل، وكل شيء يُبنى على باطل فهو باطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الْوَجْهُ السَّابِعُ أَنْ يُقَالَ: مُجَرَّدُ سَلْبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ لِذَاتِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَتْ عَمًى وَصَمَمًا وَبُكْمًا، أَوْ لَمْ تُسَمَّ، وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ، فَإِنَّا إِذَا قَدَّرْنَا مَوْجُودَيْنِ، أَحَدُهُمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَتَكَلَّمُ، وَالْآخَرُ لَيْسَ كَذَلِكَ: كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنَ الثَّانِي.

وَلِهَذَا عَابَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَنْ عَبَدَ مَا تَنْتَفِي فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ؛ فَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، وَقَالَ أَيْضًا فِي قِصَّتِهِ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٧]».

الشرح

هذا الكلام مع ظهوره ووضوحه فيه بُطلان الشرك والمشركين وسخافة عقولهم ولهذا لما جاءهم إبراهيم عليه السلام بالحُجَّة التي يحتجُّ بها ما وجدوا إلا أنهم قالوا: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وهذا ليس دليلًا، بل هذا جهلٌ؛ وهكذا يُقال لغيرهم ممن يعبد غير الله جل جلاله.

وقوله جل جلاله عن إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ يدلُّ على أنهم يعبدون أصنامهم ويعبدون ربَّ العالمين، ولهذا تبرأ من معبوداتهم واستثنى ربَّ العالمين؛ لأنهم كانوا يعبدونه. و«الشرك» معناه: أن يُعبَد الله ويُعبد معه غيرُه، وأما إذا عبد غيره خالصًا عبادته له، فهذا معناه أنه ما عرف الله أصلًا، وهذا لا يُمكن أن يحصل لعاقل، بل ما وجد في أحدٍ من الخلق؛ لأنهم يُشاهدون آياتِ الله جل جلاله في أنفسهم وفيما حولهم، وأكبر ما يُشاهَد السمواتِ والأرض، فالسموات مخلوقات لم تخلق نفسها ولم يخلقها مخلوقٌ مثلها أو أكبر منها أو أصغر منها؛ لأنَّ المخلوق

فقيرٌ يحتاج إلى من يوجده وإلى من يخلقه، فالفقير يحتاج إلى غيره، فإذَن: لا بُدَّ من خالق بصيرٍ عليمٍ كامل بكل وصفٍ يوصف به - تعالى وتقدس -.

ثم هكذا الحوادث والأمور التي يُشاهدونها من الموت والحياة وغيرها مما هو دليلٌ واضح على وجوب عبادة الله وحده.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وكذلك في قصة موسى في العجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]».

الشرح

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، معناه أنَّ «الكلام» كمالٌ وفقدُه نقصٌ، وهم يُقِرُّون بهذا؛ فإذا كان «الكلام» كمالًا؛ فكيف يُنفى عن رَبِّ العالمين ويُثبَت للمخلوق الناقص؟!

قوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؛ سواءٌ قُصد بالهداية: الدِّلالة الظاهرة أو قُصد بها هداية القلوب واستقامتها، فهي لا تحصل إلا من الله ﷻ. أما هدايته إلى شيءٍ مطلوبٍ محبوبٍ، فهذا قد يُمكن من المخلوق ولكنه ناقصٌ ولا يكون كاملًا، فلا يكون كاملًا إلا من ربِّ العالمين ـ تعالى وتقدس ـ.

وكلُّ هذا: المقصودُ به إبطالُ عبادةِ غَيرِ الله ﷻ، وفي ضمن ذلك إثبات الكمال لله ﷻ، وأنه يجب أن تكون العبادة له وحده. ولهذا من صَرف مِن حقِّ الله ـ الذي هو توحيده وإخلاص العمل له ـ إلى مخلوق، صار جزاؤه النار خالدًا فيها؛ لأنَّ ارتكب أكبرَ الظلم وأعظم العمى، وأهدرَ ما وهبه الله ﷻ للإنسان من عقلٍ ونظرٍ وفِكرٍ، ومَيَّزه بذلك عن الحيوانات، فهو يُهدر هذه النعم، ولهذا استحقَّ الإهانة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦] فَقَابَلَ بَيْنَ الْأَبْكَمِ الْعَاجِزِ وَبَيْنَ الْآمِرِ بِالْعَدْلِ الَّذِي هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

الشرح

هذا مثال يكون للصنم ولرب العالمين، وقد يكون أيضًا ـ كما قال بعض المفسرين ـ للكافر الذي يدعو إلى الضلال وإلى رسول الهدى الذي جاء به من عند الله ﷻ وطريقته تؤدي إلى السلامة.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾. «الأبكم» الذي لا يتكلم، والبكم هو عدم الكلام؛ عدم الأمر، وعدم النهي، وعدم التصرف.

قوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، يعني: أنه عاجز.

قوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، يعني: أنه عالةٌ عليه، لا يستطيع أن يكتسب بنفسه شيئًا ولا أن يتصرف بشيءٍ، بل مولاه الذي يكون قد تولّاه، وهو الذي يؤدّي عنه كل ما احتاج إليه.

قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، يعني: في أي عملٍ يُطلب منه لا يستطيعه ولا يعمله؛ هل يستوي هذا، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الذي هو رسول الله ﷺ؟!

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾، وعلى هُدًى ونورٍ من الله ﷻ، يعني: هل يستوي من يعبد الصنم ومن يعبد ربَّ العالمين؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَصْلٌ»

«وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي، وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا، فَنَقُولُ: أنه لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ».

الشَّرح

«**التوحيد**»: أن يكون العمل واحدًا، ليس فيه شِركةٌ لآخر.

وهذا هو القسم الثاني من أقسام «التوحيد»؛ لأنه قسَّم «التوحيد» في هذا الكتاب إلى قسمينِ:

القسم الأول: توحيد علمي اعتقادي.

القسم الثاني: توحيدٌ عملي، قولي فعلي.

فتضمَّن «التَّوحيد»: في القسم الأول: الرَّدَّ على المنكرين له أو المتأوِّلين له؛ فالناس انقسموا فيه إلى أقسامٍ ثلاثة ـ أعني: الذين آمنوا بالرسول ﷺ ـ:

• **القسم الأول**: **من لم يقبله**؛ ومعلومٌ أنَّ الذي لا يقبل ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ إذا كان متعمدًا لذلك؛ فإنه خارجٌ عن دينه وليس من أتباعه، ولكن الذين استجابوا للنبي ﷺ لم يتعمدوا هذا فظنوا أنه لا يجوز أن يوصف الله ﷻ بما جاء في كتاب الله وحديث رسوله، وإن كان هذا ظنًّا كاذبًا وظنًّا خاطئًا، ولكن لكونهم ما تعمَّدوا الرد لا يَخرجون من جملة المسلمين.

• **القسم الثاني**: قبلوه، لكن تأوَّلوه وتسلطوا على تأويله بالألفاظ الغريبة ووحشي اللغة؛ زاعمين بأنَّ إثباته على ظاهره كفرٌ بالله ﷻ، وهذا زعمٌ أيضًا باطلٌ.

• **والقسم الثالث**: هم الذي قَبِلوه وعلِموا أنَّ الله ﷻ ليس كمثله شيء، وأنه

لا سَميَّ له ولا نِدَّ له ولا كُفْءَ له، وأنَّ ما وصف الله ﷻ به نفسَه أو وصفه به رسوله فهو خاصٌّ به، لا يُشاركه فيه أحدٌ من الخلق؛ فآمنوا بما جاء في كتاب الله على ظاهره ونفَوْا المشابهة أو التَّمثيل في شيءٍ من خصائص الله ﷻ.

هذا القسم الأول من أقسام التوحيد وأقسامه.

أما القسم الثاني من أقسام التوحيد: فهو توحيدُ الله ﷻ بأمره واجتناب نهيه. وتضمَّن هذا: الإيمانَ بأنَّه خالقُ كلِّ شيء ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه كتب الأشياء قبل وجودها بأزمانٍ متطاولة لتمام علمه، فلا يقع شيءٌ من هذه المقادير إلا وقد علِمه الله قبل وجوده وكتبه، فيقع على وفق علم الله ومشيئته وكتابته، وهذا معنى **قوله: «التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ»**.

المقصود: أنَّ المؤلف رحمه الله بدأ أولًا بتوحيد الأسماء والصفات والأفعال التي يختصُّ الله ﷻ بها، وهذا ظاهر عند من صار له فكر ونظر، أما في التفصيل؛ فلا بُدَّ من مجيء الوحي به؛ لأنه يخبر عن أمور غائبة لا يدركها العقل، فوجب الرجوع إليه والتسليم له.

وأما هذا: فهو مبنيٌّ على الأمر والنهي، فالله ﷻ أخبر أنه خلق عباده ليعبدوه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني: أنه لا يؤمر ولا ينهى؟! فلا يكون مهملًا.

فإذَن: لا بُدَّ أن يأتينا أمر الله فيه كالأول.

فكلا الأمرين يتوقف على مجيء الأمر من الله ﷻ أو الخبر، فالأول طريقه: الخبر عن الله ﷻ؛ لأنه إخبارٌ إما عن نفسه، وإما عن جزائه، وإما عن الأمور الماضية التي لا نعلمها ولا يعلمها الخلق؛ حتى نحذر ما وقع فيه الهالكون، وإما عما يكون بعد هذه الدنيا = وكلها تتوقف على خبر العليم الحكيم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض - تعالى وتقدس -. ولهذا كلف الرسول بالبلاغ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولأن الخلق الذين أرسل إليهم كُلِّفوا بقبوله والعمل به.

وقد أعد الله ﷻ لمن قبل ذلك وامتثل: الجنَّةَ التي فيها النعيم كله، ومن عصى وأبى أعد له عذابًا في الدنيا وفي الآخرة.

قوله: «**وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا**».
العبادات هي التي جاء بها الرسول ﷺ، وهذا هو معنى قول المسلم: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. معنى: (لا إله إلا الله) أي: التوحيد، وهو أن يكون التألُّه والعبادة له، ومعنى (محمد رسول الله): أنه هو الذي بيَّنه لنا، وجاء به من عند الله ﷻ، فلا يُمكن أن نَعرفه بعقولنا ولا بالقياس ولا بالتوارث، وإنما هو وحيٌ يوحيه الله ﷻ إلى عبده ورسوله، فهذا أصلٌ لا بُدَّ من معرفته ثم العمل به بعد المعرفة.

ف «**الْعِبَادَاتِ**»: هي التي تصدر من العباد، يفعلونها وفق الأمر والنهي المتضمن للإيمان بالشرع.

و«**الشَّرع**»: هو ما جاء به الرسول ﷺ وشرعه لنا؛ أمرًا فيجب أن نمتثله، ونهيًا بحيث يجب أن ننتهي عنه، مع مراقبة الله ﷻ وخوف عذابه ورجاء ثوابه.

قوله: «**وَالْقَدَرِ جَمِيعًا**..»: القدر أصلٌ يجب أن نؤمن به ونعمل به، كما سبق أنه عبارة عن علم الله ﷻ وفعله ومشيئته وخلقه وكتابته، فيكتب الله ﷻ ما علمه في المخلوقين أو ما علمه في كل ما يستقبلنا من دقيق وجليل، فكَتَبَهُ وأخبرنا أنه ﷻ أنه مسطور في كتاب مبين.

والقدر لا يخالف الشرع بل يوافقه، وليس كما يقولون: (إذا كان ﷻ قدَّر الكفر وقدَّر المعاصي وقدَّر غيرها؛ فكيف يأمر بخلافها وهو مقدِّرٌ لها؟).

فنقول: التقدير ليس مرغِمًا لأحد وموجبًا له، وإنما هو علم الله في هذا المخلوق أنه سوف يعمل هذا الأمر باختياره ومقدوره؛ فكتب الله علمه، وهذا شيءٌ خفيٌّ علينا ولا نعلمه حتى يقع؛ وإذا وقع علمناه. فإذا وقعت معصية من المعاصي علمنا أنْ كتب عليه هذا الشيء، ولكن هو يعصي باختياره وقدرته، ولا أحد يرغمه على ذلك، بل هو يفعل ذلك مختارًا مع علمه بأنه معصيةٌ، فيستحقُّ على ذلك العقاب، كما أنَّ الطائع كذلك لا نعلم أنه مكتوبٌ عليه هذا الشيء حتى يفعله.

ولهذا أخبرنا ﷻ أنَّ أحدًا لا يعلم ما في غدٍ، حتى نفس الإنسان الذي يقدر الأشياء، يقول: (سوف أفعل كذا وكذا في الغد)، وقد يتخلَّف الأمر ولا يستطيع أن يفعله، فالأمور التي تكون مقدَّرة لا تعلم حتى تقع؛ وإذا وقعت فهي تقع ـ إن كانت من مكلَّف ـ بمقدوره واختياره.

والقدرة التي في العبد والاختيار مخلوقتان لله ﷻ؛ لأنه هو الذي خلق الإنسان، وخلق ما فيه من قُوًى وفكر وأيدٍ وأرجل وسمع وبصر، وكلَّفه بما يستطيع، بل بأقل مما يستطيع.

فالإنسان يأتي بهذه الأمور على بيِّنة إذا كان سمع ما جاء به الرسول ﷺ، وإذا تركها فهو باختياره تركها وهو يعلم أنه عاصٍ في ذلك، فيكون مستحقًّا لعذاب الله ﷻ.

المقصود: أنَّ الشرع هو كلُّ ما جاء به الرسول ﷺ، والقدر داخلٌ فيه؛ فإنَّ القدر من صفات الله ﷻ كما سبق، ولكن معناه قدرة الله ﷻ على كل شيء؛ فإنه على كل شيءٍ قدير، ومِن ذلك كونُه علم كُلَّ شيء، فكتب علمه بالأشياء، فهي تقع على وفق علمه المكتوب.

ثُمَّ هو على كل شيء قدير؛ فما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، فهذا هو الذي كُلِّف به العباد؛ لا بُدَّ منه على وجه التفصيل، لا وجه الإجمال؛ لأنَّ الإجمال لا يكفي في هذا.

ف «**الشرع**»: هو الأمر والنهي، وأما «**القدر**» ففسَّره بقوله: «**فَنَقُولُ: أنه لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ...**»، هذا هو معنى الإيمان بالقدر، وهو الإيمان بأنه ﷻ الخالق لكل شيء، وأنه ربُّ كل شيء، وأنه عَلِم كل شيءٍ فكتبه، وأن مشيئتهُ شاملةٌ عامة؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول والا قوة إلا به، لا تحول لأحدٍ من حالٍ إلى أخرى إلا بمشيئة الله ﷻ.

وكذلك لا قوة لأحدٍ على شيء إلا بالله ﷻ؛ فالأمر كله لله، والملك كله لله، والخلق كله لله ﷻ، فهذا لا بُدَّ منه لمن آمن بالله وآمن برُسله وبكُتبه وباليوم الآخر.

المقصود: أنَّ المؤلف ﷺ بنى هذا الكتاب على أصلينِ وقواعدَ وأمثلةٍ؛ ومثالانِ:

فذكر «الأصل الأول» والقواعد وفي ضمنها الأمثلة التي ضربها للمخلوق، (تُقرر) طالب العلم إلى إمكان أن الله ﷻ هو الكامل.

أما «الأصل الثاني» فهو ما يتعلق بالعبد نفسه، وهو حق الله الذي أوجبه عليه؛ لأن العبادة تنقسم إلى **قسمين**:

• **قسمٌ يتعلق برب العالمين**، وهو باب العلم والاعتقاد، فلا بُدَّ أن يعلم ما لله ﷻ من الأوصاف الكاملة حتى تكمُل عبادته، وهذا لا يكون إلا بالعلم الذي تأتي به الرسل؛ لأن العقول لا تستطيع أن تستقل بشيءٍ من ذلك على التفصيل وإن أدركته مجملًا، فالإجمال في هذا لا يكفي.

فلا بُد من أن يأتي الرسول ﷺ بالتعريف بالله ﷻ، والتعريف بالطريق التي توصل إلى النجاة، ويُقابل ذلك التعريف بضدها؛ لأن الذي لا يعرف الضِّدَّ يجوز أن يقع فيه ثم يهلِك.

• **القسم الثاني**: هو الذي أوجب على العبد؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وعبادة الله ﷻ لا بُدَّ أن تكون بالأمر والنهي، أي: بامتثال الأمر واجتناب النهي، وهذا الذي يأتي به الرسول ﷺ من الله ﷻ.

فعلى هذا؛ فالأصل الثاني مبنيٌّ على **شيئين**:

* مبنيٌّ على ما جاء به الرسول ﷺ.

* أن هذا الذي جاء به يجب أن يكون خالصًا لله ﷻ، لا يكون فيه شيءٌ لغيره.

ثم التفاصيل لا بُدَّ منها؛ لأن مجرد الإجمال لا يكفي.

والتفصيل هو: ما بلغه الرسول ﷺ، فقد بلغ كل ما نحتاج إليه في هذا الباب وفي غيره، وكذلك بيَّن ما يُضاده حتى لا نقع في المخالفة وتفسُد عبادتنا ويستحوذ علينا عدُونا الذي يُريد أن يكتسب أكبر عددٍ من بني آدم يكونون معه في النار، وهو يسعى جادًّا في هذا الأمر.

قوله: «**فَنَقُولُ: إنه لا بد مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ...**». هذا من لوازم العبادة، وهو من دلائل وجوب العبادة كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]، يعني: آيات توجب عليهم أن يعبدوا ربهم، وذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]. فما دام أنه هو الذي خلق فهو الواجبُ العبادةِ، وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

[غافر: ٥٧]، يعني: أنها دليل واضح على وجوب عبادة ربهم ﷻ فهو خلقهم للعبادة.

يقول: «إنه لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ» «خلقُه» يدخل فيه القدر.

وقوله: «فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ»، هذا ظاهرٌ جليٌّ لا خفاء فيه؛ لأنه لا أحد يقول: إنَّ الله ﷻ له شريك في خلق السماوات والأرض، وبهذا يقرُّ به الكُفَّار ويقر به المشركون، كما أخبر الله عن ذلك في أماكن متعددة في كتابه، فلا بُدَّ من الإيمان بأنَّ الله هو الخالق وحده، ويدخل في هذا: أفعالُ العباد التي يفعلونها باختيارهم وقدرتهم.

وكذلك يجب أن نعلم أنه هو المالك لكل شيء، وأنه هو المتصرف في الكون كله وحده، وإن كان جعل لعباده تصرفًا وملكًا ولكنه لا يخرج عن ملكه، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فجعل لهم مشيئة، وجعل لهم قدرة، ولكنها لا تقع إلا بعد تقدير الله ومشيئته؛ فهو رب كل شيء ومليكه، وهو على كل شيء قدير، فلا بُدَّ من الإيمان بهذا، وكذلك بكل ما وجب عليهم، فلا بد من الإيمان بهذا، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد علم ﷻ كل شيء في الماضي والمستقبل قبل وجود الخلق كلهم، فعلم ما سيكون قبل أن يكون، وعلم الذي لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال الله ﷻ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، هم لم يخرجوا، ولكن أخبر عن الشيء الذي لو كان لوقع كذا، وقال ﷻ في أهل النار الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا ويعملوا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، يعني: لو قُدِّر أن هذا يحصل لكان كذلك، فالله لا يخفى عليه شيء، حتى الأمور التي لا تقع يعلمها أنها لو وقعت لكانت على صفة يعلمها هو ﷻ.

الله ﷻ هو الخالق، وهو الذي قدر الأشياء وشاءها، وهو الذي يخلق وغيره مخلوقٌ، هذا جزءٌ من القدر وليس القدر كله؛ لأنه سبق أن قلنا: إنَّ القدر يُبنى على قاعدتين عظيمتين:

أحدهما: أن الله ﷻ علِم كل شيء بعلمه الأزلي، وفي هذه القاعدة كتابته لعلمه.

الثانية: أنه ﷻ الخالق لكل شيء، وأنه لا يقع إلا ما يشاؤه ـ تعالى وتقدس ـ.

فهذه الأمور إن شئت أن تقول: إنها أمران؛ كل واحدٍ في ضمنه أمرٌ آخر، وإن شئت أن تقول: أربعة أمور:

الأمر الأول: علمه الأزلي الذي أحاط بكل شيء، فلا يخرج عن علمه شيء، فدخل في هذا خلق المخلوق وتقدير أفعاله، وأنها عُلمت له ﷻ؛ أي: علم وجوده وعلم ما يفعله فكتبه، فهو يقع على وَفق العلم الأزلي، وعلى وَفْق كتابة الله له، وهذا يشمل كلَّ شيء، لا يخرج عنه شيء، حتى الشيء الذي لا اختيار للعباد فيها كحركة الأغصان في الشجر، وتحريك ما تحركه الرياح، ومثل: تحرك العروق ونبضها في بدن الإنسان، كلها مقدَّرةٌ لله ومعلومةٌ له ومكتوبة، فلا يُمكن أن يقع شيء إلا وقد علِمه الله قبل وجوده وكتبه، وهذا من أبلغ ما يوصف ربنا ﷻ بالعلم به، فهذان أمران:

الأمر الأول: علم الله الشامل، للأشياء، المحيط بكل شيء.

الأمر الثاني: كتابته لعلمه؛ كتابته لكلِّ شيء قبل وجوده.

الأمر الثالث: أنه هو الخالق وحده، هو الذي يخلق ـ تعالى وتقدس ـ، فكل من سواه فهو مخلوق، وأكبر المخلوقات المشاهدة: السموات، ثم يليها الأرض التي نحن فيها وعليها، وما فيهما فكله مخلوقٌ لله ﷻ، والله ﷻ هو الخالق وحده، فدخل في هذا أفعال العباد أنه خالقها.

الأمر الرابع: مشيئته العامة، فلا يقع إلا ما شاء ـ تعالى وتقدس ـ، ولا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله، فمشيئته العامة الشاملة لا يخرج منها شيء؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والذي لا يشاؤه عدمٌ لا وجود له.

فهذه لا بُدَّ من الإيمان بها، ثُمَّ يدخل في الأوَّل الذي يقول: الإيمان بالشَّرع يدخل فيه الإيمان بالله وبرُسله وبكلامه وبما أمر به وما نهى عنه.

فالشَّرعُ: ما شُرع لنا أن نفعله، وما شُرع أن نتركه، فالشرع أمرٌ ونهي، فأكبر المنهيات الشِّرك والكفر بالله ﷻ؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بصفاته وبأسمائه وبوعده وجزائه، فأوعد وتوعَّد، ووعد عباده المؤمنين بأنه يُكرمهم ويُسكِنهم جناتٍ يكونون فيها مُنَعمين سالمين من كلِّ أذى، آمنين من كلِّ خوفٍ، ويشمل ما أعدَّه لأعدائه من العذاب الأليم، نسأل الله العافية.

فالشرع عبارة عن كلام الله ﷻ؛ مِن أمره ونهيه، ولا بُدَّ أن تُبلِّغه الرسل؛ لأنَّ الله ﷻ لا يُكلِّم عباده مباشرةً، وإنَّما يوحي إلى رجلٍ منهم فيَشرع على لسانه ما أراد ﷻ.

المقصود: أنه ﷻ كتب علمه بالأشياء قبل وجودها؛ فإذا وقعت تقع على وفق كتابته ووفق مشيئته وعلمه وخلقه ـ تعالى وتقدس ـ، والشَّرع داخلٌ في هذا، يعني: أنه أمر عباده بما يستطيعونه وكلفهم الشيء الذي يطيقونه، ثم لا يخرجون عن تقدير الله، ولا يخرجون عما كتبه الله ﷻ، وليس في هذا توهُّمُ ظلم كما يتوهَّمُه أهل الباطل؛ لأن القَدَر عبارةٌ عن هذه الأمور الأربعة: (علم الله الأزلي، وخلقه لكل شيء، ومشيئته لكل شيء، وكتابته)، فهو سبحانه عَلِم الأشياء قبل وُجودِها فكتَبَها.

فعَلِمَ أنَّ هذا المخلوق سيوجد بمشيئة الله وخلقه، وأنه سيعمل عمله بإرادته وقدرته، ولا أحد يرغمه على ذلك، فليس القدر يرغم أحدًا، وإنما القدر يتَّفق مع الشرع؛ لأنَّ شرع الله ﷻ داخلٌ في هذا، فالله أمر الخلق بما يستطيعونه؛ فإذا امتنعوا من ذلك فقد امتنعوا بمقدورهم.

إبليس امتنع بإرادته وقال (لا أسجد)، وإن كان كل شيء بخلق الله ﷻ، فكذلك العبد إذا أُمر بأمر وأبى، فمعناه أن إباءه بمقدوره واختياره، فلماذا هذا يكون مؤمنًا، وذاك كافرًا؟! الأمر كله يكون متساوٍ بالنسبة إليهم، ولكن هذا آمن باختياره ومقدروه، وهذا كفر باختياره ومقدوره.

ومعلومٌ أن وراء ذلك شيء آخر، وهو توفيق الله وهدايته، وتوفيق الله وهدايته شيءٌ يضعه الله في القلوب؛ فكونه يحبِّب الإيمان في قلب العبد ويزيِّنه ويكرِّه إليه ضِدَّه = فهذا فضله، يجب أن يُطلب منه.

أما عدله: فالناس تساووا فيه؛ حيث أمرهم بالشرع، وهذا مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أنَّ العبد يجب أن يجمع بين الإيمان بالشرع وبالقدر؛ لأنَّ كثيرًا من أهل البدع ما استطاعوا أن يجمعوا بينهما، وعقولهم ما استطاعت أن تستوعب ذلك، فقالوا: (كيف يأمر بهذا الأمر ثم يقدر أنه لا يستطيعه؟)، هذا غلط، حيث هو لا يستطيعه، ولكن قدّر أنه لا يفعله، فالحقيقة أنه منعه فضله فقط، ما أعطاه هداية القلب،

ولم يحبب إليه الإيمان ولم يزينه في قلبه، وإنما وكَله إلى نظره وإلى عقله وإلى قوته، ومن وُكل إلى هذا ضلَّ ولا بُدَّ، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

فالهداية هدايتان:

الأولى: هداية بمعنى الدلالة والإرشاد والبيان، كما قال الله ﷻ لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]، أي: تدلُّ على ذلك وتدعو إليه وتبينه وتوضحه للناس، فهذه هداية.

الثانية: هداية بمعنى خلق الهدى في القلب، وجعل القلب محبًّا للخير كارهًا للشر مبغضًا له، وهذه ليست إلى أحد كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولهذا أمرنا ربُّنا ﷻ رحمةً منه أن نسأله هداية الصراط المستقيم في كلِّ ركعة من ركعات الصلاة للضرورة، نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، يقول بعض المفسِّرين ـ أو كثيرٌ منهم ـ في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾: (ثبتنا على الصراط المستقيم)، وهذا فيه قصور في الحقيقة وإن كان صحيحًا؛ لأنه ليس مجرد تثبيت، بل تثبيت وزيادةُ هُدًى؛ لأنَّ الإنسان ما يتم هداه حتى يضع أول قدمٍ له في الجنة ويأمن، فعندها يتم الهدى. فهو بحاجة إلى سؤال ربه دائمًا أن يهديه الصراط المستقيم وبحاجة إلى أن يزيده هُدًى، فإن الهدى يتفاوت الناس فيه.

فهذا المقطع الذي ذكره، اشتمل هذه الأمور المذكورة:

ـ الإيمان بعبادة الله وحده، وأن تكون العبادة التي أمر الله ﷻ بها لله وحده.

ـ وكذلك الإيمان بخلق الله ﷻ، وبأنه المالك لكل شيء، وأنه لا يقع إلا ما يشاء، وأنه علم كل شيء، وأنه كتب علمه في الموجودات، وأن كل شيء يقع لا يخرج من هذه الأمور الأربعة.

أما «علم الله» و«كتابته الشاملة»: فهذان أكثر الناس آمن بهما.

أما «خلقه» و«مشيئته»: فلم يؤمنوا بعمومهما؛ فلم يؤمنوا بعموم الخلق ولا بعموم المشيئة.

فالقدرية ـ الذين هم المعتزلة ـ أبَوْا هذا فقالوا: (إن الإنسان هو الذي يخلق فعله!) إذن: معناه أنَّ مع الله خالقِينَ، وهذا شركٌ بالربوبية؛ ليس شركًا في العبادة

فقط، بل شرك في ربوبية الله ﷻ؛ لأن الخلق له والملك له، فهم يقولون العبد هو الذي يحدث الإيمان في قلبه وهو الذي يفعله استقلالًا، ولا دخل لله في هذا، وهو الذي يفعل الكفر استقلالًا ولا دخل لله في هذا، فزعموا أنهم: (إن لم يقولوا هذا لزمهم أن يقولوا إن الله ظالمٌ)، وهذا كفرٌ.

وهكذا يعارضون بعقولهم، ولو اتَّبعوا الوحي لسلموا من هذه المعارضات.

فيقال لهم: ألستم أنتم مخلوقين لله؟! فهل أحد يستطيع أن يُنكِر هذا؟! فإذا كنت تقرُّ بأن الله خلقك أيها القَدَرِي، فهل الله ﷻ الذي خلقك وخلق أعضاءك من اليد والرجل وخلق لك سمعًا وبصرًا، وخلق لك إرادةً وقُوَّةً تفعل بها، أو أنت الذي خلقت إرادتك وقوتك؟!

إما أن يقول: إنه هو المخلوق لله ﷻ بجملته وبما اشتمل عليه، أو يتناقضَ، ويصير بذلك مبطلًا.

فالله لما خلق الإنسان جعل له قوة وإرادة، وجعل القوة والإرادة إليه هو الذي يستعملها، لو كان هو الذي يخلق قوته، هل يرضى أن يكون أحدًا أقوى منه؟ فإذن: الإرادة مخلوقة والقوة مخلوقة، وإذا وُجدت الإرادة ووُجدت القوة = وُجد المراد ولا بُدَّ؛ لذلك يبطل هذا القول الذي يقولونه.

ولهذا استدل بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، فتضمنت الآية وجوب الإيمان بعلم الله، أنه عليم بكلِّ شيء، وتضمنت الكتابة أنه كتب كل شيء؛ أما خلقه ﷻ فهو الخالق كما قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وهذا لا يخرج عنه شيء.

وقال ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، فبيَّن أنَّ المشيئة التي للمخلوق بعد مشيئته ولا تخرج من مشيئته؛ فمشيئته عامة شاملة.

وأوائلهم لم يؤمنوا بعموم المشيئة، حيث كانوا ينكرون علم الله، ويقولون: (الأمور تستأنف)، كما في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمُر قال: حججت أنا وحُميد الحِميَري وهم من أهل البصرة، فقلنا لعله يُوفق لنا أحدٌ من صحابة النبي ﷺ، فلما أتينا المدينة وقصدنا المسجد وُفق لنا عبد الله بن عمر، فاكتنفته أنا وصاحبي وظننت أن صاحبي يكِل الكلام إليّ، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه خرج عندنا أُناس

يتقفرون العلم، ولكنهم يقولون: (الأمر أُنُف)، فقال: «إذا أتيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء......»، إلى آخر القصة. فالإنسان يتبرأ من الكفر والكافرين، واستدلَّ بحديث رسول الله ﷺ وقوله: «**الإيمان أن تؤمن بالله**» إلى أن قال: «**وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، ثم قال: «والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه في سبيل الله لم يُقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره».

فلما علموا أن إنكار العلم وكون الأمور مكتوبة، أي: أنها ما عُلمت في الأزل وإنما تُعلم في المستقبل = اتفقوا على أن هذا كفرٌ، وعلى أن من قال ذلك فهو كافر، فرجعوا عن هذا الأمر، فصاروا ينكرون عموم الخلق وعموم المشيئة.

أما الكتابة فكذلك يجب أن نؤمن بها، فعموم المشيئة: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، واستدل بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي في صحيح مسلم أنه قال: «**إن الله قدَّر مقادير الأشياء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»، في رواية: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(٢)، هكذا «**وعرشه**» من غير: «وكان»، وهذا في صحيح مسلم.

هذا يدلُّنا على أن هذا قبل وجود المخلوقات كلها، ويدلنا على أن العرش والماء أول المخلوقات؛ لأن قولَه «**وعرشه على الماء**» جملةٌ حالية؛ أما «**وكان عرشه**» فهذا أمرٌ ظاهرٌ جدًّا لا إشكال فيه.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٦) برقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠] وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

الشرح

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ﴾؛ أي: أنَّ كل شيء كتبه الله، وأخبر أنه ﷻ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وأنه يعلم ما في البحار، وما في البراري وغير ذلك؛ كل هذا إعلامٌ منه ﷻ لعباده حتى يعتقدوا علمه الكامل الشامل الذي لا يخرج عنه شيء.

أمَّا كونه الخالق لكلِّ شيء: فهو كذلك حتى لا يقول الإنسان: أنا أخلق أفعالي أو أنا أتصرَّف تصرُّفَ حُرٍّ؛ فالإنسان ليس حُرًّا، بل هو عبدٌ لله؛ عبدٌ يُصَرَّف، ولكن له قدرة وله إرادة جُعلت إليه.

وهذه الجملة يدخل فيها كلُّ ما جاء به الرَّسول ﷺ التي ذكر المؤلف هنا، وقد خالف فيها من خالف مِمَّن ينتسب إلى الإسلام، أما الذين لا ينتسبون للإسلام فلا عبرة بهم، ولكن الذين ينتسبون للإسلام ممن آمنوا بالله وبرسوله ﷺ = خالفوا في بعض ما ذكر المؤلف هنا، وهو أنه الخالق لكلِّ شيء، هذه لم يأخذوها على عمومها، فأخرجوا مِن خلق الله تعالى أفعالَ العباد فقالوا: (إنَّ العباد هم الذين يخلقون أفعالهم)، والسبب في هذا أنهم يتصورون تصورًا باطلًا: (أن لو قلنا: «إن الله خلق أفعال العباد» للزم أن نقول: إنه خلق الكفر فيهم والمعاصي فيهم ثم عاقبهم على ما خلقه فيهم فيكون ذلك ظلمًا)!.

هذا الذي نقشه الشيطان في أذهانهم، فردُّوا هذه الجملة - أي: عمومها -، وقالوا: (كل شيءٍ خلقه الله إلا أفعال الإنسان؛ فإنه لم يخلقه وإنما الإنسان هو الذي يخلقها)!

ومعلومٌ أنَّ الإنسان لم يخلق القدرة فيه ولم يخلق الإرادة في نفسه؛ إذ لو كان يفعل ذلك ما رضي أن يكون أحدٌ أقدر منه من الخلق، وكذلك لو كانت الإرادة التي فيه هو الذي يخلُقها ما يرضى أن يكون أحدٌ أكمل منه إرادةً.

ومعلومٌ أنه إذا وجدت القدرة والإرادة وُجد المراد ولا بُدَّ. إنَّ الله خلق فيهم القدرة والإرادة ثُمَّ جعل الأمر إليهم بالاختيار، بيَّن لهم طريق الهُدى وطريق الضَّلالة، أي: طريق الجنة وطريق النار، وطريق الجنة: امتثال أمر الله واتباع الرسول ﷺ، فهذا بإمكان كل واحدٍ أن يفعله، فإذا امتنع فهو يمتنع بمقدوره وباستطاعته؛ ما أحد أجبره على ذلك، فأين الخلق الذي يخلقه هو؟!

ولكن الضّلال إذا تمكّن من قلب الإنسان فلا حيلة فيه، ثم أصل الضلال أن يتبنى الإنسان مذهبًا معينًا ثم يُريد أن تكون النصوص تدلُّ عليه فيعسف النصوص عسفًا ويؤولها تأويلًا بعيدًا حتى تتفق مع مذهبه الذي يُريده، وهذا أصلُ الضلال؛ فمن كان كذلك عاقبه الله ﷻ بأن أُشرب قلبُه حُبَّ الباطل، وكُرّه إليه الحقُّ والهدى، فيستحكم بذلك الشقاء ـ نسأل الله العافية ـ.

فنقول: إنهم خالفوا في هذه الجملة، فزعموا أن الإنسان هو الذي يخلق فعله؛ زاعمين بأنهم إن لم يقولوا بذلك قالوا بالباطل الذي هو أنَّ الله يظلم ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فالرَّدُّ عليهم: أن الله خلق المخلوقات كلها، ولكن الذين جعلهم أهلًا لأمره ونهيه هم العقلاء من بني آدم ومن الجن، فجعل فيهم عقولًا، وجعل فيهم قدرةً واستطاعةً على الذي يُؤمرون به، وقدرةً واستطاعة على الانكفاف عما نهوا عنه، وجعل الفعل الذي ينفذونه من أمر الله أو الترك الذي يتركونه مما نهى الله عنه إليهم، بعد ما بيَّن لهم أنَّ هذا يترتَّب عليه السعادة، وهذا يترتب عليه الشقاء؛ فقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فلا يُرغَم الإنسان على أن يكون مهتديًا، بل بيَّن الرسول ﷺ توحيدَ الله، وأنه لا يُنجي من عذابه إلا هذا، وأنَّه باستطاعة العبد أن يفعله، وبيَّن أنه من لم يمتثل ما جاء به الرسول ﷺ ويجتنب ما نهاه عنه = أن له النار، وباستطاعة العبد أن يفعل ذلك، ثم قال: (ما نُكرهك على شيء، بل الأمر إليك؛ إن شئت تفعل الإيمان، وإن شئت تفعل الكفر؛ لأن عندك عقلًا، وتعرف الضار من النافع).

فيكون هذا أبلغ في كون الإنسان يُثاب على الامتثال ويعاقب على الامتناع، فكيف يقال: إن الإنسان يخلق فعله؟! يخلق الكفر والإيمان؟!

بل نقول: لا يحصل شيء إلا بإرادته ﷻ وبمشيئته، حتى أفعال العباد، ولكن الله ﷻ جعل إلينا القدرة على الفعل الذي أمرنا به، ولم يأمرنا بشيء مستحيلٍ ممتنعٍ لا نستطيعه، فأمرنا بما نستطيع؛ بدليل أنَّ كثيرًا من الناس آمنوا، والكافر كَفَرَ بإرادته وبقدرته. فهذا يرد كلامهم الذي يقولون: إنه لا بُد أن نقول: (أن العبد هو الذي يخلق أفعاله).

ووراء ذلك: التَّوفيق والهداية، وهو فضلٌ من الله ﷻ، والتوفيق عبارة عن تحبيب الخير وتزيينه إلى الإنسان في قلبه، ولهذا أمرنا ﷻ أن نسأله ذلك؛ لأنه بيده، قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لأنَّ هداية القلوب من خصائص الله ﷻ، فقد يعرف الإنسان الباطل ويختاره وهو يعرف أنه يترتب عليه عقابٌ، فيعرف ذلك ويختاره ولا يكون له عُذرٌ أمام الله ﷻ.

أما المسألة الأخرى التي خالفوا فيها: فهي مشيئة الله العامة: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»، فهذه لم يقبلوها على العموم، بل جعلوها مقيدة ـ تعالى الله وتقدس ـ وقالوا: (إن العبد الكافر هو الذي يشاء الكفر، والعاصي هو الذي يشاء المعصية)، ومعنى ذلك: أن الكفر وقع من الكافر بغير مشيئة الله بل بمشيئة الكافر، وهذا إذا تأملناه وإذا هو من الشرك بالربوبية، حيث جعلوا مع الله متصرفين وفاعلين يفعلون شيئًا لا يُريده الله ﷻ.

ومعنى هذا أيضًا: أنَّ الشرك واقعٌ فيهم، وكذلك المعاصي؛ لأن الله لا يرضى بالمعصية ولا يأمر بها، وهي تقع؛ فهل يقع شيءٌ لا يرضاه الله؟ نقول: نعم، يقع شيءٌ لا يرضاه الله، ولكن يشاؤه، والطريقة في هذا أن نقسم الإرادة إلى **قسمين**:

القسم الأول: إرادةٌ دينيةٌ أمريةٌ شرعية، تتضمن الرضا والحب.

القسم الثاني: إرادةٌ هي المشيئة الشاملة العامة كونيةٌ قدرية، وهذه لا يلزم أن يرضى الله ﷻ عن مُرادها، بل قد يكرهه، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، فهذا ليس أمرًا شرعيًا، بل أمرٌ قدريٌّ، وهو القدر الذي قدَّره الله في الأزل، وهو: أنه علمه الله وكتابته ﷻ.

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، يعني: سهل ميسور؛ فالله

لا يعجزه شيء، وليس يكترث به لسهولته عليه ﷻ، فهو عالمٌ بكل شيء، وقادرٌ على كل شيء، وهو المدبِّر لكل شيء، وقد كتب كلَّ ما يقع في الكون من حركةٍ أو سُكون. **فهذا هو الإيمان بالقدر؛ وهو:**

* الإيمان بعلم الله العام الشامل.

* ثم الإيمان بكتابته التي لا يخرج عنها شيء.

* ثم الإيمان بأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ثم الإيمان بأنه تعالى الخالق لكل مخلوق، والإيمان بأنه ﷻ هو المتصرف في كل شيء، وربه ومليكه، وأنه لا أحد يستطيع أن يتحرك أو يمتنع عن قدرته ومشيئته أو يأتي بشيءٍ استقلالًا من عند نفسه.

واستدل على هذا بهذه الآية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وما خرج عن ذلك شيء، فجميع المخلوقات محصورة في السماء وفي الأرض، فيعلم كل ما فيهما من دقيقٍ وجليٍّ، ثم أخبر أنه في كتاب، يعني: أنه مكتوبٌ قبل وجوده، فيقع على وفق هذه الكتابة بدون زيادة ولا نقص، في الوقت الذي علمه الله وحدَّده، فهو على كل شيء قدير، فله القدرة التامة الشاملة كما أنَّ له المشيئة الشاملة، فلا يكون شيءٌ إلا بعد مشيئته: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

قوله: «**وَفِي الصَّحِيحِ**»، يعني: صحيح مسلم؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»، وفي رواية: «**كَتَبَ اللهُ مقادِيرَ الخَلائقِ**»(١)، الكتابة: هي كتابة عِلمه ـ تعالى وتقدس ـ، ولا يخرج عن ذلك شيء، وهذا يدلنا على تمام علمه، فيعلم الأشياء قبل وجودها وكَتَبَها، وتقع على وفق كتابته وعلمه السابق بلا زيادة ولا نقص، فله العلم الكامل والقدرة التامة ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «**قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**». يجوز أن يكون هذا على سبيل الحَسْب والتقدير الدقيق، ويجوز يكون على سبيل المبالغة والتكثير؛ والعرب إذا أرادوا الشيء الكثير قالوا: (قبل خلق السموات والأرض)، فيكون الزمن أكثر من ذلك، والعلم عند الله ﷻ.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**». هذه جملة حالية، والمعنى: (أنه لما كتب مقادير الأشياء كان عرشه على الماء).

و«العرش» في اللغة: السَّرير الذي يجلس عليه الملِك أو الرئيس، ولا يزال يُعرف بهذا الاسم إلى الآن، كما قال الله ﷻ عن بلقيس التي في قصة الهدهد مع سليمان: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: ٢٣] أي: كرسيٌ تجلس عليه.

أما تفسير «العرش» بأنه «العلم»، فهو خطأ؛ فالعرش مخلوقٌ، والله ﷻ مستوٍ عليه، وخَلَقه ـ بنص الحديث ـ قبل خلق السموات والأرض بأزمنةٍ كثيرة، ولم يحدد وقته، وإنما ذكر أنه عندما كتب المقادير كان موجودًا وأنه على الماء.

فإذن: «العرش» و«الماء» وُجِدَا قبل وجود «القلم» وقبل الكتابة، فعلى هذا يكون قوله ﷺ في حديث عبادة رضي الله عنه: «**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ**»[1]، ليس المقصود: الإخبار بأنَّ القلم هو أول المخلوقات، **وإنما المقصود**: أن الكتابة حصلت بعد خَلقه مباشرة بدون فاصل؛ فلما خلقه أمره بالكتابة.

ثُمَّ أمره بالكتابة؛ لأنه إذا أراد الشيء قال له: كن فيكون، وجعل القلم كاتبًا؛ لأنه المعهود للعقلاء والناس أنَّ الكتابة تحصل بالأقلام، وإلا فأمرُ الله ﷻ لا يحتاج فيه إلى أدوات ولا إلى غيرها، إذا أراد شيئًا فإنه يقول له: (كن) فيكون؛ غيرَ أنَّ هذا أخبر ﷻ أنَّه خلق القلم فأمره بالكتابة، والمعلوم أنَّ القلم لا تصرُّفَ له، وإنَّما التَّصرُّف لله ﷻ.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٧٠٠)، والترمذي في سننه، في أبواب القدر (٤/ ٤٥٧) برقم (٢١٥٥)، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٣٨١) برقم (٢٢٧٠٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ».

الشرح

هذه الجملة غيرُ الأولى؛ لأنَّ الأولى تكلَّم فيها على «القدر»، وهذه عن «العبادة»، فقال: «**وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ...**»؛ أي: أنَّ الخلق خُلقوا لهذا، وأُمروا به، وجعل الأمر إليهم بعد ما ركَّب فيهم العقول والأفكار، وجعل لهم آياتٍ تحيط بهم من المخلوقات التي يُشاهدونها، ويعلمون أنها لا تخلق نفسها ولا يخلُقها مثلها، وإنَّما لها خالقٌ عظيم عَلِمَ كُلَّ شيءٍ ودبَّره، فيجب أن تكون العبادة له.

ولهذا كثيرًا ما يقرن الله ﷻ الأمر بالعبادة بالخلق؛ بخلقه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١] في آياتٍ كثيرة.

وأحيانًا يُخبر أنَّه خلق السموات والأرض؛ لأنَّ السموات والأرض هي أكبر المشَاهد من المخلوقات، فإذا كان يخلق الكبير العظيم، فخلقُه للصغير من باب أولى، وهو أقدر عليه ولا يُعجزه شيء.

فأمر ﷻ بعبادته وخلَق الجن والإنس لعبادته؛ لأن الجن والإنس هم الذين فيهم العقول وكُلِّفوا بعبادة الله ﷻ، وأرسل إليهم الرسل حتى تُبين لهم العبادة.

قوله: «**وَيَجِبُ الْإِيمَانُ...**». «الواجب» هو الشيء اللازم الذي لا محيد لنا عنه؛ فإن لم نفعله حقَّ علينا عذاب الله ﷻ، والإيمان هو القبول والإقرار والعمل مع التَّصديق بالخبر، فنصدِّق الخبر ونقبل الأمر ونعمل به، ويكون ذلك عن طريق الرضا والتسليم.

فيجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته، كما قال ﷻ: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ في آيات كثيرة، وقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]،

فالأوامر في هذا ملزمة ولا محيد لأحد عنها ما دام عقله موجودًا؛ فإن لم يفعل فهو متوعَّدٌ بعذاب الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

قوله: «**أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ**»، يعني: نفيًا للشريك في العبادة، وأن تكون العبادة خالصة لله ﷻ، وهي التي تقبل؛ فإذا دخلها الشِّرك رُدَّت وكانت غيرَ عبادةٍ شرعًا وإن سُمِّيت عبادةً في اللغة.

قوله: «**لَا شَرِيكَ لَهُ**»؛ أي: في عبادته، كما أنه لا شريك له في الخلق والملك والتدبير.

هذا من ضروريات الدين، ومن لم يؤمن بهذا فهو كافرٌ بالله ﷻ.

قوله: «**كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ**»؛ لأنه ﷻ غيرُ محتاجٍ إليهم، ولكن لتكليفهم والابتلاء والامتحان؛ لأن الله ﷻ جعل الجزاء مرتَّبًا على قبول الأمر والنهي، ويبتلي عباده لينظر من يؤمن ومن يكفر، وإلا فهو ﷻ قد علم المؤمن من الكافر قبل وجودهم، ولكنه لا يؤاخذ بعلمه، وإنما الجزاء بالعذاب والثواب يكون بعد الفعل، فلا بُدَّ من وجودهم ولا بُدَّ من العمل بذلك، ولهذا أمرهم ونهاهم حتى يتميز الطَّائع من العاصي، ويكون ذلك على يد الرسل.

والرسل لا بُدَّ لهم من رسالةٍ، ولا بُدَّ أن يرسلوا إلى من يأمرونهم وينهونهم؛ فـ«الإرسال» يتضمن أربعة أشياء: «مرسل»، و«رسول»، و«رسالة»، و«مرسل إليهم».

والمرسل إليهم في جميع الرسل لا بُدَّ أن يكونوا جهلوا الأمر أو كفروا بذلك، والله ﷻ أرسل أمره ونهيه مع الرسل، فالرسل هم الواسطة بيننا وبين ربنا؛ لأنه ﷻ لا يكلِّم عباده مباشرةً في هذه الدنيا، فلا بُدَّ من الرسالة.

فنؤمن بالله، ونؤمن برسله ـ ومن الرسل: الملائكةُ ـ، ونؤمن بأمره ونهيه الذي كُلِّفنا به، و«الإيمان» يتضمَّن العلم الذي أخبر الله ﷻ، ليس لأحد فيه شريك.

الله ﷻ «**خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ**» ولم يخلقهم لأمر آخر، فأمرهم بعبادته التي تتضمَّن كمالَ الذُّلِّ مع كمال الحُبِّ له ﷻ، وبيَّن هذا في كتبه وعلى ألسنة رسله الذين أرسلهم، ولم يترك الأمر فيه شيءٌ من الالتباس أو شيء من الإبهام أو الاشتباه، فهذا أمر واضح جلي.

فجعل هذا بالأدلة الظاهرة والأدلة القولية كقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]،

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، في آيات كثيرة.

فهذه أوامر يجب أن تُفعل، وبيَّنه بخلقه، بمخلوقاته، وبيَّن أنه هو الخالق وحده، وأنه ليس معه مشارك في الخلق؛ ولهذا يقول للمشركين الذين يعبدون غيرَه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الإحقاف: ٤] [فاطر: ٤٠]، وهذا كثيرٌ جدًّا في القرآن، يسألهم: هل معبوداتهم خلقت شيئًا؟! هل لها شرك في السموات والأرض؟! وهذا ملزم بالعبادة.

ويقول ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، كلا الأمرين باطِلٌ؛ فما خُلقوا من غير شيء؛ لأنَّ هذا لا يمكن، وليسوا هم الخالقين = فلا بُدَّ أنَّ لهم خالقًا هو الله ﷻ.

والله إذا قسم الأشياء ـ التي اعتقدها المشركون من الأمور الباطلة ـ أبطلها وسكت عن الحقِّ كما في مثل هذه الآية = فهذا لوضوحه وجلائه وظهوره، ولهذا صار الذي يخالف فيه لا حجة له أصلًا، وليس لهم حجة إلى مجرد التقليد.

ولهذا كان هذا الأمر ما يحتاج إلى إرسال الرسول لظهوره وجلائه؛ فمن خالفه فهو كافرٌ ومصيره إلى النار؛ جاءه الرسول أو لم يأته، بخلاف الشرائع كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمحرمات والمباحات وغيره؛ فلا بُدَّ فيها من إتيان الرسول بها.

أما «العبادة» فلا عذر فيها؛ إذ كيف يعبد حجرًا؟! ما الذي جعله يعبد هذا الحجر أو الشجر؟! أليس هو أقدر منه وأكثر تصرُّفًا؟! ما له من دليل في هذا إلا مجرد التقليد الأعمى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما قال إبراهيم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٣].

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ أمر عباده بعبادته التي أرسل بها الرسل، ولم يوكل الأمر إلى عقولهم وأفكارهم، بل العبادة: امتثالُ الأمر الذي جاءت به الرسل، ثُمَّ امتثاله يجب أن يكون بِكمال ذُلٍّ وكمال حُبٍّ؛ لأن الإنسان إذا ذلَّ لمخلوق أو لغيره من ظالم وغيره، قد يذل له ولكن لا يحبه، يذلُّ له وهو يلعنه في قلبه ويبغضه أشدَّ البغض؛ فهذه ما تكون عبادةً. وكذلك إذا أحب شيئًا لأنه محتاجٌ إليه من طعام أو

ماء، فمحبة ألفة أو محبة حاجة من حاجات البدن وغيرها، فهذا أيضًا لا يكون عبادة، **ولهذا قرَّر العلماء: أنَّ «المحبة» تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: محبة خاصة.

القسم الثاني: محبة مشتركة.

فالخاصة: هي التي تتضمن كمال الحب مع كمال الذل، وسموها خاصة؛ لأنها تخصُّ الله فقط، لا يجوز أن يشارك اللهَ فيها أحدٌ، لا قريبٌ ولا بعيدٌ، ثُمَّ بيَّن أنَّ هذا واضحٌ جليٌّ في كتاب الله.

فالعبادة لا تكون إلا بامتثال أمره واجتناب نهيه، ولهذا قال: «**وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ**» «الكتب» هي قوله المتضمن الأمر والنهي والإباحة والوعد والوعيد وغير ذلك مما يجب أن يَعتني به العباد ويعلموه ويؤمنوا به حتى ينجوا بأنفسهم من عذاب الله ﷻ؛ وإلا فالعذاب لهم لازم.

فلا بُدَّ من العبادة، ولهذا يقول ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] أي: عبادتكم، يعني: أنكم لا قيمة لكم عند الله؛ فإذا لم تعبدوه سوف تكونون مُهانين مُعذَّبين وأنتم محتقرون صاغرون؛ أما إذا عبدتم الله ﷻ بامتثال أمره واجتناب نهيه، فسوف يُكرمكم ويُعلي مقامكم؛ فالأمر يتعلق بفعلكم الذي هو امتثالٌ لأمره واجتنابٌ لنهيه؛ إن فعلتموه حصلتم على السعادة، وإلا فالعذاب مُلازمٌ ولا بُدَّ في الدنيا والآخرة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ له وَالْحُبِّ لَهُ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]».

الشرح

هذا تعريفٌ للعبادة، «**وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ**» والخضوع مع التعظيم، أما ذلٌّ بلا تعظيم فلا يكون عبادة، وتعظيم بلا ذُلٍّ كذلك، فلا بُدَّ أن يَذِلَّ ويخضع مع تعظيمه ومحبته.

ومعلومٌ أنَّ الذُّلَّ لا بُدَّ أن يتضمَّن المحبَّة؛ فَذُلٌّ بلا حُبٍّ لا يكون عبادةً، كما يذل الإنسان للظالم المتعدي لأمر الله ﷻ، ويذل له، ولكنه يلعنه في قلبه ويبغضه، فهذا لا يكون عبادةً.

فالعبادة لا بُدَّ فيها من المحبَّة مع الذُلِّ والتعظيم، وأن يكون يطلب منه النفع ويدفع عنه الضرّ، ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا هو، فهذه هي العبادة الواجبة على كلِّ أحدٍ، ولا يُعذر أحدٌ بتركها؛ فإن جعل منها شيئًا لمخلوق فقد وقع في الشرك الذي حرم الله الجنة على صاحبه وجعله من أهل النار خالدًا فيها جزاءً وفاقًا، ولهذا قال: «**وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ له وَالْحُبِّ لَهُ**» يعني: ذلٌّ مع حُبٍّ، «**وَذَلِك يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ**»؛ لأنَّ الذي لا يأتي بالكمال يكون مستحقًّا للعذاب بقدر ما نقص من الكمال، فمستكثرٌ ومستقلٌّ من النَّاس، فبعضهم يُخل بأصل العبادة وبعضهم يخلُّ بفروعها، وكلٌّ له جزاؤه إلا أن يعفو رب العالمين ﷻ.

المقصود: أنَّ العبادة تتضمن كمالَ الذُّلِّ وكمالَ الحُبِّ، ولكن هذا الحب خاصٌّ، والذُّل كذلك، فلا بُدَّ أنه يَذِلَّ لربه ويخضع مع المحبة، أمَّا الذُّلُّ بلا محبَّةٍ؛ فهذه لا تكون عبادةً؛ لأنَّ الإنسان قد يذل لظالم جبار خوفًا من ظلمه وقهره، ولا يكون عابدًا له، بل يكون قلبه يلعنه ويمقته، فهذه ليست عبادة، وإنما العبادة لا بُدَّ أن يكون فيها ذلٌّ وخضوعٌ مع محبَّة كاملة.

وهذه المحبة يجب أن تكون خاصة للمحبوب وهو الله ﷻ؛ لأن الحبَّ ـ كما سبق ـ ينقسم إلى قسمين:

الأول: الحُبُّ المشترك بين الخلق، وهو الحب الطبعي؛ كحُبِّ الأكل للجائع، وحب الشراب للظمآن، وحب الراحة لمن تعب، وكذلك يكون حب الولد لوالده، ويكون حب مصاحبة ومزاملة وإلف؛ كحب الزميل لزميله، والصاحب لصاحبه، ويكون حبَّ أُنْسٍ، فهذه أنواع كثيرة، ولا ضير فيها، فهي مشتركة بين الخلق كلهم ولا تكون حياتهم إلا بهذا.

الثاني: الحُبُّ الذي يتضمَّن الذل والخضوع والخوف والرجاء، وهذا لا يجوز إلا أن يكون لله ﷻ، ولهذا سمي حبًّا خاصًّا؛ يختصُّ بالله ﷻ.

و«**العبادة**»: هي امتثال الأمر واجتناب النهي مع الحبِّ والذُّلِّ لله ﷻ، وإن شئت أن تقول: «اسم جامع لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»، وقد تعرف العبادة بغير هذا، ولها تعريفاتٌ متعدِّدة ولكن المعنى واحد وهي: فعلُ ما أمر به شرعًا من غير اطِّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي، وهذا تعريف الأصوليِّين، وكل تعريفاتهم صحيحة. وكالذي يقول: «العبادة»: هي كمال الحبِّ مع كمال الذُّلِّ والخضوعِ وامتثال الأمر، فهذا أيضًا تعريف صحيح.

فالمقصود: أنَّ «العبادة» صارت مشتبهة عند كثيرٍ من الناس، وفيها جهلٌ لكثيرٍ من الناس، ولهذا تجد من يهرع إلى القبور ويطوف عليها ويستنجد بأصحابها وهو يقول: (لا أعبدها)! مع أن هذا عبادة؛ فالدعاء عبادة، وكذلك الذل، والخضوع، والخوف، والرخاء.

فكلُّ عبادةٍ أمر الله ﷻ بها يجب أن تكون خالصةً لله ﷻ ويجمعها قولك: (لا إله إلا الله)؛ أي: أنَّ المألوه الذي تألهه القلوب خوفًا ورجاء هو الله وحدَه، ولا يجوز أن يكون لغيره.

وكمال الحُبِّ له ﷻ، وذلك يتضمن «**كَمَالَ طَاعَتِهِ**»؛ أي: حسب استطاعة العبد، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

فإذا أحبه وذلَّ له وخضع؛ فإنه لا بُدَّ أن يطيعه، ولكن كمال الطاعة قد لا يأتي، وقد يقع من العابد شيءٌ من المعصية، وبنو آدم كلهم خطَّاءٌ، ولا بُدَّ من وقوع الخطأ، ولهذا أكثر الله ﷻ من ذكر أسمائه؛ كالحليم والتواب والرحيم، فلا بُدَّ أن تظهر آثار أسمائه على عباده، فهم يعصون فيحلم عليهم، ويعصون ويغفر لهم، فلا بُدَّ من الاستغفار.

والمقصود: أنَّه لا يلزم للعبد أن يكون معصومًا طائعًا كُلَّ الطَّاعة، فهذا لا يستطيعه الإنسان، ولكن يلزمه عند الخطأ: الرجوع إلى الله؛ وإذا وقع في معصية فإنه يجب أن يتوب ويرجع إلى الله، والله يحب الرجَّاعين إلى الحق، ويحب التوَّابين، وحبه لهذا الشيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، فكونه يتوب على عباده يدل على أنه لا بُدَّ أن تحصل منهم مخالفة، فلا يكون توابًا بلا تائب، أو غفورا بلا مغفور له ممن يقع في المخالفة.

قوله: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ لأنَّ الرسول يأتي بأمر الله، فطاعته طاعةٌ لله ﷻ، وامتثال أمره امتثال أمر ربه الذي أرسله.

❃ ❃ ❃

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]».

الشرح

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أمر الله ونهيه لا نعرفه إلا بمجيء الرسول ﷺ، والطاعة لا بُدَّ ـ كما سبق ـ أن تكون بكمال الحب وكمال الذل.

قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتقديره ومشيئته وإرادته الكونية، فلا يقع شيءٌ إلا إذا شاءه وأراده، فـ«الإذن» هنا: المقصود به الإذن القدري الإرادي الكوني، أما الإذن الشرعي فقد جاء به الرسول؛ فمن اتبعه فقد امتثل الإذن الشرعي؛ لأن «الإذن» ينقسم إلى **قسمين:**

القسم الأول: الإذن الشرعي.

القسم الثاني: الإذن القدري.

قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] هذه الآية تُسمى آية المحنة أو الامتحان؛ لأنَّ الصحابة ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا نحبُّ الله حبًّا شديدًا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾؛ فإذَنْ: علامة محبة الله: اتباع الرسول ﷺ.

قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فإذا أحببتم الله فلا بُدَّ أن يكون ذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه، أمَّا الدعوى فلا تُجدي شيئًا ولا تنفع، فإذا رأيت الإنسان يتتبع أمر الله ويحرص على امتثاله فاعلم أنه يحب الله وأن الله يحبه، وإذا رأيته يتهاون بأمر الله ويبتعد عنه فهو كاذب ـ وإن زعم أنه يحب الله ورسوله ـ، بل إنما هي دعوى، والدعوى لا تُفيد شيئًا؛ فاليهود يزعمون أنَّهم أحباء الله وأولياؤه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٨] أي:

أحباؤه المقربون؛ فالله ليس له ابنٌ ـ تعالى وتقدس ـ، فكذَّبهم الله ﷻ، ولما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] قال لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، والبرهان هو الدليل والحُجَّة التي تُقام على الدَّعوى، فالدعوى بلا بُرهان يجب أن تُرد ولا قيمة لها.

ثُمَّ هذه الآية تدلنا على أنَّ الله ﷻ موصوفٌ بالمحبة، وأنه يُحب المؤمنين، ويحب المحسنين، والمتقين، وأنهم يُحبونه؛ لأن هذه هي العبادة التي كُلفوا بها، وقد فُطروا عليها، ولكن شياطين الإنسان والجن اجتالتهم عنها وجاءتهم بأمورٍ تُناقض ذلك فوقعوا في المخالفات، ولن تُجدي مجرد الدعوى على أهلها شيئًا، بل لا بُدَّ أن يمتثل أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ؛ وإلا لزمه العذاب في الدُّنيا والآخرة.

اتباع الرَّسول ﷺ عنوانُ محبَّة الله، وهو سبب المغفرة للذنوب، وبدون ذلك لا يحصل مغفرة ولا عبادة؛ فالله ﷻ إذا أحبه العبدُ الحُبَّ الذي أمر به، فإنه يحبه فيكون الحب من الجانبين.

محبة الله وعبادته لا تحصل إلا باتباع الرسول ﷺ وطاعته؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي جاء بأمر الله وبنهيه؛ وإلا فالخلق لا يأخذون عن الله مباشرةً، بل لا بُدَّ لهم من واسطةٍ تكون بينهم وبين الله، وهذه الواسطة هي الرسل الذين يبلغونهم أمر الله، فالوسائط **قسمان**:

القسم الأول: وسائط حقّ لا بُدَّ منها.

القسم الثاني: وسائط باطلة كفرية شركية.

فـ «الوسائط الحق»: هم الرسل الذين يبلغون أمر الله ونهيه لعباده، أما «الوسائط الباطلة»: فهي وسائط الدعاء وطلب النفع ودفع الضر؛ سواءٌ سُمِّي هذا توسُّلًا أو سُمِّي تشفُّعًا أو سُمِّي بغير ذلك من الأسماء التي يأتي بها الشَّيطان وأعوانُه من بني الإنسان؛ فإنها كثيرة، وكلها للصَّدِّ عن سبيل الله ﷻ وعن عبادته، وسوف يرون إذا كُشف الغطاء من هو في الخسران المبين.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وقد قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢]، فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَلَّا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أنا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، لأَنَّهُ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»».

الشرح

قوله: «**وقد قال تعالى**: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]».

أمره الله ﷻ بسؤال الرُّسُلِ، ومعلومٌ أنه ﷺ ما أدرك الرسل، ولكن بالنظر إلى سيرتهم وإلى ما جاءوا به، فكأنه سؤال لهم؛ فإنَّ الله ﷻ أرسلهم بعبادته وحده، ولا تكون العبادة عبادةً إلا بامتثال ما جاء به الرَّسول ﷺ.

قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ أي: أن هذا افتراء وكذب من الكافرين الذين يعبدون غير الله، حيث اتخذوا آلهة؛ وتسميتها بـ«آلهة» زورٌ وبهتان وكذب؛ لأنَّ الآلهة التي تُؤلَّه ولكنها آلهةٌ باطلة؛ آلهةٌ شركية صدَّت عن التأله لله وحده فاستحقَّ أصحابها عذاب الله في الدنيا والآخرة.

قوله: **وقال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، و«الإله» هو المألوه الذي يجب أن يُعبد وحده،

والإله الحق هو الله، أما الآلهة الأخرى فهي باطلة، فكل مألوهٍ دون الله فهو ضلالٌ وشرك، ولهذا قال: إن هذه الكلمة جاءت بها الرسل كلهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ أي: يأمره بالوحي: أنه لا إله الله، فأمُر قومك بهذا. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ أي: تألوهوه وحده، فالله ﷻ إلهكم فاتخذوه لكم إلهًا تسألونه النفع ودفع الضر وتخضعون له وتحبونه؛ لأنه هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي يُميتكم ثم إليه تُرجعون فيجزيكم بأعمالكم، لا بُدَّ من الإيمان بهذا.

قوله: «**وقال تعالى**: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ١٣]»، وجعل ما بين نوح عليه السلام ونبينا ﷺ داخلًا في ذلك، ونوحٌ عليه السلام هو أول الرسل؛ لأن الشرك لم يقع قبل أُمَّته، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ آدم لما نزل صار يعلِّم أبناءه التوحيد فيتَّبِعونه على ذلك حتى حدث الحادث الذي غيَّر دينهم وهو موت بعض الصالحين الذين يقتدون بهم، فصوروا صورهم بوحي الشيطان؛ لأنه قال لهم: إنكم إذا صورتموهم ونشرتم صوروهم في مجالسهم التي كانوا يجلسونها تُذكِّركم أعمالهم وتُعينكم على الجِدِّ والاجتهاد في ذلك، ففعلوا ذلك وبقوا حتى ماتوا، وجاء من بعدهم ونُسي السبب الذي من أجله صُورت الصور، فجاء الشيطان إليهم وقال: إن آباءكم صوروا هذه الصور للتبرك بها وسؤالها النفع ودفع الضر، وهذه هي العبادة، هي التي تحصل العبادة له = فوقع الشرك، فأرسل الله نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وحده، فلم يقبلوا ولم يؤمنوا به، بل توعَّدوه بأن يرجموه حتى سأل ربه ﷻ أن يفتح بينه وبينهم، فأغرقهم الله ﷻ عن آخرهم ولم يبقَ إلا من كان مع نوحٍ في السفينة.

ثم بعد ذلك تنامى أولاده؛ فإن نوحًا عليه السلام كان له أربعة أولاد، وواحد منهم كان كافرًا فغرق مع الكافرين وهو يام -[1] فحصلت الأمم منهم، فأرسل الله إليهم الرسل، وكلُّ رسولٍ يأتي إلى قومه يكذِّبونه ويقولون: (إنا وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام فلا نتركها لقولك)، فالحجة واحدة عندهم تتابعوا عليها، وهي ليست حجة، وإنما هي ضلالٌ بيِّن.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/٢٧)، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص٩٩).

فعلى هذا فإن الله ﷻ أرسل الرسل كلهم بالتوحيد، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذا نصٌّ في أنَّ الرسل كلهم جاءوا بعبادة الله وحده. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، أي: هو المألوه وحده، وإذا أله العبد غيره فقد أشرك الشرك الذي يكون جزاؤه الخلود في النار.

قوله: وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]؛ أي: أنَّ عبادة الله ﷻ وحده مما اتفقت عليه الرسل.

جعل ما بين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين محمد ﷺ تبعًا لذلك، وهي أممٌ كثيرة لا يعلمها على الوجه الحصري إلا الله، وإنما ذكر الله لنا بعضها، والبعض كما قال: ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

فالمقصود: أنَّ شرع الله واحدٌ؛ وهو توحيده وعبادته، أما الشرائع التي فيها المعاملات وغيرها فهي تختلف، لكلٍ شرعة ومنهاج؛ و«المنهاج»: الطرق التي تعمل بها الأُمم.

قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، الوصية هي الإعلام بالأمر المهم والحض على التَّمسُّك به، هذه هي الوصية في الشرع.

قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: أنه أمر بتوحيد الله وحده ونهى عن الشرك، فقال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، أي: هذا معنى الوصية: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وإقامته بأن يكون لله وحده وليس لأحدٍ منه شيء، وإن لم يكن كذلك فإنه لم يُقَم، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، فالتفرق في الدين - ليس في الدنيا - كبيرٌ عظيمٌ، وتوعَّد الله عليه بالعذاب العظيم.

قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ لأنهم ألفوا الشرك ووجدوا عليه آباءهم فلا يُريدون أن يتركوه، وزعموا بتزيين الشيطان أنهم إذا تركوه فقد سفهوا أحلامهم وأباءهم واستنقصوهم، ولهذا تمسكوا بالشرك وردوا دعوة الرسول.

قوله: «وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]» أمرهم أوَّلًا بأكل الطيبات، والطيبات هي ما أحله الله ﷻ، ولا بُدَّ من الأكل من الطيب وإلا لا يستطيع أن يعمل، و«الطيب»: هو الحلال الذي أحله الله ﷻ.

قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أمرهم بأن يكون العملُ صالحًا، وصلاح العمل يكون بامتثال أمر الله واجتناب نهيه.

قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾؛ أي: أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسوف يُجازيكم بها؛ لأن في ضمن قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾: المجازاة، فلينظر الإنسان ماذا يعمل؟ هل هو يعمل صالحًا أو غير صالح؟ فإن كان صالحًا فسوف يلقى الجزاء الحسن، وإن كان غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، أي: هذا دينكم دينٌ واحد، وهو عبادة الله وحده، والأكل من الطيبات والعمل الصالح. ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾. والمقصود بـ«الأمة» هنا: الدِّين، ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وهي عبادة الله وحده من أول الرسل إلى آخره.

قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾؛ أي: اعبدوا بما جاءت به الرسل وتكون العبادة لله. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال** ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ له؟!**»[1]؛ «**أنَّى**»؛ أي: بعيد أن يُستجاب له.

فتبين أنَّ أكل الحلال وطلبه أنه من الدين، وأن العبادة لا تتأتَّى إلا به، وأن أكل الحرام من أعظم القوادح التي تقدح في دين الإنسان إن لم تكن قد ذهبت به كليةً.

وقوله في «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»، قوله: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**» يعني: عبادة الله وحده.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/٧٠٣) برقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**» «العلات» هي الزوجات المختلفة، وأولاد الرجل من الزوجات كلهم أولاده؛ فالشرائع مختلفةٌ، ولكن العبادة والأمر والدين واحد، ولهذا قال: «**إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**». فكما أنَّ الإخوة يكون أبوهم واحدًا وأمهاتهم مختلفة، فالشرائع مختلفة ولكن أصل دينهم واحِدٌ، فكأنَّ المقصود هنا التمثيل، فالأب هو التوحيد الذي جاءت به الرسل كلها، والأمهات هي الشرائع.

والرسول ﷺ يضرب الأمثال لِيُقرب ذلك إلى أفهام الناس، فهذا مَثَلٌ، ومَفاد هذا المثل أن دين الرسل واحد وإن اختلفت شرائعهم؛ فهذا المقصود، وهو ما تضمنته الآيات السابقة، فعلى هذا نقول: مضمونه جاء في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ.

قوله: «**وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»، هذا دليل على ضعف الحديث المروي في نبوة خالد بن سنان، الذي يقولون عنه: إنه أُرسل إلى قومه فأضاعوه.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ دِينًا غَيْرَهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الآخرين فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٢]، وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]، وَقَالَ عَنْ مُوسَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، وَقَالَ فِي خَبَرِ الْمَسِيحِ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وَقَالَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ عَنْ بلقيس أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤]».

الشرح

المقصود في هذا: أنَّ الدين هو الإسلام، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، والإسلام: هو الاستسلام لله ﷻ بالطاعة والانقياد له؛ أي: الانقياد الكامل مع الطاعة التي تتضمن كمال الذل مع كمال الحب، فهذا هو الإسلام، والآيات التي ذكرها تبيِّن أن دين الرسل من أولهم إلى آخرهم هو الإسلام.

قوله: «وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ...» الدين عند الله هو الإسلام، وهو دين

الرسل التي جاءت به من أولهم إلى آخرهم، وخاتمُهم محمَّدٌ ﷺ، وكلهم يدعون أُممهم إلى الدخول في الإسلام، ولا يقبل الله ﷻ إلا الإسلام.

و«الإسلام» فسَّره بأنه الاستسلام لله، والاستسلام معناه عدم المنازعة وعدم المخالفة؛ لا تخالفه ولا تُنازعه في شيء، بل تنقاد له مُذعنًا خائفًا راجيًا مطيعًا، طاعةً ليس فيها توقُّفٌ ولا فيها تردُّد. ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فيجب أن تكون مُطيعًا مستسلمًا مُنقادًا لله، وهذا هو الإسلام، فلا منازعة فيه، ولا تأبِّي؛ فإذا حصل منازعات أو حصل شيءٌ من مخالفة الأمر فالإنسان ما أطاع ولا أسلم.

والإسلام دين لا يقبل الله غيره، فهو دين الأولين والآخرين من الرسل؛ فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام.

قوله: «**قَالَ الله تَعَالَى عَنْ نُوحٍ**: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾» **قوله**: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: اقرأ ذلك وقُصَّه. **قوله**: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، يعني خبره، وأول الرسل نوح عليه السلام؛ لأنَّ الذين قبله لا يحتاجون إلى رسول؛ فإنهم على الحق مُنقادين أخذوا العلم عن أبيهم والتوحيد عنه، حتى حدث فيهم الشرك فأرسل الله نوحًا وهو رجلٌ منهم بلسانِهم يُبين لهم أيضًا الشرك ووجوب التوحيد.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾؛ أي: في توحيد الله والدعوة إليه وبيان أمره، وبيان مواقع الخوف من عذابه، إن كان هذا كبيرًا عليكم؛ يقول: (فتأهبوا واستعدوا وأتوا بكيدكم ولا تدخروا شيئًا، واستعينوا بشركائكم الذين تعبدونهم، ثم كيدوني جميعًا)، يتحدَّاهم أن يقتلوه أو يَصرفوه عن دعوته؛ لأنه واثقٌ بربه ﷻ الذي هو ناصره.

وهكذا الرسل كلهم؛ يتحدَّون أممهم؛ أولهم نوحٌ وآخرهم محمد ﷺ؛ فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، أي: أنه تحدَّاهم بذلك مثل ما قال نوح عليه السلام، وكذلك قال هودٌ عليه السلام؛ ذكره الله بعد نوح، لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، أجاب: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟

أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]، إلى آخر الآيات.

ومثل إبراهيم عليه السلام؛ فإنه قام وحطم أصنامهم، فلما رأوها محطمة: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، ثم سألوا الناس فقيل لهم: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ يذكرهم، أي: يذمهم ويسبهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء:٥٩ ـ ٦١] ما يأخذون إلا بالدَّليل الشاهد، فلما شُهد عليه أنه هو الذي حطم الأصنام، قالوا: (انتصروا لآلهتكم)، هذه الآلهة التي يُنتصر لها، ويحطمها رجل! وهو قد حطمها بالفأس ثم وضع الفأس في رقبة الكبير ليكون ذلك حُجَّةً عليهم، فلما ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣]، يعني: هل تعبدون من لا يتكلم ولا يردُّ جوابًا، ولا ينتصر لنفسه ويمتنع؟! ولهذا رجعوا إلى أنفسهم، ولكن نُكسوا بعد ذلك على رؤوسهم وقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٦٥].

ثُمَّ جمعوا الحطب الكثير وأجَّجوا النَّار فألقوه فيها، فقال الله للنار: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فصارت روضةً يُصلِّي فيها لربه ﷺ، وبعد هذا كلِّه يبقون على شركهم وعلى وثنيتهم؛ لأن الله قضى عليهم أنهم هالكون.

ومثل ذلك كفار قريش؛ يأتيهم الرسول ﷺ بالآيات البينات والحجج الباهرات، وحُجَّتهم أن آباءهم كانوا يعبدون أصنامًا فيريدون أن يتمسكوا بها فقط: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهكذا السُّنة في الناس كلهم، إذا أتيت قومًا يعملون أعمالًا على خلاف الشرع تعارفوا عليها، ونهيتهم عنها، قالوا لك: (الناس كلهم على هذا)، وهكذا حجة الكفار السابقين وهي حُجَّةٌ شيطانية، وليست في الواقع حُجَّةً حقيقية، وإنما هي تعلقٌ بالتقليد الأعمى وتعظيم الآباء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ».

الشَّرح

القرآن كُلُّه في هذا الموضوع من أوله إلى آخره؛ في جزاء من فعل ذلك، أو في عقاب من لم يفعله وجزائه في الآخرة، وهو كلُّه أمرٌ وخبرٌ ووعدٌ ووعيدٌ وحُكمٌ يحكم به ﷻ بين خلقه، فحُكمه - الذي هو أمره ونهيه - وخبره يجب أن يُصدق ويؤمن به ويُتّبع.

وخبره إما أن يكون عن الماضي أو عن المستقبل، فالماضي يُعلِّمنا أن نعتقد ذلك ونؤمن به، والمستقبل أن يُحذرنا أن نقع فيما وقع فيه من قبلنا فيكون لنا نظيره؛ لأن سُنَّة الله ﷻ في خلقه لا تختلف: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣] لا تتحول عن هذه؛ فمن أطاع الرسل أكرمه ونصره، ومن عصاهم أهانه وعذبه وقد يُهلكه.

قوله: «فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ للهِ وَحْدَهُ»: والاستلام عدم المنازعة وعدم الاستكبار على الله ﷻ، فلا بُدَّ من الخضوع والذُّلِّ لله خوفًا ورجاءً، وهذا يدخل في كلِّ ما أمر الله به وما نهى عنه.

الشرائع والأعمال التي يأمر الله ﷻ بها تختلف باختلاف الرسل؛ إلا أن الخضوع والذّل والعبادة لا تختلف، ولهذا سمى كل دينٍ «الإسلام»؛ لأنَّ المقصود الذل والخضوع والاستسلام له في كلِّ أمر يأمر به وعدم الامتناع عما أمر به، فيكون منقادًا خائفًا ذالًا، يرجو ثوابه ويخاف عقابه إذا لم يستسلم له.

تنوّعت شرائع الرسل إلا أنَّ الآمر واحدٌ وهو الله ﷻ، وله أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء من الشرائع، ولكن عبادته والخضوع له = متفق عليه عند جميع الرسل، ولهذا كان كل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والإله هو الذي تَأْلَهُه القلوب خوفًا ورجاءً، وتذل له، فإلههم واحد وإن اختلفت الشرائع.

هل هناك فرق بين «الإسلام» و«الإيمان»؟

. **الصحيح**: أنه إذا أُطلق أحدهما دخل فيه الآخر، أما إذا جاءا مجتمعَينِ عُطف أحدهما على الآخر، فكلٌّ واحدٍ يُفسَّر بتفسيرٍ.

فالإيمانُ يكون للأعمال الباطنة كما في حديث جبريل ﷺ حينما سأل النبي ﷺ قال: «**أخبرني ما الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ما استطعت إليه سبيلًا، قال: أخبرني ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». فجعل «الإسلام»: الأعمال الظاهرة، و«الإيمان»: الأعمال التي تكون في القلب فيعتقدها، ولا بُدَّ في الإيمان من عمل.

أما إذا جاء أحدهما مُفردًا دخل فيه الآخر؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] يدخل فيه الدين كله، وكذلك إذا جاء الإيمان: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فيدخل فيه الإسلام ويدخل فيه كلُّ ما أمر به ﷻ وجاء به الرسول ﷺ.

قوله: «**فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ للهِ**». فـ «الإسلام» هو الاستسلام لله ﷻ بالطاعة والانقياد له ولرسوله ﷺ والبراءة من الشرك وأهله، وبدون ذلك لا يكون الإنسان مسلمًا.

قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وسبق أنَّ الطاغوت هو كلُّ ما صَدَّ عن دين الله ﷻ؛ سواءٌ من المعاني أو من الذوات التي تُعيَّن وتُقصد.

«**الإسلام» يتضمن الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره فهو مشركٌ**، و«**الاستسلام**»: عدم المنازعة في شيء، فينقاد مذعنًا راغبًا راهبًا، أمَّا إذا كان عنده منازعات في فعله أو في قوله أو في إرادته، فليس بمسلمٍ الإسلامَ الذي ينجيه من عذاب الله، حيث لم يستسلم له، وكان مستكبرًا؛ كما استكبر إبليس عن عبادته.

قوله: «**الِاسْتِسْلَامَ للهِ**»؛ أي: عدم المنازعة وعدم التأبي أو الامتناع، فلا بُد أن يُطيع ربه ﷻ ويتبع أمرَه مُذعنًا بل ومغتبطًا فرِحًا مسرورًا بذلك، وبدون ذلك لا يكون للإنسان دخل في الإسلام.

ولا بُدَّ أن يكون القلب سليمًا لله ﷻ؛ ليس فيه شيءٌ لغير الله ﷻ؛ لا في المقاصد ولا فيما ينطوي عليه أو يخافه ويذل منه؛ وإلا لا يكون ممن أتى الله بقَلبٍ سليم، فـ «القلب السليم»: هو الذي سلِم لله ﷻ من مُنازع؛ ولهذا إذا استسلم القلب لله ولغيره كان شركًا بالله ﷻ، والمشرك مِن أبعد الخلق عن الله ﷻ، وهو في جهنم مع الشياطين.

أما إذا تكبَّر عن الله ﷻ وأبى فإن هذا يكون شبيهًا بإبليس؛ فإنه تكبر عن أمر الله ﷻ واستكبر وأبى أن يسجد فيكون معه، فلا بُدَّ من أن يكون الإنسان عبدًا، والعبد يكون ذليلًا مُعبّدًا مستسلمًا مُنقادًا ليس عنده مُنازعة ولا عنده مقاومة لأمر الله ﷻ، وهذا هو معنى الإسلام.

فالإسلام يتضمن الطاعة والانقياد لله ﷻ، والرضا بدينه، والتمسك به، والبراءة من الأديان الأخرى والخلوص من كل شائبة شركية، وبهذا يكون إسلامه نقيًا.

❃ ❃ ❃

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ أَمَرَ ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، كَانَ كُلٌّ مِنَ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي دين الْإِسْلَامِ، فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ؛ وَإِنَّمَا تَنَوَّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ جِهةُ الْمُصَلَّى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهةُ وَالْمَنْسَكُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا، كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ».

الشَّرح

يعني: أنَّ الأمر لله ﷻ، له أن يأمر بالشيء ثم ينسخه، فطاعته في أي وقتٍ بأمره واتباعه، وليس للعباد دخلٌ في هذا؛ ولهذا فإنَّ الله ﷻ ينسخ ما يشاء من الدين ويحكم آياته، وكلُّ ذلك من الابتلاء حتى يتبين من يكون مُطيعًا مُنقادًا ممن يتبع هواه أو يتبع وجهةٍ معينة.

فلهذا كان في أول الأمر شيءٌ ممَّا نسخه الله ﷻ مثل: القبلة؛ فإن القبلة أولًا كانت إلى بيت المقدس، ثم بعد ذلك نسخها الله ﷻ وأمر بالاتجاه للكعبة، وبيَّن أن هذا فيه صعوبةٌ على كثيرٍ من الناس، وأخبر ﷻ أنَّ هذا من باب الامتحان والابتلاء.

ولهذا لما أراد ﷻ صرف القبلة وطّأ لذلك، فذكر إبراهيم وبناءه البيت وأنه هو بيت الله ﷻ، ثُمَّ قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] إلى آخر الآيات، وذكر آياتٍ كثيرة في هذا، ثم أكَّد هذا بالأمر بالاستقبال، وذلك أنَّ الاتجاه إلى بيت المقدس كانت هي قبلة اليهود يتجهون إليه،

وكان في أول الأمر الرسول ﷺ يتألفهم لعلهم يؤمنون، فلما تبيَّن عنادهم وكبرهم وإباؤهم صار الرسول ﷺ يقصد مخالفتهم ويأمر بها، وهكذا كلُّ المشركين والكُفَّار، وقد قال ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١).

المقصود: أنَّ قوله: «**وَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ**» معناه: أنَّ الدين الذي جاء به محمدٌ ﷺ هو دين الله وهو الإسلام، وهو الاستسلام لله بالطاعة والانقياد له والبراءة من الشرك وأهله، فهذا لا يقبل الله غيره، وفي ضمن ذلك الأوامر والنواهي، والواجبات التي أوجبها الله ﷻ على عباده كالصلاة والصوم والصدقة وغيرها، وكلُّ ما أمر الله ﷻ به؛ ولهذا يقول: (لا بُدَّ من طاعة الله ﷻ بفعل أمره واجتناب نهيه).

والأمر قد يكون واجبًا وقد يكون مُستحبًّا، والمنهي عنه يكون مُحرَّمًا، أمَّا لو أنَّ إنسانًا يقول: (أنا مسلم)، ولا يمتثل الأوامر فهذا لا يكفي، ولهذا ابتلى الله ﷻ عباده بالأمر والنهي حتَّى يتميز الطائع ممن يأبى ولا يُطيع.

فالإسلام بُني على خمس دعائم، وهي: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج**»، ومعلوم أنَّ هذه لا تنفك عن فعل القلب، مع فعل الجوارح، فلا بُدَّ أن يجتمع عند العبد الإيمانُ بذلك؛ أي: المعرفة التي تقدمت ذلك، ثُمَّ العمل والنُّطق الذي يشهد لله ﷻ بالوحدانية وبرسوله ﷺ أنه هو رسول الله ﷻ الذي لا يُقبل عملٌ إلا بما جاء به؛ لأنَّ الله ﷻ أرسله وجعله هو الواسطة بينه وبين عباده لتبليغ أمره وكذلك ما نهى عنه، وكذلك الإخبار التي أخبروا بها فهي من الدين الإسلامي.

قوله: «**إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ**»؛ فإذا أمر بأمرٍ وجب طاعته، وإذا نسخه وأمر بغيره وجب اتِّباعه، فالعبدُ لا اختيار له في ذلك، فالأمر إلى الله هو الذي ﷻ يأمر وينهى، وهذه هي العبادة كما قال الله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قال في تفسيرها: «لا يُؤمر ولا يُنهى»، فلا بُدَّ أن يأمره الله وينهاه حتى يتبين الطائع من

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة (٤/ ٤٤) برقم (٤٠٣١)، وأحمد في مسنده (٦/ ٤٧١) برقم (٣٣٠١٦)، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

العاصي، وقد يتساهل بعض الناس وإن كان مسلمًا في أمر الله وطاعته، فيكون ذلك خللًا في دينه ونقصًا في إسلامه، فأمرُه إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

قوله: «فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ»، يعني: استقبال بيت المقدس، فالله ﷻ يختبر عباده، فقد يأمرهم بشيء ثم ينسخه.

هل المسلمون كانوا يستقبلون الصخرة؟! أم يستقبلون بيت المقدس؟!

الجواب: أنَّ الاستقبال كان لبيت المقدس وليس للصخرة، والله أعلم.

قوله: «ثُمَّ أَمَرَ ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ» هذا تمثيل فقط؛ وإلا فالأمور التي يأمر بها ثم ينسُخها كثيرةٌ، والذي يفعل الأمر الأول ممتثلًا ولا يُدرك الأمر الثاني يكون قد آمن الإيمان الكامل؛ لأنه امتثل ما أُمر به. فقد قال الله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ومات قبلها أُناسٌ من الصحابة، فهم قد كمُل الدين في حقهم؛ إذ لو أدركوا ذلك لامتثلوا وانقادوا، ففي كل وقتٍ يكون الإنسان مكلَّفًا بالأمر الذي يأتي به الرسول ﷺ، فإذا نُسخ ينتقل إلى الأمر الثاني الذي ينسخه.

ونُسخت الشرائع كلها بشريعة الإسلام، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، كما أنه لما أمرنا أن نؤمن بما جاءت به الرسل لم يأمرنا بذلك على وجه التفصيل: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، و«النبيون» هنا لفظ مطلق؛ أي: أنهم كثيرون جدًّا، ولم يذكر لنا أسماءهم ولا أعيانهم، وإنما ذكر عددًا قليلًا منهم بأسمائهم؛ لأنَّ الطَّريق في هذا واحدةٌ، ويجب أن نؤمن بأنهم كلهم جاؤوا بالهدى من عند الله وأمروا بعبادة الله وحده، وأنَّ من أطاعهم فهو السَّعيد، ومن عصاهم فهو الشَّقي الطريد.

ونسخ الشرائع السابقة بشريعة النبي ﷺ، ولهذا قال ﷻ في وصف الإسلام: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: من الكتب السابقة: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، يعني: حاكمًا عليه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فالشرعة هي العمل الذي كُلِّف العباد به، والأوامر التي أمروا بها، أما أصل

العبادة والاستسلام فإنه لا يختلف؛ وجميع الرسل أمروا بالإسلام، وأمروا بعبادة الله ﷻ، ومن بلغه أن الله أرسل محمدًا؛ وجب عليه أن يبحث عن شرعه؛ لأن الله أعطاه عقلًا، وأعطاه فكرًا، وأمره بعبادته، والعبادة لا تكون بالهوى، ولا تكون بالرأي ولا بالقياس، ولهذا يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1].

فالله نسخ جميع الأديان بدين محمد ﷺ، فالرسل جاءت كلها لوجوب عبادة الله ﷻ، وتنوعت الشرائع للابتلاء والاختبار؛ لأنه هو الرب المتصرف في عباده، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم ينقادون غاية الانقياد في هذا.

ولما نزل صَرْف القبلة كانوا يصلُّون إلى بيت المقدس فجاءهم رجل وهم يصلون فقال: أشهد أنه لقد أُنزل على رسول الله ﷺ قرآن أمر بالاتجاه إلى الكعبة، فاستداروا وهم في الصلاة؛ لأنهم طائعون لله ﷻ، متبعون لرسوله ﷺ؛ فإذا بلغهم الأمر انقادوا إلى ذلك بسرعة، خلافًا للذي قد يكون فيه إجمالٌ ويحتاج إلى تفصيلٍ، فإنهم يتوقفون حتى يتبين الأمر.

والله ﷻ كلَّف عباده بطاعة الرسول ﷺ بدون توقف أو نظر، ومن توقف أو تردد في ذلك؛ فإنه قد يُحرم الخير، كما قال الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، يعني: أنهم لما ردوه أول مرة عوقبوا بتقليب القلوب والأبصار.

والقبلة أمرها إلى الله، له أن ينهى عن الشيء الذي أمر به ويأمر بغيره؛ سواء كان استقبالا إلى بيت المقدس أو الكعبة؛ والعبد ما له تصرُّفٌ في هذا، بل يجب عليه أن يكون منقادًا، وهكذا في جميع الأوامر فيكون عبدًا لله ﷻ، والعبد يكون مذلولًا لسيده مطيعًا له، لا ينازعه في شيء، ولا يكون له أيضًا في ذلك نظر بأن يقول إن الأمر كذا وكذا فينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فإن كان عنده شيء من ذلك فهو منازع، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، تأمل ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، فيتضمن الأمور الاعتقادية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس... (١/ ١٣٤) برقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

والأمور العملية، وكل ما يحدث يجب أن يكون الحاكم فيه هو الرسول ﷺ بالوحي الذي جاء به.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، أي: ما يكون عند الإنسان شيء من الضيق، ويقول ليت هذا ما كان، ليت الحكم يكون كذا وكذا، فإن كان عنده شيء من ذلك فإنه لم يستسلم ولم ينقَدْ، ولم يذعن لله ﷻ، وعنده منازعات وإباء في نفسه، ولم يحصل له الإسلام الكامل، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. **ومعنى ذلك**: أن العبد لا اختيار له وإنما عليه أن ينقَاد لأمر الله ﷻ ولا يكون عنده منازعة، فالفعل في كل وقتٍ من الأوقات يكون طاعةً لله ﷻ واتباعًا لرسوله ﷺ، فلا دخل للأهواء ولا للموروثات عند الناس ولا لاتباع الكبار وغيرهم في ذلك، بل يجب أن تكون الطاعة لله والاتباع لرسوله ﷺ.

قوله: «**فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ**»، يعني: في أي فعل يفعله، فالأمر يتوقَّف على أمره ﷻ الذي يكون على لسان الرسل، أما تنوع الرسل وتنوع الأفعال فهذا لله ﷻ يبتلي عباده، ولهذا وقع النسخ في شريعتنا ببعض ما يشاء الله، كما قال ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وسبب ذلك أنَّ الاتجاه إلى بيت المقدس دين الله ﷻ أمر به، ثم أمر بصرف الوجوه إلى الكعبة، فالدين واحد؛ لأن الآمر واحد، فنحن عبيد لله ﷻ، فإذا أَمَرَنَا بشيء أطعناه؛ كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا طاعةً لله وإكرامًا لآدم، وليس طاعةً لآدم؛ لأن سجود الطاعة والعبادة لا يكون إلا لله وحده، وهكذا لما أمرنا أن نطوف حول البيت، فنحن نطوف طاعةً لله وليس عبادةً للبيت، ولهذا قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣].

فالمقصود: أنَّه لا بُدَّ من طاعة الله والامتثال له، ولا بُدَّ أن يكون في الطاعة ذلٌّ وخوفٌ ورجاءٌ، فالذلُّ هو العبادة، والخوف من عذابه عبادةٌ، والرجاء لثوابه عبادة، وهكذا في كلِّ ما أمر الله ﷻ به، فيؤدَّى على أنه هو ربُّنا وخالقنا ومعبودنا. ثُمَّ نحن فقراء إليه ﷻ، ولا غنى بنا عنه؛ فإن لم نعبده عذَّبنا. فإذا كان رسول أتى بأمر من الأمور ثم جاء رسول آخر واختلف أمره عن الأول؛ فالكلُّ عبادة لله ﷻ.

ومن رحمته أنْ شرع الشرائع على التدرُّج، فلم تأتِ دفعة واحدة؛ لأنه ﷻ لو

أمر الناس دفعة واحدة لصعب ذلك عليهم، وكان الرسول ﷺ أول ما جاء إلى قومه يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يأمرهم بصلاة ولا بصوم ولا بغيره، فلما أطاعوه بهذا صارت الأوامر تأتي واحدة بعد أخرى، فشُرعت الصلاة، ثم شُرع الصوم، ثم شُرعت الزكاة، ثم شُرع الحج وهكذا. ثم في آخر الأمر قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهذا دين الله ﷻ الذي عرفناه عن رسولنا ﷺ، ونقلته لنا صحابته رضوان الله عليهم، فالدِّين ما شرعه الله وما جاء به الرسول ﷺ، ومن لم يقبله فإنه مستكبرٌ وكافرٌ بالله ﷻ.

قوله: «وَإِنَّمَا تَنَوَّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وجْهةُ الْمُصَلَّى». وكذلك غير وجهة المصلي، وهذا من باب الاختبار والابتلاء هل ينقاد الإنسان؟ وبعضهم يُنازع ولا ينقاد فيتبين عدم قبوله وعدم انقياده، فيستحق العذاب على ذلك.

قوله: «وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهةُ وَالْمَنْسَكُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا»؛ أي: أن الأمور قد تختلف من ناحية الأمر والنهي، أما العبادة التي هي طاعة الأمر وامتثاله فهي لله ﷻ ولا تختلف، دائمًا تكون طاعةً لله ﷻ، ولكن ليس على اتباع الأهواء أو اتباع الأشخاص، بل هو اتباعٌ للرسول ﷺ.

وقد استقرَّ الشرع بموت رسول الله ﷺ فلا نسخ فيه ولا تغير ولا تبديل، والله جلا وعلا جعل هذا الدين هو الدين الذي يبقى إلى قيام الساعة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهو بيِّنٌ واضحٌ بيَّنه الرسول ﷺ ولم يترك شيئًا مشتبهًا مُجملًا على الناس، بل بيَّن ووضح فلا عُذر لأحدٍ في ترك ما جاء به الرسول ﷺ. فإن تُرك؛ فإما أن يكون من باب العناد أو يكون من باب الجهل، وكلا الأمرين لا عُذر لأحدٍ فيه؛ لأنه ما دام بُيِّن ووضح فعلى الإنسان أن يطلب ذلك ويجتهد فيه، فإن لم يفعل ذلك فاللوم عليه وهو المؤاخذ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَاللهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ: أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، وَآخِرُهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]».

الشَّرح

الإيمان بالرسل يكون على قسمين:

القسم الأول: الإيمان بهم إجمالًا، وهذا يدخل فيه الإيمان بكل رسول؛ لأنه جاء بالحقِّ من عند الله، وجاء بعبادته، فيجب أن يؤمن بهذا؛ أما الأوامر التي يأمر بها بالعمل شرعًا فهذه قد تختلف، وقد لا نعرف أنواعها، بل وأفرادها، ولا يلزم ذلك.

القسم الثاني: الإيمان بهم تفصيلًا، وهو الإيمان بما جاء به رسولنا ﷺ، ولكن يجب أن نعلم أن كل رسولٍ جاء بالهدى من عند الله، وأن من أطاعه فهو ناجٍ ومثابٌ وسالمٌ من عذاب الله، ومن عصاه فهو كافِرٌ ومعذَّبٌ في الدنيا والآخرة؛ إمَّا بعذاب يعمهم، وإما كل فرد يكون على حسب كفره وحسب امتناعه.

وأما دين رسولنا فلا يجوز أن يَترُكَ منه شيئًا ما دام مستطيعًا، فلا بُدَّ أن يؤمن بكل ما كُلِّف به وأُوجب عليه، والشَّرع يختلف؛ فمنه فضائل، ومنه واجبات وفروض، والفضائل لرفع الدرجات.

فالأعمال التي حثَّ عليها وأمر بها وهي غير واجبة؛ فإنها لرفع درجات الناس الذين يمتثلون ذلك ويرغبون بالخير.

وأما الواجبات المتعينة فهي التي يترتب عليها دخول الجنة والنجاة من النار.

ولهذا سُئل ﷺ عما يدخل الجنة، قال: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ**

الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»[١]، فمن أتى بهذه فهو ناج وهو في الجنة، ومن زاد على ذلك من العبادات فيكون ذلك رفعًا لدرجاته؛ لأن الجنة درجات ـ بعضُها فوق بعض، وهي متفاوتة تفاوتًا عظيمًا ـ، وعلى هذا: فيكون كل إنسان يجزى بعمله حسب قيامه لله ﷻ.

ثم الكلُّ يجب أن يؤمن به ﷺ، ويعلم أنه جاء به الرسول، ولا يجوز أن نأتي من عند أنفسنا بالقياس ولا بالعقل؛ لأنَّ الدين يتوقف على أمر الرسول ﷺ.

وأمرنا أن نؤمن بكلِّ رسول، ومن كفر برسول واحد فهو كافر بالكل، ولذلك أخبر ﷻ عن قوم نوح فقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وهم أول الأمم، وكفروا بالذين جاؤوا بعد نوح ﵇، وهكذا كل من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل.

قوله: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾» هذا ميثاق الله ﷻ الذي أخذه على الرسل؛ ومعلومٌ أنَّ الرسل تتابع، لكلِّ أمةٍ رسول، ولكن في بعض الأوقات قد يأتي رسولٌ مع وجود من قبله.

والرسل كلهم أُخذ عليهم أن يُطيعوا الله ويتبعوا أمره وأنه إذا جاءهم رسولٌ بما جاؤوا به أن يُصدقوه ويؤمنوا به ويتبعوه.

في هذه الآية عبر أولًا: بـ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ عبر ثانيًا: بـ «الرَّسول»، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبي والرسول سواءٌ لا فرق بينهما، ولكن إذا اجتمعا فالعطف يقتضي المغايرة، و«ثم» من أدوات العطف، وهذا معناه واحد.

ولكن قول الله ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فهنا الرسول غير النبي؛ لأنه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فالنبي قد يكون مُرسلًا ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (٢/ ١٠٥) برقم (١٣٩٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة... (١/ ٤٤) برقم (١٤)، من حديث أبي هريرة ﵁.

ليس إلى الكافرين، وإنما يكون إلى أمَّةٍ مسلمة أو في أمورٍ خاصة، أمَّا الرسول فلا بُدَّ أن يكون أُرسل إلى قومٍ كافرين، ويكفر به من يكفر به، ويؤمن به من يؤمن به.

فلهذا عرف العلماء «الرسول» بغير تعريف «النبي»؛ فقالوا: (الرسول رجلٌ عاقلٌ مكلَّفٌ يوحى إليه بشرعٍ ويؤمر بتبليغه، والنَّبِيُّ يُوحَى إليه بشرعٍ ولا يُكلَّف بالتَّبليغ، ومعنى لا يُكلَّف: أنه لا يُكلف بدعوة الكافرين، وإلا فالوحي الذي أُوحي إليه قد كُلِّف به.

فالمقصود: أنَّ الميثاق الذي أخذه الله على الرسل أنه إذا جاءهم الرسول يؤمنون به، وهذا من أبلغ الأدلة على وجوب اتباع الرسول ﷺ، لأنه إذا كان قد أُخذ الميثاق على الرسول فكيف بغيره؟ فلا عُذر لمن خالفه، فغيرُه من باب أولى أن يتِّبعه وينصره.

قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾. **قوله**: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، يعني: أنه جاء بمثل ما جئتم به.

قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ لا بُدَّ من الإيمان بالرسل وكذلك نُصرتهم، وليس هذا خاصًا بالرسل فقط، بل والأمم كذلك أُخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا بكلِّ رسولٍ، ولهذا لما ذكر الله ﷻ قصة نوح عليه السلام مع قومه قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، ومعلومٌ أنه ليس قبل نوح عليه السلام رسول، ولكن من كذب رسولًا فقد كذب الرسل كلهم.

وأخبر ﷻ أنَّ الذين يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] أنهم كُفَّارٌ حقًّا؛ فالله ﷻ دينه واحدٌ، وكلُّ الرسل يأتون بالأمر بعبادة الله وحده. فلا بُدَّ أن يكون الإيمانُ بهم عمومًا، ولا يفرِّق الإنسانُ بينهم.

وكذلك يؤمن بالشرائع كلها، وإن كان الله ينسخ ما يشاء، فيكون الأمر الأخير هو الذي يُتبع ولكن يؤمن بالأول. ولهذا أخبر ﷻ عن قوم نوح عليه السلام أنهم كفروا بالرسل، مع أن الرسل جاءت بعدهم، لأن الذي يكفر برسولٍ واحد هو كافرٌ بجميع الرسل، والذي يؤمن برسول واحدٍ يجب أن يؤمن بجميع الرسل.

فإن كان عنده منازعات وتفريقٌ بين هذا وهذا فليس بمؤمنٍ، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

قال رحمه الله تعالى:

«قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «لَمْ يَبْعَثْ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّه».

الشَّرح

ليس هذا خاصًّا بمحمَّدٍ ﷺ، بل هذا في كلِّ رسولٍ؛ فكلُّ رسولٍ أُخذ عليه الميثاق أنه إذا جاءه رسول بمثل ما جاء به أنه يؤمن به وينصره ويتبعه، ومن ذلك قوله ﷺ في هذا ـ كما سبق ـ: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ..**» فمثَّل لهم بأبناء العلات؛ لأنَّ الشرائع قد تختلف ولكن الدين واحد، ولا يُمكن أن يأتي رسولٌ يأمر بعبادة غير الله، فهذا من الممتنع، فكلهم يأمرون بعبادة الله وحده.

قوله: «وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّه». هذا كلام ابن عباس ﵄ يقول: (إن كلَّ نبيٍّ أخذ الله الميثاق عليه: لئن بُعث محمد وأنت حيٌّ لتؤمنن به ولتنصرنه وتأخذ ميثاق أمتك أن يؤمنوا به وينصروه).

وقد بيَّن لنا ﷻ أنَّ عيسى ﵇ الذي هو أقربُ الرسل إلى محمَّدٍ ﷺ بَشَّر به وقال فيه أنه سيأتي، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ولكنهم كفروا به ولم يؤمنوا به، فمن كفر برسول فهو كافرٌ بالرسل كلهم، ولا يتأتى أن يقول: (أنا آمنت بالرسول الذي قبل هذا فأبقى على دينه واكتفي به)، هذا لا يكفي؛ لأنه إذا جاء الرسول بعده فهو مصدِّقٌ له وهو جاء بمثل ما جاء به، والله له أن ينسخ ما يشاء ويُثبت ما يشاء ـ تعالى وتقدس ـ. وبذلك يتبين أنه يُريد أن يتبع الهوى؛ لأنَّ رسل الله كلهم يأمرون بعبادة الله ﷻ، ولهذا يقول ﷺ: «**والله لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي**»[(١)]، بهذا الميثاق وغيره؛ ولأن الدين هو دين الله، والأمر أمره ﷻ.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/ ٣٤٩) برقم (١٥١٥٦)، من حديث جابر بن عبد الله ﵁.

قال رحمه الله تعالى:

«وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]».

الشرح

الخطاب هذا لرسول الله ﷺ في اليهود، ومنهم النصارى؛ لأنهم أهل كتاب، وقبل ذلك يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١] إلى آخر الآيات.

فلما ذكر التوراة وذكر الإنجيل قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي: التوراة والإنجيل وغيرهما، ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: أنه موافق لهما؛ لأن هذه الكتب كلها من عند الله، ثم قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي: عليك.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ لأنهم يُريدون حكمًا معينًا، سبب ذلك: أنَّ اليهود كان عندهم رجم الزاني المحصن، ثم غيروا حكم الله ﷻ، فكانوا إذا زنى فيهم الضعيف أقاموا الحد عليه، وإذا زنى الشريف لم يقيموا الحد عليه، فاجتمعوا وقالوا: (لا تستقيم الأمور على هذا، بل لا بُدَّ أن تتفقوا على شيء)، فاتفقوا على أنهم يُحممون وجه الزاني ويُركبونه على دابة ويجعلون وجهه إلى قفاء هذه الدابة، ويطوفون به في الناس ويقولون: (هذا جزاء من ارتكب الذنب العظيم)، فلما جاء رسول الله ﷺ وقعت عنده زنا، فقالوا: اذهبوا إلى هذا الرسول فإنه جاء بشرعٍ سهلٍ مُيسَّر لعله يحكم بينكم بغير ما في التوراة)، وقالوا: (إن حكم بغيرها فاقبلوا حكمه، وإن حكم بذلك فلا تقبلوا).

والقصة معروفة في «الصحيح»، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢]، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] إلى آخر الآيات، ثُمَّ ختم الآيات بهذه

الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨] قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أنه جاء موافقًا له متَّفِقًا معه؛ وهكذا كُتُب الله: كلها بهذه الصفة.

قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: حاكمًا عليه وناسخًا له؛ لأنه هو الأخير، فالأخير هو الذي يجب أن يُعمل به.

قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨] هذا في كل قضيةٍ يتحاكمون فيها إليه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ لأنهم حكموا بأهوائهم، فلا توافقهم في حكمهم تاركًا ما جاءك من الوحي.

قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، يعني: طريقةً تتبعونها بأمر الله ﷻ؛ لأن الله ينسخ ما يشاء ويُثبت ما يشاء، ونَسَخ الأديان كلها بالدين الذي جاء به رسولنا ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَجَعَلَ الْإِيمَانَ بهم مُتَلَازِمًا، وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]، وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧] فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ».

الشَّرح

قوله: «وَجَعَلَ الْإِيمَانَ بهم مُتَلَازِمًا...»؛ أي: بالرسل؛ فلا بُد من الإيمان بهم كلِّهم؛ لأن من كفر بواحد فكأنما كفر بالكل، كما بيَّن الله ﷻ ذلك في آياتٍ عدة.

قوله: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ بأن يؤمنوا بالبعض ويكفروا بالبعض.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، يعني: الكفر الخالص، فليس عندهم من الإيمان شيء.

فعلى هذا لا ينفع اليهودي ولا النصراني تمسكه بدينه، مع أن دين اليهود والنصارى قد غُير وبُدل وأصبح غير موثوقٍ به؛ لأنهم في كلِّ وقتٍ وكل حين يحدث عندهم تغير وتبديل، ولو قُدر أنه لم يتغير ولم يُبدل فقد نُسخ بما جاء به

رسول الله ﷺ، فيجب أن يؤمنوا به ويتبعوه وإن لم يفعلوا فيكونون كفارًا.

قوله: «**وقال تعالى**: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾» هذا أيضا في اليهود الذين كانوا في المدينة؛ لأنهم ذكر الله ﷻ أنه أخذ ميثاقهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥] **فهذه الآية تدل**:

أوّلًا: على أنه يجب أن يؤمن الإنسان بكل ما أمر الله ﷻ به، وأنه إذا رد البعض يكون كأنه ردّ الجميع.

ثانيًا: تدلُّ على أن الإيمان يدخل فيه الأعمال؛ لأن المُفاداة عملٌ فجعلها إيمانًا، والإخراج من الديار ومقاتلتهم عمل فجعلها كفرًا، فإذن: الكفر يكون عملًا، والإيمان يكون عملًا، كما هو معلومٌ في مذهب أهل السنة؛ والأدلة على هذا كثيرة.

قوله: «**وقد قال لنا**: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾» أمر بالقول، وهذا موافقٌ لقول الرسول ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[1]، نقول: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هو معنى «لا إله إلا الله»، يعني: لا نأله ولا نعبدُ إلا الله ﷻ.

قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ إلى آخر الآيات: ذكر من الرسل إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ في مقام التنزيل، ولكن الذي يتتبع القرآن في مقام الامتنان على إبراهيم عليه السلام يجد أنَّ إسماعيل عليه السلام لا يُذكر مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وإسماعيل عليه السلام يُذكر وحده مع الرسل الأخرين.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ السبب في هذا أنَّ إسماعيل عليه السلام لم يعش مع إبراهيم عليه السلام في بلده الذي كان فيه؛ لأنَّ إسماعيل عليه السلام كان في مكة، وإبراهيم عليه السلام كان في الشام، وإن كان إسماعيل عليه السلام هو الذي بنى معه البيت كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قوله: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أكثر المفسرين يقولون: (إنهم أولاد يعقوب عليه السلام)،

---

(١) تقدم تخريجه.

والظاهر: أنَّ هذا ليس مقصودًا؛ لأنَّ أولاد يعقوب الرسول منهم يوسف عليه السلام؛ لأن الله جل جلاله لما ذكر قصة المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون لما جاء موسى عليه السلام أمر بالإيمان به واتباعه قال في آخر القصة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، هذا يدل على أنهم ما جاءهم رسولٌ بعد يوسف عليه السلام إلا موسى عليه السلام، وموسى عليه السلام بعد هذا بوقت.

ومعلومٌ أن أولاد يعقوب عليه السلام الذين دخلوا مصر ماتوا فيها، فلم يُذكر لهم دعوةٌ، ولم يُذكر لهم رسالةٌ، ثم الذي ينظر في سيرتهم وأعمالهم فإنها ليست من سيرة الرُسل ولا من أعمال الرسل؛ حيث باعوا آخاهم، وكذبوا على أبيهم الكذب الصريح، وفعلوا أفعالًا سيئة فليسوا أنبياء.

فيكون «الأسباط» مثل ما قال كثيرٌ من أهل اللغة: هي قبائل بني إسرائيل، فكل قبيلةٍ فيها أنبياء أرسل الله جل جلاله فيهم أنبياء، هذا هو الظاهر، والله أعلم.

فالصحيح: أنهم ليسوا برسل، وأن المقصود بـ«الأسباط»: هم قبائل بني إسرائيل؛ لأنه جعلهم أسباطًا، قال جل جلاله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] هم الأسباط، فكلُّ سبطٍ فيه نبيٌّ، وفيه رسول، وأنبياؤهم كثيرون، والأنبياء كلهم دينهم واحد، فيجب أن نؤمن بهم، والذين ذُكروا من الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولًا، فيجب أن نؤمن بهم بأعيانهم، والبقية نؤمن بجملتهم أنهم جاءوا بالحق، وأن من استجاب لهم فهو أهل الهدى وأهل الحق، ومن أبى فهو في جهنم خالدًا فيها.

قوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾. قدم موسى عليه السلام ثم عطف عليه عيسى عليه السلام؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما جاء بكتاب؛ أمَّا النبيون فأكثرهم بين موسى وعيسى؛ وهم يأتون لتجديد الدين الذي جاء به موسى عليه السلام والدعوة إليه؛ أي: ما جاءوا بكُتب مستقلة، ولهذا عطفهم على موسى عليه السلام ﴿وَعِيسَىٰ﴾.

قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: كلُّه حقٌّ يجب أن نؤمن به، ولهذا قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ نؤمن بهذا ونرد هذا ولا نؤمن به، بل يجب الإيمان بالكل؛ لأنهم كلّهم جاءوا من عند الله جل جلاله.

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾؛ أي: فإن آمنوا بالإيمان الذي آمنتم به فقد اهتدوا.

قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن ذلك.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ أي: في ريب وشك وتردُّدٍ وكفرٍ لا يخرجون منه.

قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾. هذا وعدٌ من الله ﷻ أنه يكفُّهم وأنهم لا ينالون من النبي ﷺ شيئًا وإن اجتهدوا في قتله كما اجتهدوا في قتل الأنبياء من قبل، وقد حاولوا مرارًا فأخزاهم الله ﷻ.

قوله: «**فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»، يعني: بكل ما جاءت به الرسل، فهذا الواجب على كلِّ أحد.

قوله: «**فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعْم أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ**»؛ أي: اليهود والنصارى، يزعمون أنهم مؤمنون ومسلمون متبعون رسلهم ولكنهم كافرون؛ لأنهم ردُّوا ما جاء به الرسول ﷺ، وكذلك غيرهم ممن ليس له كتابٌ؛ كلُّ من بلغه أن لله رسولا أرسله، وجب عليه أن يطلب هذه الرسالة ويبحث عنها؛ فإن لم يفعل ومات على ذلك فهو في النار كما قال ﷺ: «**والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١)، فعلق الأمر بالسماع «**يسمع بي**»، فدلَّ على أنه إذا سمع وجب عليه أن يبحث عن الرسالة ويتطلبها؛ لأن عنده عقلًا وعنده فكرًا.

ومعلومٌ أنَّ الإنسان منذ عرف يمينه من شماله وفوقه من تحته يبحث عن مصالحه ويهتم بأمر دنياه، ولا يجوز أن تكون الدنيا ألزمَ وأهمَّ من الدين وما أمر الله ﷻ به. وكثيرٌ من الناس يقول: (إن الذين ما بلغتهم الرِّسالة هم معذرون)! وفي الحقيقة أنه لا يوجد أحد لم تبلغه الرسالة الآن، ولكن الحجة تقوم بكونه يسمع ذلك، ولا يلزم أنه يفهم؛ لأن الفهم موكولٌ إليه هو؛ فإذا لم يقم به فهو المُفرِّط.

ولهذا يقول العلماء: (كلُّ من لم يعرف لغة الرسول ﷺ، وجب عليه أن يتعلمها حتَّى يفهم أمره ونهيه، وإن لم يفعل فهو مؤاخذٌ بذلك).

قد يقال: إنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، **لكن لعلماء المفسرين في هذه الآية قولان:**

(١) تقدم تخريجه.

أحدهما: أنَّ قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾، أي: (العذاب الذي يأتي الأمم)، وهذا هو قول أكثر المفسرين، وذلك مثل ما جاء قوم نوح وهود وصالح وغيرهم، وما يأتي العذاب الذي يُهلكهم إلا بعد الرسالة وبعد ردِّ الرسالة.

القول الثاني: أن هذا عامٌّ، ولكن هذا لا يُعارض الأدلة الأخرى.

ثم يقال: هل الفترة موجودة أم لا؟

الجواب: أنَّ الله ﷻ يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، فلا يُعلم هناك وقت طويل لم يأتِ فيه رسول، وأطول وقتٍ عُرف ما بين (عيسى ﷺ) ومحمد ﷺ، وهو أقل من ستمائة سنة، فمثل هذا لا تكون الشرائع منسية ومهملة؛ ولهذا قصة آل نجران ـ أي: أصحاب الأخدود ـ كانت بعد عيسى ﷺ بوقت وقبل بعثة الرسول ﷺ؛ لأنهم أسلموا واتبعوا دين عيسى ﷺ، فخَدَّ لهم الأخاديدَ الظالمُ العنيدُ، كما ذكر الله ﷻ ذلك في سورة البروج.

فالمقصود: أنَّ الدِّين موجودٌ، ذلك الدين الذي جاء به عيسى ﷺ وبقي عليه من بقي إلى أن بُعث محمد ﷺ، ولهذا في صحيح مسلم يقول ﷺ: «**ألَا إنَّ ربِّي أَمرني أن أُعلِّمَكُم ما جَهلتُم، ممَّا علَّمَني يومِي هذا، كُلُّ مالٍ نَحلتُهُ عبدًا حلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتتهُمُ الشَّياطِينُ فاجْتالتهُم عن دِينِهِم، وحرَّمَتْ عليهِم ما أَحلَلْتُ لهم، وأَمرَتهُمْ أَنْ يُشرِكُوا بِي ما لَمْ أُنزِلْ بهِ سُلطانًا، وإنَّ اللهَ نظَرَ إلى أهلِ الأرضِ، فَمَقَتَهُم عربَهُم وعَجَمَهُم، إلَّا بقَايَا مِنْ أهلِ الكِتَابِ**»(١)، قوله: «**إلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»، يعني: أنهم على الحقِّ.

وفي الواقع إذا رجع الإنسان لفطرته وعقله، عرف أنه يجب أن يكون الدين لله، ولهذا وجد في المشركين الذين هم قريش وغيرهم من يوحِّد الله ويعبد الله وحده، وذلك مثل: زيد بن نفيل، وورقة بن نوفل وغيرهما، وكان الناس يسمونهم الموحدين.

في صحيح مسلم، عن عمرُو بنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه، قال: كنتُ وأنا في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

الجاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أنَّ النَّاسَ على ضلالَةٍ، وأنَّهُم ليسُوا على شيءٍ وهُمْ يعبدُونَ الأوثانَ، فسَمِعتُ بِرجُلٍ بمكةَ يُخبِرُ أخبارًا، فقعَدْتُ على راحِلتِي، فقَدِمتُ عليه، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ مُستَخفِيًا جُرَءاءُ عليه قومُهُ، فتَلَطَّفتُ حتَّى دَخلْتُ عليه بمكةَ، فقُلتُ لهُ: ما أنتَ؟ قالَ: «**أنَا نَبِيٌّ**»، فقلْتُ: وما نَبِيٌّ؟ قالَ: «**أرسَلَنِي اللهُ**»، فقُلتُ: وبأيِّ شيءٍ أرسلَكَ، قالَ: «**أرسَلَنِي بِصِلَةِ الأرحامِ، وكَسرِ الأوثانِ، وأنْ يُوحَّدَ اللهُ لا يُشرَكُ بهِ شيءٌ**»، قُلْتُ لهُ: فمن معكَ على هذا؟ قالَ: «**حُرٌّ، وعَبْدٌ**»، قالَ: ومعهُ يَومئِذٍ أبُو بكرٍ، وبِلالٌ مِمَّنْ آمنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إنِّي مُتَّبِعُكَ، قالَ: «**إنَّكَ لا تَستَطِيعُ ذلِكَ يومَكَ هذا، ألا ترَى حالِي وحالَ النَّاسِ، ولكِنِ ارْجِعْ إلى أهلِكَ فإذا سَمِعتَ بِي قد ظهَرتُ فأْتِنِي**»، قالَ: فذَهَبْتُ إلى أهلِي وقدِمَ رسُولُ الله ﷺ المدِينةَ، وكُنْتُ في أهلِي فجعَلْتُ أتَخبَّرُ الأخبارَ، وأسألُ النَّاسَ حين قدِمَ المدِينةَ، حتَّى قَدِمَ عليَّ نفَرٌ من أهلِ يَثرِبَ من أهلِ المدِينةَ، فقُلْتُ: ما فَعَلَ هذا الرَّجُلُ الذي قدِمَ المدِينةَ؟ فقالُوا النَّاسُ: إليهِ سِراعٌ وقد أرادَ قومُهُ قتلَهُ فلم يَستطِيعُوا ذلِكَ، فقَدِمتُ المدِينةَ فَدَخلتُ عليهِ، فقُلتُ: يا رسُولَ اللهِ أتَعرِفُنِي؟ قالَ: «**نعَمْ، أنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمكَّةَ**»، قالَ: فَقُلْتُ: بَلَى»(١)، وذكر القصة إلى آخرها.

الشاهد هنا: أن هذا الرجل يقول: «**كنت أرى أن الناس ليسوا على شيء**»، يعني: عبادتهم ليست على شيء. ومثل ذلك: ما كان عليه أبو ذر ﷺ، كان يعبد الله وينهى أهله وأقاربه عن عبادة الأصنام وغيرها؛ لأنه كيف للعاقل أن يقصد حجرًا أو شجرة أو ميتًا، ثم يسأله حاجته؟! لو كان عنده نفع لنفع نفسه، ثم هو مخلوقٌ مثله.

فالمقصود: أن عبادة الله أمرُها واضِحٌ، فإذا أصبح الإنسان يعبدُ مخلوقًا ثم يموت على ذلك ويقول: (أنا ما دريت ولا علِمت)، فليس يكون هذا عُذرًا له؛ لأنه أهدر عقله وأهدر الآيات التي تُحيط به من السماء والأرض والجبال والشجر والنبات والرياح والمطر والإحياء والإماتة وغير ذلك، هل يجد أحدًا يفعل شيئًا من ذلك؟! كله يفعله الله ﷻ، فهذا الذي يجب أن يُعبد وحده؛ فإذا أهدر هذه الأشياء فهو غير معذور.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة (٤/ ٢١٩٧) برقم (٨٣٢).

المقصود بهذا: أنَّ الأمر في هذا واضِحٌ؛ فالدين لا يقبل التجزئة، وكذلك كتب الله ورسله وملائكته، كلُّها يجب أن نؤمن بها، ومثل ذلك الإيمان بالله يجب أن تؤمن بالله وبما له من الصفات والأسماء والأوامر والنواهي، فيدخل فيها الشرع كله الذي أمر الله ﷻ باتباعه وامتثاله، ولهذا قال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآيات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]».

الشرح

قوله: «كَمَا ذَكَرُوا...»؛ لأنَّ هذا رُوي بأسانيد غير ثابتة، ولهذا ذكره بصيغة التمريض. «**لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾** [آل عمران: ٨٥]، **قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: (فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ...)**»؛ مُتبعون موسى وعيسى ولا نتبع محمدًا)، وهذا كفرٌ بالله ﷻ، يكفي في ذلك أنهم كفروا بالرسول الخاتم الذي ختم الرسل، وهذا أعظم من كونهم يمتنعون من الحج؛ لأن الحج ركنٌ من أركان الدين، وهذا الدين كله.

قوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، **فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ فَقَالَ الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾** [آل عمران: ٩٧]، الآية نزلت جميعًا من أولها إلى آخرها، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال في تمامها: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧].

يقصد بهذا: أن الإسلام لا يقبل التجزئة، فالإسلام يجب أن يكون الذي دخل فيه قد قَبِلَ كُلَّ ما أمره الله ﷻ به على سبيل الذل والخضوع والامتثال بلا منازعة ولا نظر في هذا، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، في هذه الأمور؛ فإذا أمر الله ﷻ بأمر فلا خيرة للعبد، بل يجب أن ينقاد مذعنًا طائعًا؛ وإلا لا يكون مسلمًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»[(١)]، وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]»[(٢)].

الشرح

قوله: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ...**» يدل على ان هذه الخمس هي دعائم الدين وأركانه، ولهذا سماها العلماء: أركان الإسلام، أخذًا من هذا الحديث وغيره.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: هذه الآية خُتم بها الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وهي آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، فنزلت في يوم عرفة وهو واقفٌ في عرفة في حجة الوداع، وبقي بعد نزولها قرابة ثمانين يومًا فقط، ثم توفاه الله ﷺ.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: يعني: قد كمُل الدين، وإذا كمُل الدين فلا استدراك عليه ولا يجوز أن يكون هناك دينٌ غيره، والذي يكون ناقصًا لا يكون دينًا كاملًا، وهذا الدين الذي جاء به خاتم الرسل كما خُتم به الرسل خُتم بالكُتب كتابه، وخُتم بهذه الآية؛ ولهذا لما سمع عمر رضي الله عنه هذه الآية بكى حين نزلت، حيث نزلت يوم عرفة، فقيل له: وما يبكيك؟ قال: كل شيء إذا تم وكَمُل ينقص، يعني: يبدأ النقص، والنقص يكون في أهله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» (١/ ١١) برقم (٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (١/ ٤٥) برقم (١٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/ ١٨)، برقم (٤٥)، ومسلم في صحيحه، في أول كتاب التفسير (٤/ ٢٣١٢) برقم (٣٠١٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وليس فيه، فالدين كامل ولا ينقص، ولكن أهله هم الذين يتركونه بعض الشيء فيحصل النقص فيهم، وهذا مُراده.

والمراد بـ«كمال الدين» هنا: هو الأوامر والنواهي.

والدين يكون كاملًا بالنسبة للعبد إذا امتثل ما أُمر به، فالذين ماتوا قبل نزول هذه الآية ما يقال: أنهم ما كمّلوا الدين!، بل كملوه؛ لأن هذا الذي أُمروا به وامتثلوه هو الكمال في حقهم، لأن العبد الصحيح مستعدٌّ لكلِّ أمر يأمر الله ﷻ به، وهو على أكمل الاستعداد مع الاستسلام والانقياد والذل لربه ومحبته، فهو يحب دينه ويرتبط به ويتنعم به، بخلاف الذي يأبى أو يمتنع فهو منازع، والمنازع لا يكون مسلمًا.

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ له الحكم وحده، وإذا أمر بشيء يجب أن يُطاع ويُتبع أمره، وقد جعل الرسل بعضها يتبع بعضًا، وبعضها بعد بعض، وختمهم بمحمد ﷺ، وألزم كل حي أن يؤمن به، فعلى كل مكلَّفٍ من الجن والإنس أن يؤمن به؛ سواءٌ سبق له كتاب أو لم يسبق له كتاب، ومن لم يؤمن به فهو كافرٌ بالله ﷻ، وهو من حطب جهنم؛ سواء من اليهود أو النصارى أو غيرهم.

ولكن الأهواء واتباع المقاصد التي يعظمونها ويُريدونها من أمور الدنيا ومن الأمور التي يكونون فيها هم القادة = يجب أنهم يُتبعون فيها، وهو الذي يجعلهم يُنازعون في هذا ولا يستسلمون ولا ينقادون، ولا سيما وهذا الدين جاء به رسولٌ من غير الرسل الذين يتحرَّون أن يأتي منهم، أعني: من بني إسرائيل، فقد جاء رسولٌ من بني إسماعيل، فحسدوهم وكفروا به حسدًا وبغيًا، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما ذكر الله ﷻ ذلك عنهم، فصار كفرهم من باب اتباع الهوى والحسد، فلهذا زاد كفرهم بأن الله ﷻ عاقبهم بأن جعل قلوبهم قاسية يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به من كُتبهم أو تناسوه فلم يعملوا به، وسوف يرجعون إلى الله ﷻ فيُعاقبهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا؟ «وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ» فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ الْمُتَضَمِّنُ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ: لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ، الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللهُ بِهَا نَبِيًّا، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ».

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تنازُعَ الناس فيمن تقدم من الأمم؛ هل هم على هذا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؟ أو أنهم على أصله؟

سبق أن الأنبياء كلهم أَخبروا بأنهم أسلموا لله ﷻ وأن الأمم تبعٌ لهم. فالإسلام - مثل ما سبق -: هو الاستسلام لله والطاعة والانقياد له وعدم المنازعة، هذا هو دين الرسل كلهم، ولم يختلفوا في ذلك، ولكن في جزئيات الأمر فإن الله ينسخ ما يشاء ويُثبت، والرسول ﷺ كان يقول: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1].

وقد تبين للصحابة وغيرهم أنَّ مِن حَقِّها كُلُّ واجبٍ أوجبه الله ﷻ، ولهذا قاتل الصَّحابةُ مانعي الزكاة، وقتالهم إياهم كان على سبيل الكفر، بأنهم كفرة مرتدون؛ لأنهم وإن كانوا قد اختلفت نزعاتهم؛ فمنهم من كان يقول: (إن الزكاة شبيهة بالجزية)، ومنهم من كان يقول: (لا نؤديها إلا لمن كانت صلاته لنا سكنًا) يعنون: الرسول ﷺ، والصحابة لم يفرقوا بينهم، بل جعلوا حكمهم واحدًا فقاتلوهم، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ

(١) تقدم تخريجه.

عَلَيْهَا»(١). ولما جاء بعضهم تائبًا قال: «لا نقبل منكم حتى تقُروا بأن موتاكم في النار وأن قتلانا في الجنة شهداء»، معنى هذا أنهم كفرة مرتدُّون.

فإذَن: ليس الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ مجرَّدَ انقياد في الظاهر أو النطق بهذه الكلمة فقط، بل لا بُدَّ أن يقبل ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه ويقوم به ويستسلم وينقاد لذلك ويُسلم.

وبهذا يتبين أنَّ الذين يُخالفون في الأصل مثل: المرجئة الذين يقولون: (إنَّ الأصل الإيمان فقط فإذا وُجد فلا يضر ترك الواجبات الأخرى أو فعل المعاصي)، فهذا لا شكَّ أنه باطلٌ كبطلان مذاهب اليهود والنصارى وغيرهم.

ولهذا لو قُدر أن قريش تقول للرسول ﷺ: (نحن نؤمن بك ولكن ما نُصلي ولا نُزكي ولا نصوم ولا نمتنع من أذى أصحابك وإخراجهم من بلادهم وغير ذلك)، أنَّ حكمهم: أنهم كفرةٌ مَرَدَة مع الشياطين! لا شك أن هذا هو الحكم الذي يستحقه مثل هؤلاء، فليس الإسلام مجرد دعوى أو مجرد كلامٍ يقوله، فلا بُدَّ أن يتحلَّى به في باطنه وظاهره وسلوكه، ويعمل بموجبه.

أما الإسلام في الأمم السابقة فهو ليس على هذا؛ لأنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج ليس كلُّ الأمم على ذلك. ثُمَّ هذه أركان الإسلام التي ذكرها رسول الله ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**بني الإسلام على خمس..**»(٢) إلى آخره، وكذلك الواجبات التي تتبعها.

وبهذا يتبين أن الذي جاء به رسول الله ﷺ أنه أخص مما جاءت به الرسل السابقة؛ غيرَ أنَّ العبادة متَّفقون على أنها يجب أن تكون لله خالصة، وكل الرسل على هذا من أولهم إلى آخرهم.

قوله: «وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ». «الإسلام الخاص: الذي أُنزل على محمد ﷺ فهو خاص بهذه الأمة، ولكن «الإسلام العام» الذي هو الاستسلام لله بالطاعة والانقياد له والإخلاص له وعبادته، فهذا لكلِّ أمَّةٍ لا يخرج عنها أحد.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الزكاة، بَابُ أَخْذِ العَنَاقِ فِي الصَّدَقَةِ (٢/ ١١٨) برقم (١٤٥٦)، بلفظ: «لقاتلتهم على منعها»، وأحمد في مسنده (١/ ٤١٦) برقم (٣٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْخَلِيلِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]

❁ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] [النساء: ١١٦]، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ».

الشَّرح

قوله: «**وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». **قوله**: «**مُطْلَقًا**»، يعني: أن هذا هو الأصل الذي جاءت به الرسل كلهم، فكل رسول يقول: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا معنى: «لا إله إلا الله» في ديننا ـ الذي جاء به رسول الله ﷺ ـ وكذلك دين الرسل السابقين ـ أي: كل الأديان ـ؛ رأسُ الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا ذكر معناها في جميع دعوات الرسل كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مثل قوله: «إلا الله»، وقوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كقولك: «لا إله»، وهكذا الآيات التي ذكرها.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذا هو شهادة أن لا إله إلا الله، كل رسول كان يدعو قومه بأن يقول: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والله ﷻ في هذه الآية يقول: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ **قوله**: «**لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**» هذا هو لفظ لا إله إلا الله.

فمعنى هذا: أنَّ التألُّه والتعبد لله وحده، ولا يوجد في ملة رسولٍ من الرسل أنه جوز أن يُعبد الله ويُعبد معه غيرُه، والتوحيد رأس الإسلام، وهذا هو الذي سُمي في القرآن إسلامًا للأمم السابقة؛ لأن هذا معناه أنه إذا كان التألُّه لله وحده فكلُّ عبادةٍ تكون تابعةً لذلك، مثل: الدعاء، والاستغاثة، والاستعاذة، والذبح والنذر وغير ذلك من العبادات التي يُطلب منها ثواب ويُطلب بفعلها دفع عقاب، فلا تكون إلا لله ﷻ.

والرسول ﷺ جاء بهذه الملة الشديدة في التوحيد ولكنها في الشريعة سمحةٌ سهلة، فهذا يختص بشرعته ﷺ، ولهذا ذكر أنه أُعطي ما لم يُعطَهُ نبيٌّ قبله، قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن نبيٌّ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم وأُعطيت الشفاعة، وبُعثت للناس كافة**»[(١)]، وكان الرسل الذين قبله إذا قاتلوا وغنموا

---

(١) تقدم تخريجه.

أموال الكفار يجمعونها ثم تنزل نار فتأكلها إلا أن يكون فيها غلول، فإذا لم تنزل النار عرفوا أن هناك غلولًا.

كما جاء في الصحيح: «**أن نبيًّا قاتل ثم نُصر، فجُمعت الغنائم فلم تنزل النار فقال لقومه: ليُبايعني من كل قبيلةٍ نقيبها، فصاروا يبايعونه، فلصقت يده بيد نقيب من هذه القبائل فقال: الغلول عندكم أخرجوه، فأخرجوا رأس ثورٍ من ذهب قد أخفاه أحدهم، فنزلت النار فأكلته**»[(١)]، فأُحلت له ﷺ، يقول: «**نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[(٢)]، هذا من خصائصه، وخصائص أمته.

وكانت الأمم السابقة صلاتهم في كنائسهم وبيعهم فقط، وكذلك طهورهم بالماء، ولهذا يقول: «**وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، أي رجل من هذه الأمة أدركته الصلاة فعنده مسجده وطُهوره، والطهور التراب إذا فُقد الماء.

وقوله: «**وأُعطيت الشفاعة، وبُعثت للناس كافة**»، هذه خمس من خصائصه ﷺ التي خُصَّ بها.

قوله: «وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْخَلِيلِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧]»، هذا هو معنى «لا إله إلا الله»، فالبراءة من المعبودات والعابدين هي معنى قولك: «لا إله».

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هو معنى قولك: إلا الله، فـ «الفاطر»: الذي خلق، أي: الذي خلقني، ولهذا ذكر هذا المعنى ربنا ﷻ فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]، يعني: كلمة التوحيد التي هي لا إله إلا الله، ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: في عقب إبراهيم ﷺ إلى يوم الدين، ومِنْ عَقِبه محمدٌ ﷺ الذي دعا أمته بهذه الكلمة.

قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: في ذرية إبراهيم؛ ومن ذريته محمد ﷺ، وقد دعا إبراهيم ﷺ لما أسكن إسماعيل وأمه في مكة أن يبعث فيهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «**أحلت لكم الغنائم**» (٤/ ٨٦) برقم (٣١٢٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (٣/ ١٣٦٦) برقم (١٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

رسولًا منهم ويزكيهم.. إلخ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن أول مبدئه، قال: «**دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ... وَرُؤْيَا أُمِّي**»[1]، لما ولدته رأت أنه خرج منها نورٌ أضاءت له الدنيا.

قوله: «وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]» الأسوة؛ التأسي والاتباع، وأن يكون هو الإمام يُقتدى به ويؤتم به ويُتبع على ذلك؛ فإبراهيم تبرأ من قومه ومن معبوداتهم، فدلَّ على أنهم كانوا يعبدون الله ولكن يعبدون معه غيره، فلهذا استثنى الله ﷻ.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ «أي: وأتباعه الذين آمنوا معه»[2]، ويجوز أنهم الرسل الذين جاءوا بعده؛ لأنهم كلهم على ملَّتِه وعلى دينه.

قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] هذا هو معنى «لا إله إلا الله»، فالبراءة منهم ومن معبوداتهم هو معنى قولك: «لا إله»، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ هو معنى «إلا الله».

هذه الآيات كلها تدل على أن العبادة يجب أن تكون توحيدًا لله ﷻ خالصةً له، ولم يأتِ نبيٌّ بخلاف ذلك.

قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يقول: هذا لا وجود له أصلًا.

قوله: ﴿آلِهَةً﴾، «الآلهة» - جمع إله -: هي التي تُتأله ويُتَّجه إليها بالطلب وبالخوف والرجاء، فهذا لا يكون في دين الله منذ أُنزل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الأرض إلى أن يرث الله ﷻ الأرض وما عليها، وإنما كلها مخالفات خالفوا فيها دين الأنبياء كلهم.

قوله: «**وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ**: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]»، يعني: أنَّ هذا هو معنى التألّه وإخلاص العبادة لله وأن دين كلِّهم على هذا واحدٌ، وهو الدين الذي جاء به خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٣٩٥) برقم (١٧١٦٣)، من حديث العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه.
(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٨٧).

قوله: وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾، تبرأوا من المعبودات إلا الله ﷻ، وهذا أمرٌ اطَّرد في كتاب الله، واتفقت عليه الرسل وأديان الله كلها: أن المعبود واحد وهو الله، كما في سورة المؤمنون في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ثم قال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، يعني: هذا دينكم دين واحد، فالرسل دينهم كلهم واحد وهو عبادة الله وحده.

قوله: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: خالق السموات وموجدها ومالكها؛ لأنَّ السموات أمرها ظاهر والأرض كذلك ظاهر لا يخفى على أحد، كلٌّ ينظر إلى السماء والأرض، وإذا فكر علم أن الله ﷻ هو المختص بخلقها وبخلق الأرض، فإذا كان كذلك فيجب أن تكون العبادة له ـ تعالى وتقدس ـ، فلا يجوز أن يُصرف شيءٌ منها لغير الله ﷻ.

ثم ذكر عنهم أنهم قالوا عن قومهم: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ يعني: إذا دعونا من دونه إله قلنا: شَطَطًا، يعني: شيءٌ باطل وضلال بعيدٌ وهو الشطط.

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ﴾، يعني: أنهم لا حجة لهم بذلك، والسلطان هو الحُجَّة، فليس لهم حُجَّةٌ على شركهم، والمشرك ليس له دليل؛ لأنه يعبد مخلوقًا لا دليل يدُله على أن عبادته مشروعة أو أنها نافعة، بل هي مُضرةٌ، بل هي ضلال.

قوله: «ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ...»، يعني: قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

وذكر في موضع آخر ـ ثالث ـ في سورة المائدة قوله ﷻ عن عيسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]. فهذا معنى الآية التي في سورة النساء، فالذي لا يغفر الله له حُرمت عليه الجنة.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]. هذا من أبلغ ما يُذكر في أنَّ الشرك ذنبٌ غيرُ مغفورٍ، وأنَّ صاحبه إذا مات عليه ميئوسٌ منه وهو في النار خالدًا فيها أبدًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ ـ وَأَصْلُ الشِّرْكِ: الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ ـ فَقَالَ عَنِ النَّصَارَى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]».

الشرح

قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ في الشرك بالأنبياء وكذلك بالعلماء والعُباد. فـ «الأحبار» هم العلماء، و«الرهبان» هم العُبَّاد. ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى؛ لأنَّ الأحبار في اليهود هو الغالب، والرهبان في النصارى، والنصارى يتعبدون ولكن بجهل وضلال، واليهود عندهم علم ولكنهم قُساة القلوب بعيدون عن الله ﷻ، فهم أهل غضب والنصارى أهل ضلال.

ولهذا أمرنا الله ﷻ أن نستعيذ من هذين الطريقين وأن نسأله الاستقامة على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

قوله: ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي: آلهة؛ لأنَّ الرَّبَّ قد يُستعمل بمعنى الإله كما في هذه الآية، وكما في حديث فتنة القبر يقول: «**مَن ربُّك؟**»(١)؛ أي: ما معبودك الذي تعبده؟

أما «الرب» بمعنى الخالق المتصرِّف فهذا لا أحد يُنكره، فالكفار كلهم يُقرون به ولكنه ما ينفعهم حتى يضموا إليه أنَّ العبادة لله وحده ولا يكون منها شيءٌ لغيره.

ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] سبَّح نفسه عن أن يكون معه آلهة أو أن يكون معه معبودٌ، فمن فعل ذلك فإنه تَنَقَّص رب العالمين ﷻ، ولهذا سبح نفسه عما يفعله المشركون.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧]».

الشرح

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا الخطاب يكون يوم القيامة، وذكره الله ﷻ بلفظ الماضي لتحقُّق وقوعه، أي: لا شك أنه واقع. والمعنى: أن أُناسًا من بني آدم وهم بعض النصارى اتخذوا عيسى وأمه إلهين، فهذا الشرك في الأنبياء والشرك في الصالحين؛ لأنَّ أمه صالحةٌ وليست نبيةً؛ لأن الأنبياء رجال ولم يبعث الله ﷻ امرأةً نبية، كما قال الله ﷻ: ﴿رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وإنما هي صديقة كما قال الله ﷻ عنها: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وما قاله ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو خطأ، حيث زعم أنها نبية!؛ لأنه يقول: إنه أوحي إليها ولا يُوحى إلا إلى الأنبياء.

فيُقال له: قول الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] الإيحاء الذي ذكره الله ﷻ هو إلهامٌ، وليس الوحي الذي يأتي إلى الأنبياء كالوحي الذي أوحاه إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل: ٦٨].

فالمقصود: أنَّ هذه الآية تدلُّ على أنهم اتخذوا نبيهم معبودًا يعبدونه، ولهذا يسأله الله ﷻ يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فيتبرأ من ذلك ويقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، يعني: أنا مربوبٌ مخلوقٌ لله ﷻ عبدٌ له تَعبَّدني وأنا قمت بالعبادة التي كلفني الله بها، وإنما أمرتهم الشياطين.

وهكذا يسأل الملائكة كما قال ﷻ عندما يحشرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]. **والمقصود** بـ«الجن» هنا الشياطين التي أمرتهم بهذا، فكذلك كلُّ من عَبَدَ نبيًّا أو وليًّا أو رجلًا مُطيعًا لله ﷻ؛ فالذي أمره بهذا هو الشيطان وعبادته تقع للشيطان.

ولهذا إذا كان يوم القيامة جيء بالمعبودات كلها؛ فإن كان المعبود الذي عُبد نبيًّا أو وليًّا رجلًا صالحًا أو مَلَكًا أو غير ذلك ممن هو مُطيعٌ لله فإنه يُؤتى بشيطانٍ على الصورة التي تخيلها ذلك العابد، ثُمَّ يُقال لهم: اتبعوهم إلى النار فيتبعونهم كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩]، ولكنهم يُلقون فيها هم وعابدوهم، ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾ [الشعراء: ٩٤ ـ ٩٥].

فيبقى بعد ذلك المؤمنون في الموقف وحدهم ولكن معهم المنافقون؛ لأنَّ المنافقين كانوا مع المؤمنين في العبادات الظاهرة ـ كالصلاة والصوم وما أشبه ذلك ـ، ولكنهم في الباطن ليسوا معهم، بل هم أعداء لهم، فالنفاق هو: أن يُظهر الموافقة ويُبطن المخالفة، فيُظهر الخير ويُبطن الشرَّ، يُظهر أنه مسلمٌ وهو في الباطن مع الكافرين.

فيأتيهم الله ﷻ ويقول لهم: **«ما يَحبِسُكُم وقد ذهبَ النَّاسُ؟ فيَقُولُونَ: فارَقْنَاهُمْ، ونحنُ أحوجُ مِنَّا إليه اليومَ، وإنَّا سمعنا مُنادِيًا يُنادِي: لِيَلحق كلُّ قوم بما كانُوا يَعبدُونَ، وإنَّما نَنتظِرُ ربَّنَا، قالَ: فيأتِيهِمُ الجبَّارُ في صورةٍ غيرِ صُورتِهِ التي رأوهُ فيها أوَّلَ مرَّةٍ، فيقُولُ: أنَا ربُّكُمْ، فيَقُولُونَ: أنتَ ربُّنَا، فلَا يُكَلِّمُهُ إلَّا الأنبِياءُ، فيَقُولُ: هل بَينَكُم وبَينَهُ آيةٌ تعرِفُونَهُ؟ فيَقُولُونَ: السَّاقُ، فيَكشِفُ عن ساقِهِ، فَيَسجُدُ لهُ كلُّ مُؤمِنٍ، ويَبقَى من كانَ يَسجُدُ لِلَّهِ رِياءً وسُمعَةً، فَيَذْهَبُ كَيمَا يَسجُدَ، فَيَعُودُ ظَهرُهُ طَبقًا واحِدًا»**[1]؛ أي: صار ظهره طبقةً واحدة ما يستطيع أن يسجد، **«كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣] (١٢٩/٩) برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٦٧/١) برقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

خرَّ علَى قَفَاهُ»[(١)]، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟﴾، يعني: في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣]، ما سجدوا لله، وإنما سجدوا لأنفسهم اتقاءً لسلاح المؤمنين، فوافقوهم موافقةً نفعية دنيوية؛ فما أجْدَت وما نفعت، بل ضرتهم وصاروا في الدرك الأسفل من النار تحت الكافرين، حيث كانوا يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، غيرَ أنهم أضرُّ خلق الله على أهل الإسلام، فإنهم يُخالطونهم ويعرفون أسرارهم فيفشونها للكافرين، ويُعاونون الكافرين عليهم، ولهذا حذر ربُّنا ﷻ منهم كثيرًا.

فقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ «أأنت» هنا استفهام تقريري، يعني: أأنت قلت هذا القول: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ﴾. وهذا لأنه كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦] إذا كان المرسَلُ يُسأل فما حالة المرسل إليه؟ الرسول يُسأل: هل بلغت؟ هل أنت أمرت بعبادة الله أو بعبادة نفسك؟ هذا فيه تهديدٌ شديدٌ للكافر؛ مثل ما قال الله ﷻ في الموءودة: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]، و«الموءودة» البنت الصغيرة لا ذنب لها، قُتلت بلا ذنب، فتُسأل؛ فإذا كانت تُسأل فكيف القاتل؟ وكيف الوائد؟ أي: أنه هالك هلاكًا عظيمًا ومُعذَّبٌ عذابًا أليمًا.

عيسى ﵇ يتبرأ من ذلك ويخبر بالواقع فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ لأن هذا حقُّ الله، ليس حقًّا لأحدٍ من الخلق، لا نبيٌّ ولا ملَكٌ.

ثُمَّ قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ يعني: أنه ما وقع، ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦] إلى آخر الآيات التي ذكرها الله ﷻ عن نبيه، وهذا كما سبق يكون يوم القيامة إذا حاسب الله الخلق، فيبدأ بالرسل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] أي: لماذا لم تُجابوا؟ ما الجواب؟ ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، هل هذا جواب أم هذا حيدٌ عن الجواب؟ الكفار الذين امتنعوا بمقدورهم وإرادتهم، ونحن دعوناهم ولكنهم أبوا، ولكن الموقف؛ موقفٌ شديد هائل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠]؟ فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ».

الشرح

قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، «الرباني»: الذي يتربى بصغار العلم قبل كباره حتى يُصبح عالمًا عارفًا، فهكذا الأنبياء يأمرون بالتعلم، وليس ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ بمعنى: أرباب، وإنما «الرباني»: هو الذي تربى بالعلم والهدى ثم ربَّى غيره على ذلك، ولهذا قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: تتلقونه عن الأنبياء من العلم الذي هو وحيُ الله الذي أوحاه إليه.

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ﴾، الذي يأمر اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا هم الشياطين، والشياطين إما أن يكونوا من الجن، أو أن يكونوا من الإنس، حيث تجتمع شياطين الإنس والجن يأمرون بهذا، وهم يتضافرون، بعضهم يوحي إلى بعض، شياطين الجن توحي إلى شياطين الإنس فينشطون على ذلك.

كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ أي: من الأنبياء ﴿عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] يعني: أنهم يتعاونون على الباطل ثم يكون ذلك فتنةً، ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣] أي: تميل إليه، ولهذا صار أكثر الناس ـ نسأل الله العافية ـ على الباطل؛ اتباعًا لشياطين الجن والإنس.

ففي هذه الآيات: الأمرُ بعبادة الله وحده، وذكرُ أن الرسل كلهم متفقون على هذا، وهذا أمرٌ واضح لا إشكال فيه.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر من الاستدلال بالآيات في التوحيد وضده؛ لأن الخلل قد وقع في هذا الأمر في وقته وفيما بعد، فكثيرٌ من الناس صار يتأله غيرَ الله ﷻ مع الله، مما يسمونهم أولياء...!، ويكون الشرك ظاهرًا في بعض الأمم من عبادة غير الله ﷻ، والعبادة لغير الله ﷻ تكون أنواعًا متنوعة كما هو معلوم.

ولكن الإنسان خُلق ليكون عبدًا لله وحده، أما إذا توازعته مظاهر الدنيا، صار يعبد شهوته، وقد يعبد دنياه، وقد يعبد أشياء متنوعة كثيرة، حتى أصبح كثيرٌ من الناس الآن يعبد الدنيا، بل قد يعبد لعبته التي يلعبها، وقد يعبد مركوبه، وقد يعبد من هو فوقه في وظيفة وما أشبه ذلك، بمعنى أنه يطيعه في معصية الله، كما ذكر في هذه الآيات، فمن قدم طاعة مخلوق على طاعة الله فقد عبد ذلك المخلوق، ومن قدَّم شهواته على أمر الله فقد عبد تلك الشهوات، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ والخَمِيلة**»[(١)]، والخميصة والخميلة إما كساء وإما فراش، والعاقل كيف يكون عبدًا لقطعة ذهب، أو قطعة فضة، أو شيء يلبسه، أو شيء يطؤه؟!

وكذلك كل ما استولى على عمل الإنسان أو على فكرِه أو تنازَعه؛ صار فكر الإنسان أو عمله مقسمًا بين ربِّه وبين أمورٍ أخرى، فهو عبدٌ للأمور الأخرى وليس عبدًا لله؛ لأنَّ الله ﷻ لا يقبل إلا ما كان خالصًا له، فهذه أمورٌ يجب أن يتنبه لها الإنسان ويأخذ لنفسه قبل أن يفوت الأوان، فإذا حضر الموت فما يستطيع الإنسان أن يتخلص من هذا، ولهذا يذكر العلماء حوادث كثيرة، تقع للناس؛ مثل إذا حضره الموت يقولون له، (قل: لا إله إلا الله) فيأبى ويذكر الأمور التي كانت قد استولت على قلبه، إما أنه يقول افعلوا كذا، أو أنه يقول آمر بكذا أو غيرَه، فلا يستطيع أن يقول: (لا إله إلا الله)؛ لأنه ما كان مخلصًا لله ﷻ، والمعاصي تخون الإنسان في أحرج الأماكن، وأحرجها الموت.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ، بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، فَأَهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالتَّوْحِيدِ، وَقَالَ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»».

الشرح

قوله: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ...»؛ كل من أطاع الرسول فهو مسلم لله مطيع له، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وطاعة الرسول واتباعه هو الذي جاء من عند الله؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة والانقياد له وعدم الشرك به. وإذا خالط الإسلامَ الشرك فهو غير مقبول، وليس هو الإسلام، وليس هو العبادة، وإن سمي عبادةً في اللغة؛ والمشركون عبدوا الله وعبدوا معه غيره، والله نفى أن يكونوا قد عبدوه حقيقة، كما قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣]، ومعلوم أنهم كانوا يعبدون الله، ولكن عبدوا معه غيره، فصارت عبادة غيره معه مبطلة لعبادته، ولا يقبل الشرك في حقه الذي أوجبه، وكذلك في الأمر؛ فالأمر له وحده فهو الحاكم وهو الرب.

وإذا كانوا يقولون: نطيع ربنا في هذه الأشياء ولا نطيعه في الأمور الأخرى؛ فهذا لا يقبله الله ﷻ، ولا بُدَّ من تحكيم أمره واتباع ما جاء به رسوله ﷺ والاستسلام له.

والاستسلام هو دين الرسل كلها، فكلُّ رسولٍ جاء يأمر بعبادة الله وحده، كما قال ﷻ عنهم أنهم كانوا يأمرون أقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فعبادة الله طاعته في أوامره واجتناب نواهيه ثُمَّ التَّأَلُّه له، فيكون التعلق به؛ أي: الطلب منه، والرهبة منه، والخوف منه، والرجاء له، والذل له، وهكذا في جميع ما أمروا به.

ونَسَخ الله ﷻ الأديان بدين محمد ﷺ، وأرسله إلى كل من في الأرض من الجن والإنس، وكل من في الأرض بعد رسالته هم أمة الدعوة، فكلهم مدعوون إلى اتباعه والانقياد له بأمر الله ﷻ؛ فمن أطاعه كان من الأمة الخاصة، ومن عصاه فهو من الأمة العامة؛ أمة الدعوة.

ومن لم يؤمن به ويتبعه فهو في النار، فالله ﷻ أخبر أنه لا يقبل دينًا غير الدين الذي جاء به، فلا يقال: (كلها أديان سماوية وجاءت من عند الله، وكلها طرق إليه)؛ لأن الله نسخها بالدين الذي أرسل به محمدًا ﷺ، ومن أبى متابعته فهو كافر من أهل النار.

ثُمَّ الشِّرك به ﷻ معناه: كونه يتجه بطلبه وبذله وعبادته إلى غير الله؛ سواءٌ جعله واسطةً أو جعله مستقلًا، وغالب شرك المشركين بالوساطة، فيجعلونه من باب التوسط؛ حيث إنهم يقولون: إنَّ الوساطة قد تكون أبلغَ في إجابة الطلب كما قاسوا هذا على ما يشاهدونه فيما بينهم، ويرون أنَّ الوصول إلى الكبير والرئيس أو الملك إذا كان بوساطةٍ فهو أقربُ إلى الإجابة، وإلى أن يحظوا بما طلبوا، فقاسوا رب العالمين على المخلوق الضعيف الذي لا يعلم ما يحيط به حتى يعلم بذلك، وهو كذلك لا يستطيع أن يصرف الأمور إلا أن يكون له أعوانٌ وخدمٌ يمتثلون أمره ويعينونه على مُلكِه.

أما ربُّ العالمين ﷻ فأعلمَهم أنه مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء، وأنه لا يفوته سمعٌ؛ فإذا طلبت في أيِّ مكان كنت؛ فالله يسمعك ويراك ولا يخفى عليه شيء، فلا داعي لأن تذهب إلى من تطلب منه الوساطة، فإن هذا ظنٌّ سيئ بالله؛ لأن هذا الذي طلب منه الوساطة ظنَّ أن له حظوةً عند الله، فيكون شريكًا في ملكه كما لملوك الأرض؛ فإن المَلك له وزراء وكبراء وشركاء له في ملكه

يدبرون معه المُلك، وهو بحاجة إليهم، فيعطيهم ما يطلبون حتى لا ينتقضوا عليه، وهذا في حق الله باطِلٌ، فربُّ العالمين ﷻ لا منازع له، ومن نازعه شيئًا عذَّبه - تعالى وتقدس -.

ثُمَّ كذلك هو لا يخفى عليه شيء؛ فالعبد أينما كان فإن الله يسمعه ويراقبه ولا يخفى عليه شيء من تصرفاته، فلا حاجة لوساطة، بل جعل الوساطة كفرٌ وشركٌ بالله ﷻ، فكلُّ شركِ المشركين من هذا الباب.

وأصل الشرك في العباد اتباع الشيطان؛ لأن الشيطان عصى ربه في أول الأمر وأقسم له أنه سوف يضل كل من استطاع إضلاله، وقال لربه ﷻ في آدم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢]؛ أي: أجعلهم تحت حنكي وأتصرف فيهم، فأمره ﷻ أن يذهب وأن يجتهد بِخَيله وبصوته؛ لإضلال من يستطيع، وأخبره ﷻ أن عباده ليس له عليهم سلطان، فلا يستطيع أن يضلَّهم، وإنما يضلُّ من أطاعه واتبعه وترك أمر الله ﷻ.

فالمقصود: أنَّ أكثر الناس أشركوا بالله قياسًا على ما يشاهدونه فيما بينهم، فجعلوا لله ﷻ، مثل من يتَّجه إليه ويطلب منه الشفاعة، وهذا شركٌ بالله، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣]، أي: إمَّا أنهم لا يسمعونكم، وليس لهم مُلْكٌ فيما يُطلب منهم، فالملك كله لله، أو أنهم لا يعقلون؛ لأنهم إما جماد من شجر أو حجر، أو لا يسمعون لأنهم أمواتٌ أو غائبون، فهذه المعبودات لا تخلو من هذا.

ثم إذا سئلوا هل لهم اشتراك مع الله في الخلق والإيجاد وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: لا، بل كل الخلق لله ﷻ فيتناقضون في هذا، فكيف يطلبون منهم وهم عَبيدٌ مثلهم، فقراء إلى الله ﷻ، وكيف يتجهون إليهم؟!

يقولون: (لأنهم أولياء، أو لأنهم أنبياء، أو لأنهم ملائكة مقرَّبون عند الله، وقد رأينا أن المقرَّب عند المعظم أنه إذا طلب لمن طلب منه التوجه أو التوسط يكون أنجع لطلبته)، فقاسوا ربَّ العالمين على الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فأمر رسله أن يقوموا لهم: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فالمقصود: أن العبادة يجب أن تكون لله وحده فهي حقُّه، وكذلك ما يخصُّه كما سبق من الأسماء والصفات، فيجب أن تكون له وحدَه ويعبد بها ولا يوصف بما

يوصف به المخلوق، فهذا كله شركٌ؛ فإذا وصف العبد ربَّه بما يختصُّ به المخلوق فقد أشرك بالله ﷻ في وصفه وأسمائه.

ومن طلب أن يكون له وساطةٌ في العبادة والتوجه والنفع والضر من المخلوقين؛ فقد أشرك بالفعل الذي أمر به، فالشرك يكون في الأمر ويكون فيما يخص الله ﷻ من الصفات.

وقد بيّن ﷻ أنَّ شرك المخلوقين وقع لمخلوقات لا تتصرف بنفسها؛ كالشمس والقمر والشجر والحجر ووقع للملائكة، وسوف يسأل الله ﷻ كل معبودٍ، فيقول للملائكة إذا حشر الناس: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾، فيقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]، يعني: أن الشياطين هم الذين أمروهم بعبادة غير الله ﷻ، فالعبادة وقعت على الشياطين الذين أمروهم بعبادة غير الله.

ولهذا إذا جُمِعوا يوم القيامة وأراد الله ﷻ أن يفصل بينهم ويحاسبهم يؤتى بكل معبود على صورته وهيئته، ويقول لهم: (اتبعوا معبوداتكم)، فيتبعونها إلى جهنم، ومن كان معبوده نبيًا؛ مثل: عيسى وأمه، أو عُزير، أو ولي، أو طائع لله؛ فإنه يؤتى بشيطان على صورته، ويقال له: (اتبع معبودك إلى جهنم).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩]، فالعبادة يجب أن تكون لله، فجعل جهنم جزاءً لمن عبد غيره، ويكون خالدًا فيها.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالله ﷻ بيّن هذا غاية البيان على ألسنة الرسل، فلا عذر لمن جانبه وتركه، والخلق كلهم عبيد الله ﷻ، وكل بني آدم يقر بأنه هو الخالق وحده، وأنه لا شريك له في مخلوقات المشاهدة ولا في غيرها؛ ولهذا فالمشركون الذين بُعِث فيهم رسولنا ﷺ ما كانوا أهل علم، وإنما عندهم عقولٌ وأفكارٌ؛ فإذا سُئلوا: مَن خَلَقَهم؟ قالوا: (الله)، وإذا سُئلوا: مَن الذي ينزل المطر وينبت النبات؟ قالوا: (الله وحده، وليس له مشارك في هذا)، وإذا سُئلوا: مَن خلق المخلوقات كلها؟ يقولون: (الله)!

فإذا كان هو الخالق فإنه يجب أن يكون هو المعبود؛ لأنَّ الذين اتَّجهوا إليهم عبيدٌ مثلهم لا يملكون شيئًا، ليس لهم خلقٌ، وليس لهم أمرٌ ونهيٌ مع الله ﷻ، فصارت عبادتهم لهؤلاء من باب المتابعة والتقليد لما كان عليه الآباء، وليس لهم حُجَّةٌ.

وإذا قيل لهم: اتبعوا الرسول، قالوا: (نتبع ما وجدنا عليه آباءنا)، وكذلك قوم إبراهيم لما سألهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء: ٥٢]، ما صار عندهم حجة إلا أن قالوا: (وجدنا آباءنا هكذا يفعلون)!

فالمقصود: أنَّ العبادة يجب أن تكون لله، والطاعة يجب أن تكون لله؛ لأنَّ الخلق له ﷻ، فيكون الأمر والعبادة له، ثُمَّ هو الذي يملك النفع والضر، وهو الذي يملك تنعيمَ من عَبَده وإكرامَه، وتعذيب من عصاه في جهنم خالدًا فيها.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه يجب على الإنسان أن يأخذ لنفسه ويحتاط ويفكر في الأمر قبل أن ينتهي العمر؛ لأنَّ وقت العبادة هو العمر في هذه الدنيا، فبعد ذلك لا يُقبل منه رجوعٌ ولا توبةٌ ولا غيرها، والله ﷻ هو الذي يجب أن يُعبد، والمشركون يقرون بهذا، ولكنهم يجعلون له شريكًا مملوكًا له، فكيف المملوك يكون شريكًا للمالك؟!

وهذا أمر يأنفون منه، ولهذا ضرب الله ﷻ له أمثلة، ولكنهم لا يعقلون؛ للتقليد ولتعظيم الآباء، وللعناد والكبر، فكانوا في الجاهلية يقولون في تلبيتهم: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»؛ فإذا كان مملوكًا لا يملك شيئًا؛ فكيف يكون شريكًا؟!

وكان عمرو بن لُحَي الخزاعيُّ يقود الحُجَّاج ـ فهو كبيرهم وأميرهم، وكان كاهنًا يتبع الشيطان ـ فإذا لبَّى قال له شيطانه: (إلا شريكًا هو لك)، فأنكر هذا، فالله ليس له شريك، فقال له: (تملكه وما ملك)، فلما قال له ذلك تابعه، فصار يلبِّي بذلك، وأتباعه سلكوا هذا المسلك إلى أن جاء محمَّدٌ ﷺ وأمرهم بعبادة الله وحده، وكان يقول لهم إذا قالوا: (لبيك لا شريك لك)، يقول: «حسبكم»، يعني: هذا يكفي، ولا تأتون بما بعدها، ولكنهم لا يطيعونه فجاء بالتلبية التي هي توحيد الله.

وفي **قوله: «لبيك لا شريك لك»**، لبيك معناه: طاعة بعد طاعة، «لك»، يعني: أني ملازم لطاعتك، ومقيم عليها، ولا أحيد عنها، وكذلك أتباعه على هذا.

المقصود: أنَّ قوله: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ...» من أولهم إلى آخرهم، «لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ...» أو الملائكة أو أحدًا من الخلق شارك الله في الخلق والإيجاد، هذا لا يوجد لا من المشركين ولا من غيرهم من العلماء الذين عندهم علم والذين ليس عندهم علم، وإنما الثنوية الذين هم المجوس زعموا أن للعالم خالقين ولكن أحدهما أعلم من الآخر، فخالق الخير عندهم النور الذي هو أصله النار، ولهذا يعبدون النار ويُوقدونها دائمًا ولا يدعونها تطفأ؛ لأنها إلههم. والثاني: الظُّلمة وهي إلهٌ شرير يأمر بالشر ويفعله؛ وكل هذه مزاعم باطلة زيَّنها الشيطان لهم وإلا ليس لهم عليها دليل، هؤلاء الذين قيل فيهم هؤلاء.

ولهذا جاءت الأحاديث والآثار أنَّ القدرية هم مجوس هذه الأمة، والسبب أن القدرية يقولون: (إنهم هم يخلقون أفعالهم)، فصاروا مشابهين لأولئك الذين يقولون: (إن العالم يخلقه خالقان)، فهؤلاء جعلوا الأفعال التي تصدر منهم هم الذين يبتدئونها ويوجدونها بقدرتهم وإرادتهم، فصاروا مجوسَ هذه الأمة.

أمَّا الشُذَّاذ الذين شَذُّوا عن هذا ـ مثل فرعون والنمرود وغيرهما ـ فهؤلاء يدعوا أنهم شاركوا الله في خلق السموات والأرض أو في خلق شيء، وإنما ادعوا أنهم هم المعبودون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] يقوله فرعون، وهذا كذبٌ وإنما هو يقوله أمام السُّذَّج أتباع كل ناعق، يتبعون القوي، إذا رأوه مُتسلطًا قويًّا اتبعوه بدون دليل، اتبعوه على هذا.

ولكن لما وقع الأمر وأدركه الغرق قال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١] أي: الآن لما عاينت الموت! ما يفيدك ذلك، هذا لو قلته أول لما كنت متمكنًا من الإيمان والعمل قبل أن تغرق لنفعك.

فهذا مثل ما إذا كان الإنسان عاصيًا شاردًا وحضره الموت فعاين علاماته وأصبح ميئوسًا منه يقول: آمنت، يُقال له: ما يُفيدك هذا الإيمان، كما روي عن الرسول ﷺ: «تُقبل توبة التائب ما لم يُعاين»[1]؛ أي: ما لم يُعاين الملائكة؛ فإذا عاينها انتهت حياتُه وجاءوا لقبض رُوحِه، ولا يُعاينهم غيرُه من الحاضرين عنده، فإنه يُشاهدهم ويراهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (بنحوه) برقم (٦٦٦١) عن ثوبان ﷺ.

وكذلك في الحديث الثاني: «**تُقبل توبة التائب مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[١] وهو المعنى ذاته، «يُغرغر» أي: تصل روحه إلى مكان الغرغرة وهو الحلقوم، ففي هذه الحالة انتهت حياته فلا تُقبل منه.

فالمقصود: أنه لا أحد زعم أن المعبودات من الملائكة أو من الرسل ولا من غيرها تتصَّرف مع الله ﷻ بالخلق والإيجاد، ولكن وجد في مشركي هذه الأمة من المتأخرين الآن من يزعم أن مخلوقًا من المخلوقات له التصرف، ويقولون: (جعل الله له ذلك)! هم يسمون أولياؤهم: (أقطابًا، وأوتادًا، ونُجباء، وأبدالًا)، يسمونهم عدد أربعين، وأربعة، وواحد، فالأربعون يرجعون إلى الأربعة، والأربعة ترجع إلى الواحد الذي هو القطب، والقطب هذا هو الذي يُدير الأمور، وهذه كلها خزعبلات وأمورٌ خيالية لا حقيقة لها، وهي من الدعاوى والافتراءات التي تكثر؛ كمن يقول في كرامات أحمد البدوي أو غيره: (لا يدخل البلد أحدٌ إلا بإذنه ولا يخرج أحدٌ إلا بإذنه)! وهذه كلها دعاوى باطلة، يُزينها الشياطين، الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالسُّحت، يُخيفون الناس العوام الذين لا يعرفون شيئًا حتى يعبدوهم ويقربوا إليهم القرابين التي يأكلها السدنة، الذين هم دُعاة الشرك والضلال ـ نسأل الله العافية ـ، وهم لا دليل لهم عليه، وإنما قد يُوجدون حكايات مكذوبة لا تجدي شيئًا.

فالمقصود: أنَّ العالم كلَّه يُقرُّ بأن الخالق هو الله، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]؛ فهذا إقرارٌ منهم.

وقد عُرف وعُلم في سيرة الكُفَّار والتَّواريخ وكُتب التفسير وشروح الحديث وغيرها من الأمور الثابتة وفي القرآن أيضًا: أن الكفار المشركين الذين بُعث فيهم الرسول كانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده، وإذا ركبوا في البحر

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الدعوات (٥/ ٥٤٧) برقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/ ١٤٢٠) برقم (٤٢٥٣)، وأحمد في مسنده (١٠/ ٣٠٠) برقم (٦١٦٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وعصفت بهم الرياح أخلصوا الدعاء لله وقالوا: (لا يُنجيكم في مثل هذا إلا الله)، وإذا كان معهم أصنام ألقوها في البحر قالوا: (ما تنفع ولا تجدي شيئًا).

ذكروا أن عكرمة بن أبي جهل ﷺ كان يستعد لقتال الرسول ﷺ ويتوعد، فلما جاء ﷺ إلى فتح مكة هرب ووَافَق سفينةً في جدة تُريد الإبحار إلى الحبشة أو إلى اليمن، فركب معهم هاربًا. يقول: فعصفت بهم الريح فقال: صاحب السفينة أخلصوا الدعاء لله فإنه لا يُنجيكم في هذا المقام إلا الله، وإذا كان معكم أصنام فألقوها في البحر، ففكر في نفسه قال: إذا كان لا يُنجيني في مثل هذا إلا الله فكذلك إذا نجوت إلى البر لا يُنجيني إلا الله، لئن أنجاني الله ﷻ من هذه لأذهبن إلى رسول الله وأضع يدي بيده فليفعل ما يشاء، يقول: فكان هذا سبب إسلامه.

والله ﷻ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] الخطاب للكافرين. فالمشركون يعرفون هذا تمامًا، ولكن انتكست عقول المتأخرين من المشركين فصار أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء للمقبور وقصده وصار يبكي عند قبره ويتضرع ويقول: (انقذني من كذا، وإني وقعت في كذا)!

وذلك لأن عقول هؤلاء منتكسة ولم ينتفعوا من عقولهم ولا من الشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ، ولم ينظروا في الكون كله، يقول الله ﷻ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]؛ أي: آيات، ألَا يُبصر الإنسانُ نفسه كيف خلقت وكيف تعيش؟!

فنحن بني آدم، منذ نزل أبونا آدم إلى اليوم؛ ما نجد اثنين يتشابهان من كلِّ وجهٍ، أليست هذه آية؟ فلا يُشبه هذا ذاك، بل لا يُشبه صوتُ هذا صوتَ ذاك، والأصوات نفسها تتغير، بل المرأة صوتها غير صوت الرجل، والصبي صوته غير صوت الكبير، فآياتٌ في الأنفس وفي خلقها وغير ذلك، ولكن يغفل الناس عن هذه الأمور، وهي من الآيات التي تكون داعيةً إلى أن يُعبد الله وحده، لا تكون العبادة لغيره.

قوله: «وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ» كلمة «صانع» هذه لا يُسمى الله ﷻ به، وإنما يُسمى المخلوق الإنسان صانعًا؛ لأن الصنعة تكون للخير وتكون للشر، والله ﷻ ما يُضاف له إلا ما هو جميلٌ حسنٌ ليس فيه نقصٌ ولا عيبٌ، هذا شيء.

والشيء الثاني: أنه لا يجوز أن نُسمِّي الله ﷻ إلا بما سمَّى به نفسَه أو سماه رسوله ﷺ به، ولكن لو قال: إنَّ هذا من باب الخبر، وليس من باب التسمية فيجوز. وهذا مثل ما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]، نحن لا نُسمي ربَّنا زارعًا. وكقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٩] «قُلْ: أَيُّ شَيْءٍ...؟» هل نُسمي الله شيئًا؟ لا يُسمَّى الله شيئًا، ولكن يُخبر عنه بأنه شيء ولا يُسمى به، فلا يشتبه علينا الأمر في هذا.

والشرك الذي وقع فيه الناس هو شركٌ في الأمر والنهي فقط، أما شركٌ في الخلق فهذا لم يوجد إلا عند المتأخرين. والآن الذين يعبدون القبور يزعمون أن الأولياء يتصرَّفون في الكون، وأنه لا يدخل هذا البلد أحدٌ إلا بإذنهم، وهذا في الواقع مسخٌ للعقول والأفكار والفطر، فعقولهم سخيفة جدًّا، وفطرهم تغيرت وذهبت؛ أما الكفار الأولون فهم شركهم في الرخاء فقط، لكن إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدين لله ﷻ، وإذا سُئلوا قالوا: (إن هذه الآلهة ليست لها ذنوب ونحن نريد منها أن تقربها إلى الله زلفى) يعنون: (تشفع لنا)، هذا شركهم.

أما أنَّ أحدًا يزعُم أنَّ لله شريكًا في الخلق وفي الأمر، فهذا لم يقع إلا من بعض الشُّذاذ المتكبرين، مثل فرعون الذي أنكر رب العالمين وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولكنه إنكاره باللسان فقط، ولهذا لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: الآن لا ينفع؛ لأن الحياة انتهت، فلا ينفع الإذعان في مثل هذه الحالة.

المقصود: أن شرك المشركين ما لهم دليلٌ فيه، حيث ظهور الأمر الواضح الذي هو خلق الله وتصرفه بالأشياء، ولهذا يستدِلُّ الله ﷻ عليهم بهذا الشيء، على إبطال شركهم، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، هل أحد منهم زعم أنه شارك الله في خلقهم؟ هذا ما يوجد. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، يعني: تعلمون أن الله هو الخالق لهذه الأشياء تمامًا ليس له مشابِهٌ، فكيف تجعلون له نظراء تطيعونهم وتعبدونهم وتقدمون لهم النذر أو الطلب والشفاعة وغيرها وأنتم تعلمون أنهم ليس لهم شيء مما ذُكر؟! هذا ضلالٌ بيِّن، وهكذا شرك المشركين كلهم بهذه المثابة.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ: مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ، فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إِثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا مُمَاثِلٍ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ؛ بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثنوية، الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ: «النُّورِ» و«الظُّلْمَةِ»، وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ، ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ، وَالثَّانِي: أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إِلَّا الشَّرَّ، فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ».

الشرح

قوله: «أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ»، يعني: الذين يكتبون في مقالات الناس؛ مثل: الشهرستاني في «الملل والنِّحل»، ومثل: ابن حزم في «الفِصل في الملل والأهواء والنِّحل» وغيرهم كثير، فلم يذكروا أن أحدًا من الناس من بني آدم أنه زعم أن لله مشاركًا في الخلق والإيجاد، وهم يُريدون استيعاب أقوال بني آدم، ما تركوا شيئًا إلا ذكروه من الأمور التي بلغتهم، وكثيرٌ من هذه تُؤخذ أيضًا من القرآن.

قوله: «الثنوية»: هم المجوس؛ ذكر المؤلف رحمه الله الثنوية، وأنهم يقولون بوجود أصلين: **«النُّورِ» و«الظُّلْمَةِ»**، وأنَّ النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر...؛ فكلُّ هذا زعمٌ باطِلٌ، وهو تصوُّرٌ من تصورات الشيطان لهم، أنهم يعبدون النور والظلمة، والنور أصله النار، ولهذا يوقدون على النار دائمًا، فيجعلون لها من يُوقِدُها ولا تطفأ أبدًا، فكيف تعبد النار أو تعبد الظلمة؟! ثم يقولون: (إن هذا هو الأصل الذي في الخلق)، وهو فنونٌ كاذِبَةٌ، وعقول سخيفة، ثم يقولون: (النور إله الخير، والنار إله الشر، وإله الخير يغلب إله الشر)، فهذا معناه أنهم لا يأتون بإلهين متساويين، هذا ليس قدوة ولا حجة؛ لأنهم منحطون في أفكارهم وفي أعمالهم.

أما أهل العقول فيعلمون أن الإله هو الله وإن عبدوا معه غيره، ولا يختلفون في هذا، فكل من سئل عن المخلوقات أخبر بأن الله هو خالقها وحده.

قوله: «**وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ...**» اعتقاد المجوس أن الأرباب اثنان: إله الظُّلْمة وإله النور؛ فإله النور عندهم يغلب إله الظلمة، وإله الظلمة شرير لا يفعل إلا الشر = وكلها سخافة وأمور ما لهم عليها من دليل، وإنما هي مثل دعوى المشركين الآخرين.

ولكنهم متفقون على أن الذي يتصرف التصرف الكامل واحدٌ، فيكونون مثل الناس أن المتصرِّف هو الله ﷻ.

فالمقصود: أنه إذا رجع الإنسان إلى عقله يعلم أن خالق هذه الأشياء المشاهدة هو الله ﷻ، وأنه لا مشارِكَ له؛ أما العناد أو الشذوذ أو الاستكبار فهذه لا عبرة بها؛ لأنه يقول الباطل في ذلك ولا يُريد الحق.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]».

الشرح

قوله: «وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ» نوّع الله ﷻ الأدلة في كتابه على إبطال الشرك ووجوب عبادته؛ لئلا يكون لأحد حجة أو شبهة في هذا، فأخبر أنه هو الخالق وحده للمخلوقات كلها، وهو الرزاق لهم، وأنه لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلّا هو ﷻ.

ولهذا كثرت الأسئلة التي يسألهم بها، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾، يعني: أنه إذا أرادني الله ﷻ بضُرٍّ هل يمكن أن لهذه المعبودات أن تمنع رحمته عني؟ أتحُولُ بيني وبينها؟! فسألهم عن ذلك بما أمره الله فسكتوا؛ لأنهم يعلمون أن هذا لا يكون، كما يقال: (سألهم فسكتوا).

وكذلك الرسل كانوا يتحدَّونهم بأن يضرُّوهم بشيء؛ كما قال هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]؛ أي: لا تتأخروا لحظة فاجتمعوا كلكم، واعملوا ما يمنعهم من أن يصلوا إليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١]، وهكذا كل الرسل.

وهذا من آياتهم، حيث يأتون أفرادًا إلى أقوامهم ومعبوداتكم، فكيدوهم إن كان لكم أمرٌ مع الله، فالله يمنعكم من هذا.

فالمقصود: أن عبادة الله وحده هي التي كلَّف بها عباده، ومع ذلك أكثرهم يصد عن هذا ويمتنع، حتى قال قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، يستنكرون هذا أشد الاستنكار؛ لأنه جاءهم بعبادة الله وحده وترْك عبادة ما كان يعبده آباؤهم، وليس لهم غير هذه الحجة، وهي أنهم يتبعون آباءهم؛ كما يقول الضعفاء والأتباع عن سادتهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨]، واللعن شامل لهم؛ للتابع والمتبوع، والعذاب كذلك لهم جميعًا؛ لأن التابع أهدر عقله وفكره، وجعل في رقبته قلادة يقوده بها رئيسه، وإذا قال له الكفر والمعاصي اتبعه بدون تفكر وبدون نظر، ولهذا صار مستحقًّا لعذاب الله ﷻ؛ لأن الطاعة يجب أن تكون لله على يد رسوله ﷺ، وأما غيره من الخلق وإن كان أباك وأمك فإنه يجب أن تكون طاعتهم تبعًا لطاعة الله وطاعة رسوله، ولهذا قال ﷺ: «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[1]، فلا طاعة مطلقة إلا لله ﷻ، وطاعة الرسول طاعة لله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ لأنه هو الذي جاء بأمر الله.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾، يعني: أنهم يؤمنون بأنَّ الله ﷻ هو الخالق وحده، ثم الله أمر رسوله أن يسألهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ يعني: آلهتكم هذه التي تدعونها من دون الله إن أرادني الله ﷻ بضرٍّ هل تستطيع أن تكشف الضر وتُزيله!؟ أو تخفف منه!؟ وإن أرادني برحمة هل تستطيع أن تمنعها؟! يقول مجاهد رحمه الله: (فسألهم فسكتوا)؛ لأنهم يعلمون أنها لا تفعل شيئًا.

قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله هو كافيني، أكتفي به وهو حسبي.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾ [الزمر: ٣٨]؛ أي: تعتمد قلوبهم عليه، فهو الذي يكفيهم ويحميهم ويحوطُهم؛ لأنهم عبدوه، فيحوطهم من كلِّ سوء؛ لأنهم عبيده.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان... (٩/ ٨٨) برقم (٧٢٥٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٣/ ١٤٦٩) برقم (١٨٤٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]».

الشرح

قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ هذه الآيات تُبين أن الأمم السابقة كلها؛ تعلم أنَّ لله المخلوقات، وأن فوقها سبع سموات، وهذا أمر تواتر عن الأمم كلها لم ينكر أحد ذلك.

وكذلك الأرض المشاهدة؛ إذا قيل لهم: من الذي خلقها؟ ومن يتصرف فيها؟ ومن يُنبت النبات فيها؟ ومن وضع الجبال فيها، وجعل فيها أنهارًا وجعل فيها أشجارًا وثمارًا؟ كلهم يقولون: (الله).

أما الذي يقول: (الطبيعة)، فيُقال: ما هي الطبيعة؟ هل هي تخلق وترزق أو تُوجِد؟ فإن كان الطبيعة يقصد بها: الهواء والماء والطين، فهذا لا قيمة له ولا يتصرف بشيء.

وكذلك إذا سُئلوا؛ لأنهم يؤمنون بالعرش: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾، يعني: من الذي أوجدها وخلقها ويتصرف فيها؟ يقولون: (الله)، فيُقرون بهذا؛ فإذا كانوا يُقرون بذلك وجب عليهم أن يعبدوه، وإذا لم يعبدوه فهم ظالمون مُنحرفون يستحقُّون عذابَ الله ﷻ، وكلُّ هذا لإقامة الحُجَّة عليهم وقد قامت تمامَ القيام، ولكنهم ليس عندهم إلا التقليد واتباع الآباء فاعتلّوا بذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«... إلى قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقد قالَ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف: ١٠٦]».

الشرح

قوله ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. هذه سنة كونية، فلا يوجد في بلدٍ واحدٍ مَلِكَانِ أو رئيسانِ إلا ولا بُدَّ أن يتنازعَا، فالمغلوب يكون ضعيفًا، ولا يكون مسيطرًا.

ثُمَّ كذلك لا يُشاهَد في الكون تفاوتٌ حتى يقال: هذا خلق هذا الإله، وهذا خلق هذا الإله! بل الكون كله على نمط واحد ونظام واحد متسق متفق لا خلاف فيه؛ فلو كان كذلك لانحاز كل خالق بخلقه، فيكون له وحدَه دون الآخر، ولصار فيه حدود كما هو الواقع في الدنيا، فكلُّ ملِكٍ له حدود في ملكه، وهو منفرد به، ولا يشاركه فيه الملك أو الرئيس الآخر.

والله ﷻ يضرب الأمثال للنَّاس لعلهم يعقلون ويعلمون أن العبادة يجب أن تكون لله وحده، فهذا هو المقصود؛ لأنه ﷻ أوجب على عباده عبادتَه، ثُمَّ أخبرهم وبيَّن لهم على لسان الرَّسول أن من أطاعه فإنه سوف يبعثه ويكرمه غاية الإكرام، ويكون في جوار الله في جنات النعيم، ومن عصى رسله فإنه قد أعد له جهنم ويكون خالدًا فيها ما دامت السماوات والأرض، والله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، يعني: أنهم زعموا أنَّ لله ولدًا، والله نفى هذا تبارك وتعالى.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾. فهذا موجودٌ في كل الدنيا عند أكثرهم ولا يزال موجودًا، ولن يزال إلى أن ينتهي بنو آدم؛ لأنهم يألهون، ولكن الآلهة تختلف؛ مرةً تكون شجرة، ومرةً تكون رجلًا، يكون كبيرًا يُتأله ويُطاع في معاصي الله ويُتبع

على الباطل، ومرَّةً قد تكون شهوةً؛ فقد يكون البطن أو الفرج يكون هو إلهه، لا يُبالي إلا بأن يُحصِّل مقصوده ولا ينظر إلى أمر الله ولا إلى ما جاء به الرسول ﷺ.

وقد يستولي على الإنسان حتى اللُّعبة التي يلعبها فتكون هي مألوهه، فتجده إذا نام بالليل أحلامه فيها، وإذا جاءه سكرات الموت يتخيل أنه فيها، وهذا موجودٌ في أكثر الناس، أمَّا عبادة الله وطاعة رسوله فقد تركوها.

قــولــه: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ﴾، يعني: لو كان قُدّر أن هناك مألوهًا، لا بُدَّ أن يكون له خلق وله تصرف، ولو كان في الوجود أكثر من إله لتميز هذا عن هذا؛ كما يُشاهد الآن في رؤساء الدنيا ومُلوكُها، فكلُّ رئيسٍ له بلدٌ ومملكةٌ محددة يحدُّها كذا وكذا، وإذا دخل عليه أحدٌ قامت من أجل ذلك الحروب والمنازعات؛ فإما أن يغلب أحدهما ويكون هو الغالب القوي، أو يبقى كل واحدٍ تميز في ملكه.

أما أن يكون المُلك كلُّه مستقيمًا كما هو مشاهد في السموات والأرض وكل شيءٍ على نظامٍ واحد، وسير الشمس والقمر = هذا يدلُّنا على أنَّ المالك لهذه الأشياء ليس معه مشارِكٌ، هو واحدٌ لا إله غيره ـ تعالى وتقدس ـ.

فالتَّقديرات ثلاثةٌ:

- لو وُجد مشارك إما أن يتفقَا، وهذا ممتنعٌ كما هو معلوم.
- وإما أن يغلب أحدهما، فيكون المغلوب لا يصلح أن يكون إلهًا.
- وإما أن يتميز كلُّ واحدٍ عن الآخر بملكه وما يتصرف فيه، وهذا لا وجود له في الكون كله، وإنما يوجد في الأرض، في الناس الذين يتنازعون عليها.

فدَلَّ على أنَّ مالك السموات والأرض واحدٌ لا مُنازِع له ـ تعالى وتقدس ـ، والقرآن يُنبه العقول دائمًا على مثل هذه الأمور بالاستدلالات العقلية الشرعية.

قوله: «وقد قَالَ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]». يقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تسألهم: مَن خلق السموات؟ فيقولون: (الله)، فهذا إيمانهم، ثم هم يعبدون مع الله غيره، فهذا شركهم، تسألهم من خَلَقهم يقولون: (الله)، فهذا إيمانهم؛ آمنوا بتوحيد الربوبية وكفروا بتوحيد العبادة.

هذه الآيات نظائرها كثيرة في كتاب الله ﷻ، يستدلُّ على المشركين بأنهم يقرون بأنه هو الخالق لكلِّ شيء، وهو المتصرف في كلِّ شيء، فإذا سئلوا عن ذلك

أقروا به، وزعموا أنَّ معبوداتهم وأصنامهم مخلوقاتٌ ليس لها ذنوب فهم يتقربون بها إلى الله، يطلبون شفاعتها، وهذا من باب القياس الذي قاسوا رب العالمين فيه على المخلوق؛ لأنهم يقولون: (نرى الملوك والكبراء ما تستطيع أن تصل إليهم مباشرة، وإذا أردت أن تنجح طَلِبَتُك تأتي بمن هو مقرَّبٌ إليهم يشفع لك)، فقاسوا الخالق على المخلوق، مع أنَّ الله ﷻ بصيرٌ عليمٌ قديرٌ، ما يحتاج إلى أن تذهب إلى مكان ما، أو تطلب من واسطة تتوسط لك، اسأل ربك أينما كنت فهو يسمعك ويراك = فقياسهم فاسد.

ووقع الشرك من هذا القبيل، فزعموا أنَّ الشِّرك من باب التعظيم، وهو في الواقع تنقُّصٌ لله ﷻ، وذهابٌ للعقول الفاسدة التي قاست المخلوق الضعيف الذي ما يدري ما وراء بيته، وإنما يحتاج إلى من يعلمه ويعاونه ويساعده بخلاف البصير العليم الذي علمه بكلِّ شيء، وقدرته فوق كلِّ شيء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ: يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنَ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى «التَّوْحِيدِ»، فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ: غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ: وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ» وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا، وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ».

الشرح

قوله: «وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ: يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنَ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ...».

المتكلمون الذين يقررون التوحيد جعلوا «التوحيد» هو توحيد الربوبية، فقالوا: (هو واحد في ملكه لا شريك له، وهو واحدٌ أيضًا في أفعاله لا شريك له)، وهذا كله توحيد الربوبية؛ وأمَّا توحيد العبادة الذي جاءت به الرسل فأعرضوا عنه، بل أكثرهم لا يعرفونه؛ لأنهم اشتغلوا بهذا وضلوا، وظنوا أنهم إذا استدلوا على وجود الله فإنه هذا هو التوحيد، ولهذا قال: **«وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ»**، وتوحيد الربوبية لم ينكرْه أحدٌ، فالمشركون كلُّهم مقرُّون بأنَّ الله واحدٌ.

قوله: «وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا». «دليل التمانع» أمرٌ مقدَّر، كأن يقال: لا يخلو الأمر من أن يكون الخالق لهذه الأشياء جماعة أو اثنين أو ثلاثة، والمشاهد أنَّ الخلق متحدٌ ومتَّسقٌ ومنتظمٌ، وهذا لا يكون له إلا خالقٌ واحدٌ غير متعدد.

ثم يقولون: لو قُدِّر أنَّ هناك اثنينِ متنازعينِ أو متقابلينِ، فلا بُدَّ من الخلاف بينهما، وهذا أمرٌ معروفٌ؛ فإمَّا أن يغلب أحدهما الآخر فيكون المغلوب ليس إلهًا ولا يستحقُّ التألُّه لأنه ضعيفٌ، أو يتكافأ وهذا متعذِّرٌ، لأنَّ الخلق مشاهَدٌ بأنَّه على

نظامٍ واحدٍ، والذي يدبِّره ويخلقه واحدٌ وليس اثنانِ كما أخبر الله ﷻ عن ذلك.

فإذَن: كان الأمر أنَّ الخالق واحدٌ ليس معه مشارِكٌ؛ فإذا كان كذلك فهذا كله دليلٌ على وجود الله فقط، وليس دليلًا على وجوب عبادته إلا بالتضمُّن، وهو كون الخالق واجبَ العبادة، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، فالذي خلقنا، وخلق الذين من قبلنا، وخلق السماوات والأرض، هو الذي يجب أن نعبده، والمشركون يعلمون هذا تمامًا.

وأما المتكلمون والفلاسفة وغيرهم من الذين أجهدوا أفكارهم في معرفة ربهم ما وصلوا إلا إلى ما وصل إليه مشركو الأمم السابقة كلهم؛ لأن مشركي قريش علموا أنَّ الله هو المدبِّر لكل شيء والخالق لكلِّ شيء ولم ينفعهم ذلك، ولم يدخلهم في الإسلام.

أي: توحيدهم ـ توحيد الربوبية ـ، أما توحيد العبادة ما يعرفونه ولا يتكلمون فيه، ولا تجد في كتبهم كلمة واحدة في هذا التوحيد إلا ما شاء الله؛ فلو قرأت كتب المتكلمين من أولها إلى آخرها تجدها كلها تدور على إثبات أنَّ الله هو الخالق وهو المتصرِّف في الكون فقط، وهذه الأقسام الثلاثة التي ذكرها يقول: «**هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ**». هذه كلها تؤول إلى شيء واحد، فلا يعرفون القسم الذي هو توحيد العبادة الذي جاءت به الرسل ووقع فيه الخلل.

أما الربوبية فأكثر الناس يؤمن بها ولا ينازع فيها، فحتى المشركون يؤمنون بذلك، أما «دليل التمانع» الذي يقررونه ففي قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وهذا تمانع في التألُّه، وليس تمانع في الخلق والتصرف.

المطلوب: أن يكون معنى «لا إله إلا الله» مفهومًا، ومع ذلك يفنون أعمارهم في الجدال وهم لا يعرفون معنى «لا إله إلا الله»!

والإله هو الذي يؤلَه؛ تأْلَهُه القلوب وتحبه وتنيب له، أمَّا الرب فهو الذي يملك الشيء ويربُّه ويتصرف فيه.

فلغة العرب تفرق بين هذا وهذا، فمعنى «الرَّبِّ» المالك المتصرف، أما «الإله» فهو المألوه الذي يؤله ويُحب ويُخضع له ويُذل.

وكذلك يُذكر عن الأشعري أنه قال: الإله: «هو القادر على الاختراع»[١]، هذا خطأ وضلالٌ؛ ولهذا قال المؤلف: «**حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ: الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ**» إشارة إلى ما قاله الأشعري وغيره في مثل هذا؛ قال أبو الحسن الأشعري: «فأخص وصفه تعالى: القدرة على الاختراع»، وهذا إذا كان كذلك فإنَّ معناه أنه لم يعلم معنى «لا إله إلا الله»؛ إلا أن يقال: (إنه قال ذلك من باب التضمن، وأن الإله المعبود يجب أن يكون هو القادر على الخلق والإيجاد والإحياء والإماتة، وإن لم يكن كذلك فلا يكون إلهًا)؛ فإذا قصد هذا فهو قصدٌ صحيحٌ، ولكن ليس هذا هو المعنى المقصود من قول الرسل: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وإنما المقصود منه أن يكون المألوه الذي يُؤله ويُعبد ويُتجه إليه ويُطلب منه النفع ودفع الضر، هو الله وحده ﷻ.

* * *

(١) ينظر: أصول الدين للبغدادي (ص١٢٣)، والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٠٠).

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلًا: لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا، بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا، وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ».

الشَّرح

المشركون في العبادة فقط، أما القدر فأكثرهم يقُر به، وهذا موجود في أشعارهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ؛ وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللهِ، كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ، وَإِنْ قَالُوا إِنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَهُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً، لَا يَقُولُونَ إِنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنِ الْخَالِقِ، مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ.

فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي قَرَّرُوهُ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ».

الشرح

هذا أمرٌ واضح حتى عند الكافرين، وكلمة «الصانع» هذه كثيرًا ما يُردِّدها المتكلمون، وليست هذه من أسماء الله «الصانع»، ولكن هذا يكون من باب الخبر، وباب الخبر أوسع من باب الوصف والتسمية، وكذلك «القديم» مرَّ معنا، و«القديم» ليس من أسماء الله، ولكنه كثيرًا ما يَرِدُ في لسان المتكلمين، ومخاطبة الإنسان بما يعرف أو باصطلاحه لا بأس به، ولكن يجب أن يُبين أن هذا ليس من أسماء الله.

والمقصود: أنَّ التَّوحيد الذي هو توحيد الربوبية، لم ينازع فيه أحدٌ من المشركين، وإنما الذي نازع فيه ملحدٌ شاذٌّ عن الخلق وجاحد فقط، وإلا فهو في قرارة نفسه يعلم ذلك لظهوره، فهو ظاهِرٌ جليٌّ لا خفاء فيه على أحد ممَّن له عقل.

قوله: «فَهُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً»، يعني: أن هذا أمر متفق عليه؛ فالناس كلهم متفقون على أن الله ﷻ هو المتفرد بالخلق، وقد جعل الله هذا دليلًا يوجب عليهم العبادة له وحده كما سبق التنبيه على هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَكَذَلِكَ «النَّوْعُ الثَّانِي» - وَهُوَ قَوْلُهُمْ: لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ قَالَ: إِنَّهُ يُشَارِكُهُ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ؛ بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

﴿ وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ، كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ»، وَ «الْقِيَامِ بِالنَّفْسِ»، وَ «الذَّاتِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ».

الشرح

قوله: «وَكَذَلِكَ النَّوْعُ الثَّانِي»، يعني: من توحيد المتكلمين الذي هو قولهم: (واحد في صفاته لا مثيل له)، فهذا لم يأتِ عن أحدٍ من الأمم أنه مثَّل شيئًا من المخلوقات بالله ﷻ؛ والتشبيه الذي يتضمن **الشرك نوعان:**

النوع الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا قليلٌ لا يوجد، ولو بحثت في الأمم ما تجدُ أمة أو طائفة تسمى «المشبهة» لها كتبها ولها أئمتها ولها علماؤها، وإنما يوجد أفراد.

النوع الثاني: بالعكس؛ تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا كثير، هذا يقع من كل مشرك، فكل مشرك هو قد شبَّه المخلوق بالخالق، والشرك تشبيه المخلوق الضعيف بالخالق ﷻ في الطلب، وفي الدعاء، وفي شيء مما هو من خصائص الرَّب الإله الحق ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

❁ «ثُمَّ إنَّ الجهمية مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى «التَّوْحِيدِ»، فَصَارَ مَنْ قَالَ: إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً، أَوْ إنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ، أَوْ إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ يَقُولُونَ: إنَّهُ مُشَبِّهٌ لَيْس بِمُوَحِّدٍ.

❁ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الجَهْمِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى، وَقَالُوا: مَنْ قَالَ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ.

❁ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ، وَقَالُوا: لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ؛ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ».

الشَّرح

قوله: «مُسَمَّى التَّوْحِيدِ»، المسمى معناه الذي يدخل فيه هذا الاسم، فإذا قلت: «التوحيد» أدخلوا نفي الصفات في التوحيد، وهذا من أبطل الباطل؛ لأنهم يزعمون أنك إذا وصفت الله بصفات فإنك أثبتَّ آلهةً مع الله؛ لأنك تقول: (الصفات قديمة)، والقدم عندهم يكون للإله، وهذا من المغالطات، بل من الضلال البيِّن الواضح؛ لأن الله ﷻ بصفاته هو الإله، والصفة ليست إلهًا، ولا يوجد شيء مجرد عن الصفات، كما أن الصفات لا بد أن تقوم بموصوف، فالصفات لا تقوم بنفسها.

قوله: «وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الجَهْمِيَّةِ...» فعلى حسب غلاة الجهمية أن من أثبت الأسماء له فهو أيضًا مشركٌ عندهم؛ أما غلاة الباطنية والفلاسفة فأمرهم واضح في هذا، وكله واضح في مثل ذلك، فالله ﷻ يتعالى ويتقدس عما قالوه، والله له الصفات، وله الأفعال التي تخصه كما سبق.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ - بِزَعْمِهِمْ - لَهُ بِالْأَحْيَاءِ».

الشَّرح

قوله: «وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ»، يعني: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، كلهم دخلوا في التشبيه، وذلك أنهم توهَّموا في نفوسهم أنَّ من أثبت هذه الصفات يكون مشبِّهًا للمخلوقات، مماثلًا لهم؛ لأنهم وجدوا مسمَّى هذه الأسماء في المخلوقات، فقالوا: (إذا قلت بها فقد شبهته بالمخلوقات)، فضلُّوا؛ لأنهم لم يعلموا أنَّ هذه خصائص تخصُّ الله لا يشاركه أحدٌ فيها، ولو علموا ذلك لسَلِموا، وزاد الغلاة على ذلك في الأسماء وغيرها.

إن من لم يعبد الله عَبَدَ غيره ولا شكَّ، ومن لم يصفه بما وصف به نفسه وصفه بالنقائص، ومعلومٌ أنَّ هذا هو أصل البلاء؛ لأنَّ الإنسان إذا ضلَّ في فكرِه ونظرِه وتصوُّرِه لربِّه ﷻ؛ لأنَّ عمله وفكره تبعٌ لهذا، ولهذا صار الشِّرك ملازمًا لأهل الكلام، وهم يتفاوتون في هذا.

فإذا زعموا أنَّ الله ﷻ في استوائه وعلوه أنَّه يشبه شيئًا من خلقه فهذا شرك بالله في أسمائه وصفاته، وكذلك إذا قالوا: (إنه لا يجوز أن نصفه بأنَّ له يدًا أو أنَّ له رِجلينِ أو أنَّ له عينين أو أن له وجهًا وأنَّه يُرى؛ لأنَّ هذا يكون في المخلوق فهم شبَّهوه في المخلوق الناقص، وهذا شركٌ بالله ﷻ.

وإذا نفوا الرَّحمة والعِزَّة والرِّضا والغضب وغير ذلك؛ فإنَّهم ينفون ذلك؛ لأنَّهم يزعمون أنَّ هذا يوصف به المخلوق، فعطلوه من ذلك، فهم شبَّهوه إما بالناقص أو بالجماد، وهذا من الشِّرك أيضًا؛ فالمقصود: أنَّ هؤلاء لا ينفكون عن الشرك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَى حَدِّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ الذَّاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ، لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ الجهمية الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا؛ وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ «الْمُوَحِّدِينَ».

﴿ وَكَذَلِكَ «النَّوْعُ الثَّالِثُ»، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ، أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ؛ لَفْظٌ مُجْمَلٌ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؛ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَفَرَّقَ، أَوْ يَتَجَزَّأَ، أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ؛ لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ، وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ التَّوْحِيدِ».

الشرح

إنَّ الرَّبَّ ﷻ في أوصافه وأسمائه التي تخصُّه مُدْرَك بالعقل ومعروف؛ لأننا نشاهد المخلوقات من السماء والأرض وغيرها قائمةً بأنفسها، فلا بدَّ أن يكون الخالق ﷻ قائمًا بنفسه، والقائم بنفسه له وجودٌ وتصرُّفٌ، وله أسماءٌ وصفاتٌ، وله أوامرُ ونواهٍ، وهو ﷻ أخبرنا أنه في السماء، وأنه فوق عرشه، وأنه ﷻ لا يخفى عليه شيء، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، فهو يعلم ما أنتم عليه وهو فوق سماواته، وأنه جل علا لا يكون له مثيل في مخلوقاته، ولا يكون له مشاركٌ؛ فمن زعم أنَّه إذا وصفه بشيء من صفاته؛ أنه وقع في الشرك، كان هذا هو الذي حمله على أنه ما عرف الله ﷻ إلا بما يعرف من المخلوقات، فوقع في قلبه التشبيه.

و«التشبيه»: هو الشرك، وأحيانًا يكون تشبيهًا للخالق بالمخلوق، وأحيانًا يكون تشبيهًا للمخلوق بالخالق، وكلاهما شركٌ، ولكن الثاني أكثر وأشهر. فشبَّهوا مَن يزعمون أنه وليٌّ أو غيرُ وليٍّ لله في التَّوجُّه إليه والطلب منه وسؤاله، وأعطوه بعض حقوق الله أو كلها، فهذا تشبيهٌ لهذا المخلوق بربِّ العالمين، فهم واقعون في الشرك والتشبيه.

ومن الذين شبهوا الله بالمخلوقات: أهلُ الكلام، فهُم لا ينفكون عن الشرك.

أمَّا زعمُهم بأنَّ مسمَّى الصِّفات يكون شركًا، فيقولون: (إذا قلت: إن الله له علمٌ وسمعٌ وبصرٌ ورحمةٌ ووجهٌ ويدٌ وغير ذلك؛ فإما أن تقول: (إن هذه قديمة معه، فتثبت قدماء مع الله)، وعندهم ـ كما سبق ـ أنَّ القديم أخصُّ أوصاف الله، فقالوا: (إنك إذا وصفت الله ﷻ بالصفات؛ فالصفات تكون قديمةً، فيكون القدماء متعدِّدين، وعلى هذا تكون وقعت في الشرك).

فيقال لهم: هل يُوجَد موصوفٌ بلا صفاتٍ؟! ثُمَّ الصِّفات ليست إلهًا، وإنَّما هي قائمةٌ بالموصوف ﷻ، فهي لا تنفكُّ عنه؛ فإمَّا أن تكون صفاتَ ذاتٍ ـ كالحياة والعلم والسمع والبصر ـ، وهذا لا يتصور أنها آلهة قديمة، ولهذا: الصِّفة لا تُدعى ولا تُعبد، وإنما يُعبد الموصوفُ بصفاته ﷻ.

فكلُّه ضلالٌ، سلكوا فيه أفكارهم فقط، ولم يتَّبعوا ما جاءت به الرسل، ولم يأتِ في أوصاف الله ﷻ فيما وصف به نفسه بهذا الاسم، وإنَّما جاء أنَّه «الأوَّل»؛ لأنَّ القديم نسبي؛ كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٩]، فالعرجون القديم الذي جاء بعده عرجونٌ جديدٌ، والعرجون هو قِنْو النخلة إذا انثنى وصار كالهلال؛ أي: إذا يبس.

وهم متفاوتون في هذا، فبعضهم ينفي النَّقيضينِ، فيقول: (لا موجود ولا معدوم)، كيف يكون؟! مثلما يقال: (لا حي ولا ميت، ولا داخل العالم ولا خارج العالم)، فأين يكون؟! وكذلك الذين يقولون: (إنه لا يُرى في الآخرة)، فهؤلاء أيضًا أشركوا بالله ﷻ حيث ألحقوه بالمعدوم.

فكلُّ من أتى بمعنًى من عند نفسه أو من عقله وفكره فهو لا يُقبَل حتى يوافق ما جاء به الرَّسول ﷺ، وأقوال المتكلمين ظنون وقياسات فاسدة قاسوا على المخلوق، ولهذا: الخصائص التي اختص الله ﷻ بها وأخبر بها في كتابه، وجاءت

بها الرسل لم يقبلوها، وإنما قبِلوا ما نحتته أفكارهم ونظروا في عقولهم إلى المخلوق نفسه، فقالوا: (إنه ليس كذا وليس كذا).

ومعلومٌ أنَّ العبادة لا تكون عبادة حتى توافق أمر الله ﷻ، وأمر الله لا يكون إلا إلى الرسل، ليس إلى البشر ولا إلى الأفكار؛ فالله ﷻ أخبرنا عن نفسه كما أخبرنا عن مخلوقاته، وبيَّن أنَّ أسماءه وصفاتِه خاصة به؛ كما قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وفي غير ذلك من الآيات التي تبيِّن أنَّ أسماءه خاصةٌ به، وكذلك أوصافه التي يتصف بها.

ولهذا اتفق علماء أهل السنة على أنه لا بُدَّ أن يجيء الوحي فيما يوصف الله ﷻ به أو يُسمَّى به؛ وإلا فلا يجوز أن يسمى بغير ذلك. فهؤلاء لم ينظروا إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وإنما جعلوا عقولهم الحاكمةَ، ثُمَّ حكموا بها على ما جاء به الرسول، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا.

ولكن لماذا يُشتغل بهم وتُذكر أقوالهم مع أنهم ضالُّون؟

الجواب: أن الأمر اختلط على بعض الناس وظنُّوا أنَّ ما يقولونه حقٌّ، لا سيما وهم خلطوا حقًّا بباطلٍ، فالتبس على كثيرٍ من الناس، فوجب أن يُبين الحقُّ ويُرَدَّ الباطلُ.

وهم يسمون كلامهم - الذي لا يغني من جهل، ولا يعطي شيئًا من الحقائق - توحيدًا، وأهلُ السُّنَّة يسمون كتبهم «كتب الكلام»؛ لأنها مبنية على الكلام الذي لا دليل عليه، فلا يجوز الاشتغال بها؛ لأنها لا تُوجِد إلا شبهات وشكوكًا، وإنَّما يجب على المرء أنْ يتفهَّم ما قاله الله وقاله الرَّسول ﷺ ويعمل به، وإذا عمل بذلك فهذا الطريق السوي، وهذا الصراط المستقيم الذي أُمرنا أن نسأل ربنا ﷻ أن يهدينا إليه.

وأهل الكلام يخالفون في أظهر الأشياء في اللغة وأوضحها.

و«الإله» مأخوذٌ من التَّألُّه وهو التَّعبُّد، وهم يقولون: الإله: هو القادر على الاختراع!، فجعلوه من أفعال الله وهو من أفعال المخلوقين، والتأله فعل المخلوق، يجب أن يألَه إلهًا واحدًا، والمألوه هو الله ﷻ. فلهذا ضلوا في هذا وفي غيره من

الأبواب، فلا خير في كلامهم، ولن ينتج إلا الشك والارتياب، ومن سلم منه فقد سلمه الله ﷻ من شرٍّ كثيرٍ.

ولهذا يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَئِن يُبتلَى الإنسان بكلِّ ذنبٍ ما عدا الشرك أفضل من أن يبتلى بالكلام).

قوله: «فَصَارَ هَؤُلَاءِ الجهمية الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا...»؛ يعني: أنَّ الشرك صار عندهم توحيدًا، وهذا هو الانتكاس في الأفكار والعقول؛ فالنفي المحض عندهم هو التوحيد، أما إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الصفات والأفعال فيعد شركًا عندهم.

ومعلوم أنَّ الإنسان لا يعبد الله إلا بما أمره الله ﷻ به، فلا بُدَّ من اتِّباع الله ﷻ في ذلك. ومعلوم أنه لا يوجد شيء مسلوب الصفات نهائيًا، فكل موجود له صفات ولا بُدَّ، والله له الكمال المطلق في أوصافه وأفعاله، فهل هؤلاء يقال عنهم عقلاء؟! وما هؤلاء إلا مبطلة معطلة كذبة مفترون على الله ﷻ ومضللون لعباد الله، ولهذا صار ضلالهم على العباد أعظم الضرر، فهم ضُلَّال، ويجعلون الشرك بالله ﷻ هو الحق! فهم أمثال الشيطان، بل أبلغ من دعوة الشيطان؛ لأن هؤلاء يقابلونك ويكلمونك ويكتبون الكتب وينشرون ويزعمون أن من عبد الله على ما وصف به نفسه وما جاءت به الرسل فإنه مشركٌ!

والمعطلة لا يصفون الله ﷻ بشيء موجود، وإنما يصفونه بالعدم، ويزعمون أنهم الموحدون، ومن لم يكن على نهجهم فهو في النار، وكثير منهم يقول: من لم يعرف الله ﷻ بدليل الأجسام أو دليل الجواهر والأعراض لم يعرف الله!

ومعلومٌ أن الإنسان لو اجتهد كُلَّ الاجتهاد وبحث في الكتب المؤلفة ـ سواء كتب التفسير أو الحديث أو التاريخ ـ؛ فإنَّه لا يجد كلمة واحدة عن الصحابة في ذكر ما قالوه من (أن الله ليس بجوهر، أو ليس بعرض)، أو أنهم استدلوا على وجود الله بشيء من ذلك؛ هذا لا يمكن، بل استدلوا على عبادة الله ﷻ بما قاله الله وقاله رسوله، وصاروا مؤمنين صادقين موحدين.

أما هؤلاء فهم مشركون ضُلَّال، ضلوا في عقولهم، وأضلوا كثيرًا من الناس، فكيف يكون النفي والتعطيل توحيدًا؟ وما هذا إلا انتكاس في العقل والفكر والاستدلال.

قوله: «**وَكَذَلِكَ «النَّوْعُ الثَّالِثُ»، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ**»، وهذه الأقسام الثلاثة كلها تعود إلى قسم واحد.

قوله: «**لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ**». تعالى الله تقدس؛ وهذا من أعظم الضلال؛ لأنه ﷻ يلزم من هذا أنه ليس مركَّبًا، وليس له في ذاته ﷻ شيء يمكن أن يوصف به، فيلزم من هذا قولهم: (إنه لا يوصف بشيء).

وقد أخبر الله ﷻ أنه صمد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، يعني: ليس له مكافئ ولا نظير؛ قال ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، يعني: مُسَامٍ يساميه ومثيل له، تعالى الله وتقدس.

فهم يختلفون في ربهم ويختصمون به وقد ضلوا في ذلك، ولم يهتدوا إلى الحق الذي جاءت به الرسل، وما يسمُّونه توحيدًا هو باطل، فليس كذلك، بل هو ضلال وتنديد لله ﷻ.

وكذلك هم لم يعرفوا قول الرسل لأمم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ فكيف يكونون علماء ومحققين وأئمة؟!

المقصود: أنَّ **قوله**: «**وَكَذَلِكَ النَّوْعُ الثَّالِثُ**...» أنه شرك في الأفعال، قالوا: (واحد في أفعاله لا شريك له فيها)، وأما أنه لا قسيم له في ذاته فهو النوع الأول، فيجوز أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل هذا في هذا، **فيقول**: «**والنَّوْعُ الثَّالِثُ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ**».

تعالى الله وتقدس، لكن هذا من الجُرأة على الله ﷻ؛ لأنهم في الواقع ما عرفوا الله حقَّ معرفته، الله أحد صمدٌ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ؛ فما عرفوا إلا الشيء الذي يجعلونه نظيرًا له من مخلوقاته، فلهذا قالوا هذا القول، وقد تبين أن هذا مِن أبطل الباطل. وهم في الواقع كذبوا في كلامهم، وكذبوا في حكمهم وكذلك في تفريعاتهم، فكلها كذبٌ وقولٌ على الله ﷻ وجرأة عليه ـ تعالى وتقدس ـ، وقد تقدم هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا، فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ، وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

الشرح

يقول رحمه الله: إذا تبين ذلك أنهم مخطئون في كثيرٍ من قولهم، وإن كانوا يُقرّون بأنَّ الله ﷻ هو المتوحِّد في ذاته = فهذا قصورٌ أيضًا، فما أثبتوا له الصفات. وكذلك إذا أقرُّوا بأنه لا شريك له في أفعاله = فهو قصور. وقد نازعوا في بعض الأفعال التي هي أفعال العباد،

وكذلك قولهم في مسمى «التوحيد» الذي هو في الصفات، فلم يأتوا بهذا التوحيد، فهم أثبتوا حقًّا مع باطلٍ كثير، ولم يعرفوا ما جاءت به الرسل من عبادته وحده لا شريك له، ولو قُدِّر أنهم سلموا من هذه الأخطاء وأقروا بأن الله ﷻ حقٌّ له الصفات متفردٌ بها لا يشاركه أحد، وله أفعالٌ حقٌّ لا يشارِكُه فيها أحد ﷻ وهو أحدٌ صمدٌ، لو قُدِّر أنهم أقرُّوا بهذا الذي هو الحق = لا يكفي في كونهم مسلمين.

بل لا بُدَّ أن يُقِرُّوا بأنه الإله الحق ويعبدوه كما أمر الله ﷻ؛ أما هذا فقد أقرَّ به المشركون وقاتلهم عليه رسول الله ﷺ، وحكم بأنهم في النار.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِـ «الْإِلَهِ» هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وأَنَّ مَنْ أَقرَّ بأَنَّ اللهَ هوَ القادِر على الاختراع دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

الشَّرح

قوله: «حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وأَنَّ مَنْ أَقرَّ بأَنَّ اللهَ هوَ القادِر على الاختراع دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

هذا معناه أنه الخالق، وكونه ﷻ خالقًا لا أحدَ يجهله من الجاهلين القدامى والجاهلين المتأخرين!؛ فكلهم يعلمون أنَّ الله هو الخالق وحدَه، ولكن هذا لا يكفي في عبادة الله ومعرفته، بل لا بُدَّ أن يُضَمَّ إليه ألَّا يعبد إلا إياه، وأن يكون الذي علم ذلك يعبده وحْدَه، وهو معنى الإله.

معنى التأله والتعبد أن يعبد ربه، ولهذا قال: لا إله إلا الله، يعني: هي أصل الدين وأساسه الذي يبنى عليه، ومن لم يأتِ بها محققًا لها فلم يأت بما وجب عليه، ولم يأتِ بما ينجيه من عذاب الله، فلا ينجو من عذاب الله إلا من أتى بها عن علمٍ واعتقادٍ وعملٍ بها وبما دلت عليه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إِلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ؛ لَا إِلَهَ بِمَعْنَى آلِهٍ؛ وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ».

الشرح

ففرقٌ بين كونه مألوهًا وكونه إلهًا؛ مألوهٌ؛ أي: معبود، فالألوهية هي عبادة الخلق ومعرفته، والإنابة إلى من يعبده ويتجه إليه. أما «آلِه» فمعناه: تحيَّر، أو الذي أحبَّ، ولم يأتِ هذا المعنى في كتاب الله ﷻ ولا في حديث رسوله ﷺ.

التوحيد الذي يُعبد الله ﷻ به، يجب أن يكون خالصًا من الشرك الذي يصدر من العبد، فالتوحيد والشرك كلاهما يصدر من العباد، وهو التألُّه الذي يجب أن يكون مألوههم وإلههم واحدًا، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، تعالى عما يشركون.

وهذا نتيجة الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله يغلطون بما هو أوضح شيء وأبينه، ويجعلون الحقائق مقلوبة في هذا، ومعلومٌ أنه إذا انقلب الحق فإن الحياة كلها تنقلب ويصبح الإنسان تائهًا على غير اتجاه.

فالإقرار بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات لا يكفي، بل لا بُدَّ أن يجمع الإنسان بين أقسام التوحيد كلها، وهذا أمرٌ واضح في كتاب الله وفي دعوات الرسل، وإن كان بعض الناس ينازع في التقسيم، ولكن المنازعة من باب الجهل في الواقع؛ لأن هذا التقسيم عُرف بالاستقراء من كتاب الله ﷻ ومن اللغة العربية، فأي آية تذكرها في كتاب الله تدلُّ على هذا؛ فأول المصحف يقول الله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، ف «الله» كما هو معلوم معناه ومدلوله غير مدلول «الرب»، ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. أمَّا «الرب» فهو المالك المتصرف، إذن هذا غير ذاك.

ثم كذلك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③﴾ [الفاتحة: ٣]، فهذا غيره، فهذه أقسام ثلاثة.

ويقول ﷻ في آخر سورة من المصحف: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③﴾ [الناس: ١ ـ ٣]، فجعلها أقسامًا، «الإله» غير «الرب»، وغير «المالك المتصرف» ـ تعالى وتقدس ـ، فلا بُدَّ أن يجمع العبد بين هذه المعاني التي لله ﷻ، ثم توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات هي توحيد الله بما يخصه، أما توحيد الإلهية فهي توحيد بفعلك أنت الذي أُمرت به.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ؛ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ، الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى السُّنَّةِ، إِنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، وَالْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ، غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا سِيَّمَا إِذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وَجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ، فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ».

الشرح

قوله: «وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ...». «النظار»: الذين ينظرون في الكون والموجودات، ويقيسون الله عليها، فيسمونهم نُظَّارًا في هذا، فيناظر بعضهم بعضًا، وبعضهم يبطل حجة بعض، وهم يقولون: إنهم على السنة أو على الحق، وعلى التوحيد، وهم لا يصلون إلا إلى توحيد الربوبية.

قوله: «غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ...»، يعني شهود توحيد الربوبية، وهؤلاء غاية ما عندهم أن يعرفوا أنَّ الله هو الخالق، أما كونهم يعبدونه لا يشركون به شيئًا، فهذا يعرضون عنه نهائيًا ولا يعرفونه، ومعنى ذلك أنهم ما عرفوا دعوة الرسول، ولا عرفوا ما جاء به، والسبب في هذا أنهم لم يطلبوا العلم من مصدره، وإنما طلبوه بالآراء والقياسات التي لا تجدي ولا تنفع فضلُّوا ضلالًا بعيدًا، ومثلهم المتصوفة الذين يأخذون علومهم عن الأذواق، وما يحدث في

قلوبهم إما من آثار الجهد والجوع والرياضة، أو مما ينقشه الشيطان في أذهانهم فيتصورون أن هذا هو الغاية المطلوبة، ولهذا شطحوا شطحًا بعيدًا.

المقصود: أنَّ هذا الذي يُتعِب المتكلمون أنفسهم فيه وكذلك الصوفية الذين يزعمون أنهم يَفْنَون بمشهودهم عن شهودهم إلخ = غاية الأمر أنهم يصلون إلى توحيد الربوبية، وهذا لا يجعل الإنسان مسلمًا، فضلًا عن أن يكون عارفًا أو أن يكون قد امتثل ما جاء به الرسول ﷺ.

قوله: «**وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ**»، «**الفناء**»: اصطلاح اصطلحوا عليه، وهو أن يكون فكره ونظره وعلمه واحدا، ولا يخرج عنه هذا، فيسمون فناء: الفكر والنظر والعمل، وهو أنَّ الله ﷻ هو المتصرف في كل شيء، فكل ما نظر إلى فعل من الأفعال قال: (هذا فعل الله)، فيقول: (أنا أفنى فيما هو لله عن نفسي وعما أنا فيه)، يعني: أنه يغفل عنه ويعرض عنه، ويسمون هذا فناء، وهو اصطلاح اصطلحت عليه الصوفية.

ثم كذلك سلكوا مسالك المتكلمين في هذا، فلم يعبدوا الله على الوجه الذي أمرهم الله به، ولهذا يقول أحدهم: (إن عصيتُ أمره الشرعي فقد أطعتُ أمره القدري)، ويقول أحدهم: (أصبحت منفعلًا لما يراد بي، ففعلي كله طاعات)! لأنه يقول: (إنه فناء فيما يفعله الله)، فصار عنده كل ما يتحرك به المتحرك أو يسكن به الساكن هو فعل الله، فكل الأفعال يرى أنها طاعات، وهذا غاية الضلال، وهو غاية ما يريده الشيطان.

أما الذي يعبد الله ﷻ؛ فإنه يجب أن يعبده بما جاء به الرسول ﷺ؛ والرسول أول ما جاء به شهادة أن لا إله إلا الله، وكان يقول للناس: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[(١)]؛ أي: أنه هو المألوه الذي يؤله ويعبد.

وأما كونه هو الرَّبُّ المتصرف الذي ليس له شريكٌ في تصرُّفه وفي ملكه، فهذا في غاية الظهور والجلاء، ولا يلتبس على أحد من الخلق، ولكن هؤلاء عاقبهم الله؛ حيث نصبوا الخلاف في ربِّ العالمين، وصاروا ينفون ما أثبته لنفسه، فعُوقِبوا بأن أصبحت معلوماتهم كلها معلومات المشركين ـ نسأل الله العافية ـ، ولو اتبعوا أمر الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ٤٠٤) برقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة بن عباد الديلي ﷺ.

وأطاعوه لوصلوا إلى ما وصل إليه أهل العلم في شرع الله ﷻ ودينه وعبادته؛ غير أنهم ضلوا فأضلهم الله.

وكيف يصل الإنسان إلى أن يجعل التوحيد شركًا، والشرك يجعله توحيدًا؟! فهذا غاية الضلال وغاية البعد عن الحق، نسأل الله العافية.

ومع هذا كله هل يقال: إنهم كفرة؟

نقول: لا.

ولكن إذا كان الإنسان لا يعرف معنى الإله ولا يعمل به؛ فهو لم يدخل في الإسلام أصلًا؛ والله هو الموجد لكل شيء، وهو الخالق لكل شيء، وهو الذي يكون واحدًا في ذاته، وواحدًا في أفعاله، وواحدًا في أوصافه؛ فهذا لا يكفيه أن يكون مسلمًا موحدًا، بل هذا هو الذي أقرَّ به المشركون الذين حكم رسول الله ﷺ بأنهم في النار، فلا يكون الإنسان مسلمًا إلا بعبادة الله ﷻ واعتقاده أنه هو المألوه الذي ليس له شريك في التأله والتوجه والعبادة.

ثُمَّ لا بُدَّ أن تكون عبادته على وَفْق ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وهي شيء واحد، فـ «لا إله إلا الله» أن يكون هو المعبود وحده المألوه، و«أنَّ محمدًا رسول الله» أن تكون العبادة بما جاء به الرسول ﷺ فقط، ولا تكون بالفكر والنظر والتقسيم.

و«الإله»: اسم جنس يطلق على كلِّ مألوه، ولهذا جاء التركيب بالنفي والإثبات، وكره كثير من العلماء أن يسمى الإنسان عبد الإله؛ لأن الإله جنس لا يتحقق، فكل مألوهٍ يطلق عليه إله، كما قال الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فالإنسان إذا هوى شيئًا وصار يفعله ويتبعه كان إلهه ذلك، ومن أعظم الآلهة الهوى.

ولهذا جاء التركيب «لا إله إلا الله»، فـ «لا» نافيةٌ للجنس، وهي تعمل عمل «إن»، وتدخل على المبتدأ فيكون اسمها، والخبر فيكون خبرها؛ فإذا قلت: «لا إله» هذا اسمها مبني على الفتح، وأما الخبر فهو محذوف مقدر تقديره: «حقٌّ».

ولا بُدَّ أن نقول: «لا إله حقٌّ إلا الله». وقوله: «إلا الله»، هذا وصف للخبر المحذوف، وهذا لا بُدَّ منه.

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ نفى أن يكون هناك آلهة بحق إلا الله، أما وجود الآلهة

فقد ملأت الأرض، فالآلهة معنًى كشهوة أو أمور يتبعها ويترك أمر الله ﷻ، فيكون مألوهًا له ذلك. ولهذا قال ﷺ: **«تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، والقطيفة، والخميلة»**[1]؛ والمعنى: أن يكون عمله لأجله، ويترك أمر الله ﷻ؛ فمن عمل لأجل ذلك كان متألهًا له، وأكثر الناس اليوم يعبدون الدنيا ومظاهرها؛ لأنهم معرضون عن الله، وعن عبادته غافلون، وهم في ذلك لهم عقول لو استعملوها في طاعة الله ﷻ لا اهتدوا إلى الحق، ولكنهم غافلون عن الله وعن عبادته وعما جاء به الرسول، فصار همهم الحصول على الدنيا بأي وسيلة كانت، فصارت هي المعبودة.

المقصود: أنَّ قول: **«يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ»** هذه اصطلاحات الصوفية؛ كالشهود والفناء والبقاء والزوال والذهاب، وهذه كلمات يصطلحون عليها ويريدون في هذا أنَّ فكره ونظره وقلبه لا يعدو هذا الشيء، يجب أن يكون محصورًا فيه، وما عداه كأنه ليس شيئًا، حصروا فكرهم بأن الله ﷻ هو الخالق وأنه ما أراد كان وما لا يريد لا يكن، وهذا لا يكفي في نجاة الإنسان من عذاب النار، بل لا يُدخل الإنسان في الإسلام؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يعرفونه أكثر من معرفة هؤلاء.

قوله: **«وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ...»**؛ يعني: لو أُقر لهم بهذا الذي يقولونه وصاروا محققين فيه؛ فإنهم لا يصلون في هذا إلا إلى توحيد الربوبية فقط، وتوحيد الربوبية لا يكفي لأن يكون مسلمًا؛ لأن الرجل لا يدخل في الإسلام إلا بشهادة: أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، فلا بُدَّ من الجمع بين توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد العبادة الذي هو أعظم التوحيدَين؛ أمَّا هؤلاء فهم ضلوا عنه، فلم يعرفوه ولم يتكلموا به.

ولو أنَّ الإنسان نظر في كتبهم الكثيرة، لما وجد أن أحدًا منهم تكلَّم في معنى «لا إله إلا الله» أو في التأله أو في غير ذلك من أنواع التألُّه، وإنما كل كلامهم في كون الله ﷻ موجودًا أو غير موجود، أو أن له أوصاف كذا وأنه لا يوصف بكذا، فكانوا بهذا يقررون التوحيد الذي هو أظهر الأشياء وأعظمها، وهو أنه ﷻ الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ، يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ».

الشرح

وهذا لا يفيد شيئًا أيضًا؛ لأنه داخل في توحيدِ الربوبية؛ و«توحيدُ الربوبية»: كونه الخالق لكلِّ شيء؛ مأخوذٌ من كونه «الرب»، و«الرب» هو المالك المتصرف، وهذا لا يكفي كون الإنسان مسلمًا ـ كما سبق ـ.

قوله: «**يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ...**». الصفات الثابتة لله ﷻ يجب أن تثبت بلا شكٍّ، ومن لم يثبتها فلا يكون موحِّدًا، ولهذا أكثر الله ﷻ من ذكر صفاته في كتابه حتى نعلمها ونعتقدها ونوحِّد الله بها، وأنه لا شريك له في ذلك، قال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]، وذِكْر هذا كثيرٌ في كتاب الله، أكثرُ من ذكر الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها؛ لأن الله ﷻ علام الغيوب، فعَلِمَ أنه سيقع الخلاف في هذا الباب، وأنه سيكون ضُلَّالٌ في هذا، فأكثر الله ﷻ من ذكر أوصافه وأفعاله الخاصة به؛ لئلا يكون لأحد حُجَّةٌ على الله.

وهؤلاء أعرضوا عما ذكره الله ﷻ، وأخذوا بما تنتجه أفكارهم وعقولهم، فصاروا يتجادلون في الله، ويتخاصمون فيه، فهم يتخاصمون في ربهم ﷻ وضلوا من كل وجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إِلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا، وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الشرح

وهذا لأنهم ضموا إلى ما كان عليه المشركون التعطيلَ، فصاروا شرًّا من المشركين.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ، وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ، لَكِنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، لَكِنَّ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولُونَ بِالْإِرْجَاءِ؛ فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ».

الشرح

قوله: «وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ»؛ وإذا نفى الصفات فإنه لم يعبد الله؛ لأنَّ الله يُعبد بصفاته وأسمائه؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أي: اعبدوه بها. ثم جهم مع ذلك كان مرجئا، و«الإرجاء»: هو ترك العمل، فيخرج العمل من مسمى الإيمان؛ فلو صدّق بقلبه ولم يعمل كان ناجيًا عنده، وذلك أنَّ الإيمان عنده شيء واحد عنده لا يتفاوت، والناس كلهم في الإيمان سواءٌ، فإيمان أقرب الناس إلى النبي ﷺ وإيمان المقترف للمعصي عنده سواء، ولهذا يقول: (إنه لا يضر مع الإيمان ذنبٌ، كما أنه لا ينفع مع الكفر عمل)، وهذا كله ضلال بيّن في الجهتين؛ لأن الجهم يجمع بين التعطيل وبين الإرجاء.

فاجتمعت عنده الشرور كلها، فهو جبري ومرجئ، و«الجبر»: معناه أنَّ الإنسان لا تصرُّفَ له ولا اختيار، وإنما هو بمنزلة الآلة.

أما «الإرجاء»: فمعناه عنده: أنه إذا عرف يكفيه عن العمل؛ فمن عرف الإيمان فهو مؤمن ولو لم يصلِّ ولم يزكِّ ولم يصم. فلازم ذلك: أن يكون الشيطان مؤمنًا، وكل من أقرَّ بالله ﷻ وأنه المتصرف في كل شيء يكون عنده قد وصل إلى غاية الإيمان، ولهذا كفّره أكثر العلماء، كفروه بهذا الاصطلاح وإن كان جاهلًا فجهله عن عمد، فالجبر يقابل القدرية.

والقدرية قسمان متقابلانِ: فالمعتزلة قدرية، والجهمية جبرية ومع الجبر يكون مرجئًا، فهذه الجيمات التي اجتمعت فيه؛ جهم وجبر وإرجاء وجهنم تتبعها؛ فإخوانه الذين هم المعتزلة صاروا قدرية بمعنى أنهم يقولون: (إن العبد هو الذي يخلق فعله

وهو الذي يستقل به، ولا فضل لله عليه في ذلك، وإنما هو إن شاء آمن وإن شاء كفر، وإن شاء اهتدى وإن شاء ضلَّ).

وإذا قيل لهم: إن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، قالوا: هذا البيان، أي: بيَّن الحق من الباطل، أمَّا الاهتداء والمعرفة فهي إلى الإنسان!

والضَّلال لا حد له، يتشعب كثيرًا، وجهمٌ يقول: (إنَّ الإنسان إذا عرف ربَّه يكفيه ذلك في كونه من أهل الجنة، ومن الناجين من كل عذاب في الدنيا والآخرة)!

وكل ما تمادى الإنسان في غيه وفي ضلاله الذي يستنتجه أو يأخذه ممن هو مثله = فإنه يبتعد عن الله ﷻ ويدنو إلى جهنم ويكون مع الشياطين، ولا نجاة لأحدٍ من خلْق الله إلا باتباع رسول الله ﷺ، أما كلام الناس وآرائهم فهي لا تفيد شيئًا ولا تغني عن عذاب.

أمَّا نفي الصفات فهذا أيضًا من الكفر بالله، وجهمٌ ينفي صفات الله ويجعل التوحيد هو التعطيل، أي: تعطيل الله ﷻ من أوصافه.

ووافقه على هذا المعتزلة، كما وافقه في الجملة على ذلك الأشعرية، فهم يزعمون أنهم يثبتون سبع صفات والبقية يجب أن تُؤوَّل أو تُفوّض، فصار الباطل عندهم واجبًا، وهذا في الواقع تعطيل، بل هو لعبٌ في آيات الله وأحاديث رسوله ﷺ.

كيف يعرف الله ﷻ إذا عُطِّلت أسماؤه وصفاته، فهو يتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته التي يخبر بها على لسان رسوله ﷺ، ولا يكون الإنسان مؤمنًا إلا أن يؤمن بالله وبأسمائه وصفاته وبامتثال أمره؛ إلا إذا اختار أنه هو الذي يكون الحاكم يحكم على نفسه وعلى غيره في هذا، واعتقد أنَّ كتاب الله لا يعطي علمًا ولا يفيد يقينًا، بل هو ظنونٌ يجب أن تعرض على العقول، فهذا كيف يكون عالمًا أو محقًّا؟!

قوله: «لَكِنَّ جَهْمًا ـ وَمَنْ اتَّبَعَهُ ـ يَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ؛ فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ»: الأمر والنهي أي: الشرع؛ كالأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج، فلا قيمة له عندهم، ولهذا **يقول: «فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ»**، يعني: يضعف أمر الله ونهيه، فيكون لا قيمة له عنده، ويكون الإيمان عنده هو التصديق فقط.

والإرجاء نوعان:

الأول: الإرجاء المحض، وهو أن يجعل الإيمان هو التصديق فقط، وهذا الذي قال عنه العلماء: إنه كفر.

الثاني: الإرجاء بإخراج العمل من مسمى الإيمان، ويكون العمل فيه الفضل، فقالوا: الإيمان يكون بالقول وبالتصديق.

أما الأول فقد جعل التصديق هو الإيمان فقط، ومعلوم أن إبليس صدق بالله ويؤمن بأن الله هو الخالق لكل شيء، ولكنه عصاه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«والنجارية والضرارية وَغَيْرُهُمْ يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ، مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ».

الشَّرح

«**النجارية**» و«**الضِّرارية**» - أتباع ضِرار من المعتزلة -، كلهم شرٌّ؛ ومآلهم واحد، غير أنهم يتفاوتون في الضلال، والنجارية والضرارية ذهبوا إلى غير رجعة، فلا وجود لهم؛ ومثل هؤلاء لا يبحث فيهم، فالشرُّ لا يُطلب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«والكلابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ، وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ، كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ، وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ».

الشَّرح

قوله: «والكلابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ» «الكلابية»: هم أصل الأشعرية، وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، وسمي كُلَّابًا؛ لأنه كان شديد المناظرات، ومن أمسكه كأنه أمسكه بكُلَّاب حديد، فلا يفلته حتى يغلبه، وهو أقرب إلى أهل السنة من كثير من المتكلمين؛ غيرَ أنه اعتمد على تأويل الصفات الخبرية.

وأما الأشعرية؛ فقد سلكوا مسلك الكلابية في تأويل الصفات، وأثبتوا الصفات العقلية، وهي الصفات السبع التي يثبتونها، فالأشعريَّةُ فرعٌ عن الكُلَّابية، فهم يؤمنون بالصِّفات السبع، وأئمتهم يؤمنون بالصفات الخبرية مثل الباقلاني وابن فورك ونحوهم، وأولئك خيرٌ منهم.

الأشعرية هم كلابية؛ لأنهم سلكوا هذا المسلك وإن بدَّلوا بعض الأفكار، وبعض المقولات؛ وإلا فهم يتَّفقون على ذلك، وكلها نتائج الأفكار، ولم يهتدوا بكتاب الله ﷻ وما جاء به الرسول ﷺ. ومن لم يكن كذلك فلا بُدَّ أن يكون من الضُّلَّال، ولا بُدَّ أن يَضِلَّ، فلا عاصِمَ إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ أما إن كان الإنسان يعتمد على رأيه وعلى عقله وفكره وقياسه فلا يمكن أن يعلم ما لله ﷻ من الواجبات، ولا ما له مما يجب أن يُنفى عنه؛ لأنَّ الله ﷻ يتسمى بأسماء ويتصف بأوصاف، ويمتنع عليه أمور كثيرة ذكرها الله ﷻ في كتابه.

وكل هذا يجب أن يكون المتبع فيه قولُه وقولُ رسوله ﷺ؛ لأنَّ العقول لا تصل إلى ما وراء الطبيعة ـ على ما يقولون ـ فالعقول في الأمور المشاهدة والأمور

المحسوسة، أما ما وراء ذلك من أمور الغيب فهي لا تستطيع أن تصل إليه إلا بقياس الغائب على الحاضر، وهذا لا يكون إلا في المخلوق، أما في الخالق ﷻ فهو ممتنع.

قوله: «والكُلَّابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ» خيرٌ من هؤلاء، ولكنهم وقعوا في باطلٍ عظيم حيث أوَّلوا الصفات أو فوَّضوها، والتأويل الذي اصطلحوا عليه: هو صرف اللفظ عما دل عليه في الظاهر إلى ما لا يدل عليه إلا بدليل آخر، والدليل الآخر عندهم «العقل»، فكيف العقل يكون هاديًا إلى معرفة الله وإلى صفاته؟!

قوله: «فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ للهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ، وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ». يعني: بعضهم يثبت الخبرية، ولكن هذا في المتقدمين ـ مثل الباقلاني وابن فورك ونحوهم ـ، أمَّا المتأخرون فلا يثبتون إلا هذه السبع الصفات؛ فأئمتهم مثل الاسفرائيني، وابن فورك، والباقلاني يثبتون العلو، ويثبتون ما أخبر به الرب ﷻ عن نفسه، فهم خير من هؤلاء بكثير.

وعلى كل حالٍ؛ فنحن مكلفون بما جاء به كتابُ ربِّنا ﷻ وما قاله رسولنا ﷺ، ولسنا مكلفين باتباع فلان وفلان؛ فمن كان معه الحقُّ اتبعناه؛ لأنَّ الحق معه، وليس لأنه إمامُ الطائفة الفلانية، فالذي يُتبع ويُطاع هو رسولُ الله ﷺ، والناس يجب أن تعرض أقوالهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما وافقها قُبل، وما خالفها رُدَّ، كائنًا من كان. ولهذا أرسل الله ﷻ رسولًا، وأمر عباده أن يطيعوه، والرَّسول جاء بأمر الله، ولم يكلِّفنا بأننا نتبع جماعة بعينها أو رجلًا بعينه، ولكن إذا كان الرجل له أثرٌ في الأمة بالعلم وتبيين الحق والدعوة إليه فهو يُتبع في هذا، ولا يتبع في الأمور التي خالف بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذا قدر أنه وقع منه خلاف.

قوله: «كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ»، مثل الكُلَّابية، وكذلك الأشعرية يقربون من جهم في هذا؛ لأن عندهم الجبر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«والكُلَّابية هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ، الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خلفة، وَأَصْحَابُ ابْنُ كلَّابٍ، كَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَنَحْوِهِمَا. خَيْرٌ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا وَهَذَا، فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إِلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ».

الشَّرح

مقدَّمو الأشعرية خيرٌ من متأخريهم؛ لأن متقدِّميهم يؤمنون بالصفات الخبرية مثل: العلو والاستواء ونحو ذلك، أمَّا المتأخرون فهم يؤمنون بالصِّفات السَّبع ثُمَّ يعودون على بعضها بالتأويل.

قوله: «فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إِلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ»؛ أي: أنَّ المتكلمين ساروا مع الباطل، ولكن بعضهم أقرب إلى الحقِّ من بعض حسب ما يقوم عندهم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكُلَّما ابتعد عن الوحي؛ ابتعد عن الحق.

وعلى كل حالٍ: هم على باطل في الجملة إلا أنَّ معهم شيء من الحق، أما لو كان الباطل خالصًا، فإنه لا يقبل أصلًا، وإنما يشتبه الأمر إذا خلط الحق بالباطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«والكرامية قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ، فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا؛ لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ، وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ، وَالوَعد وَالْوَعِيدِ، فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ».

الشرح

قوله: «والكرامية قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ...» هذا قول باطلٌ، بل كل هذه الأقوال باطلة، ولكن هذا مخالف للعقل والسمع، كيف يكون الإنسان مؤمنًا بمجرد قوله؟! ولهذا حكموا بأن المنافق مؤمن ولكنه مخلَّد في النار. وهذا من عجائب الأمور؛ كيف يكون مؤمنًا ثم يكون في النار مخلدًا؟!

يقولون: (إنَّ الإيمان هو قول اللِّسان)؛ فإذا قال المنافق: (أشهد أن لا إله إلا الله)؛ فإنه يحكم عليه عندهم بأنه مؤمن، ولكنه يخلد في النار.

فخالفوا الحقَّ في هذا، «**فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ**»، خالفوا أهلَ السُّنَّة في اسم المؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، والفاسق وغير ذلك، ومعلوم أنَّ هذه الأسماء فيها أحكام تتعلق بالمسمى؛ فليس كل عاصٍ يكون منافقًا، ولا يكون في النار، فالمعصية قد يكون صاحبها مؤمنًا، والمنافق يكون مسلمًا في الظاهر فقط، وأما في الباطن فهو ليس بمؤمن؛ لأنه أظهر خلاف ما يبطنه ويعقد عليه قلبه، ولهذا جعله الله ﷻ في أسفل طبقات النار؛ لأنَّ الناس صاروا عنده أعظم من الله، وصار يخافهم ولا يخاف الله، وصار إذا خلا بارزَ الله بالمعاصي وبالكفر، وإذا صار مع الناس أظهر أنه معهم في دينهم.

وعلى كلِّ حالٍ: فكلُّ هذه الطوائف على ضلالٍ؛ مثل الأشعرية الذين يزعمون أنهم هم المسلمون، وهم أهل العلم؛ أو العقلانية الذين يتبعون عقولهم وهم أيضًا لهم وجود وكثرة، وهم على طريق المعتزلة، حيث حكَّموا العقول فقط، وحكموا على الشرع بعقولهم، فصاروا على طريقة المعتزلة في هذا.

والواجب اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ، واتباع كتابه، والحرص على معرفة مراد الله ومراد رسوله والعمل بذلك، والإعراض عن أقوال الناس في هذه الأمور التي خالفوا فيها الحق، وعدم الاهتمام بها إلا لتبيين الحق وتوضيحه لمن يريده؛ لأن هذا هو طريق الرسل وهو الدعوة إلى الله ﷻ بالتي هي أحسن.

أما الحكم على الناس بأنَّ هذا يكون خارجًا عن الدين وهذا لم يخرج = فهذا أيضًا يجب أن يكون بحقٍّ ويكون بدليلٍ وعلمٍ، وليس لمجرد مخالفة وقعت له في اعتقاده؛ لأن الإنسان قد يكون على باطل وهو يظن أنه على حقٍّ.

فالواجب الرجوع إلى كتاب الله، وسبر أقوال الناس وأفعالهم في أمر الله، وأمر رسوله ﷺ، فما وافق قُبِلَ وما خالف رُدَّ، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من الذين يعرفون الحق ويتبعونه، ويعرفون الباطل ويجتنبونه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ، لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ؛ فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ؛ وَغَلَوْا فِيهِ؛ فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ، فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، مَعَ إِنْكَارِ الْقَدَرِ، خَيْرٌ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إِنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَكَانَ قَدْ نَبَغَ فِيهِمُ الْقَدَرِيَّةُ، كَمَا نَبَغَ فِيهِمُ الْخَوَارِجُ الحرورية، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنَ الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخَفَّ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتِ الْبِدْعَةُ».

الشرح

هذا كما سبق: أنَّ الكفار اعترضوا على الشرع بالقدر، وهؤلاء حاروا فيه، لم يستطيعوا الجمع بين القدر وبين الشرع، فصار قولهم أقربَ إلى المشركين، بل قد يجمعون مع قول المشركين من الضَّلال ما لم يقله المشركون.

هؤلاء ـ المعتزلة ـ عندهم شركٌ؛ لأنهم يقولون: (الإنسان يخلق فعله)، فوقعوا في شرك الربوبية الذي لم يكن عند المشركين؛ لأن المشركين يقرون بأن الله هو الخالق لكل شيء، وأن العبد لا يخرج عن مشيئة الله ﷻ وقدرته وإرادته.

أما الأمر والنهي الذي هو الشرع؛ فعارضوا به القدر، فوافقوا بعض المشركين في هذا الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يعنون: (أنَّ هذا وقع بمشيئة الله، وهو دليلٌ على كونه يرضى ذلك؛ لأنه لو لم يكن راضيًا به لم يقع بمشيئته)! فعارضوا بهذا ما جاء به الرسول ﷺ من الأمر بالتَّوحيد، وكل هؤلاء لا خير فيهم؛ فمن ترك كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ فهو ضالٌّ بلا شَكٍّ، ولا يجوز أن يُنظر في كلامه وفي أفكاره وما يقررونه في كتبهم.

قوله: «وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، مَعَ إِنْكَارِ الْقَدَرِ»، الإقرار هو

الإيمان بذلك والعمل به، وليس مجرد الإقرار بالعمل، فهذا حتى الشيطان يقر به.

قوله: «**خَيْرٌ مِنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إِنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ...**»؛ أي: أنَّ فعل المشركين الذين قالوا للرسول ﷺ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، بزعمهم أنَّ الشرع عارض القدر، فيتصور أنَّ الشرع جاء بمعارضة القدر، وأنَّه كيف يأمر بهذا وقد قدَّره وشاءه وخلقه؟! فإنَّ هذا يكون شبيهًا بالشيطان الذي قال لربه اعتراضًا عليه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، يعني: لما أمره بالسجود.

قوله: «**وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ**». المقصود بالوعد والوعيد: ما يترتب على الكفر والمعصية، وما يترتب على الطاعة والإيمان بالله ﷻ.

والوعد يكون لأهل الطاعة والإيمان، والوعيد يكون لأهل الكفر والمعاصي، وهذا يجب أن يؤمن به، وأن يُنزَّل كما أمر الله ﷻ به على من يستحق ذلك، لا كما تقوله الخوارج والمعتزلة؛ فإنَّهم يجعلون أصحاب المعاصي بمنزلة الكافرين، بل يجعلونهم كُفَّارًا، ولكن الخوارج ظهروا في آخر زمن الصحابة، وهم لم يؤمنوا بالوعد والوعيد كما أمر الله ﷻ به، بل جعلوا أصحاب الذنوب كمن كفر بالله واليوم الآخر، كما هو معروف من مذهبهم، وتبعهم على ذلك المعتزلة في الآخرة، أما في الدنيا فهم يقولون: (مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر)، وهذا من البدع التي اختصموا بها ولم يسبقوا إليها.

قوله: «**وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَكَانَ قَدْ نَبَغَ فِيهِمْ الْقَدَرِيَّةُ...**» نبغ في عهد الصحابة: فرقة القدرية، ففي آخر عهدهم وُجد من أنكر القدر، وأوَّلُ من عُرف أنه قال بهذا ـ على ما ذكره أصحاب المقالات ـ: هو رجلٌ فرد، ولكن الظاهر أنه ليس فردًا وأنَّ خَلْفه من يأمره بهذا ويزين له ذلك، كما أنَّ أول من أنكر الصفات رجلٌ واحد كما سبق الكلام فيه، ثم انتشرت المقالات.

ففي صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر، قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّينِ ـ أو معتمرينِ ـ فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدُنا عن يمينه، والآخرُ عن شماله، فظننت أنَّ صاحبي سيكل الكلام

إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قِبَلنا ناسٌ يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم...، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني»، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أنَّ لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه، ما قَبِل الله منه حتى يؤمن بالقدر...»[1] وذكر بقية الحديث.

وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما من أواخر من توفي من الصحابة. وأوَّل ما تُكلِّم فيه والصَّحابة لا يعرفون هذا، ولهذا لما ظهر معبد الجهني ـ أول من تكلم في القدر ـ كفَّروه، وكما يقول عبد الله بن عمر: أنَّ الذي لا يُقبل منه عمل فليس بمسلم، ومثل ذلك قاله ابن عباس رضي الله عنهما. فإنكار القدر إنكارٌ للإيمان بالله جل جلاله وإنكارٌ لصفاته؛ لأن القدر كما سبق من صفات الله جل جلاله.

قوله: «وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخْفَى وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتْ الْبِدْعَةُ»؛ أي: أن البدعة تكون في العقيدة، وتكون في الأفعال، والمقصود أن من يقوم بنُور النبوة ويدعو إلى ذلك يكون له أثرٌ في قمع أهل البدع، أما مجرد الكلام ومجرد المعرفة فهذا لا يكفي.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٦) برقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ: شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، أُولَئِكَ يُشْبِهُونَ الْمَجُوسَ، وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَالْمُشْرِكُونَ شَرٌّ مِنْ الْمَجُوسِ».

الشرح

قوله: «أُولَئِكَ يُشْبِهُونَ الْمَجُوسَ، وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ»؛ أي: أنَّ المجوس مشركون، ولكنهم مقرون بالأمر والنهي؛ أعني: بالشرع؛ وإقرارُهم بالشرع لا يبرِّر أفعالهم أو أنهم يكونون على حقٍّ، ولكن الشَّرَّ بعضه أعظم من بعض، كما أن الإيمان بعضه أعلى من بعض.

والصوفية يُشبَّهون بهذا؛ لأنهم يقولون: (إذا عصينا أمره الشرعي؛ أطعنا أمره القدري فنحن في طاعة)!؛ أي: عندهم كلُّ فعل يكون طاعة، كما يقول أحدهم: (أصبحت منفعلًا لما يراد بي ففعلي كله طاعات).

أي أنه يشهد جريان القدر عليه في كل حاله، ومعنى ذلك: أنه لا يفرق بين التوحيد والشرك، وبين النكاح والزنا، وبين الخمر والماء؛ عندهم: كل ذلك أراده الله فيكون حلالًا = فمن يقل هذا لا يكون مسلمًا أصلًا ولا يكون متبعًا لأحد من الرسل، ويكون رسوله الشيطان الذي أمره بهذا، ومثل ذلك قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، ومقصودهم بهذا أنَّ الشرك الذي وقع منهم وقع بمشيئة الله، وهذا دليلٌ على أنه يرضاه، ويقولون للرسول ﷺ: (أنت جئتنا بخلاف ذلك، فهذا دليلٌ على أنَّ ما جئت به ليس صحيحًا غير مقبول، فهو معارضةٌ للشرع بالقدر).

وليس مقصودهم إثبات مشيئة الله العامة الشاملة مع الإقرار بالأمر والنهي؛ لأنهم عاضوا الأمر والنهي بالقدر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».

الشَّرح

قوله: «فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ»، يعني: أنه أصل الدين الإسلامي، والرسل كلهم دعوا إليه أوّلًا، وكل رسول يأتي إلى أمته يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وأول ما جاء رسولنا ﷺ قال لقومه: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[(١)]، وهذا كقول الرسل الذين سبقوه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يأمر بالصلاة والزكاة والصوم إلا فيما بعدُ لمَّا دخلوا في دين الإسلام، وعرفوا أنَّ الله هو المعبود وحده، ثُمَّ جاءت الأوامر والفرائض التي فرضها الله ﷻ.

قوله: «وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية...». «الوحدانية» تشمل الإيمان بالقدر، والإيمان بالصفات، والإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد؛ فإن اختل شيءٌ من ذلك فلا يكون الإنسان مؤمنًا.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، أَوْ أَحَدِهِمَا، مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

﴿ فَإِقْرَارُ الْمُشْرِكِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إِقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ».

الشَّرح

يعني: أصل الدين الإسلامي أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قبول الشرع والإيمان بالقدر.

قوله: «وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ»؛ أي: أنَّ الإخلال في دين الله ﷻ الذي يترتب عليه عذابه، هو الإخلال بأحد هذين الأصلين: (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)، ومعنى شهادة أنَّ محمدًا رسول الله: أن تكون العبادة بما جاء به الرسول ﷺ.

وإذا خالف الإنسان أصلًا من هذين الأصلين؛ فإما أن يقع في الشرك، وإما أن يقع في البدع، ولا ينجو إلا بتحقيقهما.

فيجب أن يعلم معناها أولًا، ثم يعمل بما قامت عليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهذا أمر واضح، والحمد لله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَلَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ: الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ»، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ - كَمَا تَقَدَّمَ - بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إِذْنِ اللهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: ١٨]، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ».

الشرح

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، هذه العبادة هي الوساطة التي هي تفسير لقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، يعني: يشفعون لنا، فشِركُهم: جَعْلُهم بينهم وبين ربهم وسائط يزعمون أنها تشفع لهم.

ثم أخبر أن هؤلاء لا يضرون ولا ينفعون، والعاقل لا يجوز أن يعمل عملًا لا يعود عليه بالنفع، وقد يعود عليه بالضرر، وهذا بلا شك أنه سبب الهلاك.

قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾، الشيء الذي لا يعلمه الله في السماوات ولا في الأرض لا وجود له، فهو عدم، ومعنى ذلك: أن هذا لا وجود له أصلًا، فهم يعبدون شيئًا يتصورونه وهو غير واقع، فإذا كان يوم القيامة تبين لهم هذا جليًّا، وتبرأ المعبود من العابد، والعابد يتمنى لو أنه يرجع إلى الدنيا ويتبرأ منه كما قال ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦]، يقول ابن عباس: «هي المودة التي كانت بينهم أو التعلق»، وقالوا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٧]، يعني: لو أنا رجعنا إلى الدنيا، ولكن هيهات لا رجوع، وإنما هو الخلود في جهنم - نسأل الله العافية -.

وهكذا شرك المشركين كله على هذا المنوال؛ إما أن يتخذوا وليًا، أو شجرة، على حسب زعمهم، وقد يكون شقيًا ليس وليًا، وإما أن يتخذوا نجمًا أو غير ذلك، ويقولون: (إنه يتوسط عند الله)، وبعضهم يقول: (هؤلاء مقربون عند الله، وإذا دعوهم استجابوا له)، فهذا كله لم يشرعه الله، ومن جاء بشيء لم يشرعه الله فهو مردود عليه وهالك به.

فلا بُدَّ من اتباع أمرِ الله واجتناب نهيه فقد أمر بعبادته، وأمر ألا يشرك به وألا يجعل بينه وبين عبده وساطة يطلب منها التوسط والشفاعة، ومن ذلك ما يسمونه توسلًا، و«التوسل» عندهم: هو اتخاذ مخلوق يتقرب به إلى ربه، فإما أن يدعوه أو يقول: (إنه يدعو لي)، فهذا نفس قول المشركين، وهو شرك في عبادة الله؛ فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له ليس فيه شيء لا من حظوظ النفس ولفت الأنظار إليه، ولا مما يقصد به المخلوق؛ فإذا دخل في العمل شيء من ذلك؛ فإنه مردود، ويكون وبالًا على صاحبه، ويكون سببًا لعذابه في النار؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فجعل كُلَّ ما دون الشرك تحت مشيئته، ومعناه: أنه إذا شاء أن يغفره بلا عقاب غفر، وإن شاء عاقب عليه، ثم بعد ذلك أدخله الجنة بشرط ألا يكون مشركًا.

أما إن كان مشركًا؛ فالمشرك في النار غيرُ خارج منها.

أما الشرك الأصغر ـ الذي هو يسير الرياء أو الحلف بغير الله أو إسناد الأمور إلى أسبابها أو ما أشبه ذلك ـ؛ فهذا كثير من العلماء يقول: (إنه لا يغفر له، ويعاقب عليه)، وعقابه عليه، إما أن يكون في الدنيا، أو يكون في القبر، أو يكون في الموقف، وإن لم يفِ هذا كله عوقب في النار ثم أُخرج منها؛ لأن الله أخبر أنه لا يغفر الشرك إلا بالتوبة، فالذي يتوب منه قبل الموت ـ وإن كان شركًا أكبر ـ كما قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، فدخل في هذا: الشِّركُ وغيرُه من الذُّنوب. لكنه لمن تاب، أمَّا الذي يموت عليه فلا بُدَّ أن يعذَّب إذا كان شركًا أكبر وهو خالد في النار، وإن كان صغيرًا عُذِّب إمَّا في القبر وإما في الموقف وإما في النار، ثم أدخل الجنة بعدما يطهر من الشرك؛ لأن الشرك نجسٌ، ولا بُدَّ من تطهيره، وبعضه لا يطهره إلا النار.

المقصود: أنَّ معنى قوله: ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إخبارٌ عن الذين يعبدون الأصنام والأوثان، ويعبدون غير الله؛ سواءٌ كانت العبادة للأحياء أو للأموات أو للجمادات أو للملائكة أو غيرها.

وعبادةُ غير الله: هي أن يطلب منه شيئًا لا يقدر عليه إلا الله، مثل الشفاعة، ومثل طلب الرزق، ومثل طلب النصر على العدو، ومثل طلب الولد وطلب الغناء وما أشبه ذلك؛ فكلُّ من يطلب شيئًا من هذه الأمور من غير الله ﷻ فهو مشركٌ.

هم يعبدون شجرًا أو حجرًا أو أشياء يصنعونها بأيديهم، ثم يقولون: (هؤلاء مما صنعوها من الشجر أو الحجر؛ هؤلاء شفعاؤنا عند الله)؛ ليس إلا أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، الذي لا يعلمه الله ﷻ لا في السموات ولا في الأرض = لا وجود له؛ فهم يتصورون عدمًا محضًا؛ لأنهم يقولون: (إن هؤلاء شفعاؤهم)، وهذا لا وجود له، فالذي لا يعلمه الله في السماوات أو في الأرض لا وجود له.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: ١٨] ينزه ربنا ﷻ نفسه عن فعل هؤلاء المشركين؛ لأنهم جعلوا العبادة في مخلوق ضعيف، يعلمون تمامًا أنه ضعيف ولكن يزعمون: (أنه لا ذنبَ له، وأنهم يطلبون منه الوساطة؛ لأنه لا ذنبَ له)!

ومن أكبر المعبودات في الوقت الذي أُرسِل فيه رسولنا ﷺ إلى أهل مكَّة وغيرهم من النَّاس كانت «اللَّات» و«العُزَّى»:

فـ «اللَّات» كانت في الطَّائف، وهي عبارة عن قبر رجل دفن تحت صخرة - كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما - فنقشوا على الصخرة نقوشًا وزخرفوها تعظيمًا له؛ لأنها على القبر، فصاروا يعكفون عندها ويطلبون منها الشفاعة.

وأما «العُزَّى» فهي عبارةٌ عن ثلاث سَمُرات في وادي نخلة قُرب عرفات، بنوا عليها بناءً وجعلوا لها سدنةً وصاروا يأتون عندها ويعكفون عليها، ويقولون: (إنها تشفع لنا)، ويذبحون الذبائح ويأكلونها، ولكن يريقون الدماء تقربًا إلى هذه الشجرة.

وكذلك ذكروا أنَّ رَجُلًا وامرأةً من جُرهُم دخل الكعبة في وسط النهار، وكان الوقت خاليًا من الناس، ففجرا في الكعبة، فقلبهم الله ﷻ حجرَينِ على صورتهما،

فنصبوا أحدهما على الصفا، والآخر على المروة ليعتبر الناس، ثم بعد ذلك صاروا يعبدونهما، وهما «إساف» و«نائلة» اللذان ذُكِرا في أشعارهم.

وكذلك «هُبل» من أصنامهم الكبيرة، وأصنامهم كثيرة، و«هبل» شيء مصنوع من حجارة وشجر، وفي وقعة أُحد لما انتهى القتال، صعد أبو سفيان على أُحد وصار يتكلَّم: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم ابن الخطاب؟ والرسول ﷺ يقول: لا تكلموه، ثم صار يرتجز ويقول: «اعلُ هُبل»، عند ذلك قال ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**»، قالوا: وماذا نقول؟ قال: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»[(١)].

فالمقصود: أنَّ هذا شركهم الذي كانوا يعبدون، فيقارن مثل هذا بمن يقصد القبور ويستنجد بأصحابها؛ سواءٌ زعم أنَّ صاحب القبر وليٌّ، أو أنه من أهل البيت، أو أنه نبيٌّ، أو غير ذلك. فسؤاله إيَّاه ودعاؤه أنه يشفع له، هو نفس شرك المشركين تمامًا، وهو الذي قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، تخبرونه بشيءٍ لا وجود له، فهو مجرد ظنٍّ كاذب لا حقيقة له، زيَّنه الشيطان؛ وهكذا كلُّ عبادة تقع لغير الله.

ثم المشكلة أن العبادة جُهلت، فزعموا أنَّ الطلب من الميت ليس عبادةً، حتى علماءهم يقولون: (هذه مسألة، ودعاء المسألة ليس عبادةً)، فأنكروا ما في كتاب الله وما اتفق عليه العلماء وما جاء به الرسول ﷺ حتى يسلم لهم شركهم.

وهيهات! فالشِّرك أبطله الله ﷻ بدلائل لا تقاوم، وبراهين مثل الشمس، غيرَ أنَّ المعاند لا يُجدي فيه شيء؛ فالمعاندون أنكروا وجود الله ـ تعالى وتقدس ـ كما قال فرعون وذويه لما جاءه موسى وقال: (إني رسول رب العالمين)، قال فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وهكذا هؤلاء لما جاء الرسول ﷺ قالوا: هذا دينٌ مبتدع، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧]، والاختلاق هو الابتداع، وهؤلاء يقولون لمن نهاهم عن عبادة القبور: (إنك جئت بدينٍ جديد)!.

فالمقصود: أنَّ ابن آدم عنده عقل وعنده فكر، ولكن عنده عناد وتكبُّر؛ فإذا وجد شيئًا يلائم فكره ويلائم حالته، فإنه يتشبث ويستدل ولو بالأمور المحالة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٥/ ٩٤) برقم (٤٠٤٣)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس: ٢٢ ـ ٢٥]».

الشرح

ثُمَّ قتلوه على هذا؛ فلما قتلوه أكرمه الله ﷻ فقال: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧]، فنصح لقومه في حياته وبعد موته، ولكنهم لا يعلمون.

قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي: خلقني؛ فالخلق دليلٌ على وجوب العبادة.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: أنكم تموتون ثم يحييكم ثم يحاسبكم على أعمالكم.

قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع.

قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي﴾؛ أي: لا تغني شفاعة آلهتكم، ولا تنفع، والحكم لله ﷻ فهو الذي يجب أن يُعبد.

قوله: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، يعني: وإن قلّ.

قوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ من العذاب؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ وإذا فعلت ذلك فإني إذًا لفي ضلال مبين، كما أنكم في ضلال مبين.

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: عبدته واتجهت إليه وتبرأت من الشرك وأهله.

قوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾. هذا تحدٍّ لهم وإظهارٌ لإيمانه، ولذلك قتلوه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ».

الشرح

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ هذا بعد الموت؛ يأتي كلُّ واحدٍ وحده، ليس معه معاونٌ ولا ولدٌ ولا والدٌ ولا خادمٌ ولا غيرُه، كلُّ الخلق هكذا يأتون حفاةً عراةً غُرْلًا إلى رب العالمين، لا يملكون شيئًا.

هم يقولون: (نحن جميع منتصر)، إلا أنهم يأتون يوم القيامة كل واحد وحده ليس معه شيء، حتى الثياب والنعال، كما قال النبي ﷺ: «**يُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»(١)، و«**غرلًا**» بمعنى: غير مختتنين؛ والمعنى: أنَّ الشيء الذي ألقي من البدن يعود إليه حتى يذوق العذاب بجميع بدنه أو النعيم، وليس معهم مالٌ ولا غيره.

قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ أي: ما أعطيناكم في الدنيا تركتموه وراءكم فلم تنتفعوا به. والشيء الذي أعطاهم الله في الدنيا تركوه وذهبوا عنه، ويأتي فردًا ليس معه إلا عمله فقط؛ فإن كان صالحًا نجا به، وإن كان فاسدًا هلك به.

قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أين الشفعاء الذين يزعمون أنهم يشفعون لهم؟! قد ذهب البهرج والكذب والتزوير.

وكلمة (زعم) تدلُّ على الكذب غالبًا، يعني: أنكم جئتم وحدكم بدون شركائكم، أين الشركاء الذين تقولون: إنهم يشفعون لكم؟! لا وجود لهم في ذلك الموقف.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٨/ ١٠٩) برقم (٦٥٢٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/ ٢١٩٤) برقم (٢٨٥٩)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾، تقطع بينكم المودة التي تكون بينكم، أو ما تزعمون إلى الصلة أنهم يشفعون وأنهم ينفعون، ﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: ذهب الذي كنتم تكذبون وتقولون: (إنهم شفعاء)، فلا وجود لهم في ذلك اليوم، وعند ذلك تتبين الخسارة ويتبين الندم العظيم.

قوله: «**فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ**». والزعم في لغة القرآن يقال للكذب، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧]، يعني: كذبوا، فـ «الزعم»: في الغالب يطلق على الكذب، الذين زعمتم، يعني: كذبتم، فهم كذبة ليس لهم على هذا دليل، ومن لم يكن له دليل فهو كاذب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٤]».

الشَّرح

قوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣﴾؛ أي: يتخذون شفعاء وهم لا يملكون شيئًا. وكذلك لا يعقلون؛ لأنهم إما أموات أو شجر أو حجر أو غائبون لا يسمعون شيئًا، فكيف تدعونهم وربُّكم ﷻ رقيبٌ عليكم ويسمعكم ويرى ما أنتم فيه ويعلم ما في ضمائركم؟! هذا هو الانتكاس وهو الابتعاد عن الصراط المستقيم، وسلوك صراط الجحيم ـ نسأل الله العافية ـ، وهذا شرك المشركين قديمًا وحديثًا.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾؛ أي: لا أحد يملك من الشفاعة شيئًا حتى يأمُرَه الله أن يشفع.

وحقيقة الشفاعة: أنها إكرام للشافع ـ لأن الله يأذن بأن يشفع ـ، ورحمة للمشفوع له؛ وليس للشافع شيء، بل كلُّه من الله، والشافع يؤمر ويقال له: (اشفع في كذا).

ولهذا كان سيد الشفعاء هو رسول الله ﷺ، وأخبر أنه يشفع في أمته ويحد له حدًّا، ولا يشفع قبل أن يقول الله له: (اشفع)؛ لأنَّ من شروط الشفاعة: الإذنُ، كما قال ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا وجود لهذا؛ فالشفاعة ملكٌ لله ﷻ وحده.

المقصود: أنَّ قوله: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣﴾؛ لأنهم إما شجر وإما أموات، وإمَّا نجومٌ أو نحو هذا، أو جنٌّ من الشَّياطين الغائبة؛ لأنَّ من الناس من يعبد الجِنَّ، وهم لا يملكون شيئًا.

و«شيءٌ» يُطلق على كلِّ حقيرٍ وكثيرٍ، لا يملكون حتى عُودًا؛ فإذا كانوا

لا يملكون قطميرًا ولا نقيرًا ولا عودًا يكون مُلْقًى على الأرض = فهم لا يعقلون؛ لأنهم إما أموات وإما غائبون وإما جمادات لا تعقل.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، يعني: أن الشفاعة لا تكون إلا بأمر الله؛ كما قال ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وسيد الشفعاء رسولنا ﷺ يقول: إذا أراد أن يشفع يسجد لله ﷻ، فلا يقول: يا رب اشفع، بل يبقى ساجدًا حتى يقول له الله ﷻ: «اشفع».

قوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فمن تمام الملك أنه لا أحد يتقدم عنده للشفاعة بدون أمره، والإذن هو الأمر، بخلاف أهل الأرض الملوك والرؤساء والكبراء؛ فإنه يُشفع عندهم ولو لم يأذنوا، ولو لم يرضوا؛ لأنَّ الشافع يكون شريكًا له في ملكه، يكون وزيرًا أو ولدًا أو زوجة أو ما أشبه بذلك، فمثلًا فرعون من طغاة العالم حين قيل له: (إن ملكك سوف يزول على يد رجل من بني إسرائيل)، قال: (إذَن نُقتِّل أبناءهم ونبقي النساء)، وبقي على هذا المنوال حتى كاد يفنى بنو إسرائيل، فقال له وزراؤه وكبراؤه: (يوشك أن ينتهوا فلا نجد من يخدم ومن يعمل)؛ لأنهم سخروهم في الأعمال، فقال: إذَن نقتلهم سنة ونبقيهم السنة الثانية، فولد هارون في السنة التي لا يُقتل بها الأبناء، ووُلد موسى في السنة التي يُقتلون فيها، وألهم الله ﷻ أمه بأنها إذا خافت عليه أن تضعه في تابوت في صندوق من خشب وتلقيه في النيل، فألقته فخرج آل فرعون يتنزهون على النيل فرأوا هذه الخشبة فأخذوها، ففتحوها فإذا فيها صبيٌّ، فذُهب به إلى فرعون فقال: اقتلوه، فقالت زوجته: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القصص: ٩]، فشفعت فيه، فتركه فتربى في بيت فرعون يأكل من طعامه وفي بيته ليبين الله ﷻ أنه لا استطاعة له في منع ما أراده الله.

فهؤلاء الذين يزعمون أن هؤلاء يشفعون لهم، معناه: أنهم جعلوا لله شركاء في ملكه وتدبيره، وتصرفه، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]».

الشَّرح

قوله: ﴿وَأَنذِرِ﴾؛ أي: العذاب قريب؛ لأنهم مشركون، ثم جعل هذا للذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم؛ لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالنذارة، أما المعرضون فهم لا ينتفعون بها.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾؛ أي: أنذر بالقرآن، و«الإنذار»: هو الإعلام بالشيء المخوف المتوقع حصوله.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ هؤلاء هم الذين ينتفعون بالنذارة، وأمَّا الغافلون الكُفَّار فهم لا ينتفعون ولا يلتفتون إلى ذلك؛ فسواءٌ أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا ينتفعون، فجعل النَّذارة للخاشع الذي يخاف ربَّه، فهو الذي ينتفع بذلك.

والشاهد **قوله:** ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، إذا كان الذين يخافون ربهم ويؤمنون به؛ ما لهم من وليٍّ ولا شفيعٍ من دونه، فكيف بغيرهم؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]».

الشَّرح

قوله: ﴿وَكَم﴾؛ أي: كثيرٌ، وهذه تسمى (كم التكثيرية)؛ لأنها إخبار عن الكثرة، أي: في السماء ملائكة كثيرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يفترون عن العبادة. والمعنى: أنهم لا ينفعون أحدًا بشفاعة حتى يأذن الله لمن يشاء منهم ويرضى عن المشفوع له.

فهذانِ شرطانِ في الشَّفاعة:

الأول: إذنُ الله للشَّافع أن يشفع.

والثاني: رضاه عن المشفوع، وبدون ذلك لا تحصل الشفاعة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]، وقد قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

قَالت طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ الْعُزَيْرَ وَالْمَسِيحَ وَالْمَلَائِكَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالأَنْبِيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ».

الشرح

وقال بعضُهم: (كان قومٌ من المشركين يدعون الجِنَّ، فآمن الجنيون المدعوون وبقي المشركون على شركهم ودعوتهم؛ فسواءٌ كان هذا أو ذاك فالمعنى أنَّ كُلَّ داعٍ يدعو مخلوقًا إن كان ذلك المخلوق مؤمنًا فهو يتقرَّب إلى الله ﷻ بطاعته وما أمره، وإن كان غير مؤمن فهو أيضًا غافل عن دعوتهم.

فالمقصود: أنَّ دعوة غير الله باطلة بأي صفة كانت.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآية يقول بعض العلماء: (إنها تقلع عروق شجرة الشرك من القلوب)، ولكن هذا لمن يعقلها.

قوله: ﴿زَعَمْتُم﴾ الزعم هو الكذب، فهم يكذبون بأن هناك أولياء يتولونهم غير الله.

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ المدعو يجب أن يكون مالكًا لما يُطلب منه، أما أن تدعو إنسانًا مفلسًا ليس معه أي شيء؛ فهذه دعوة ضالة وخاسرة، فكل الخلق لا يملكون مع الله شيئًا.

لكن قد يقول قائل: (هم لا يملكون شيئًا، ولكنهم شركاء للمالك)، فنفى أيضًا هذا، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾، يعني: في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾، فهُما ملكٌ لله ﷻ وحده.

وقد يقول قائلٌ: (قد يكونون مقربين، بأن يكونوا معاونين كالوزراء وما أشبه ذلك، فنفى هذا ﷻ فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾، يعني: من مظاهر مساعد ومعاون؛ لأنَّه وحده ﷻ هو المالك وهو المتصرف، وبقيت الشَّفاعة، ونفاها أيضًا فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فلا تنفع شفاعةُ أيِّ أحدٍ إلا بعد إذنٍ من الله ﷻ.

فصارت الأمور أربعة:

١ ـ إما أن يكون هذا المدعو مالكًا لما يدعى له، فنفى هذا.

٢ ـ أو أن يكون شريكًا للمالك؛ ونفاه أيضًا.

٣ ـ أو أن يكون مساعدًا ومظاهرًا ومعاونًا ونفى هذا كذلك.

٤ ـ أو أن يكون شافعًا ونفاه أيضًا، فأصبح المشرك ليس بيده شيء.

وكم من آية في كتاب الله مثل هذه الآية ولكنهم لا يعقلون؟!.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: أنَّ كُلَّ مدعوٍّ غيرَ الله لا يستطيع كشف الضُّرِّ الذي ينزل بالدَّاعي، ولا يستطيع تحويل الضُّرِّ من مكانٍ إلى آخر ولا تخفيفه، وتكون دعوته خاسرةً، والمدعو إذا كان عابدًا لله فهو يخاف الله، فيدعو الله ويعبده مخلصًا، فيخاف عذابه ويرجو ثوابه، وهذه هي العبادة، فلا بُدَّ فيها من الخوف والرجاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤ ـ ٦٦]، وَكُلٌّ مِنَ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]، وَقَالَ: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩].

فَقَالَ فِي الْإِتْيَانِ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩]، وَقَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، [التوبة: ٥٩]، وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ؛ لِأَنَّ الْإِتْيَانَ هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَغَهُ الرَّسُولُ، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وَأَمَّا الحسب فَهُوَ الْكَافِي، وَاللهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلُّهُمْ.

❁ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، أَيْ: حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللهُ فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلُّكُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُك، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الغالطين، إذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ نَبِيَّهُ وَهُوَ حَسْبُهُ، لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حسبا لِلرَّسُولِ، وَهَذَا فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

.... فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

❁ وَتَقُولُ الْعَرَبُ: حَسْبُك وَزَيْدًا دِرْهَمٌ، أَيْ يَكْفِيك وَزَيْدًا جَمِيعًا دِرْهَمٌ».

الشَّرح

قوله: «**وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَةِ**...» العبادة متنوعة، وهي قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، والمستحب هو الذي لا يأثم الإنسان بتركه ويؤجر على فعله. أما الواجب؛ فلا بُدَّ من فعله مع الاستطاعة، ومثل ذلك: الدعاء، والصلاة، والركوع، والسجود، والخوف، والرجاء، والتوكل.

قوله: «**وَالتَّوَكُّلِ**...» وهو تفويض الأمر إلى الله، واعتماد القلب على الله مع فعل السبب، ولا يجوز أن يكون التَّوكُّل منه شيء لمخلوقٍ، ولا يقول العبد: (توكلت على فلان)، بل يجب أن يقول: (توكلت على الله)، وإنما يجوز التوكيل بمعنى التفويض إليه بأن يفعل كذا وكذا مما يستطيعه.

أما التوكل فهو فعل القلب، فهذا يجب أن يكون خالصًا لله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وقدم المعمول على العامل ليفيد الحصر، يعني: لا نتوكل إلا عليك، فالعبادة لها أنواع متنوعة.

قوله: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ الحسب هو الكافي، يعني: كافيني فيما أتجه إليه وفيما أطلب من ربي ﷻ، ولهذا قال: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: وحده، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾، يعني: الله حسبك، وهو حسب المؤمنين أيضًا، فالحسب هو الكافي، ثم هكذا في جميع

العبادات، فيجب أن تكون خالصة لله ﷻ، ولا يجوز أن يكون شيئًا منها لغير الله، فإذا وقع الاشتراك فيها؛ فإن الله لا يقبلها وتكون شركًا يستوجب الإنسان به عذاب الله ﷻ.

المقصود: أنَّ الحسب لا يجوز أن يُشرك فيه، فالحسب من العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله ﷻ كالتوكل وسائر الأمور التي أمر الله ﷻ بها عباده، فهذه من أنواع العبادة، وأنواع العبادة كلها يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، لا يجوز أن يشرك بها لا نبي ولا ملك ولا غيرهما.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: ٢ - ٣]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ.

❁ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]».

الشرح

أي: أنَّ الخشية والخوف متقاربانِ، وكلاهما يجب أن يكون لله ﷻ وحده.

قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم...» لَبس الإيمان بالظلم معناه: أن يخلطه بشِركٍ، وهذا لا يكون مهتديًا ولا آمنًا، وإنما يكون الاهتداء والأمن لمن لم يلبس إيمانه بظلم، يعني: بشرك، وقد تدخل المعاصي في هذا.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١]».

الشرح

قول الصحابة ﷺ في حديث ابن مسعود: «**وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟**»؛ ظنوا أنَّ مجرد الظُّلم ينفي الأمن والاهتداء، والأمن من العذاب يكون في الدُّنيا ويكون في الآخرة ويكون في القبر، فقالوا: (كل إنسان لا بُدَّ أن يظلم نفسه).

و«**الظلم**»: أن يكون مقصرًا في حقِّ الله، فيترك شيئًا من الأوامر، أو يرتكب شيئًا من النواهي، والعبد لا ينفكُّ عنه شيء من ذلك.

فأخبرهم الرسول ﷺ أنَّ الظلم المطلق هو الشرك، وهو الذي لا يكون معه أمنٌ مطلقًا؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة، أمَّا الظُّلم الذي هو ظلم العبد لنفسه غير الشِّرك؛ فهذا تحت مشيئة الله ﷻ وصاحبه في النهاية يدخل الجنة، بخلاف الشرك؛ فإنه لا أمن معه.

فالمقصود: أنَّ العبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ بأنواعها التي أمر الله ﷻ بها.

و«العبادة»: طاعةُ الله في أمره واجتناب ما نهى عنه على وجه الذُّلِّ والخضوع والرجاء والخوف، أو هي: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فالظاهرة: هي التي تفعل بالجوارح، والباطنة: هي التي تكون في القلب من النيات والإرادات والخوف والخشية وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿فَارْهَبُونِ﴾، ﴿فَاتَّقُونِ﴾ متقاربات؛ أمَّا التقوى فيدخل فيها كلُّ ما أمر الله ﷻ به، بمعنى أنه يجب أن يكون هذا خالصًا لله. وكلُّ هذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله هو أنواعٌ من العبادة، يجب أن تكون خالصة لله، وكل ما نهى الله تعالى عنه فيجتنب، ولا يكون لأحد منها شيء، حتى يكون الإنسان آمنًا من عذاب الله؛ وإلا فلا يمنعه من عذاب الله مانعٌ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «مَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا»، وَقَالَ: وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ». فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ «الْوَاوِ»، وَفِي الْمَشِيئَةِ: أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ «ثُمَّ»، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَطَاعَةُ اللهِ، طَاعَةُ الرَّسُولِ. بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ، فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيئَةُ اللهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إِلَا أَنْ يَشَاء اَللهُ».

الشَّرح

الفرق بين «ثم» و«الواو»: أنَّ «الواو» لمطلق الجمع والعطف، أمَّا «ثُمَّ» فهي تدل على العطف مع الترتيب، أي: لا يكون فيه مشاركةٌ بخلاف «الواو»، ولهذا أمر أن يقول «ثُمَّ»، فهذا يكون كلٌّ له استقلاله، بخلاف «الواو» فإنها تدلُّ على مطلق الجمع، فلا يجوز الجمع بين ما هو لله ﷻ وما هو للمخلوق؛ فإنَّ هذا من الشرك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الأَصْلُ الثَّانِي: حَقُّ الرَّسُولِ ﷺ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَنُطِيعَهُ، وَنَتَّبِعَهُ، وَنُرْضِيَهُ، وَنُحِبَّهُ، وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ».

الشرح

قوله: «الأَصْلُ الثَّانِي...». الأصل الأوَّل ـ كما تقدم ـ: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله. و«**الأَصْلُ الثَّانِي**» هو متابعة الرسول ﷺ، وطاعته فيما جاء به وحبه.

وحُبُّ الرَّسول ﷺ واجبٌ، وهو حُبٌّ لله وفي الله، تابعٌ لمحبة الله ﷻ، وليس حبًّا مع الله، فالحب مع الله شركٌ به، ولكن حب الرسول يتبع محبة الله تحبه؛ لأنَّ الله يحبه، ولأن الله أمر بحبه، ولأنه رسولٌ أرسله، وبسببه صار لك عند الله مقام يكرمك به، والسعادة لا تحصل إلا بسبب الرسول ﷺ وفيما جاء به.

ومحبته ﷺ يجب أن تكون مقدمة على محبة الولد والوالد، بل وعلى محبة النفس؛ كما قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١). وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١٢) =

إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»(١)، يعني: الآن وصلت إلى الواجب الذي يتعيَّن.

ومحبته ﷺ دليلها: طاعته واتِّباعه؛ أما أن يزعم أنه يحبه وهو يعصي أمره؛ فهذا كذب، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذه الآية تسمى آية المحنة؛ وكان قوم يزعمون أنهم يحبون الله، فأمرهم الله أن يتبعوا محمدًا ﷺ، وجعل اتباع محمد عَلَمًا لحبِّه.

وأما دعوى محبة الله وعبادة الله بلا متابعة للرسول فهذه مردودة ولا تنفع، فلا بُدَّ من اجتماع الأصلين: عبادة الله ﷻ، ومتابعة الرَّسول ﷺ.

والرسول ﷺ عبدٌ تعبَّده الله، وقام بعبودية ربِّه حسب استطاعته، وليس له من الملك شيء، وليس له مع الله أمرٌ ولا نهيٌ، بل هو عبدٌ من عباد الله، وقد قام بعبادة الله حسب إمكانه، ولهذا أثنى الله ﷻ عليه في أشرف المقامات التي يقومها بلفظ «العبد»، كمقام التحدي، فقال ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]. وفي مقام التنزيل قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]. وفي مقام الدعوة إليه قال ﷻ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

فهذه المقامات الأربعة هي أشرف المقامات التي يقومها لله ﷻ، وكلها ذكره بلفظ العبد؛ ليبين أنه عبدٌ وهو ﷺ يقول: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٢). وقال في حديث آخر:

= برقم (١٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (١/ ٦٧) برقم (٤٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٨/ ١٢٩) برقم (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] (٤/ ١٦٧) برقم (٣٤٤٥)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«**والله مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِيَ فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ**»(١). ولما قالوا له: أنت سيدنا، قال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(٢)، يعني: في الباطل؛ خاف أنهم يرفعونه إلى ما لله ﷻ كما وقع من النصارى؛ فإنهم جعلوا ابنَ مريم بمنزلة الله، بل جعلوه هو الله، أو جعلوه ابن الله، أو جعلوه ثالث ثلاثة، تعالى الله وتقدس.

وقد وقع في هذا قومٌ من الناس حتى من العلماء، وزعموا أنهم إذا أعطوه ما لله فإنهم عظموه! وأنَّ هذا شيء من حقِّه؛ تعالى الله وتقدس عن أن يكون لمخلوق شيئًا من حقِّه أو مما يجب له. ومن ذلك قول القائل:

يا أكرمَ الخلقِ مَا لي مَن ألوذُ بِه ... سواكَ عندَ حُلولِ الحادثِ العممِ
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلَّا فقل يا زلّة القدمِ
فإنَّ مِن جودِكَ الدُنيا وضَرَّتَها ... ومِن علومِك عِلْمُ اللوحِ والقلمِ
ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي ... إذا الكريم تحلَّى باسم منتقمِ

يستغيث بالرسول من الله! ويقول: إن من جودك الدنيا والآخرة! ويقول: من علومك علم اللوح والقلم! فماذا بقي لله ﷻ؟! تعالى الله وتقدس.

ويقول في قصيدة أخرى يشكو إلى الرسول ﷺ ويقول: إن الأمراض تسلطت عليه والأعداء، ثم يقول:

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء

يعني: أنَّ الرسول ﷺ يعلم ما في القلوب، وهذا غلوٌّ كغلو النصارى؛ وإن لم يقل: (إنه الله، أو إنه ثالث ثلاثة)، لكن إذا أعطاه ما لله ﷻ فهذا يكفي الشيطان ويرضى به، وإن لم يسم كما سمَّت النصارى وغيرهم.

والمقصود: أنَّ محبة الرسول ﷺ يجب أن تكون تابعة لمحبة الله، أمَّا محبة الله فهي محبة ذُلٍّ وخضوع وعبادة، أما محبة الرسول فهي حبٌّ لله وفي الله، وهكذا محبة الطائعين وبغض العصاة يجب أن يكون لله فتبغض العاصي؛ لأنه عاصٍ لله،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٢٣) برقم (١٢٥٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤/ ٢٥٤) برقم (٤٨٠٦)، وأحمد في مسنده (٢٦/ ٢٣٤) برقم (١٦٣٠٧)، من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه.

والكافر كذلك تتبرأ منه وتبغضه؛ لأنَّ الله يبغضه ويكرهه، فيجب أن تكون متبعًا لربك ﷻ فيمن يحب ويكره.

أمَّا الدَّعوى؛ فإنها تحتاج إلى تصديق، وتصديقها متابعة الرسول ﷺ.

فالإسلام أن يشهد ألا إله إلا الله، ويشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله - صلواته وسلامه عليه، فحقه أن يُعلم أنه رسول أرسله الله ﷻ فيؤمن به، ثم يُوَقَّر ويُحَبُّ كما أمر الله ﷻ بحبه، فرسول الله ﷺ له حقٌّ عظيم على من آمن به؛ لأنه به أنقذ الله ﷻ الأُمَّة ورَحِمَها بواسطته.

فالواسطة التي تكون بين العباد وبين ربهم ﷻ نوعان:

- **نوع باطل**: وهو الواسطة بالعبادة والدعاء وطلب الحاجات ودفع الكربات وغير ذلك.

- **وواسطة في تبليغ أمره**، وهذا شيءٌ لا بُدَّ منه، وهم الرسل؛ وكلُّ رسول يأتي قومه يكون له حقٌّ عليهم أن يطيعوه ويتبعوه ويوقِّروه وينصروا سنته التي جاء بها، وهذا هو علامة حُبِّه؛ كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فبين أنَّ من اتبع الرسول فإن هذه هي علامة طاعته، وأن ذلك سبب مغفرة الذنوب، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فلا يضر إلا نفسه، فإنه سوف يلاقي ربه ويحاسبه.

والمقصود: أنَّ حقَّ الرسول ﷺ على أمته أن يطيعوه ويتبعوه ويوقروه ويحبوه أكثر من حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولأهليهم وأموالهم وغير ذلك من أمور الدنيا.

قوله: «وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾»: «اقترفتموها» أي: حصلتموها واكتسبتموها.

قوله: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾؛ أي: تخشون أنها تكسل ولا تربح.

قوله: ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾؛ أي: أنها مريحة وأنَّ فيها ما تريدون.

قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾؛ يعني: انتظروا العذاب، ثُمَّ قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾؛ أي: أنَّ من كان بهذه الصفة فهو فاسقٌ خارجٌ عن الطاعة.

قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظروا ما يحل بكم من الأذى، وهذا معناه في الدنيا قبل الآخرة.

وليست محبة الرَّسول أن يُجعل مع الله إلهٌ أو يُدعى مع الله، بل محبته أن يُطاع وأن يُتبع، وهذه علامة حبه؛ اتباعه وطاعته، أمَّا الذي يدَّعي أنه يحبه ثم يخالف أمره ويخالف سنته فهذه دعوى لا تنفع.

ولكن حبه ـ كما سبق ـ تبع لمحبة الله ورضاه، فمحبته محبةٌ لله وفي الله وليست محبة ذلٍّ وعبادة؛ لأنَّ العبادة يجب أن تكون لله وحده كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] إلى أن أخبر أن هؤلاء لا يخرجون من النار، فقال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]؛ لأنهم جعلوا الحب الذي هو عبادة؛ حب الذل والتعظيم والخوف والرجاء جعلوه لله ولمخلوق من مخلوقاته، فاستحقوا بذلك النار.

والرسول ﷺ هو الذي عرَّف الأُمَّة بربهم، وهو الذي دلَّهم على طريق الهدى، ودلَّهم على السعادة وحذَّرهم من كلِّ ما هو مضرٌّ بهم أو مهلك، ولهذا جاء أنه كان يمثل نفسه مع الناس، فرُوي أنه قال: «إنَّما مَثَلِي ومثَلُكم ومثَلُ الدُّنيا كمَثَلِ قومٍ سلَكُوا مَفازةً»، والمفازة في لغة العرب: الأرض المهلكة؛ لأنهم يسمون الشيء بما يتفاءلون به، فسموا الأرض التي إذا سلكها الإنسان يمكن أن يهلك، سموها مفازة تفاؤلًا، كما سموا اللديغ سليمًا تفاؤلًا.

فيقول: «**كمَثَلِ كقوم سلَكُوا مَفازَةً غبْرَاءَ، حتَّى إذا لم يَدرُوا ما سلَكُوا منها أكثَرَ، أو ما بقِيَ، أنفدُوا الزَّادَ، وحسَرُوا الظَّهرَ، وبقُوا بينَ ظَهرَانِيِّ المفازَةِ لا زادَ ولا حمُولَةَ، فأَيقنُوا بالهلكةِ، فبينَمَا هُم كذَلِك، إذْ خرَجَ عليهم رجُلٌ في حُلَّةٍ يَقطُرُ رأْسُهُ ماءً، فقالُوا: إنَّ هذا قرِيبُ عهدٍ برِيفٍ، وما جاءَكُم هذا إلَّا من قرِيبٍ، فلمَّا انْتهَى إليهم، قالَ: علامَ أنتُمْ؟ قالوا: على ما ترَى، قالَ: أرأيتُكُمْ إن هَدَيتُكُمْ على ماءٍ رِواءٍ، ورِيَاضٍ خُضرٍ، ما تعمَلُونَ؟ قالُوا: لا نَعصِيكَ شيئًا، قالَ: أعطُونِي عُهُودكُم ومَوَاثِيقَكُمْ باللهِ، قالَ فأَعطَوهُ عُهُودَهُم ومواثِيقَهُم باللهِ لا يَعصُونَهُ شيئًا، قالَ: فأَورَدَهُم ماءً، ورياضًا خُضرًا، فَمكَثَ فِيهِم ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ قالَ: يا هؤُلاءِ الرَّحِيلَ، قالُوا: إلى أينَ؟ قالَ: إلى ماءٍ ليسَ كَمائِكُمْ، وإلى رِياضٍ ليسَت كرِيَاضِكُم، فقالَ جلُّ القَومِ ـ وهُم أكثَرُهُم ـ: واللهِ ما وجَدنَا هذَا حتَّى ظَنَنَّا أن لَن نَجِدَهُ، ومَا نَصنَعُ بِعَيشٍ خَيرٍ مِن هذا؟ وقالَتْ طَائِفَةٌ ـ وهُم أقَلُّهُم ـ: أَلَم تُعطُوا هذا الرَّجُلَ عُهُودَكُم ومَوَاثِيقَكُم باللهِ لا تَعصُونَهُ شيئًا**

وقَد صدَقَكُم في أوَّلِ حدِيثِهِ، فو اللهِ ليَصدُقَنَّكُم في آخِرِهِ، قالَ: فرَاحَ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ، وتَخَلَّفَ بَقِيَّتُهُم، فنزَلَ بِهِم عدُوٌّ، فأَصبَحُوا بَينَ أَسِيرٍ وقَتِيلٍ»(١).

فهذا مثلُه ﷺ ومثل الناس، فالذي يطيعه يسعد وينجو من كل كرب وعذاب، والذي يأبى طاعته سوف يستولي عليه الشيطان فيهلكه.

فالمقصود: أنه ـ صلواته وسلامه عليه ـ حقه على أمته عظيم بأن يتبعوه ويقوموا بدعوته، ويعرفوا سنته ويعرفوا ما جاء به؛ لأنَّ كل طائع يتبعه يكون له من الأجر مثل أجره إلى يوم القيامة؛ فمن دعا إلى هدى فكل من اهتدى بدعوته فله مثل أجره، وكان ﷺ يحب أن تكثُرَ أمَّتُه، يحب أن يكون له أتباعٌ كثر، ولهذا يقول: «**تَزَوَّجُوا الولُودَ الودُودَ، فإنِّي مُكاثِرٌ بِكُم**»(٢).

فعلى كلِّ حالٍ، سوف يُسأل العبد عن هذا الأصل في قبره، ويقال: «إذا وُضع في قبره يأتيه ملكان ويجلسانِه ويقولان له: من ربُّك؟ ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟»(٣).

فهذه أصول لا بُدَّ من الإيمان بها، والاستعداد لها، فلا يمكن أن ينجو الإنسان إلا باتباع الرسول ﷺ، فالسبل كلُّها مسدودة ومؤصدة إلى الجنة إلا الطريق الذي جاء به رسول الله ﷺ.

ثم إن حقَّه صلوات الله وسلامه عليه محبته لله وفي الله، وأن تُقدَّم محبته على محبة النفس وكل شيء كما في الآية، ثم كذلك الدعوة إلى سبيله والبحث عن طريقه واتباعه والحرص على ذلك، فهذا هو عنوان محبته، أما مجرد دعوى بلا دليل يدلُّ عليه فلا يُجدِي شيئًا؛ يقول ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٧٦) برقم (٥٠٧)، مرسلًا عن الحسن البصري ﵀، والرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص٥٧)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٨٠)، وقال: خرَّجهُ ابن أبي الدُّنيا، وخرَّجهُ الإمام أحمد من حديث عليِّ بن زيد بن جُدعانَ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ بمعناهُ مُختصرًا» اهـ.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢/ ٢٢٠) برقم (٢٠٥٠)، والنسائي في سننه، في كتاب النكاح، كراهية تزويج العقيم (٦/ ٦٥) برقم (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار ﵁.

(٣) تقدم تخريجه.

فالمقصود: أنَّ محبة الرَّسول ﷺ يجب أن تكون على حسب ما أمر الله ﷻ، ويحبه؛ لأنه رسوله ولأن الله يحبه وأمر بحبه. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وأمثال ذلك.

قوله: «وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]»: يقسم ﷻ أنه لا يحصل لأحد الإيمان حتى يُحكِّم الرسول فيما شجر. وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يدخل فيه كلّ ما فيه خلاف ونزاع من الأمور التي تحدث بين الناس، فلا بُدَّ أن يحكِّموا رسول الله ﷺ، وتحكيمه - صلوات الله وسلامه عليه - هو تحكيم سُنَّته وما جاء به من عند الله ﷻ؛ فإن لم يحصل ذلك فإن الإنسان منفيٌّ عنه الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم لا يكفي مجرد التحكيم، بل لا بُدَّ أن يرضوا بهذا الحكم وأن لا يكون في نفوسهم حرجٌ منه، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: لا يتحرجون ولا يتضايقون. ولا يجوز أن يقول: (لَيْتَه ما حكم بهذا، وليت حكمه كذا في ذلك).

فإن لم يكن الإنسان راضيًا بحكمه متبعًا له منقادًا له مسلمًا له = فالإيمان الذي به النجاة منفيٌّ عنه، وهو متوَعد بعذاب الله ﷻ.

المقصود: أنَّ طاعة الرسول ﷺ طاعةٌ لله ﷻ؛ لأنه يأمر بما أمر الله ﷻ به.

أما الخشية والخوف والرجاء والإنابة والتوكل وما أشبه ذلك، فيجب أن يكون لله ﷻ كالصلاة، والصوم، والحج ونحو ذلك، وعلامة صدق الإنسان في حبه لله وفي تقواه وأعماله = أن يكون متبعًا للرسول ﷺ؛ لأنه لا يمكن أن تكون العبادة عبادة مقبولة صحيحة إلا بما جاء به الرسول ﷺ، وإلا كانت بدعًا وضلالة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَصْلٌ»

﴿ «وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا: فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ: بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ.

﴿ وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: مَجُوسِيَّةٍ ومشركية وإبليسية».

الشَّرْح

يقول رحمه الله: إذا ثبت هذا أنه لا بُدَّ من عبادة الله وحده لمن يريد النجاة، وأنه لا بُدَّ من اتباع الرسول ﷺ وأن تكون العبادة بما جاء به ﷺ، وأنه لا بُدَّ من حب الله - الحب الذي يكون حب ذلٍّ وخضوع -، وكذلك حب الرسول، ويكون تابعًا لمحبة الله = فلا بُدَّ مع ذلك من الإيمان بأمر الله وبحكمه وبخلقه.

ويقصد بذلك الإيمان بالشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، والإيمان بما قدره الله ﷻ وقضاه؛ لأنَّ الله ﷻ علم كل شيء قبل وجوده، ثم كتب علمه للأشياء؛ كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»**(١).

فهذه كتابة علم الله ﷻ؛ لأنها كتابةٌ قبل وجود الخلق كلهم ما عدا العرش والماء.

وكذلك حديث عبادة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ؛ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**(٢).

فعلى هذا: لا بُدَّ من الإيمان بقدر الله ﷻ وكذلك من الإيمان بأمره، ولا يكون كالفِرَق التي ضلت في هذا، وقسمهم المؤلف إلى ثلاث فرق.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قوله: «**مَجُوسِيَّةٍ**»؛ أي: أنهم شابهوا المجوس، فقالوا: (إن الإنسان يخلق أفعاله وليس لله ﷻ دخلٌ في خلق فعل الإنسان؛ فإنه إذا كفر فباختياره وقونه، وهو الذي خلق ذلك لنفسه وأوجده، وإذا آمن فكذلك).

فهؤلاء عبدوا مع الله غيرَه، وجعلوا معه خالقيْنِ، فأشركوا بالله ﷻ، فالكل مكلَّف عندهم، يتصرف حسب إرادته وقُوَّتِه، ولا دخل لله في فعله، وقالوا بهذا القول؛ زاعمين أنَّ هذا هو التخلص من الإشكال الذي أوردوه على أنفسهم.

فقالوا: (لو قلنا: إن الله قدَّر على الإنسان الكفر والمعصية، ثم يعذبه عليها لكان هذا ظلمًا، فلا بُدَّ أن نقول: إن الإنسان يستقلُّ بأفعاله، وأن الله لا يخلقها حتى لا يكون ذلك ظلمًا)!

وهكذا يضلُّ الذي يترك ما جاء في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ، فلا بُدَّ أن يضلَّ ويبني ضلاله على ضلال آخر، وهكذا يتقلب في ضلالٍ، فصاروا مشابهين للمجوس.

والجواب على استشكالهم أن يقال: إنَّ الله خلق الإنسان، وهذا لا ينازع فيه أحد، فإذا كان هو الخالق له فهو الخالق لما فيه من الأيدي والأرجل والسمع والبصر والقدرة والإرادة.

ثُمَّ الله ﷻ أمره بما يستطيع، فقال: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وإذا كان عندك مالٌ تزكيه، وتصوم رمضان إذا كنت مستطيعًا، وتحج البيت إذا كنت مستطيعًا = فهي أمور سهلة؛ فترك هذه عمدًا واختيارًا وبإرادته وفعله حقيقة، خلق له هذه القوى، فيكون الله ﷻ خالقًا لها، ولكن الإنسان هو الذي يفعل بالاختيار، فيكون هو الملوم، وهذا أمرٌ لا بُدَّ منه حتى تستقيم الدنيا.

ومن ظن أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله ثم يتعمد القتل ويتعمد المعاصي وغيرها فلا بُدَّ أن يحاسب؛ لأن هذا فعله، ويدلُّ على هذا أنَّ فريقًا من هؤلاء ـ وهم الفرقة الثانية ـ أبوا هذا القول ونفروا منه، وقالوا: (هذا لا يجوز، بل هذا كفر، ونحن نقول: إنَّ العبد لا إرادة له ولا خلق له، وإنما هو كالآلة، فالأفعال كلها لله، فإذا فعل شيئًا فإنما هو بمنزلة الشجرة التي تهب عليها الريح ليس لها اختيار، أما إذا أضيف إليه شيء فهو على سبيل المجاز، كقولك: إنه كفر، أو زنا،

أو سرق، فهذا كقول القائل: طلعت الشمس، وهبت الريح، وأمطرت السماء، وسقط الجدار، ومات فلان وما أشبه ذلك، وهو ما مات، ولا الجدار سقط وإنما أسقط)، وكلا القولين ضلال.

وكلا القولين خطأ، وإن كان كل واحد منهما معه شيء من الحق، ولكن اعتمدوا على الضلال.

فهؤلاء مجوسية شابهوا المجوس، وأولئك الذين قالوا: (إنَّ كل شيء بخلق الله وتقديره؛ فهم في الواقع ضُلَّال، وضلالهم أوضحُ وأبْيَن، وهم شرٌّ من هؤلاء المجوس الذين شابهوا المجوس.

والمقصود: أنَّ الله ﷻ هو الخالق لكل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، ولكن الله جعل لهم قدرةً واختيارًا، وأمرهم بما يستطيعون، وإذا فعلوا المعصية وعوقبوا عليها لا يكون ذلك ظلمًا، بل هذا عدلٌ من الله بما يستحقونه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْمَجُوسِيَّةُ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ؛ فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمُقْتَصِدُوهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ».

الشَّرح

وقد تقدم بيان هذا كما في أول هذا الفصل. فرقة سمَّاها المجوسية، وذلك أن المجوس يؤمنون بإلهين: إله الخير وإله الشر، إله الظُّلمة وإله النور، فيجعلون للخلق خالقينِ متصرفينِ، فهؤلاء الذين يقولون: (إن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم ويوجِدونها استقلالًا) يشبهون هؤلاء، وذلك لأنهم يقولون: (إنَّ الأمر مع القدر متضاربين متناقضين)، فلم يقبلوهما؛ قالوا: (كيف يأمر الكافر بالإيمان وقد قدّر عليه الكفر، ثم يعاقبه على ما قدره، وكذلك العاصي يقدِّر عليه المعصية ثم يعاقبه على المعصية؟!).

قالوا: (هذا ظلمٌ)!، فلم يجمعوا بين الإيمان بقدر الله وبشرعه وأمره، فضلُّوا ضلالًا بيِّنًا، وحكموا على الله ﷻ بما يرونه في عقولهم.

فيقال لهؤلاء: ألستم تقرون بأنَّ الله خلقكم؟ لا بُدَّ من الاعتراف، ولا أحد ينكر هذا، فكل من عنده عقل وفكر ونظر لا بُدَّ أن يقول بهذا. فإذا قالوا: نعم. قيل لهم: الذي خلق أبدانكم وجعل لكم أبصارًا وأسماعًا وجعل لكم أيدي وأرجلًا، هل هو الذي خلق لكم الفكر والقدرة والاختيار؟ أو أنتم خلقتم القدرة والاختيار فيكم؟

لا بُدَّ أن يقرَّ بأنَّ الخالق للإنسان بجملته ـ ذاته وأوصافه وما فيه من قوة وقدرة وإرادة ـ هو الله وحده؛ فإذا كانت الإرادة والاختيار مخلوقين، فمعنى ذلك: أن عمله مخلوق، خلقه الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، فالخالق هو الله وحده، ولا يجوز أن يشاركه أحدٌ من خلق الله ﷻ، ولهذا يبطل هذا القول.

أما كونهم ما استطاعوا الجمع بين الأمر وبين القدر، فيقال لهم: القدر هو علم الله ﷻ بالمخلوقين أنهم سوف يوجَدون ويعملون أعمالهم باختيارهم وقدرتهم، لا أحد يرغمهم على ذلك ولا يجبرهم، فعَلِمَ الله هذا قبل وجودهم فكتبه، وليس في هذا مناقضةٌ، وليس فيه أيضًا تضارب ـ كما زعموا ـ، ولكن الآراء والعقول تكون قاصرةً، فلا بُدَّ من أن تسترشد بأمر الله وبكتابه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: المشركية الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ».

الشَّرح

قوله: «وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: المشركية الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ»، يقولون: (كل شيء واقعٌ بإذن الله)، وهم الذين قابلوا الفرقة الأولى، فقالوا: (إن الإنسان لا اختيار له ولا قدرة له، وهذه الفرقة شرٌّ من الفرقة الأولى، ولا يمكن أن يستقيم على هذا المذهب دنيًا ولا دينٌ؛ لأنه بإمكان الإنسان أن يحرق ويقتل ويفعل ما يريد ويقول: (هذا ليس فعلي، فأنا مجبر وليس لي اختيار).

ولهذا يقول العلماء: ينبغي أن يعامل هؤلاء بمقتضى مذهبهم حتى يرجعوا، فيقال: إذا قابلت أحدهم صكه في وجهه، وقل: (هذا ليس فعلي، أنا مجبر)، فهل يرضى؟ لا يمكن أبدًا، ولا يمكن يستقيم على هذا المذهب شيء في الدنيا ولا في الآخرة، فهو مذهب خبيث.

فالمشركية هم عارضوا أمر الله ﷻ بقدره؛ كما قال الله ﷻ عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] يعني: أن العبادة منهم التي وقعت على الأصنام يقولون: (أنها وقعت بمشيئة الله)؛ وإذا كانت وقعت بمشيئة الله، فيقولون للرَّسول: أنت جئتَ تنهانا أن نعبد هذه الأصنام التي وقع عبادتنا بمشيئة الله، وهذا معارضٌ لما شاءه الله وقضاه، فكفروا بأمر الله ﷻ وردُّوه محتجين بالقدر.

ومثل هذا الفرقة: الجبرية وكثيرٌ من أهل التصوف وغيرهم ـ، وهي أنهم يقولون: (إذا نظرنا إلى الواقع؛ فإذا هو كله تقديرٌ لله ﷻ، فنحن مطيعون سواء وافقنا

الأمر أم لم نوافقه؛ فإذا لم نوافق الأمر وافقنا القدر، فتكون أفعالنا طاعة كلها) = وهذا كفرٌ بالله، بل وإفسادٌ للدين كله، ولا يمكن أن يستقيم عليه دُنيًا ولا أخرى.

ثم يحتجُّون بمثل قول الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، **يقولون**: إن الله نفى الرمي عن نبيه وأثبته لنفسه، فهذا دليلٌ على أن أفعال الإنسان هي أفعال الله، وليست أفعالًا له حقيقة.

فيقال لهم: ليس لكم في الآية أي متعلَّق؛ لأنَّ الآية فيها إثبات الرمي للنبي ﷺ، وذلك أنَّ الله أمره أن يأخذ كفًّا من الحصباء، ويرمي بها نحو وجوه الكافرين؛ فأخذُ الحصباء وتحريكُ اليد بالحصباء ورميُه نحوَهم كلها فعل النبي ﷺ. أما الذي نُفي عنه فهو إيصالُ ذلك المرميِّ إلى أعيُنهم ومناخرهم؛ لأنه لما رمى دخل في أعينهم وفي مناخرهم، واللهُ ﷻ هو الذي أوصله، فالمنفيُّ غيرُ المثبَت.

وكذلك يحتجُّون بالحديث الذي في الصَّحيحينِ: حديث موسى مع آدم، فإن موسى عليه السلام قال لربه ـ تعالى وتقدس ـ: «**ربي أرني آدم الذي أخرجَنا ونفسَه من الجنة، ـ يريد أن يخاصمه ـ، فأراه الله ﷻ آدمَ، فقال: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته؟ لماذا أخرجتنا ونفسَك من الجنة؟ فقال له آدم** عليه السلام: **أنت موسى الذي كلَّمك الله بلا واسطةٍ، وكتب لك التَّوراة بيده، كم وجدت بين كوني أكلت من الشجرة وبين قول الله** ﷻ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: ١٢١]؟ **كم كان مكتوبًا قبل أن أفعل؟ قال: وجدته مكتوبًا قبل أن تُخلق بأربعين سنة، قال: تلومني على شيء كُتب عليّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة، فحاجَّ آدم موسى**»(١)، يعني: غلبه بالحجة، فقالوا: (هذا معناه أننا نحتجُّ بالقدر، وأن من احتجَّ بالقدر فله حجة صحيحة من السُّنَّة.

فيقال: موسى عليه السلام لم يلم آدمَ على الذنب، وإنما لامه على المصيبة وهي الخروج من الجنة، أمَّا الذَّنب فيُعلم أنَّ الله تاب عليه، ومن تاب من الذنب فلا يجوز أن يُذكر له أو يُلام عليه أو يُعيَّر به، وإنما المصيبة التي تقع هذه لا حيلة في رَدِّها، ولا حيلة في الخروج منها، فيُحتجُّ بها عليها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد (٤/ ١٥٨) برقم (٣٤٠٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٣) برقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا وقع للإنسان موتُ قريبٍ أو ذهابُ مالٍ أو غيرُ ذلك فيقول: (الحمد لله، هذا شيء كتبه الله ولا حيلة في رَدِّه، فنحن نؤمن بقدر الله ونسلم لذلك)، أمَّا أن يحتج الإنسان على كونه يقع في ذنب، فمثلًا: يترك الصلاة، ثُمَّ يقول هذا: (مقدَّرٌ علي) = فنقول: هذا لا يجوز، بل هذا مناقضٌ لأمر الله، فإذا تركت ذلك فتُب، فالاحتجاج بالقدر على المصائب لا على الذنوب والمعائب.

فالذنوب والمعايب التي يفعلها الإنسان لها مخرجٌ بالتوبة والاستغفار والندم والعودة إلى ربه ﷻ؛ إلى طاعته. أمَّا المصيبة فلا حيلة فيها إلا بالتسليم والانقياد، فيتبين بهذا أنَّه لا حُجَّة لهم في الحديث، ولا يمكن أن يحتجَّ المبطل بحديثٍ ثابتٍ عن النبي ﷺ ولا بآية من كتاب الله؛ لأنَّ كتاب الله يدلُّ على الحق لا يدلُّ على الباطل، وكذلك أحاديث رسوله ﷺ، ولكن قد يخفى وجه المعنى الذي أُرِيدَ به على بعضِ النَّاس، فعليه إذا خفي عليه أن يتوقف ويسأل أهلَ العلم، ولا يقول: (إنَّ هذا يدلُّ على باطلٍ)؛ فإنَّ هذا لا يجوز.

المتصوفة وغيرُهم الذين يؤمنون بالقدر = لا ينظرون إلى الشرع، ولا يجمعون بينهما، ولا بُدَّ أن يجمع الإنسان بين قدر الله وبين شرعه، يعلم أنَّ الله ﷻ هو الخالق لكلِّ شيءٍ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ﷻ أعطى الإنسانَ قُدرةً واختيارًا بهما يمتثل الأمر أو يحجم عنه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: وَهُمْ الإبليسية الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْأَمْرَيْنِ، لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا تَنَاقِضًا مِنْ الرَّبِّ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا يُذْكَرُ مثل ذلك عَنْ إبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ؛ كَمَا نَقَلَهُ أَهْل الْمَقَالَاتِ، وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

الشَّرْح

قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، فاعترض على ربه ﷻ في حُكمه وحكمته، وزعم أنه هو الذي على الصَّواب، وهكذا الذين يعترضون على الله ﷻ في أحكامه وفي أقداره، هم سلكوا خلف سيدهم إبليس.

والفرقة الثَّالثة التي يقول: أنها آمنتْ بهذا وهذا، ولكن زعمت أنَّها مناقضة = هي **الإبليسية** أتباع إبليس.

إبليس يعلم أنَّ الله ﷻ هو المدبر لكل شيء، والخالق لكل شيء، ولما أمره ﷻ بالسجود لآدم أبى وامتنع، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: فكيف الذي هو خيرٌ يسجد للذي هو أدنى منه وأقل خيرية؟!

فإذَن: الأمر الذي هو أمرُ الله ـ قوله: ﴿اسجد﴾ ـ عنده معارِضٌ لما خلقه الله، فهذا أيضًا كُفرٌ بالله ﷻ.

وعلى كل حالٍ: فالإيمان بالقَدر أصلٌ من أصول الإيمان بالله، ومعنى الإيمان بالقدر:

أوَّلًا: أن يؤمن الإنسان بأنَّ الله ﷻ علم كل شيء، وعلمه محيطٌ بكل شيء، ولا يفوته شيء،

الثاني: أن يؤمن بأنَّ الله كتب علمه في كلِّ شيء قبل وجود المخلوقات كلها.

الثالث: أن يؤمن بأنَّ الله هو الخالق وحده، وليس معه خالق.

الرَّابع: أن يؤمن بأن مشيئة الله شاملةٌ عامَّةٌ لا يخرج عنها شيء، فما شاء كان ـ سواءٌ شاء العباد أم لم يشاؤوا ـ، وما لم يشأ لم يكن ـ أراده العباد أو لم يريدوه ـ.

فإذا جمع الإنسان بين هذه الأمور الأربعة، اكتمل الإيمان بالقدر الواجب عليه، وإذا خالف في شيء من ذلك فإنه لم يؤمن بالقدر.

قولُه: «**أَقَرُّوا بِالْأَمْرَيْنِ**»؛ أي: بالأمر وبالقدر، ومعلوم أنَّ الأمر لا يخالف القدر، فالله قدَّر الأشياء وأمر بما يُستطاع، وقد كتب كُلَّ شيء قبل وجوده لعلمه الأزلي ﷻ، وشاء الذي يقع، وشاء الذي لا يقع، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولكن هؤلاء جعلوا هذا متناقضًا، فطعنوا في حكمة الله تعالى، وقالوا: (إنَّ التقدير يناقض الأمر)؛ كما يقول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ أي: لما أمره الله بالسُّجود؛ وعلَّل ذلك بأنَّ أصله النَّار، والنَّار ـ كما يقول ـ أفضلُ من الطِّين: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢]، والمفترض أن يكون الفضلُ لي، فهذا اعتراضٌ على الله واستدراكٌ عليه ﷻ.

وكثيرٌ من هؤلاء يعترضون على الله فيقولون: ما الفائدة في كوننا إذا قمنا إلى الصَّلاة نغسل وجوهنا وأيدينا وأرجلنا؟! وأي: فائدة في هذا؟! وكذلك ما الفائدة في كوننا نتعب أنفسنا ونبذل أموالنا ونذهب لنطوف على البيت؟! ونذهب أيضًا نتزاحم على رمي الجمار؟!

وهم في الحقيقة يستدركون على الله، فهؤلاء أشباه الشيطان، يعترضون على حكم الله وعلى شرعه، فأضلهم الله ﷻ.

والله ﷻ ابتلى عباده بشيء لا تدركه العقول حتى يظهر المنقاد الذي يستسلم ويذعن لربه ويقول: (آمنت بالله وأطعت أمره، سواء عقلته أو لم أعقله)؛ كما يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»، أي: حتى لو لم أفهمه، ولو لم أعلم الحكمة في ذلك. فالعبدُ من شأنه أن ينقاد لسيِّده بدون اعتراضٍ، وبدون توقُّفٍ، فهذا من الحكمة.

ولهذا فهم الصحابة من الحجِّ أنَّ هناك أمورًا لا يدركها العقل، فصاروا يقولون في تلبيتهم: (لبيك تعبُّدًا ورِقًّا)؛ يعنون: نطيعك تعبُّدًا، ولا يلزم منا أن نعرف الحكمة، بل نخضع ونذل وننقاد لأمرك طائعين راجين ثوابك، وهكذا ينبغي للعبد أن يفعل.

والمقصود: أنَّ الإنسان يجب أن يكون عبدًا لله ﷻ ولا يعترض عليه، وكلُّ ما يفعله الله ويأمر به إنَّما هو لحكمة، ولكن قد ندرك شيئًا منها وقد لا ندرك، فهو من الابتلاء الذي يبتلي به ﷻ عبادَه؛ حتى يتبين المنقاد الذي يستسلم لربه من الذي يُحَكِّم عقله ويعترض على ربِّ العالمين، فيستحق عذاب الله كما فعل الشيطان، نسأل الله العافية.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا يقَوِّلَهُ أَهْلُ الضَّلَالِ؛ وَأَمَّا أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا وَهَذَا، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ.

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ إِثْبَاتِ عِلْمِ اللهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ: مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ».

الشرح

قوله: «وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا تَقَوَّلَهُ أَهْلُ الضَّلَالِ...»؛ أي: أن أهل الضلال يفرقون بين الخلق والأمر، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ومثل هذا لا يكون مؤمنًا؛ لأنَّ من آمن ببعضٍ ما أنزل الله وكفر ببعضه؛ فهو الكافر حقًّا، كما أخبر الله ﷻ ذلك في كتابه.

فلا بُدَّ من الإيمان بشرعِ الله، والإيمان بأوصاف الله؛ ومن صفاته ﷻ أنَّه الخالقُ لكلِّ شيءٍ، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو ﷻ علم الأشياء قبل وجودها وكَتَبَها، ثم هي تقع على وفق كتابته وعلمه وقدرته ومشيئته؛ هذا هو الأصل الذي يجب أن يعتقد ويتبع، وإذا اختل هذا الأصل، فالإيمان إما مفقود لا وجود له، وإما مختلٌّ بمعنى أنه لا يكفي في النَّجاة، فلا بُدَّ أن يأتي بما أمر الله ﷻ به، وما جاء به رسوله ﷺ.

فالإيمان بالقدر يتضمَّنُ الإيمان بعلم الله وقُدرته، أي: خلقه لكل شيء، ومشيته العامة التي لا يخرج عنها شيء، وكذلك يتضمن أنه هو المالك لكلِّ شيء، وأنه ﷻ هو ربُّ الخلق كلهم، الذي يتصرف فيهم كيف يشاء، وأنه قد كتب علمه بما يكون قبل وجودهم، فهذا لا بُدَّ من الإيمان به؛ وإلا لم يكن الإنسان موحدًا ولا مؤمنًا.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعَ هَذَا فَلَا يُنْكِرُونَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْأَسْبَابِ».

الشرح

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ الذي أقلَّ السحاب هي الرياح، وكذلك أخبر ﷻ أنَّ النبات لا ينبت إلا بالماء، والثمرات كذلك.

والمعنى: أنَّ المطر يأتي بأمور جعلها الله ﷻ سببًا؛ مثل: الرياح، والسحاب؛ ومع ذلك: إذا وُجد السبب فلا يلزم أن يوجد المسبَّب، ولكن هم يعلمون أنَّ المطر ينزل من السماء بأمرِ الله ﷻ إذا وُجدت الرِّيح والسَّحاب؛ فهذا سببٌ من الأسباب، وينكرون أن تكون أفعالهم مخلوقة لله ﷻ؛ لأنَّ الرياح والسحاب وغيرها من الأسباب، وكذلك ما يحدثه الله ﷻ في نفس الإنسان من الأمور التي تكون سببًا لوجود بعض الأشياء مثل: طلب العلم، مثل: طلب الرزق وما أشبه ذلك، ولكن هم يقولون: إنَّ الإنسان هو الذي يستقل بفعله، ولا دخل لله ﷻ في ذلك، فأنكروا بعض قدرة الله وبعض خلقه، وجعلوا الإنسان خالقًا مع الله ﷻ، فضلُّوا في هذا ووقعوا في الشرك.

وكذلك أخبر أنَّ الهدى لا يكون إلا بالوحي، وكذلك أخبر أنه ﷻ يضل به من يشاء ويهدي من يشاء ـ بكتابه الذي أوحاه إلى نبيه ـ، فهذه أسباب، ولكن الأسباب مخلوقةٌ لله ﷻ فلا بُدَّ من النظر إلى السبب، ولكن لا يُعتمد على السبب، وإنما يُنظر إليه، ويُفعل على أنه سببٌ، والاعتماد يكون على الله ﷻ.

فلا بُدَّ من الجمع بين السبب وبين الأمر والتَّوكُّل على الله ﷻ وأنه هو مسبِّب الأسباب، وهو الذي بيده أزِمَّة كل شيء، فلا بُدَّ من الجمع بين هذا وهذا؛ وإلا يكون الإنسان متناقضًا وليس بمؤمن.

قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾. قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: الطاعات، و«السبل» جمع سبيل.

والغالب في كتاب الله أنَّه إذا جاء «طريق الحق»؛ فإنه يكون بلفظ المفرد وليس متعددًا، وإنما المتعدد هو طرق الضلال، والضلال طرقه كثيرة ومتعددة.

والمقصود بهذه الآية: ذكر أوجه الطاعات؛ فإنها متعددة؛ كالصوم، والصلاة، والصدقة، والحج، والجهاد، وطلب العلم، والذكر وغير ذلك، فهذه سُبُل، وكلها سبل خير تؤدي إلى شيء واحد، وهو طاعة الله ﷻ حسب أمره.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ قَالَ: يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا، فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَنْكَرَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الْقُوَى وَالطَّبَائِعِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِإِنْكَارِ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي فِي الْحَيَوَانِ، الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَوَانُ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ».

الشرح

قوله: «وَمَنْ قَالَ: يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا...» هذا إنكار الحكمة، وإنكار كون الأسباب مؤثرةً في المسببات، وهو مذهب الأشاعرة، ومذهب كثير من المتكلمين، وهو خلاف ما أخبر الله ﷻ به، فالله جعل لكلِّ شيء سببًا؛ فإنه خلق السبب وخلق المسبب.

فإنَّ بعض المعتزلة ونحوهم والأشاعرة يقولون بتعطيل السبب حتى لو كسرتَ الزجاجة بحجرٍ، يقولون: (الحجر لا يكسر، وإنما يخلق الله الكسر عند مصادمة الحجر للزجاجة)، وكذلك النار، لو أججت نارًا بحطب، فالنار - عندهم - لا تحرق، ولكن الله يخلق الإحراق في ملامسة النار للحطب!

وهذا باطل، بل جعل الله ﷻ هذه أسبابًا، لها عملها الذي هو الإحراق والكسر وغير ذلك، وذلك أنَّ الإنسان يستطيع أن يؤمن بقدرته وإرادته إذا وفَّقه الله لذلك، أو يحجم عن ذلك ويكون كافرًا. و«الجبر»: ألَّا يكون للإنسان اختيار، وهذا ضلالٌ.

والمقصود: أنَّ الله خلق السبب وخلق المسبب؛ فالله هو الخالق وحده، ويجب أن يفعل الإنسان السبب على أنه سببٌ، ويعتمد على ربه ﷻ؛ فإنَّ السبب له سبب آخر وله موانع قد تكون مؤثرة وقد تكون غير مؤثرة.

ومقصود المؤلف رحمه الله بهذا: الرَّدُّ على الذين ينكرون تأثير الأسباب في المسببات، فالشرع جاء بالسبب ولا بُدَّ منه.

والأسبابُ تنقسم إلى قسمينِ:

الأوَّل: السَّبب الشَّرعيُّ، وهو كلُّ ما أباحه الله، أو أمر به.

الثَّاني: السَّبب المحرَّم، وهو يكون فيما حرَّمه الله ـ كالمسكرات ـ، وكالسبب الذي يكون فيه تعدٍّ على محارم الله، فهذه أسباب محرمة، ولا تفعل إلا بسبب.

ومن الأسباب التي حرمت في أمور مباحة: العلاج بمحرم، ولهذا يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**»(١).

فالمقصود: أنَّ تعطيل الأسباب مخالِفٌ لشرع الله ومخالفٌ للعقل الذي جعله الله للإنسان، ثُمَّ إنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب، بل يكون الاعتماد على الله وحده؛ ولهذا نُهي الإنسان أن يقول: (لولا الله وفلان)، أو: (لولا كذا لصار كذا)، وإن كانت هذه أسبابًا إلا أن الذي سبَّبها هو الله ﷻ، فيجب أن تضاف الأمور إليه، ويعلم المرء أنه مأمور بالسبب، مثل: الصلاة، والإيمان بالله، فهُمَا سببٌ لدخول الجنة، وعدم طاعة الله واقتراف المعاصي سببُ دخول النار، ولا يمكن أن يوجد شيء إلا بسبب، فالزواج سبب لوجود الولد، وهذا أمر ظاهر.

أما الذين ينكرون الأسباب؛ فإمَّا أن عقولهم مختلة، أو أنهم انحرفوا انحرافًا عقليًا، ورأوا أنَّ السبب لا يستقل عن المسبب، وهذا صحيح، فليس هناك سبب يستقل بالمسبب، فقد تكون هناك موانعُ؛ فإنَّ لم يرد الله ﷻ وقوع الشيء لا يقع، وإن فعل السبب فقد يأتي سبب آخر يمنعه، وهذا أمر ليس بخافٍ على من نظر في الأمور؛ إلا أنه يجب أن يُفرَّق بين ما يجوز وما لا يجوز، وما يجب وما يحرم في هذه الأمور، وهذا يكون باتِّباع الشرع، واتباع ما قاله الرسول ﷺ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأشربة، باب شراب الحلواء والعسل (٧/ ١١٠)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبْدِعَةَ لِذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَأَضَافَ فِعْلَهُ إِلَى غَيْرِهِ».

الشَّرح

إذا جعل ـ مثلًا ـ السبب هو الذي يخلق هذا الشيء = كان مشركًا؛ كما أنَّهم إذا جعلوا أنفسهم هم الذين يؤمنون ويكفرون بقدرتهم وخلقهم ولا يعترفون بأن الله ﷻ هو الذي خلقهم، وخلق لهم القوة، والقدرة = كانوا مشركين.

فلا بُدَّ من إثبات السبب وإثبات المسبِّب والمسَبَّب، فالمسبِّب هو الله الذي خلق السَّبب، وجعله سببًا لوجود هذا الشيء، ولو شاء لتخلَّف المسبب؛ لأنَّ السبب يحتاج إلى سببٍ آخر، وهكذا حتى يريد الله ﷻ ويشاء ذلك.

* * *

❁ قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبَّبِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُقْتَضَاهُ إِذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللهُ عَنْهُ، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ شَيْءٍ إِذَا شَاءَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، أَيْ: فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ».

الشَّرح

فإذا شاء لم يؤتِ السَّبب مقتضاه، كما أنَّ الله ﷻ جعل نارَ إبراهيم بردًا وسلامًا عليه، فهو الفاعل لكلِّ شيء ـ تعالى وتقدس ـ، ولكن هؤلاء حكَّموا عقولهم القاصرة، ولم ينظروا إلى قول الله ﷻ، وإلى قول رسوله ﷺ؛ زاعمين أنهم إذا لم يقولوا هذا القول أنَّ الله ﷻ عندهم يكون ظالمًا؛ حيث إنَّه هو الذي قدَّر على العاصي المعصيةَ وأخذه بها وعاقبه عليها!

مع أنَّ الله ﷻ هو الذي خلق الفاعل، وخلق فيه القدرة والاختيار، فجعل القدرة والاختيار إليه، وقال: هذا سبيل الهدى، وهذا سبيل الضلالة؛ فإن شئتَ افْعل هذا، وإن شئت افْعل ذاك. فالإنسان يفعل ذلك باختياره وقدرته ولا أحد يرغمه؛ ولهذا استحق إمَّا العذاب وإما الثواب؛ فإذا كان محسنًا متبعًا للأمر فهو يستحق ثواب الله، وإن كان قد خالف أمر الله ﷻ قصدًا واختيارًا وبقدرته استحق عقاب الله، والأمر كله بيد الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إنَّ اللهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ ـ لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ ـ كَانَ جَاهِلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاحِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ، ـ لَا وَاحِدَ وَلَا اثْنَانِ ـ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَالنَّارُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ فِيهَا حَرَارَةً لَا يَحْصُلُ الْإِحْرَاقُ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍّ يَقْبَلُ الِاحْتِرَاقَ؛ فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السمندل وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لَمْ تُحْرِقْهُمَا، وَقَدْ يُطْلَى الْجِسْمُ بِمَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبَلُ انْعِكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ، لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ، وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشرح

إن الأسباب لها أسباب أخرى قد تمنع المقصود، وكذلك أسباب أخرى معها تجتمع حتى يحصل المقصود. والأمر بيد الله، فهو الخالق لكل شيء، وليس معه من يخلق، وهو ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ـ كما يقول المسلمون ـ.

قوله: «فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السمندل وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لَمْ تُحْرِقْهُمَا...»؛ أي: أنَّ السمندل والياقوت ونحوهما إذا طُلي به جسمٌ فالنار لا تحرِقُه، ولهذا بعض المخرِّفين والدجالين يطلون أجسامهم بذلك ثم يدخلون في النار ويزعمون أنهم أولياء تلبيسًا على الناس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ «الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ»، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: هُوَ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ تَمَّ تَوْحِيدُهُ، وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ نَقَضَ تكذيبه تَوْحِيدَهُ».

الشرح

هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، والقدر ـ كما سبق ـ هو عبارة عن علم الله بالأشياء كلها، ثم كتابته لعلمه قبل وجود الأشياء، ثم مشيئته الشاملة العامة، فهو ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ثم هو الخالق وحده، وليس معه خالقٌ، فدخل في هذا: الأعيانُ والمعاني.

فدخل فيه الإنسان وأفعاله، فهو مخلوق لله، وأفعاله مخلوقة لله بحيث إنَّ الله خلق ما يفعل به، وجعل له قدرة واختيارًا، وأمره بما يستطيع فعله، وما يستطيع الانكفاف عنه، ثُمَّ جعل الأمر إليه، وقال: إن شئت افعل فلك الخير، وإن لم تفعل فأنت معاقَب؛ فلهذا استحق العذاب، واستحقَّ الثواب، والأمر في هذا واضحٌ لا إشكال فيه والحمد لله، ولكن من لم يرد الله هدايته فلا هادي له.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا بَعَثَ اللهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ».

الشرح

الشَّرع هو أمر الله ونهيه، وأمرُ الله يتوقف على إبلاغ العباد إياه، وإبلاغهم إياه يكون بواسطة الرَّسول، فلا بُدَّ أن يأتي به الرَّسول ﷺ ويخبر به، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]؛ أي: رَسولًا يأمر ويبلغ أمر الله ونهيه؛ فإذا علم أمر الله وعصى، وعلم ما نهى عنه وارتكب = فيحصل عذاب الله ﷻ؛ سواءٌ كان في العاجل، أو في الآجل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إِلَى شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَتَهُ، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ؛ وَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ، وَهُوَ عَدْلُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ».

الشَّرح

لكن هذا بالنسبة للمؤمن، وأما بالعموم فلا بُدَّ من شرعٍ يهتدون به؛ سواءٌ كان شرع المخلوق الذي جعله قانونًا يُتبع ولا يجوِّزون مخالفته ـ وهو القانون الوضعي ـ، أو يكون شرع الله ﷻ الذي أرسل به الرسل. ومعلومٌ أنَّ شرع الله ﷻ هو أمره ونهيه؛ فمن تفلَّت من الأمر والنهي، لا بُدَّ له من أمرٍ آخر ـ أمر المخلوق ونهيه ـ، وهذا من عدلِ الله ﷻ، فالذي لا يطيع الله يطيع مخلوقًا مثله؛ وهذا من العقاب العاجل، وإن كان الإنسان يزعم أنه إذا لم يطع شرع الله ﷻ وأطاع ما أوجده المخلوق بعقلِه، أو برأيه أنه يكون حرًّا. والواقع: أنه ليس حرًّا، وإنما هو مقيدٌ بأمرِ مخلوقٍ مثله، مثل القوانين الوضعية، فهي من وضع البشر، وجعلوها بدلًا من شرع الله ﷻ، **فضلوا من ناحيتين:**

الناحية الأولى: أنهم خالفوا أمر الله.

الناحية الثانية: أنهم استحسنوا الباطل، وصار الباطل عندهم أحسنَ من شرع الله الذي هو علّام الغيوب، ويعلم ما فيه مصالح العباد، وما فيه مفاسدهم، فاستحقوا بذلك عقاب الله فعوقبوا عاجلًا، وسوف يعاقبون في الآجل.

المقصود: أنَّهم إذا لم يلتزموا الشرع ويؤمنوا بالقدر = صاروا كالبهائم الضائعة التي ليس لها راعٍ، فلا بُدَّ أن يسترشد الإنسان بما يرشده الله ﷻ، ولهذا أنزل الكتب وأرسل الرسل، لدعوة الناس إلى قبول الشرع، والإيمان بالقدر لينجوا من عذاب الله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ، بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مَنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ حَارِثٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ مُتَحَرِّك بِالْإِرَادَة، فَإِذَا كَانَ لَهُ إِرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟».

الشرح

ولا يعلم ذلك إلا إذا هداه الله، وإلا ربما جعل الضَّارَّ نافعًا، كما هو الواقع لكثير من خلق الله؛ يتصورون أنَّ الذي يعتاضون به عن شرع الله هو أنفعُ لهم وهو أحسنُ، وهو المناسب لوضعهم الحالي في هذه الحياة، ويرون أنَّ شرع الله ﷻ لا يناسب هذا الوضع الذي هو بزعمهم أنه تَقَدُّمٌ ومدنيَّةٌ لم يصل إليها البشر في السابق، فَضَلُّوا في أفكارهم، وضلُّوا في أفعالهم، بسبب عُدُولِهم عن أمر الله ﷻ وارتكابهم نهيه، فهذا عقابٌ عاجِلٌ.

ولا بُدَّ أن يجمع الإنسان بين الإيمان بالشرع واتباعه والعمل به، والإيمان بالقدر، وأنَّ الله ﷻ هو الخالق المتصرف، وأنه يحصل ما يريده ويشاؤه، ولكن الله ﷻ جعل للعبد مشيئة، وقدرةً واختيارًا، بها يستطيع أن يمتثل الأمر، ويستطيع أن يحجم ولا يمتثل، فيكون ضالًّا كافرًا أو يكون مطيعًا متبعًا، ولا بُدَّ من أحد هذين الأمرين.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ، كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ، وَبَعْضُه يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ كَالَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ، وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ لَهُمْ، وَهِدَايَتِهِمْ إياهم».

الشرح

كلُّ الأمور تكون بمشيئة الله وتقديره ولا بُدَّ، ولكن نحن مأمورون باتباع الرسول ﷺ؛ أما استقلال العقل والنظر إلى الأوضاع وما يتعارف عليه الناس، فهذا قد يكون مباحًا وقد يكون ممنوعًا، فلا بُدَّ أن يتقيد بالشرع.

الشَّرع يأتي بما تعرفه العقول وبما لا تعرفه؛ فمثلًا: صيانةُ عِرض الإنسان؛ فهذا أمرٌ أمرَ الله ﷻ به في جميع شرائعه التي أنزلها على رسله، ومثل ذلك: صيانة حقه وماله ودمه؛ وكذلك قتل النفوس وما أشبه ذلك؛ فهذه يعرفها الناس بأنها محرمة، وأنَّ احترام ذلك عدلٌ، وأنه يجب، ولكن مثل: الصلاة، والصيام، والحج والزكاة؛ هذه لا بُدَّ أن يأتي الرسول ﷺ بها ويُعلم العِباد بها، وكلُّه إذا كان من شرعِ الله؛ فإنَّ الله يأمر به، ولا بُدَّ من امتثال الأمر، وليس لأنَّ هذا وافق العقل واستحسنه، أو لم يدركه العقل، بل يجب على العبد أن يكون قصده طاعة الله واتباع الرسول ﷺ في كُلِّ ما أمر الله ﷻ به؛ سواءٌ كان العقل يستحسنه ويعرفه، أو لم يكن كذلك، حتَّى يكون الإنسان عبدًا لله ﷻ، ممتثلًا لأمره، مجتنبًا لنهيه.

أمَّا إذا كان لا يفعل إلا الشيء الذي يستحسنه عقله، فمعناه: أنه يكون عبدًا للعقل، وليس عبدًا لله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَنَّ الْأَفْعَالَ هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقَبِيحُهَا بِالْعَقْلِ، أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وَلَا قَبِيحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشَّرْح

الصَّحيح أنَّ لها حُسنًا وقبحًا يعرفه العاقل، ولكن ليس كلُّ عاقلٍ؛ لأنَّ بعضها ظاهرٌ جليٌّ يُعرف، وبعضها يحتاج إلى إعمال الفكر وكدِّ العقل، والمقايسة بين هذا وغيره، حتَّى يعرف ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاه، فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَعلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيه».

الشرح

هذا يجب أن يكون متقيّدًا بالشَّرع؛ لأنه ليس كلُّ ما يُحَبُّ أو يلائم الإنسان يكون مباحًا، ولهذا حرَّم الله ﷻ ما حرَّمه لما فيه من المضارِّ، وليس بخلًا من الله ﷻ، وإنما شرع الشرائع لمصلحة النَّاس، وحرَّم ما حرَّمه؛ لأنَّه مَضار عليهم، فالواجب الرجوع إلى الشرع، ولكن الشرع لا يأتي بمخالفة العقل، ولكن يأتي بما لا يدركه العقل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿﴾ «وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً، وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى، وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَمَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةَ الْأَفْعَالِ: مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالشَّرْعِ، فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ.

﴿﴾ وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ، وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقَوْله تَعَالَى ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥]».

الشَّرح

قوله: «لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ»: العقول قاصرةٌ، ولا تُعرف إلا الشَّيء الذي تشاهده، أو الذي له مثالٌ تقيس عليه؛ وأمورُ الآخرة ليس لها مثالٌ عندنا، وإن كان هناك أسماءٌ ممَّا عندنا كالجنَّة والنَّار، فهذا في الجملة معروفٌ، ولكن لا تُعرف تفاصيله. وكذا ما يكون في القبر والمحشر وغير ذلك.

فالأمور الغيبية لا بُدَّ فيها من الخبر الذي يأتي عن الله ﷻ عن طريق الرُّسُل، والعقول لا تستقلُّ بهذا، وإن كان المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ يقول: «**قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ**»؛ أي: في الجملة قد يعرفون ذلك، وليس كل العقول.

المقصود: أنَّ قوله: «**وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ**» يعني: الأمر المجمل مثل: أنَّ الله ﷻ الخالق لكُلِّ شيء، والفاعل لكل شيء، وما يهتدون به إلى

النظر إلى المخلوقات، فهذا يعلمونه بعقولهم. أما الأمور المغيبة والأمور الغائية التي ينتهي إليها الأمر وتكون هي غاية؛ فهذه إلى الله ﷻ لا يعلمه غيرُه، فيتوقف على الوحي الذي يأتي به الرَّسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يقول: «وكذلك»؛ أي: مثل ما سبق، والوحيُ هو الذي فيه الحياة، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، يعني: مثل ما سبق للرسل، الإيحاء إليهم، أوحينا إليك بواسطة رسولنا جبريل ـ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ـ.

قوله: ﴿رُوحًا﴾، وهو أمرُ الله ونهيه وقوله؛ فتحيا بها الأرواح والقلوب، والقلوب لا تحيا إلا بالإيمان بالله وبعبادته.

قوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني: من قولنا.

قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ أي: ما تعلمه ولا تعرفه قبل إنزال الكتاب عليك، وكذلك الإيمان الذي أوحاه الله، وجاء بالكتاب.

يعني: الذي أنزل إليك؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان أُمِّيًا لا يكتب ولا يقرأ، وجاءه جبريلُ ﵇ بالعلم الذي ملأ الدُّنيا؛ وهذا السَّبب من الله ﷻ، ولهذا قال الله له: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، فهدى الرسول بالوحي الذي أوحاه الله ﷻ.

قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ أي: الإيمان بالله الواجب الذي يجب على حسب أمره ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: هذا الكتاب والوحي الذي أوحي إليك.

والاقتداء بالنور ليس لكلِّ أحد، وإنما هو لمن يشاء ﷻ وتسبق له السعادة من الله ويتفضل عليه، وإن كان ظاهرًا بيِّنًا كُلَّ البيان، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يملك لنفسه الهدى، وإنَّما الهدى بيد الله وحده.

دَلَّ على أنَّ العبد لا يستقلُّ بالهداية حتَّى يهديه الله ﷻ، وأنَّ الوحيَ هو الذي فيه النُّور الذي يُهتدى به؛ وإذا لم يكن الإنسان يهتدي بالنُّور الذي أنزله الله على رسله، فلا هادي له، وإن اهتدى إلى بعض الأشياء النافعة في الدنيا في بدنه، أو مأكله، أو غير ذلك بعقله وفطرته، فهذا لا يكفي ولا يفي بالهدى، فالهُدى لا بُدَّ أن يكون من عند الله ﷻ، وإذا لم يحصل ذلك حصل الضلال، ولا شك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ إذا كان الرَّسولُ ﷺ هدايته بالوحي الذي يوحيه الله، فكذلك غيره لا هداية له إلا بالوحي، فدلَّ هذا على أنَّ كُلَّ ما يستنتجه الإنسان، ويعمل به، ويرى أنه هُدًى في هذه الحياة، وهو مخالِفٌ لأمر الله = أنَّه ضلالٌ، وهو في الواقع ضلالٌ يهدي إلى ضلالٍ وإلى عذابٍ.

الرسول ﷺ لا يهتدي إلا بما أوحى الله ﷻ إليه، فكيف العقول تهدي النَّاس إلى ما فيه مصلحتهم أو سعادتهم في الآخرة؟ هذا الذي يظنه الظَّانُّون في ذلك مغالطونَ، فالإنسان يجب أن يكون مسترشدًا مهتديًا بهدى الله، ويجب أن يطلب الهدى من الله مع اتِّباعه أمره واجتناب نهيه، وهذا يكون باتِّباع الرَّسول ﷺ، وإلا لا بُدَّ من الضَّلال والحيرة ثُمَّ عَذاب الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾، يعني: أنَّ الرَّسول كل تصرفاته إنذاره، وتبشيره، وأمره، ونهيه، تكون بوحيٍ من الله، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَكِنْ تَوَهَّمَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنًى غَيْرَ هَذَا، وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَقَابَلَتْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى ظَنَّتْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ: يَخْرُجُ عَنْ هَذَا فَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَثْبَتَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّيْنِ أَوْ الشَّرْعِيَّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ غَلِطَتْ.

ثُمَّ إِنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمَّا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ: تَنَازَعُوا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيحٌ هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيحٌ».

الشَّرح

هذا في مسألة أخرى؛ وهو أنهم يقولون: (إنَّ الله ﷻ حرَّم الظُّلم، فيكون الظُّلم ـ عند بعضهم ـ ممتنعًا على الله، وذلك أنَّ الظُّلم ـ عندهم ـ: (هو التَّصرُّف في ملك الغَير)، والله إذا تصرَّف بشيء فكلُّ شيءٍ ملكه، من أين يأتي الظلم؟

والصَّحيح: أنَّ كليهما خطأ ـ التعريف والنتيجة ـ، فالله حرَّم على نفسه الظُّلم، و«الظُّلم»: هو وضع الشيء في غير موضعه، والله ﷻ حكيم عليم يضع الأشياء في مواضعها، فلا يكون ﷻ ظالمًا؛ وهو كونه يضع ـ مثلًا ـ سيئة هذا على هذا، وحسنات هذا لهذا، كما قال ﷻ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾ [طه: ١١٢]، فـ «الهضم»: (أن يُنقَص من حسناته)، و«الظلم»: (أن يوضع عليه ما ليس من فعله)، هذا هو المعقول، وهو الذي أثبته الشرع.

أما هذا القول الذي ذكره، فهذا بناء على عقولهم وأفكارهم التي بنوا عليها هذا التعريف، ثم النتيجة صارت أيضًا غير صحيحة بسبب ذلك.

والصحيح: أنَّه ﷻ هو الذي حرَّم الظُّلم على نفسه، وهو الذي ﷻ يفعل ما يشاء ويريد، ولكن فعله كلُّه بحكمةٍ بالغةٍ؛ فالذي لا يميِّز بين المأمور والمنهيِّ =

ضالٌّ في عقله وفي دينه، والذي لا يميز بين ما هو حسن وقبيح ويقول: (إنه مجرد الأمر فقط)، فهو في الواقع ما عرف العقل ولا الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، فلا يكون أحسن من أمر الله ﷻ، ولهذا رتَّب السَّعادة عليه، أي: على طاعته، وعلى مخالفته الشقاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لَا يَفْعَلُهُ لِمُجَرَّدِ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

وَالْقَوْلَانِ فِي الِانْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، أُولَئِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ؛ فَلَا جَعَلُوهُ مَحْمُودًا عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنَ الْعَدْلِ أَوْ مَا تَرَكَهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَلَا مَا فَعَلَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ وَمَا تَرَكَهُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالنِّقْمَةِ وَالْآخَرُونَ نَزَّهُوهُ بِنَاءً عَلَى الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ، وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَسَوَّوْهُ بِخَلْقِهِ فِيمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُح، وَشَبَّهُوهُ بِعِبَادِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ».

الشرح

يعني: هؤلاء المعتزلة الذين سمَّاهم أهلُ السنة: «مشبهة الأفعال، نفاة الصفات». كل ما حسُن من الإنسان يرونه من الله حسنا، بل ويوجبون على الله أشياء بعقولهم، وأنه يجب عليه أن يفعل الأصلح للإنسان! والله ﷻ كيف يُحكم عليه بالعقل القاصر؟! يتخبط في أمورٍ عجيبة! يحكم على الله ﷻ مع قصوره وبعده! ولهذا أوجبوا على الله ﷻ أشياءَ ومنعوه من أشياءَ: وأنه يجب أن يفعل كذا، ولا يفعل كذا؛ وهذا ضلال بيِّن، فالإنسان يجب أن يكون عبدًا، وأن يعرف قدره ويتبع ربه ﷻ؛ وإلا قد خُلقت النَّار لمن عصاه.

قوله: «والقولان في الانحراف من جنس القولين المتقدمين»؛ أي: أنَّ هؤلاء الذين يجعلون عقولهم هي الحكم في الأفعال وفي الأوامر = ضالون في هذا وخارجون عن العبودية؛ فعبودية الله ﷻ تقتضي أن يكون الإنسان خاضعًا لربه متبعًا لأمره؛ سواءٌ عرف الحكمة أو لم يعرفها.

والله ﷻ لا يأمر إلا بالحسن الجميل، ولا يأمر بالسيئ والقبيح - تعالى الله

وتقدس ـ، كما أنه لا يفعله، ولهذا كان الرسول ﷺ في تهجده ينزِّه ربَّه ويثني عليه بقوله: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١).

وكذلك علَّمنا ربُّنا ﷻ في خطابه أنَّه منزَّهٌ عن القبائح والشُّرور في الفعل وفي غيره؛ فإذا جاء شرٌّ؛ فإنَّه يُضاف إلى المخلوق؛ كما قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]، فالشر في المخلوق وليس في الله ولا في فعله؛ فالله لا يفعل إلا ما هو خيرٌ وحسنٌ.

ولا يجوز أن يُضاف إلى الله خلقُ الشَّرِّ، وإنَّما يقال: (الله خالق كل شيء)، ويدخل الشَّرُّ فيه؛ لأنَّ الشَّرَّ أصله فقد الخير، والخير يكون من الله، والشر لا يكون إلا من المخلوق؛ لأن المخلوق إذا فقد نعمة الله وفضله وإحسانه إليه؛ فلا بُدَّ من الشر، ففعله كله يكون شرًّا كما هو الواقع من النَّاس الذين لا يتبعون شرعَ الله، وهؤلاء لا بُدَّ أن يقع منهم الظُّلم والفحش والإفساد في الأرض، وأمَّا الذي يتبع أمر الله ﷻ فإنَّه يبتعد عن هذه الأمور، وأفعاله وأعماله التي يجريها إنَّما هي على وفق أمر الله، وكلها خيرٌ ونفعٌ وهُدًى للناس.

وإذا كان الشَّرُّ في المخلوق؛ فإنَّه لا يُضاف إلى الله، وهو في كتاب الله على **ثلاثة أضرُبٍ**:

الأوَّل: أن يدخل في العموم كقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

الثاني: أن يحذف فاعله، كما قال مؤمنوا الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: ١٠]، حذف الفاعل في الشَّرِّ، وأضيف الرُّشد إلى الله: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾، ومن ذلك قول إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]، فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه ﷻ.

الثَّالث: أن يكون الشَّرُّ مُضافًا إلى المخلوق، كما قال ﷻ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، فالمخلوق هو الذي يكون فيه الشر، وكذلك القبح لا يكون إلا في المخلوق، أما أفعال الله فهي حسنة.

ولا يعترض على هذا بأنَّ الله ﷻ يخلق الحيات، والعقارب، والأشياء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) برقم (٧٧١)، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

المؤذية؛ **لأنا فنقول**: هذه وإن كانت مؤذية؛ إلا أنَّ فعله لذلك حسن جميل؛ لأنه يدل على أن هذه نماذج من العذاب الذي يكون في الآخرة، أو يكون عذابًا لمن عصاه، أو لحكمة يريدها الله لا يطلع عليها العباد.

فلا بُدَّ من الإيمان بأمر الله وبقضائه وبقدره، ثُمَّ لا بُدَّ من الخضوع والذُّلِّ له، وأن يستشعر أنَّه عبدٌ تجري عليه أوامرُ ربِّه وأقداره؛ فإذا خضع لله وذلَّ صار له عند الله جزاءٌ حسن وجميلٌ، وإن اعترض على ربه فلن يعجز الله ﷻ، وسوف يهلك ولا يبالي الله بهلاكه في أيِّ وادٍ كان، فهو فقيرٌ إلى ربه لا غنى له عنه؛ فإن اعتزَّ بنفسه وقال: (أنا فلان بن فلان)؛ وَكَلَهُ الله إلى قوته، فتولَّته الشياطين، ومن وُكِلَ إلى غير الله ضَلَّ ولا بُدَّ.

وكلُّ هذا لأنهم حكّموا العقل، والعقل يحتاج إلى دالٍّ يدلُّه، فلا بُدَّ أن يستدلَّ بالوحي الذي يوحيه الله كما سبق في الآية، فالرَّسول ﷺ يقول الله له: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ أي: العقل لا يكفي في هذا، بل لا بُدَّ أن يُرشد ويدل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْقَدَرِ فَقَطْ، وَعَظَّمَ الْفَنَاءَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَوَقَفَ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالذَّوْقِ، وَضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءٍ، وَيَتَأَلَّمَ بِشَيْءٍ فَيُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَمَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيه مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ، وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ».

الشرح

العقول قاصرةٌ، قد يستحسن شيئًا قبيحًا، ويلتذُّ بشيءٍ ينفر منه ذوو الفطر السليمة والعقول المستقيمة، فلا بُدَّ من تقييد الإنسان بالأمر الذي يأتي من الله ﷻ؛ لأنه لا يستطيع أن يعرف مصلحته أو يهتدي، ولهذا لما نظر النَّاس إلى عقولهم وإلى أفكارهم وأعرضوا عن شرع الله = صار لا يقِرُّ لهم قرار، دائمًا في تخبط ودائمًا في أمورٍ في نهاية الأمر يرون أنها خطأ، وقد يتمادى الإنسان في ضلاله ولا يتبين له الخطأ من الرشد، وهذا يكون من عقاب الله ﷻ.

القَدَر الذي ذكر أنه أمرُ الله ﷻ، يجب أن يكون مُتَّفقًا مع شرعه الذي هو دينُه أرسل به الرُسل، والتَّفرقة بينهما هو فعلُ المُشركين وفعلُ الضَّالِّينَ، والذين فرَّقوا بين هذا وهذا وقعوا في الضَلال البيِّن؛ فإما أن يقولوا: (أن العبد هو الذي يخلُق أفعاله، وهو الذي يستقلُ بها والله لا يهدي أحدًا ولا يُضلُ أحدًا)، أو يقولوا: (إنَّ العبد ليس له أيُّ اختيار وإنما هو بمنزلة الآلة التي تُدار)، وكلُّ هذا ضلالٌ وبُعدٌ عن الحق، والله ﷻ خلق الإنسان وجعل له عقلًا، وفكرًا واختيارًا وقُدرةً.

وأمره سبحانه بما يستطيع العبد فِعلَه، وبيَّن له طريقَ الهُدى من طريق الضلالة،

وجعل لذلك آياتٍ تدُلُّ على أنه ﷻ هو المُتصرِّف في الكون كُلِّه؛ فإذا انحرف الإنسان عن ذلك، فمعنى ذلك: أنه لم يقبل ما جاءت به الرُسل، وإنما أخذ بآراء الناس الذين يُعظِّمهم؛ مثل: هؤلاء القدرية، أو الجبرية، أو غيرهم. ومعلومٌ أنَّ هذه الأقوال مُخالفةٌ للكتاب والسُنَّة، والله فرَّق بين الهُدى وبين الضَّلال، كما فرَّق بين النَّافع والضَّارِّ، وفرَّق بين المؤلم والمُنعم، والإنسان يجدُ هذا بلا شك، فعملُ الإنسان الذي يقوم به، يجد أنه يقع باختياره وبمقدوره، لا أحد يُرغمُه على ذلك.

فكُلنا أتينا إلى هذا المكان، وهذا شيءٌ مُقدَّرٌ علينا مكتوبٌ قبل وجودنا، ولا أحد أجبرنا على هذا أو ألزمنا بالإتيان؛ فأتينا باختيارنا وبقُدرتنا، وهو مكتوبٌ لله ومعلومٌ قبل وجودنا، وهكذا كلُّ الأعمال تقع على هذه الصفة. أما الأمر الذي يأتي به الرسول فهو مُحدَّد ومعلوم، ويجب أن يُمتثل، والإنسان باستطاعتهِ امتثالُه.

إذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، أو قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، فكلُّ إنسانٍ عاقل مختار يستطيع أن يفعل هذا؛ فإذا امتنع بقدرته واختياره فهو الملوم؛ وإذا أجاب وانقاد فله الجزاء، وهذا مثل الأعمال التي يعملُها من المشي، والجلوس، والأكل، والشُرب، وغير ذلك كُلها تقع باختياره، وهي أيضًا مُقدَّرة ومكتوبةٌ عليه قبل وجوده؛ فهكذا الأمور كُلها.

فالذي يُنكر أن يكون الله ﷻ هو الذي علَّم الأشياء قبل وجودها وكتبها، وهو الذي شاءها وجعل للعبد مشيئةً تبعًا لمشيئته، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، الذي يُنكر هذا يكون مُكابرًا مُخالفًا لأمر الله ﷻ وأمرِ رسولِه ﷺ، ومُخالفًا للواقع الذي يعيشُه ويخالفه فيه العقلاء.

قوله: «وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالذَّوْقِ، وَضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ»، يعني: أنَّ الله ﷻ جعل الإنسان عاقلًا حتى يكون محلًا للأمر والنهي، وإذا ذهب العقل سقط التكليف عن العبد، فلا بُدَّ أن يميِّز بين الضار والنافع، وبين الخير والشر، وبين الحسن والقبيح، والله خلق الكل، ولكن ما وكلنا إلى عقولنا، بل رحمة منه ﷻ أرسل إلينا الرسل، لتبين لنا الحسن من القبيح، وتبين لنا الذي ينفعنا من الذي يضرنا، ومعنى ذلك: أن هذا لا يدرك إلا بالوحي.

والإنسان إذا وكل إلى نفسه وعقله ضاع وضلَّ؛ فمن رحمة الله ﷻ أنه وهب

للإنسان العقلَ، وجعل به التمييز بين ما هو قبيح وما هو حسن، وبين ما هو ضار وما هو نافع، ثم لم يكتفِ هذا، بل أنزل الكتاب وأرسل الرسول ﷺ.

وقد قال رجل لسلمان رضي الله عنه - يعيب على المسلمين -: علّمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة؟ فقال سلمان: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو عظم[1].

وعلمنا ﷺ أيضًا أدب دخول المنزل، والخروج منه، واللباس، والنوم، والأكل، والشرب وغير ذلك؛ فإذا امتثل من أجل طاعة الرَّسول ﷺ والانتفاع بذلك = صار الإنسان مأجورًا.

ولهذا تجد الفرق بين المسلم والكافر؛ فالكافر تجده يأكل بكلتا يديه، وهذا قبيح، والاقتداء بمثل هؤلاء يُعد تركًا لما جاء به المصطفى ﷺ وبما أمر به، ففرق بين هذا وهذا عند ذوي العقل، ولهذا جُعلت الشمال لما يُستقذر، واليمين لما يُستحسن، والرسول ﷺ قد بيَّن ذلك، واتباعه دينٌ يدان به، ولكن لا بُدَّ في هذه الأشياء من النِّيَّة؛ لأنه يتبع الرسول ﷺ، ويريد بذلك الطاعة والانتفاع حتى يؤجر على هذا وإن لم يكن واجبًا.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢).

قال رحمه الله تعالى:

﴿ وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا: فَقَدْ افْتَرَى، وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُ عَنْ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَأَمَّا أَنْ يَسْقُطَ إِحْسَاسُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ لَمْ يَفْقِدْ إِحْسَاسَ نَفْسِهِ، بَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُوءُهُ تَارَةً وَمَا يَسُرُّهُ أُخْرَى، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالِاصْطِلَامِ وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمَ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ دون بعض، فَهِيَ مَعَ نَقْصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ يَسْقُطُ فِيهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقًا.

﴿ وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقًا، وَعَظَّمَ هَذَا الْمَقَامَ فَقَدْ غَلِطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ: قَدْرًا وَشَرْعًا: غَلِطَ فِي خَلْقِ اللهِ وَفِي أَمْرِهِ، حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ وُجُودَ هَذَا؛ لَا وُجُودَ لَهُ، وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ وَلَا مَدْحَ فِي عَدَمِ التَّمْيِيزِ: الْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ.

الشَّرح

«الاصطلام»، و«الفناء»، و«السكر»، ونحو ذلك هي من اصطلاحات الصوفية التي يصطلحون عليها، وهي من البدع التي جاءوا بها.

«الفناء» عندهم: (أن يقصر فكره وعمله في شيء واحد)، وهذا ممتنع.

و«السُّكر» معناه: (أنه لا يشعر إلا بما استولى على قلبه)، وكذلك أعمالهم التي يزعمون أنَّهم اختصُّوا بها دون النَّاس فصاروا من الأولياء = هي بدعٌ وضلالاتٌ؛ فما وافق منها الحق قُبل.

والفناء يقسمونه إلى أقسام؛ وكلُّها تعود إلى النَّظر في توحيد الربوبية، ومعلومٌ أنَّ هذا لا يكفي في كون الإنسان مسلمًا، فضلًا عن أن يكون هو من الخاصَّة أو كما يقولون: خاصَّة الخاصة.

وهذه الاصطلاحات التي ابتدعوها ليس عليها أمارةٌ من دليلٍ؛ لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ.

وأكثر الناس ما يعرف الفناء؛ لأنها ليست من اللغة المعروفة، وليست مما جاء به الرسول ﷺ، ولا مما دلَّ عليه القرآن، وإنما هي اصطلاح محدث.

والمؤلف يقصد في هذه الكلمات: أنَّ بعض من ضلَّ لا يُفرِّق بين الأمر وبين القدر، فيقول: (إذا عصيتُ أمر الله فقد أطعتُ قدره، فأنا في طاعة سواءً صليت، أو لم أُصلِّ، فأنا لا أخرجُ عن تقدير الله)، وهذا جنون؛ لأنَّ الإنسان أُمر بالشيء الذي يستطيعُه، وهو بمقدوره وحُدِّد له أوامر ونواهٍ؛ فقيل: اعبد الله، وأقم الصلاة، وآت الزكاة، وصُم رمضان، وحُجَّ البيت امتثالًا لأمر الله ولما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن فعلت فأنت تنجو بهذا إذا كان قصدُك وجهُ الله ﷻ، وإن أبيتَ فلك النَّار. أمَّا أن تدَّعي أن أفعالك كُلها سواء = فهذا لا يقوله أحدٌ من العقلاء.

قوله: «وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَام مُطْلَقًا...»، يعني: أنه لا يُميز بين تقدير الله وبين أمر الله، والله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبين أنَّ له الخلق وله الأمر؛ فالأمر هو شرعُه ودينُه، والخلقُ هو تقديرُه ومشيئته وخلقُه للأشياء وإيجادُه له.

والذي يقول: (أنه تستوي عنده الأمور كُلها) لا يُمكن أن يكون صادقًا؛ لأنه لا يستوي الماء والنار، ولا يستوي الظل والحرور، ولا يستوي الأحياء والأموات، ولا تستوي الطاعة والمعصية، فهذا أمرٌ ظاهرٌ، والله ﷻ بيَّنه ووضحه على لسان رُسله، ولا حُجة لمن يُخالفُه ويزعُم خلافه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا سَمِعْت بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ، أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، وَأَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا إِنَّمَا يُمْدَحُ مِنْهُ سُقُوطُ إِرَادَتِهِ الَّتِي يُؤْمَرُ بِهَا، وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَا يُؤْمَرُ بِطَلَبِهِ، وَأَنَّهُ كَالْمَيِّتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَتَرْكِ دَفْعِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِدَفْعِهِ».

الشرح

هذا ضلالٌ بيِّنٌ، فالإنسان لا بُدَّ أن يكون له اختيارٌ، ولا بُدَّ أن يكون له تمييزٌ بين النَّافع والضَّارِّ، وكل ذلك يجب أن يكون باتِّباع ما جاء به الرَّسول ﷺ، ولا يكون لمخلوق من الناس.

هم يقولون: (إنَّ المريد يكون مع أستاذه كالميت)، يعني: ليس له إرادةٌ، وليس له اختيارٌ، ولا نظرٌ! وهذا لا يجوز، هذا الذي يقول الله ﷻ فيه: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨]. فلا يصلح أن يكون كالميت؛ لا في المعاش ولا في المعاد، بل لا بُدَّ أن يكون له إرادة، ولا بُدَّ له أن يكون له اختيارٌ، فالله خلق فيه الإرادة والاختيار، ولكن إرادته يجب أن تكون تابعةً لإرادة الله ﷻ، ولا تكون تابعةً لإرادة غيرِه. فأما أن يُعطي الزمام لمخلوقًا مثله، ويقول: (لا إرادة لي) فهذا أيضًا اختار هذا الشيء، فكونه يقول: (لا اختيار لي)، غيرُ صحيح، بل له اختيار ولكنه أسقطه.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إِرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ؛ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، فَهَذَا مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ».

الشَّرح

هذا من الأمور البدهية، كلهم يعرفون ذلك، ولكن بعض الناس قد يتجاهل الأمور الواضحة الجلية، إما اتباعًا للهوى، أو اتباعًا لمذهبٍ مُعين.

على كل حالٍ: هذه الأمور التي مرَّت هي بناءً على التحسين والتقبيح.

والذي يخالف الشرع ـ سواء بأمور عقلية، أو أمور العادة أو غيرها ـ فهو مردود، وليس بحسن، بل هو سيئٌ. وما وافق الشرع فالله يأمر بالإحسان ويأمر بما فيه الخير والنفع، وينهى عما فيه المضرة وما يكون سببًا لشقاء الإنسان في الدُّنيا والآخرة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمورٍ:

أَحدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ، الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ اللهُ بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ؛ وَعَنْ خَوْفِ غَيْرِهِ بِخَوْفِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَّبِعُ الْعَبْدُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللهِ، وَبِحَيْثُ يَكُونُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ».

الشَّرح

قوله: «وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ...». «الفناءُ»: اصطلاحٌ صوفيٌّ لا يُعرف في لغة العرب، وإنَّما جاءوا به على حسب ما سلكوا هذه المسالك، وقالوا: (الإنسان يفنى)، أي: مُرادُه أو نظرُه أو عمله، ومعنى «الفناء»: أنه يحصرُه في شيءٍ مُعين، ولا ينظر إلى غيره.

قوله: «أَحَدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ»؛ أي: أن المؤلف فسر هذا المُصطلح، بما يوافق شرع الله ﷻ، وهم لا يقولون هذا، وليس هذا فناءً عندهم، بل يقولون: (أنا فنيتُ في مُرادِ مُريدي)، يعني: أصبحت ليس لي نظر ولا اختيار إلا ما يُريده. والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيذكر أنَّ هناك فناءً في الشرع، وفناء في الهوى، وفناءً في توحيد الربوبية، وهذا كُله لا يُفيد ولا يُجدي.

قوله: «وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ الله بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ» هذا لا يُسمَّى

فناء، وإنَّما يُسمَّى مثل ما قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [التوبة: ٢٤]، فالحُب يجب أن يكون تابعًا لمحبة الله ومحبة رسوله ﷺ، أمَّا إن كان يتبع مخلوقًا فهو مذمومٌ ضارٌّ غيرُ نافعٍ.

«الفناء» هنا معناه: أن يعرض عما نهى الله ﷻ عنه، ويقصر فكره ونظره وعمله على ما أمر الله ﷻ به، فتسمية هذا فناء شيء اصطلاحي؛ اصطلح عليه الصوفية.

قوله: «فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَعَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ». كيف يفنى بطاعة الله عن طاعة غيره؟! كُله اصطلاحٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ الفناء معناه أنه لا وجود له، وهو لا بُدَّ أن يترك المعصية قصدًا وطلبًا لمرضاة الله وليس فناءً، وكذلك يفعل الطاعة بإرادته وقدرته ورغبته ورجائه، فليس هذا فناء، ولكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يُخاطب هؤلاء باصطلاحهم.

قوله: «فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ»، قلنا: أن هذا لا يُسمَّى فناءً، وإنَّما يُسمَّى طاعة لله ﷻ، ومقصودهم بالفناء: أن يكون مطيعًا غايةَ الطاعة، فيكون عبدًا حقًّا، ويقدِّم أمرَ الله على أمر هواه وأمر نفسه؛ أي: أن يفنى عن مراداته لمراد الله الشَّرعي.

ولكن هذا الاصطلاح الذي اصطلحوه بعيدٌ؛ لأنه ليس من اللغة، وليس من الاصطلاح الذي تعارف عليه الناس، فلا ينبغي أن نأخذ اصطلاحًا محدثًا لقوم معينين، ثم نعممه على دين الله ﷻ وعلى المسلمين.

واصطلاح الصُّوفيَّة يجب أن يكون محصورًا عليهم، ولا يعمم وينزل على آيات الله وأحاديث رسوله ﷺ، وما جاء به واجبًا على كلِّ أحد واضحٌ ولا إشكال فيه، ولا يُسمى فناء، وإنما يسمى طاعةً لله ولرسوله ﷺ.

ومعلوم أنَّ هذا يكون كمالًا، وبنو آدم لا ينفكون عن المعصية وعن المخالفات، ولهذا أكثر الله ﷻ من ذكر أسمائه التي فيها العفو والتَّوبة وعدم المؤاخذة؛ لأنهم لا بُدَّ لهم من مخالفاتٍ، وهذه حكمة الله ﷻ.

فالمقصود: أنَّ الكمال في المخلوق هو أن يتبع ما أمره الله ﷻ، وما أمره به رسوله ﷺ، مطيعًا خاضعًا ذالًا محبًا لله ولأمره كارهًا لما نهاه الله عنه؛ سواءٌ كان من الأمور العامَّة، أو من الأمور التي تخصُّ كل إنسان.

قال رحمه الله تعالى:

﴿﴾ «وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَنْ شُهُودِ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى، فَيَفْنَى بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شعوره بنفسه وبما سوى الله، فَهَذَا حَالٌ نَاقِصٌ، قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ، وَلِهَذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ».

الشَّرح

إذا قُدِّر أنه يوجد مثل هذا، فهذا نقصٌ في العقل وفي الإرادة، ولكن العاقل الإنسان ما يقع في مثل هذا إلا نادرٌ لأسباب، إما رياضةً تقضي على فكره وإرادته أو غير ذلك، مثل ما يُذكر أنَّ إنسانًا له محبوب، فسقط محبوبه في بئر أو في ماء فسقط هو خلفه؛ فقال: كيف سقطت أنت؟ قال: لا أدري ـ أي: لا إرادة له! ـ، وهو له إرادةٌ، وله هوى، ولكن هواه ومحبته غطت على إرادته.

المقصود: أنَّ هذا نقصٌ ظاهرٌ في الإنسان ولا يُمدح فيه، والله ﷻ كلَّف الإنسان الذي عنده الإرادة والقدرة، أمَّا الذي لا قُدرة له ولا إرادة له فهذا يسقط عنه التَّكليف؛ لأنه لا عقل له.

والعاقل يجب أن يكون مقدِّمًا لعقله في جميع الأمور، ولكن ليس في أمر الله ونهيه، والذي يفنى عن عقله وشعوره ونظره قد يسقط عنه التَّكليف لعدم التمييز، والأوامر إنما تكون لمن عنده تمييزٌ ومعرفة للحق من الباطل. أما إذا أفنى نفسه في هذا؛ فمعناه أنه غاب عقله، وهذا لا ينفع حتى وإن كان الإنسان يرى أنه وصل إلى الغاية كما يزعمون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ جَعَلَ هَذَا نِهَايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَلَالًا مُبِينًا، وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ، بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، لَيْسَ هُوَ مِنَ اللَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ».

الشرح

بل هو من الضعف الذي يعتري الإنسان، ومن الضلال؛ لأن الإنسان إذا لم يهتدِ بأمر الله ويلتزمه ويتبع الرسول فهو إما مخطئ قطعًا وضالٌّ قطعًا، أو أنه ترك ما هو واجب، ويكون نقصه بحسب تركه ذلك الواجب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السوى، بِحَيْثُ يَرَى أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ، وَأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ، فَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالِاتِّحَادِ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَضَلِّ الْعِبَادِ».

الشَّرح

هذا لا يَصِلُ إليه إلا من هو أكفر خلق الله، وأكفر من إبليس، وهو أن يجعل المخلوق هو الخالق، والخالق هو المخلوق، ليس هناك اثنين ـ خالق ومخلوق ـ.

قوله: «وَالِاتِّحَادِ»؛ أي: اتحد الخالق في المخلوق؛ بحيث صار شيئًا واحدًا، كما يقول أحدهم[1]:

العبدُ ربٌ والربُ عبدٌ ليت شعري من المُكلفُ
إن قلت عبدٌ فذاك ميتٌ وإن قلت ربٌ أنّى يكلفُ

ويقول في المعنى:

كل كلامٍ في الوجود كلامه سواءٌ علينا نثره ونظامه

أي: الغناء والفُحش، وكل كلامٍ في الوجود = يجعله كلاما لله؛ لأنه ليس عنده خالق ومخلوق، بل هم شيء واحد، ومعلوم أن هذا شيءٌ خارج عن المعقول والضروريات، وكذلك الشرعُ يُبين أن هذا من أكفر خلق الله.

قوله: «وَالِاتِّحَادِ» يقصدون بهذا أنه اتحد الربُ في الخلق!

نقول: أكان قبل الاتحاد هناك رب وغيره؟! وما الذي جعل هذا يتَّحد بهذا؟!

قوله: «بِحَيْثُ يَرَى أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ» هذه وحدة الوجود، يعني: أنَّ وجود العبد هو وجود الرب، فيتحد الرب بالعبد، وهذا دين النصارى الذين يقولون: (إن اللاهوت حل بالناسوت)، وهذا غايةُ الكفر، فمثل هذا

(١) القائل إمام الاتحادية ابن عربي الطائي، ينظر: الفتوحات المكية (١/ ٢).

لا يميِّز بين خالق ومخلوق، بل يجعل المخلوق هو الخالق، والخالق هو المخلوق، كما عليه ابنُ عربي، والعفيف التلمساني، وابن الفارض ونحوهم من كبراء الصوفية الذين سموهم سادة ولهم قادة أيضًا، فبئس الضلال.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْرُدَ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُشَاهِدًا لِلْقَدَرِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ، مِثْلَ أَنْ يُضْرَبَ وَيُجَاعَ حَتَّى يُبْتَلَى بِعَظِيمِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَاعِ فَإِنْ لَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَعَابَهُ فَقَدْ نَقَضَ قَوْلَهُ، وَخَرَجَ عَنْ أَصْلِ مَذْهَبِهِ، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مَقْضِيٌّ مَقْدُورٌ، فَخَلْقُ اللهِ وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ: مُتَنَاوِلٌ لَك وَلَهُ وَهُوَ يَعُمُّكُمَا، فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَك فَهُوَ حُجَّةٌ لِهَذَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ لَا لَك وَلَا لَهُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَدَرِ، وَيُعْرِضُ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ».

الشَّرح

يعني: أنَّ هذا المذهب لا يستقيم عليه لا دينٌ ولا دنيا، هذا الذي لا يفرِّق بين الخالق والمخلوق، ولا يفرق بين الأمر والنهي، ويقول: (إنَّ العبد يجب أن يكون كالآلة التي تُدار)، وقائل هذا لا يرضى هو ومثله أن تقابله وتضربه وتقول: (هذا ليس فعلي، بل أنا مسخَّر)! وهذا حتى في البهائم، فتجد البهيمة تنتقم ممن يعتدي عليها، وحتى الصبي إذا ضُرب وبكى وقلت له: (اسكت ما أحد ضربك)! ما يقتنع، لأنه لا بُدَّ للفعل من فاعلٍ، ولا بُدَّ أن الإنسان يؤاخذ بعمله، وإلا ما تستقيم دنيًا ولا أخرى.

قوله: «وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ...». هذا مذهب الجبرية الذين يقولون: (إنَّ العبد كالآلة التي تدار، وليس له اختيار، وهو كالريشة التي تهب بها الريح). ومن المعلوم أنَّ الإنسان يؤاخذ بأقواله وأفعاله في أحكام الدُّنيا وفي أوامر الله ﷻ، ولكن الإعراض عن كتاب الله وعما جاء به المصطفى ﷺ لا بُدَّ أن يؤول بصاحبه إلى الباطل، نسأل الله العافية.

والحقُّ أنَّه لا بُدَّ من الجمع بين القدر والشرع، وأن الله أمر بهذا قدرًا ولا بُدَّ من وقوعه، وأمر به شرعًا على حسب ما يستطيعه المأمور.

والقدر عبارةٌ عن علم الله ﷻ وكتابته لعلمه في المخلوق، وأنَّه لا بُدَّ أن يقع، وأمر بالمستطاع، فلا مخالفة بين القدر والشرع.

المقصود: أنَّ هذا قول الجبرية الذين يقولون: (الإنسان ليس له اختيار، وإنما هو بمنزلة الآلة التي تُدَار، أو بمنزلة الشجرة التي تكون في مهبِّ الريح)، ويقولون: (إذا أُضيف إليه شيءٌ فهو على سبيل المجاز، مثل: إذا أُضيف إلى الشجرة والجدار).

فنقول هؤلاء: لو عوملوا بمقتضى مذهبهم فضَربتَ أحدهم، أو أحرقتَ مالَه، أو عملت بالعمل الذي يؤلمه فلا بُدَّ أنَّه يلومك، وإذا لامك تقول: (لا، أنا ما فعلت شيئًا، أنا لا اختيار لي، ولا قُدرة لي، فلا تلُمْني، بل هذا القَدَر)؛ فلا يُمكن أن يرضى بهذا؛ فهذا المذهب لا يستقيمُ عليه دُنيًا ولا دينٌ، فهو باطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ، وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]، فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر: ٥٥]».

الشرح

يعني: أن فعل الأمر وترك النهي لا بُدَّ منه، وهذا يثبُت بالصبر، أي: تصبر على فعل الأمر، وتصبر على الترك الذي نُهيت عنه.

كما أن فيه أمرًا ثالثًا: وهو المُقدّر؛ لأنَّ الإنسان في هذه الحياة لا بُدَّ أن يُصاب بمصائب، ولا بُدَّ أن يأتيه ما يكره؛ فيجب عليه أن يصبر.

والصبرُ يكون على المقدور، وعلى المأمور الذي أمر الله به، وعلى المحظور الذي نهى الله عنه؛ فهو أمرٌ دينيٌّ أمر الله ﷻ به، ومن يفقدُه لا يكون له دينٌ ولا يكون له صبرٌ.

فالتقوى: هي فعل ما أمر الله ﷻ به عباده، بأن يجعلوا بينهم وبين محذوره واقيًا، والمحذور هو تركُ أمر الله ﷻ الذي يترتب عليه العذاب، إذا تركت أمر الله فأنت متوعَّدٌ بعذاب الله؛ سواءٌ كان عاجلًا أو آجلًا. وكذلك النهي الذي نهاك الله عنه، مثل: الشرك والمعاصي والتعدي على الغير وما أشبه ذلك؛ فلا بُدَّ أن الإنسان يستقيم على الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ إذا كان يريد النَّجاة، وإلا فالعذابُ يكون ملازمًا له في الدُّنيا والآخرة، والاستعانة على هذه الأمور بالصَّبر.

والصبر هو حبسُ النَّفس على المكروه، تحبسها على أن تفعل الشيء الذي تكره إذا كان طاعةً، وتحبسها عن الأمر الذي حُرِّم عليك، وتحبسها كذلك عن الشكوى والتضجر وكون الإنسان يتسخط قضاء الله وقدره؛ فيدخل في ذلك الكلام، ويدخُل فيه الفعل، ويدخل فيه النيَّات والمُراد.

قال رحمه الله تعالى:

«فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ».

الشرح

الاستغفار عبارةٌ عن فعل المأمور كُلِّه، وليس المقصود به أن تقول: «أستغفر الله» فقط، ولهذا يقول ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يعني: اجتنب الذنب، وافعل الطاعة، وهذا يكون بالفعل ويكون بالقول؛ فالاستغفار يشمل القول باللسان، ويشمل العمل الذي يكون بالجوارح كفًّا أو فعلًا.

فالاستغفار هو الرُّجوع إلى الله ﷻ، وترك ما وقع له من خلاف، وليس مجرد النطق باللسان مع أنه ينفع، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]، ولكن الاستغفار النافع من الذنب: هو طلب العفو من الله، هذا هو حقيقة الاستغفار، وهذا أمرٌ ضروريٌّ للعبد ولا بُدَّ له منه، وإذا اعترف الإنسان بذنبه، ورجع إلى ربه؛ فإنَّ الله يدخله في محبته، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

ومن حكمته أنه يبتلي عباده بالذنوب؛ حتى ينيبوا إليه ويعترفوا بفقرهم وحاجتهم إلى ربهم، فيكون بعد استغفاره ورجوعه أحسن منه قبل ذلك، ولهذا آدم عليه السلام بعد التوبة والإنابة إلى ربه أحسن منه قبل ذلك وأكمل.

والذي يقول إنه مستغنٍ عن التوبة، هو جاهل بالله ﷻ وجاهل بنفسه.

وعلى كلِّ حالٍ: قد شرع رسولنا ﷺ لنا ذلك وهو قدوتنا، ولهذا يقول: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ**

أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ»(١). وقد أمره الله ﷻ في آخر عمره أن يختم عمره بالاستغفار والتوبة، وآخر سورة نزلت عليه من ربه قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٧)، من حديث أبو هريرة رضي الله عنه، ولفظ «تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ» أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٣٩٠) برقم (١٧٨٤٧)، من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَقَالَ: «إِنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرِ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»».

الشَّرح

قوله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي**»(١)؛ أي: أنه يحصل له تغطية عن شهود ربه، وعن القيام بأمره على ما ينبغي وما يحبُّ الله، ويحصل شيء من الغفلة، أو من الاشتغال بالأهل والناس وما أشبه ذلك، ثم يستغفر ربه ويرجع إلى ما كان عليه.

فالإنسان لا يستغني عن التوبة؛ لأنه خطَّاء، فلا بُدَّ أن يرجع إلى ربه ﷻ ويطلب عفوه ويستغفر من ذنبه مع كونه يفعل ما أمره الله به حسب استطاعته واستقامته على هذا الأمر، هو الذي يدلُّ على قربه من الله، وعدم استقامته يدلُّ على أنه بعيدٌ عن الله ﷻ.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الاستغفار واستحباب الاستغفار والاستكثار منه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «وَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت، وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لا إله إلا أنت».

ﷺ وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ؛ وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ، فَمَنْ أَذْنَبَ وَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ، وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ».

الشرح

يعني: أنَّ الرسول هو قدوتنا ﷺ يجب أن نتبعه في استغفاره ورجوعه إلى ربِّه، كما أنَّه يجب أن نطيعه فيما جاء به عن الله ﷻ حتى يحصل الهدى، وإلا يكون الضلال ملازمًا للإنسان، والضلال ينتهي إلى عذاب الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣].

وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [محمد: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ١ ـ ٣]».

الشرح

أي: أنَّه لا بُدَّ للإنسان من التزام أمرِ الله ﷻ، ثُمَّ يرجع إلى ربِّه في تقصيره؛ لأنَّ التَّقصير ملازم له، فلا بُدَّ أن يستغفر.

و«الاستغفار»: هو طلب المغفرة والعفو، وإذا جاء الأمر بالاستغفار والتَّوبة، فهذا يدلُّ على العمل مع الاعتراف بالتقصير، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»(١)، فقوله: «أبوء»؛ أي: أعترف، والإنسان ما يخلو من الذنب، ولا يمكن أن يكون مستقيمًا من كل وجه، فلا بد من الاستغفار؛ لأنه لا يخلو من الذنوب.

قوله: «وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ»؛ إذا جاء الاستغفار مقرونًا بالتَّوبة؛ فمعنى ذلك: الاعتراف بالذنب وطلب العفو مع الإقلاع مما هو عليه والرجوع إلى الطاعة، فيشمل فعل المأمور وترك المحظور، والاعتراف بأنه وقع في التقصير، فلا بُدَّ من عمل القلب مع عمل الجوارح، وهذا هو الكمال في طاعة أمر الله ﷻ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٦)، من حديث شداد بن أوس ؓ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ: «يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْت النَّاسَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِـ (لَا إلَهَ إلَّا اللهُ) وَالِاسْتِغْفَارِ؛ فَلَمَّا رَأَيْت ذَلِكَ بَثَثْت فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

الشَّرح

هذا من فقه إبليس؛ لأنَّ «لا إله إلا الله» هو التَّوحيد الذي يجب أن يكون الإنسان ملتزمًا له، والاستغفار هو عن التَّقصير من عدم القيام بالتوحيد، فإنَّ الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكلِّ ما أمر الله ﷻ به، ولا يستطيع أن يعبد الله على ما يستحقُّه الله، حتى الرسول ﷺ، ولهذا يستغفر.

قوله: «فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»، يعني: أن البدعة يراها صاحبها دينًا، وإذا كانت دينًا يتدين به فالدين لا يُتاب منه، وهذا معنى أنهم لا يتوبون، وهذا معنى قول السلف: (صاحب البدعة لا توبة له)؛ أي: كيف يتوب مما يعتقد أنه يتقرب به إلى ربه؟! وهذا من أعظم ما زيَّنه الشيطان في بني آدم وأهلكهم به.

على كل حالٍ: التوحيد هو الأصل الذي يُبنى عليه العمل كُله، وهو إخلاصُ العمل لله ﷻ، ثم يتبعُ ذلك: امتثالُ الإنسان لما جاء به الرَّسول؛ سواءٌ كان فعلًا أو قولًا، وكُلُّه طاعةٌ لله ﷻ، وذلك أن الإنسان عبدٌ، والعبد معناه: أن يكون ممتثلًا لأمر سيِّده لا يخرُج عنه، أمَّا إذا خرج عن مُراد سيِّده إمَّا لهوًى يريده هو، أو لأمرٍ ظاهرٍ فقد عصا وخالف.

والاستغفار يكون عن الأمر الذي فعله بأنَّه رجع عن المُخالفة، والتَّوبة إذا قورنت بالاستغفار فمعناها: أنه يعمل الطاعة التي أُمر بها، وهذا ملازمٌ لمن يُريد أن يُكرمه الله ﷻ وينجيه من عذابه، والله خلق الجن والإنس ليعبدوه، فإذا خالفوا ذلك فقد خالفوا ما خُلقوا له، وعصوا ربهم كما أنهم بذلك أيضًا يجلبون العذاب إلى أنفسهم.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]».

الشَّرح

قوله: «وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ»؛ أي: أنَّ دعوة ذي النون عليه السلام تضمنت توحيدَ الله وطاعتَه والإنابةَ إليه مع الاعتراف بالتقصير، وأنه لا غنى له عن ربه جل جلاله، هذا هو المقصود من العبد، ولو وصل إلى هذا الحد وكانت ذنوبه ملء الأرض = لعفى الله عنه واجتباه؛ سواءٌ وقع في كرب أو وقع في ذنوب كانت طريقًا إلى العذاب، والإنسان ضعيف ولا غنى له عن ربه.

والأمور إذا نظر إليها العبد وجدها أربعة لا بد منها:

الأول: أمر محبوب، وفيه النعيم والراحة.

الثاني: أمر مكروه وفيه الشقاء والعذاب.

الثَّالث: سبب يوصل إلى ما هو محبوب ومنعّم.

الرَّابع: سبب يوصل إلى الألم والعذاب.

وإذا تحقق ذلك للإنسان ونظر فيه = علم أنَّ هذا كله بيد الله، فأناب إلى ربه وتاب ورجع واعترف بأنَّه لا قوة له ولا حول إلا بالله جل جلاله؛ فإذا اعترف بذلك وفعل هذه الأمور، فهو من العباد الذين اجتباهم الله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ بها كَرْبَه».

الشَّرح

قوله: «النُّونِ»: هو الحوت، وأُضيف إليه؛ لأنَّ الحوت التقمه، فقيل: «**ذو النُّونِ**»، يعني: صاحب الحوت، وهذا من عجائبِ الله ﷻ وآياته؛ لأنه خرج من قومه مُغاضبًا بدون أن يأمره الله بالخروج، فوافى أصحابَ سفينةٍ وهم سالكون في البحر؛ فركب معهم، فتحملت السفينةُ أكثر من اللازم، وهبَّت عليهم الرِّيح فقالوا: لا بُدَّ أن يسقط بعضنا وإلا هلكنا جميعًا؛ فأقرعوا فسقطت القرعة عليه، ثم أعادوا مرةً أُخرى فسقطت عليه، ثُمَّ مرةً ثالثة فسقطت عليه؛ فألقى نفسه، فالتقمه الحوت بدون أن يكسر له عظمًا أو يؤثر عليه، فبقي حيًّا في بطنه، وبطنه مُظلم، والبحرُ مُظلم، والليل مُظلم، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاستجاب الله ﷻ له وأمر الحوت أن يُلقيه في البرِّ.

ثُمَّ قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٨]، يعني: مثل ما أنجى ذا النون يُنجي المؤمن إذا وقع في الكرب ودعا الله مُخلصًا وصادقًا فإن الله يُنجيه؛ وقد يكون غيرَ مؤمن فيصدق مع الله فيُنجيه، كما كان المُشركون إذا وقعوا في الكُربات فلجأوا إلى الله ﷻ فيستجيب لهم.

كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا أمرٌ معلومٌ عند خلق الله الذين لهم عقل ولهم نظر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي الْقَدَرِ مِنْ أَصْلَيْنِ، فَفِي «الْأَمْرِ» عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَلَا يزَالُ يجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ، وَتَعَدِّيهِ الْحُدُودَ».

الشَّرح

الأول: فعل ما أمره الله ﷻ.

والثاني: الاستغفار مما فرط فيه وتركه؛ لأن الإنسان لا بُدَّ أن يخالف، وعند المخالفة يتوب ويرجع ويستغفر، ويجتهد في فعل ما أمره الله ﷻ به، هذا لأن عنده القُدرة، وكذلك عنده العلم بأن الله خلقه وجعل له دارًا يُجازيه فيها، في غير هذه الدار؛ فلا بُدَّ من العلم بذلك ثُمَّ العمل على هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْمَشْرُوعِ أَنْ يَخْتِمَ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧]، فَقَامُوا بِاللَّيْلِ ثم خَتَمُوا بِالِاسْتِغْفَارِ».

الشرح

الاستغفار هو استدارك الفائت للتقصير؛ لأنَّه وإن أتى بالعبادة فلا بُدَّ أن يكون فيها خللٌ، فالإنسان نسَّاء وكذلك خطَّاء، فهو كثير الغفلة وتعتريه أمورٌ كثيرة، فحتى لو قُدِّر أنه يجمع فكره وقلبه على أمر الله ﷻ، فلا بُدَّ له من تقصير، فلا بُدَّ له من استغفارٍ، فالإنسان فيما أمره الله ﷻ به، لا بُدَّ أن يحصُل له فيه تقصيرٌ، فيستدرك ذلك بالاستغفار؛ هذا معنى: ختم الأعمال بالاستغفار؛ لأنَّ فيها تقصيرًا، والاستغفار يكون فيه الاستدراك؛ فشرع الرسول ﷺ الاستغفارَ بعد الصلاة، «**اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا**»[(١)]، وكذلك بعد الطواف، أمر الله ﷻ بذلك، ولما ذكر الحج قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، إلى آخره.

فالإنسان تعتريه الغفلة، ويعتريه السَّهو، ويعتريه القصور، ومن رحمة الله ﷻ أن جعل في الاستغفار استدراكًا لما فات، ورجوعًا إلى الله ﷻ.

وأما القدر الذي يُقدِّره الله ﷻ لا حيلة فيه إلا أن يصبر ويعلم أن هذا شيءٌ لا بُدَّ من وقوعه، ولا يُمكن أن يُردَّ؛ لأنَّ الله كتبه قبل وجود من قُدِّر عليه، فهو قدَّره وشاءه وخلقه، فلا يُمكن أن يكون ليُخطأه.

وكذلك الذي يُخطأ هو بقدر الله، فالحيلة في هذا هي التسليم والصبر عليه، والإيمان بأنَّ هذا شيءٌ لا بُدَّ أن يقع ولا يتخلف، والصبر هو مفتاح الفرج كما يقول الناس؛ فإذا كان الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المُقدَّر = فهو طاعةٌ لله ﷻ يُثاب العبد عليها، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من الصَّابرين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (١/ ٤١٤) برقم (٥٩١)، من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، وَفِي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»(١).

الشَّرح

قوله: «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»، يعني: يعمل به، وهو قوله ﷻ في هذه السورة: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، وهذا أمر الله له فامتثله؛ ومن المعلوم أنه لن يصل أحد إلى ما وصل إليه رسول الله ﷺ في الطاعة والعبادة والقرب من الله ﷻ.

ولكن الإنسان خلق ضعيفا خطاء، فالذين لا يذنبون ولا يقعون في الذنب هم الملائكة الذين خُلقوا للطاعة فقط، وأما بنو آدم فهم لا ينفكون عن الذنوب ولا المخالفات، وإذا كان الإنسان عنده الكبر والإعراض عن ربِّه فهذا علامة الشقاء، وصار من جند الشَّيطان، وأما اعترافُه بذنبه ورجوعه إلى ربِّه ﷻ فإنَّ هذا الطَّريق الذي به ينجو من العذاب، وإلا فالله غنيٌّ عن العباد وعن طاعتهم، وهو يريد من عباده ألا يقعوا في عذابه، وبهذا يرغِّبهم فيما عنده من الخير والنَّعيم، ويرهِّبهم من عذابه ﷻ.

ومن تمام رحمته وفضله أن أرسل إليهم الرُّسُلَ، وأنزل عليهم الكتب، وكلُّ ذلك دعوةٌ منه ﷻ لهم بأن يعملوا العمل الذي به نعيمُهم وسعادتُهم؛ وإذا استغنى الإنسان عن ربِّه فلا يبالي به أن يهلك بأي وادٍ كان، ولن يضرَّ الله شيئًا، وإنما يضرُّ نفسه.

فالمقصود: أنَّ الرُّجوع والاستغفار أمرٌ ضروريٌّ لا بُدَّ منه لكلِّ أحدٍ، لا يقول الإنسان: (أنا وصلت إلى طاعة الله ﷻ التي أمرني بها)؛ فإنه عنده من القصور والأشياء التي قد لا يدركها.

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) عن عائشة ﵂.

ومن أفضل الأعمال التي نقوم بها: الصلاة؛ إذا دخل فيها الواحد منَّا تجد قلبه مشتغلًا بكل مكان، فليس له من صلاته إلا ما عقل، وقِسْ على هذا في كلِّ الأعمال.

والإنسان إذا وقع في المعاصي فإنه مقصر في طاعة الله وما وصل إلى قربه وإلى امتثال أمره على الوجه الذي يشرعه، وهذا كما قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ**»(١)، وفي حديث آخر: «**فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**»(٢).

والالتفات نوعانِ:

الأوَّل: التفاتٌ في البدن عن القبلة، فإذا كان بالبدن كله بطلت الصلاة، وإن كان برأسه فإنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

الثاني: التفات القلب.

والمقصود: أن التقصير حاصِلٌ، ولا بد من الرجوع إلى الله ﷻ، ولهذا أمرنا بالتوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة النصوح: هي التي تحققت شروطها الثلاثة:

أولها: الإقلاع عن الذنب.

ثانيها: الندم على وقوعه فيه، وهو تألم القلب لوقوعه في هذه المخالفة.

ثالثها: العزم على ألَّا يعود إليه، وهذا قد لا يستمر عليه؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له من مخالفات حتى وإن تاب، فيرجع مرة أخرى إلى التوبة.

وهذا لا بُدَّ أن يكون في حياته قبل أن تأتي الآيات الكبيرة، وهذا أمر معروف.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد (١/ ٩٠) برقم (٤٠٥)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (١/ ٣٩٠) برقم (٥٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٥/ ١٤٨) برقم (٢٨٦٣)، وأحمد في مسنده (٢٨/ ٤٠٤) برقم (١٧١٧٠)، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه.

فيجب على العبد أن يكون تعلقه وتألهه لله ﷻ دائمًا، ولا بُدَّ أن يستشعر في قلبه فقره الملازم له؛ فالعبدُ فقيرٌ فقرًا ذاتيًّا لا ينفكُّ عن هذا الفقر دائمًا، والله خلقه فقيرًا إليه، ولكن قد يغيب عنه هذا، وقد لا يستشعره، فيكون أيضًا ممَّا يحتوشه الشيطان، ويحوله إلى الأمور التي يكون فيها غافلًا، تاركًا أمرَ الله ﷻ والاجتهاد في ذلك، فينبغي أن يرجع إلى ربِّه ﷻ في كُلِّ وقتٍ، وهذا معنى قول الرسول: «**إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(١)]، وهو الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بالمقصِّرين الذين لا يقومون بأمر الله كما ينبغي؟! وإذا وجِدَ الصدق، والإخلاص، والقيام بالعمل حسب الإمكان؛ فإن هذا علامة الاجتباء.

وقد ذكر ربنا ﷻ أن الذين اجتباهم ثلاثة أقسام:

قسم ظالم لنفسه، وقسم مقتصد، وقسم سابق بالخيرات بإذن ربه، وبدأ بالظالم فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

بدأ بالظالم لنفسه؛ لأنه أكثر الذين اجتباهم الله، وهذا الظلم دون الشرك؛ لأن الشرك إذا وقع فيه وكان شركًا أكبر ولم يَتُب منه ومات عليه = فهو في النار.

فالظالم لنفسه هو الذي ترك بعض الواجب، وفعل بعض المحرمات، وهذا في الناس كثيرٌ جدًّا، ولا ينفك منه أحد إلا نادرًا.

وأمَّا المقتصد؛ فهو أن يأتي بما أوجبه الله عليه ويترك ما حرمه الله عليه، فلا يأتي بالأعمال التطوعية، وإنما يقتصر على ما أوجبه الله عليه، ولكنه يقوم به كاملًا.

وأما السابق بالخيرات بإذن الله؛ فهو الذي تقرَّب إلى الله بما أوجبه، وترك ما حرمه، ثم تقرب إليه بالنوافل بعد أداء الفرائض، فالله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وأحب ما تقرب العبد إلى ربه أداء ما أوجبه عليه.

وعلى كلِّ حالٍ: كل الأمور بيدِ الله ﷻ، ولكن العبد إذا عرف فقرَه وحاجتَه ولجأ إلى ربه؛ فإن هذا علامة التوفيق وعلامة الاجتباء.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَأَمَّا فِي «الْقَدَرِ» فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ؛ وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِيذَ بِهِ وَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ؛ وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ».

الشرح

فإذا أصابه شيء فهو مثل ما قال الله ﷻ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

قوله: «**وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ**»، يعني: يعلم أن أذية الناس مقدرة عليه، فيؤمن ويصبر.

قوله: «**مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ**»؛ أي: أنَّ الصَّبر خيرٌ وأفضلُ، وإذا ظلم ثُمَّ انتصر فهذا جائزٌ، ولكن العفو أفضل وأكرم؛ فإذا نظر إلى أنه قد قُدِّر عليه ذلك فإنه يصبر ويطلب أجره من الله ﷻ، وهم الذين أثنى الله عليهم بقوله لما ذكر الذين يسبقون إلى الجنة: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وهذا من أفضل الأعمال، ولكن قد لا يستطيع الإنسان ذلك، فينتصر لنفسه إما بالكلام أو بالفعل، وإذا تعدَّى حقَّه كان من الظالمين، أما إذا عاقب بمثل ما عوقب به فهذا عدلٌ.

والعدل قد أمر الله به والزائد ـ وهو العفو ـ وهذا أفضل، والفضل يتحصل به على الدَّرجات العُلا، ولهذا أثنى الله ﷻ على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس؛ لأنَّ الإنسان لا بُدَّ أن يقع عليه الأذى في هذه الحياة بسبب الاختلاط بالناس ـ قد يكون كثيرًا، وقد يكون قليلًا ـ، ولذلك أمر بالصبر والنظر إلى قدر الله ﷻ.

فإذا علم أنَّ هذا أمرٌ مقدَّر عليه وأنَّه من الابتلاء فصبر؛ فإنه يوفى أجره بغير حساب، إن كان محتسبًا للأجر؛ لأنه يحبس يده أن تتناول شيئًا، ويحبس لسانه أن يتكلم، وإذا طالع فضل الله وطالع جزاءه؛ فإنَّه يهون عليه هذا الأمر، ويتحمل ذلك في طاعة الله.

والعدل حقٌّ، وقد قامت به السماوات والأرض، والناس يختلفون في هذا؛ فمنهم من إذا عُفي عنه تمادى في الباطل وزاد شرُّه، ومنهم من يعترف بهذا ويكون ذلك عليه مِنَّة، ثم يعود كراهته وعداوته حبًّا وإلفًا له، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

والعبدُ له من الأعداء اثنان ظاهرانِ:

فالأول: نفسه، وما حوله وما يحيط به من بني جنسه، سواء كانوا أقْرِباء أو بعيدين، وقد ذكر ﷻ أنَّ من عدوِّ الإنسان الزَّوجُ والولد والمال وغيرُ ذلك، وأمر بالحذر منهم؛ لأنَّه لا بُدَّ أنهم يجاورون بالشيء الذي أمر الله ﷻ به.

وأما الذين من بني جنسه؛ فلا بُدَّ له من المخالطة والمصاحبة لهم، فإذا أمكن أن يكون الحق له، فيعفو ويصفح؛ وهذا شأن عباد الله، وهو طريق رسول الله ﷺ.

والثَّاني: الذي لا يُشاهد من الجن والنَّفس والهوى، وهذا يلجأ فيه إلى الله ﷻ كما قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فيلجأ إلى ربِّه في حمايته من هذا العدو، وكل ما فيه ضرر ومحظور قد بيَّنه الله لنا في كتابه، ويجب أن يتعلق العبد بربه دائمًا، وأن يكون عاملًا بكتاب ربه مخلصًا في عمله الذي يقوم به؛ فإنه لا ينفعه إلا الإخلاص والصدق مع ربِّه، وأما مراعاة الناس والنظر إليهم فهذا لا يجدي شيئًا، بل يضرُّ لأنه قد يبطل العمل.

وهذا عام في العمل الذي قد يكون في نفس الإنسان، فالإخلاص شرطٌ في قبول العمل؛ وإذا وقع فيه الخلل أفسده، والخلل إما حظ النفس وإما أمور الدنيا، وكلها لا تدوم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْ هَذَا الْبَابِ احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى، لَمَّا قَالَ: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَك اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ؛ لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللهُ بِكَلَامِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: ١٢١]، قَالَ: بِكَذَا وَكَذَا سنه، قال: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ، فَإِنَّ آدَمَ كَانَ قَدْ تَابَ مِنْهُ وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؛ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إلَى الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنْ المعائب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]».

الشرح

قوله: «وَمِنْ هَذَا الْبَابِ احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى...»، يعني: من باب الاحتجاج بالقدر على حسب ما زعم بعضهم، وهم الجبرية الذين يحتجُّون بهذا الحديث ويقولون: (إن هذا حجة لنا أنَّ الإنسان ليس له اختيار، وإنما هو بمنزلة الريشة التي في مهب الريح يديرها حيث شاءت)؛ وهذا خطأ، بل هو ضلال، وهو انحرافٌ ظاهر عن دين الله ﷻ وعن أمره وقدره؛ فإن الله ﷻ له الأمر وله الخلق، كما قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: خلقه الذي يشمل القدر.

وسبق أنَّ القدر عبارة عن علم الله القديم الأزلي وكتابته لعلمه في المخلوقات ثم مشيئته وخلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى...» موسى ﷺ سأل ربه قال: **«ربِّ أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ـ كأنه سيعاتبه ـ فأراه الله إياه، فقال: أنت آدم أبو البشر؟ قال: نعم، قال: لماذا خيبتنا ونفسك وأخرجتنا من الجنة»**[1]، ومعلومٌ أنَّ

(١) تقدم تخريجه.

موسى عليه السلام أعلم وأجلُّ من أن يلوم آدم على ذنبٍ قد تاب منه؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولو كان ذلك لقابله آدم بقوله: (أنت قتلت نفسًا؛ لماذا قتلتها؟)، ولكن اللوم على المصيبة، والمصيبة هي ما ترتب على الذنب. فلهذا قال له آدم: «**كم وجدت مكتوبًا في التوراة قبل أن أخلق: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾، قال: وجدته قبل أن تُخلَق بأربعين سنة، قال: أتلومني على شيء كُتب عليَّ قبل أن أُخْلَق بأربعين سنة؟! فحاج آدم موسى**»، يعني: غلبه بالحجة.

فالمصيبة قد يلام الإنسان عليها، ويقال له: (ترتب على فعلك، فأنت سبب المصيبة)، فيحتجُّ بالقدر ويقول: (هذا شيءٌ كُتب عليَّ ولا حيلة في ذلك)، وإنما الحيلة فيه التسليم لأمر الله ﷻ والانقياد والاستغفار، أما الذنب الذي يقع فيه الإنسان فلا يجوز أن يقول: (هذا قدر؛ قُدر عليَّ)!، بل عليه أن يتوب ويستغفر.

ولهذا يقولون: المصائب يمكن أن يحتج بها على القدر من باب التسلّي؛ لأنها لا حيلة لأحدٍ في ردِّها، فيقول: (نحن نؤمن بقدر الله وبمشيئته، ولا يقع في الكون إلا ما شاءه ﷻ وما قضاه). أما الذنب فالطريق فيه أن يستغفر الإنسان ويتوب، وهذا من فضل الله ﷻ، ولهذا يقول: (الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب والذنوب)؛ لأنَّ الذنوب يُستغفر منها ويتاب، هذا هو المنهج الصحيح الذي يجب أن يسلك في مثل هذه الأبواب، إذا أصيب الإنسان بشيء يقول: (الحمد لله هذا شيءٌ قُدِّر علينا، ونحن نسلم لأمر ربنا ونستغفر من ذنوبنا).

قوله: «**احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى...**» هذا الاحتجاج في الدُّنيا، وليس في الآخرة كما يقوله بعضُ شراح الحديث، فقد قال بعضهم: (هذا كان في عالم الآخرة، ولهذا غلبه بالحجة، وأما في الدنيا فأحكامها على الأمر والنهي).

وهذا غير صحيح، بل الله على كل شيء قدير، طلب موسى عليه السلام من ربه أن يريه آدم، فأراه الله إياه، وهذا كما شاهد الرسول ﷺ الأنبياء في ليلة المعراج فشاهدهم على حسب منازلهم في السماء على هيئتهم وصورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وخاطبهم وخاطبوه، وسلموا عليه وكلَّمهم، وموسى عليه السلام صار بينه وبين رسولنا ﷺ محاورة لمَّا أتاه وسأله فقيل: «هذا محمد نبي الساعة»، فلما جاوزه في العلو بكى، فسئل فقال: «ما ظننت أن أحدًا يكون فوقي»، ثم لما رجع من ربه أوقفه، وقال: «ماذا فرض عليك؟»... إلى آخر القصة.

فالمقصود: أنه شاهدهم على هيئتهم، وهذا مثله. فالله ﷻ أراه آدم بعقله وعلمه، ولهذا صارت المحاجَّة.

ثُمَّ الاحتجاج الذي احتجَّ به آدم على القدر أمورٌ وقعتْ وانتهت، ولا يمكن استدراكُها، فالمصائب التي تقع وتنتهي يُحتجُّ عليها بالقدر، وليست الذنوب التي يكون عليها الإنسان أو يستقبلها في عمره، فالاحتجاج عليها بالقدر أسوأ من فعل الذنب؛ لأنه تعليلٌ لنفسه بأن يستمر على فعل هذا الشيء ويجعل اللوم على القدر حسبما ينظر.

وبعض الجهال إذا قلت له: (اتق الله ولا تفعل هذا الشيء) قال: (هذا مكتوب عليّ)، وما يدريك أنه مكتوب عليك لولا أنك تريد أن تستمرَّ على هذا الشيء؟! فالكتابة هذه لا يعلمها إلا الله، فإذا وقعت علمنا أنَّ هذا الشيء مكتوبٌ، ولكن لا يجوز التَّعلُّل بهذا؛ لأنه عنادٌ، والعناد والتَّكبُّر على أمر الله ﷻ يكون ذنبًا كبيرًا، وقد لا يوفق إلى التوبة والرجوع إذا كان هذا مسلكه، وقد يكون ذلك عقابًا له؛ لأنَّ الله من سنته أن العبد إذا ردَّ أمره في أول الأمر؛ فإنه يعاقب لكراهته للحق، ويكون ميله إلى الباطل، كما قال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، بسبب معصيتهم الأولى. وكذلك قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

المقصود: أنَّ الاحتجاج بالقدر يكون على المصيبة، وليس على الذنب؛ لأن المصيبة أمرٌ وقع وانتهى ولا يمكن استداركه، فيقول: (الحمد الله، هذا قدر الله، وأنا مؤمن بقدر الله ومسلمٌ له)؛ أمَّا الذَّنب فالمَخرج منه أن يستغفر ويتوب، ولهذا إذا قلتَ لإنسان مقصِّرٍ: (لماذا ما صليت الفجر مع الجماعة؟). يقول: (هذا قدر الله). تقول: (لا، هذا تقصيرُك، الله أمرك بأن تصلِّي).

فما تقول: (هذا قدر الله)، حتى تجعل اللوم على القدر وتبرئ نفسك، ولكن يجب أن تعود إلى نفسك؛ لأنك أنت قصرت، واستغفِر من هذا الشيء؛ وإلا كان قولُك هذا أعظمَ من فعلك.

فلا بُدَّ أن يكون المذنب يرجع إلى ربه ويستغفر ويعترف بتقصيره، وإلا كان قوله أسوأ من فعله؛ بخلاف المصيبة إذا أصابت الإنسان فلا حيلة فيها، ولا يمكن أن تُستدرك، فليس هناك إلا أن يتسلى بأنَّ هذا أمرٌ قدَّره الله ﷻ، ولا حيلة في رده ولا يمكن أن يُستدرك، فنقول: (الحمد لله، هذا تقدير الله، ونحن نؤمن به ونسلم له).

قال رحمه الله تعالى:

❁ «فَمَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ - كَمَا ذَكَرَ -: كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ، مُطِيعًا لَهُ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

❁ وَقَدْ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي غير مَوْضِع، كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٣٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى: ١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]».

الشرح

إنَّ الجمع بين الإيمان بأمر الله وقبوله والعمل به، وكذلك الإيمان بخلقه وتقديره = يجب على كُلِّ عبدٍ أن يؤمن بهذا وبهذا، أمَّا الإيمان بالقدر فهو إيمانٌ بعِلم الله السَّابق الأزليّ، وأنَّه ﷻ كتب كُلَّ شيءٍ قبل وجود المخلوقات، ودخل في هذا كلُّ حركةٍ، وكُلُّ سكونٍ، وكلُّ عينٍ، وكلُّ صفةٍ؛ حتَّى نبضُ العروق في البدن وتحرُّكها مكتوبٌ.

فكل شيءٍ كتب في الأزل، فيقع على وفق الكتابة والعلم السابق، وإن كان الله ﷻ جعل لكل شيء سببًا، فالأسباب أيضًا مكتوبة مع المسببات.

وكذلك يؤمن بأمره ودينه وشرعه بهذا وبهذا، ولا بُدَّ من الاستعانة بالله على امتثال أمر الله؛ كما أمر الله ﷻ، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فالعبادة تكون لله والاستعانة به.

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، «التَّوكل»: هو اعتمادُ القلب بعد فعل السَّبب - على الله - في حصولِ المقصود الذي يُطلب من العبد؛ فإن لم يتوكل العبدُ على ربه لم يحصل على نتيجة، فلا بُدَّ من التَّوكُّل والتَّفويض إلى الله، ولكن ليس التَّوكُّل معناه العمى عن الأسباب وتركها واجتنابها؛ بل من التوكل فعل السبب؛ غيرَ أنَّ

السبب قد يكون سببًا مأمورًا به، وقد يكون سببًا منهيًّا عنه، فلا يجوز أن يرتكب المنهيَّ، بل عليه أن يفعل ما أمر به ويتوكل على ربه ﷻ في حصول النتيجة، فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾، ومن كان اللهُ حسبه كفاه ﷻ كُلَّ شيء، وكلُّ هذا يجب أن يكون عبادةً لله ﷻ.

التَّوكل وامتثالُ الأمر = عبادةٌ، فعلى العبدِ أن يسلِّم لأمر ربه ﷻ وينقاد له؛ أمَّا إذا اعترض على القدر أو تضجَّر منه، فإنه لا يضرُّ إلا نفسه، وأمرُ الله ماضٍ - شاء العبد ذلك أو أبى -، فلهذا يقول ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، أي: ذليلًا خاضعًا تجري عليه أقداره شاء أم أبى، فلا بُدَّ من الإيمان بالأمر، ثم الإيمان بتقدير الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك»، فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاللهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ بِاللهِ فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ».

الشرح

هذان الأصلان ـ العبادة مع الاستعانة ـ، يستعين العبد بهما على عبادة ربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك، وهذا هو تحقيقُ التَّوحيد، فهُما أصلانِ يجب أن يُلتزمَا.

قوله: «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ: «اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك مِنْك وَلَك»، يعني: أنت مننت علينا بالرزق وأعطيتنا ونحن نقدمه لك، فهذا فضل الله، مثل ما قال ﷻ: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧]، ثم يثيبنا؛ فيمن علينا بالرزق، ويعطينا، ويطلب منا أن نتصدَّق به حتى يثيبنا على ذلك، فالفضل كله لله ﷻ.

قوله: «فَمَا لَمْ يَكُنْ باللهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ باللهِ فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ». هذا عام في جميع ما يحصل للعبد، فكون الذي يحصل له من الله، ولا قوة له إلا بالله، وإن كانت هناك أسباب ظاهرة يباشرها؛ فالأسباب التي سببها هو الله، وهو الذي يقدر العبد على فعله، ولهذا يقول ﷻ لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤]، يرزقنا ويطلب منا أن ننفق منه؛ حتى يُثيبنا، وهذا من كرمه وجوده.

فالإنسان ليس له من نفسه شيءٌ، بل كل ما يحصل له مثل: الإرادة، والقدرة، والعقل، والنظر إنما هو من الله ﷻ. والأسباب الخارجةُ عن نفسه ييسِّرها الله له، ويسهِّلها عليه، فلهذا أنفقوا مما رزقناكم، فهو يعطينا ويمنّ علينا بالعطاء، ثم يطلب منا أن ننفق منه حتى يثيبنا فهو الكريم الجواد.

وعلى العبد أن يعقل هذه الأمور ويتأملها؛ حتى تكبر عليه منة الله، فيعلم أنْ ليس له من نفسه إلا العدم، وإذا وكِل إلى نفسه ضلَّ وضاع.

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَا بُدَّ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالثَّانِي مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ».

الشرح

هذان أصلان آخران: أن يكون الدين خالصًا لله ﷻ، ومعلومٌ أنَّ الدِّين لا يكون إلا بما جاء به الرَّسول ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصَّالح هو امتثالُ أمر الشرع واتباع الرسول ﷺ، وإلا لا يكون صالحًا، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾، فيجب أن يكون مخلصًا لله ﷻ، وهذا أمرٌ مُهِمٌّ جدًّا.

يجب أن يكون كل عمله لله وحده، ويكون مخلصًا في دين الله متبعًا لرسوله ﷺ، ولا يقبل العمل إلا بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، وهذا هو معنى قول العبد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، وقد تقدم بيان ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

❁ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا؛ وَقَالَ الفضيل بْنُ عِيَاضٍ رحمه الله فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إذَا كَانَ الْعَمَلُ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا؛ وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ».

الشرح

قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فالإخلاص معناه: أن يكون العمل لله وحده، ليس فيه شيء للمخلوق، ولا لحظوظ النفس ومراداتها، بل يجب أن يكون القصد فيه التَّقرُّبُ إلى الله، وأن يحظى بفضله ورحمته وينجو من عذابه، يعمل لأجل هذا فقط، ثُمَّ هذا الذي يعمله يجب أن يكون قد جاء به الرَّسول ﷺ وأمر به؛ فإن لم يكن كذلك فليس بعبادةٍ، بل هو بدعة مردودة على صاحبه.

فالعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصًا، ولا يُقبل إلا إذا كان موافقًا لأمر الله ﷻ الذي أرسل به رسوله، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧]، فالشَّيءُ الذي لم يبلغه المصطفى ﷺ ليس من الدِّين، ولا يجوز التَّعبُّد به، والتَّعبُّد به بعدًا عن الله ﷻ وحرمان.

وقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا...**» الصالح: هو الموافق لأمر الله ورسوله ﷺ، وإذا كان العمل فيه بدعٌ وأمورٌ خارجةٌ عن الأمر فهو مردود؛ والخالص: هو ما كان يقصد به وجه الله فقط.

وكثيرًا ما يعترض للعبد أمورٌ تقدح في إخلاصه وعمله، فينبغي أن يكون مجتهدًا في هذا دائمًا، والنفس لها آفات ومطالب، حتى لها رعونات وتمنيات،

فيكون حذرًا؛ فإذا تكلَّم فيجب أن يكون الكلام لله وفي الله، وإذا عمل فكذلك؛ ولا بُدَّ أن يعلم أنَّ النَّاس لا ينفعونه بشيء ولا يضرُّونه، ولكن ملاحظتهم فيما يعمل قد تكون مبطلة للعمل، وتكون مفسدة له.

ومعلوم أن مراعاة الناس في الأفعال والأقوال تتفاوتُ وتكثر، فقد يكون مقصوده والباعث له على العمل هو طلب الحظوة عند الناس والثناء منهم، وأن يكون له منزلة عندهم، وبئس ما قصد، وهذا هو المفسد للعمل، وإذا كان هذا هو الباعث للعمل فهذا شرك أكبر، ولكن الغالب أنَّ هذا لا يقع من مسلمٍ، وإنَّما يقع من المنافق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام.

أمَّا الذي يكثر ويُخاف منه؛ فهو أن يكون في أثناء العمل ويَعرض له مراعاةُ الناس، وهذا النوع إن دفعه وأعرض عنه لم يضره، وأما إذا تمادى معه واستجلبه؛ فهو مبطل لعمله الذي قارنه، فيكون ذلك العمل باطلًا، كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنَ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، وَالدِّينُ الْحَقُّ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَه اللهُ».

الشرح

والحلال ما أحله الله ﷻ، والحرام ما حرَّمه الله؛ غيرَ أنَّ مسألة الأكل والشرب والمعاملات: الأصلُ فيها الإباحةُ حتى يأتي الحظر. أمَّا العبادةُ: فالأصل فيها المنعُ حتى يأتي الأمر، فهذا لقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فأخبرنا ﷻ أنَّ كُلَّ ما في الأرض مخلوقٌ لنا، فإذَن: الأصلُ فيه أنَّه حلالٌ لنا حتى يأتينا الأمر بأنَّ هذا محرَّمٌ من الشَّرع من الرَّسول ﷺ، أمَّا العبادة فلا بُدَّ من معرفة الأمر فيها أنَّ الله أمر بها، وكل ذلك يجب أن يكون خالصًا لوجه الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ، يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ.

وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ، فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ، وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ؛ بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ.

وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ، مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ، فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ، وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنَ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَيُعْطَى مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ؛ إِنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ؛ وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ، وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ».

الشَّرح

كثير من الناس إذا أصيب بمصيبة جعل اللوم على ربه، يقول: أنا ما فعلت شيئًا، لماذا أصبت بهذه المصيبة؟ لماذا أنا مريض؟ لماذا أنا فقير وفلان غني؟ وكذا وكذا..!

فهذا اعتراضٌ على الله ﷻ، وهذا قد يكون سببًا في هلاكه، فالواجب الرِّضا عن الله ﷻ والصبر على ما يصاب، ولهذا قرن الله ﷻ الصبر بالعمل الصالح فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢ ـ ٣]، فالحقُّ هو العمل الصالح الذي يجب أن يتمسك به، والصبر عليه، ثُمَّ كذلك الصَّبر على المصائب.

والصَّبر أقسامٌ ثلاثة لا بُدَّ منها:

- صبرٌ على طاعة الله.
- وصبرٌ عن معصيته.
- وصبرٌ على أقداره.

لأن هذه الدُّنيا ما يمكن أن تبقى لأحد، فلا بُدَّ أن تقع فيها المصائب والأمراض والأمور التي تحتاج إلى صبر، فيجب على العبد أن يصبر ويحتسب أجر الله، أما إذا لم يصبر وجزع فلن يخرج عن تقدير الله ﷻ ولن يضر إلا نفسه؛ فالأول هو الذي عبد الله على البصيرة بأن أطاع الله واستعان به على فعل الطاعة، وعلى ترك المعصية، وعلى ما يقع من الأقدار التي قد تكرهها النفوس.

قوله: «**الْمُكَاشَفَاتِ**»؛ أي: أنه يُكشف له عن شيءٍ مغيب، وقد يوجد له أشياء غريبة على خلاف العادة ـ إمَّا أنه يقطع مسافة بسرعة أو يحصل له شيء بدون أن يكون له سببٌ ظاهر ـ، وهذا كلُّه قد يكون من الله وقد يكون من الشَّيطان، فهو محتمل؛ فإن كان الإنسان متَّبعًا لأمر الله ولدينه وشرعه ومتقيدًا به = دَلَّ على أن هذا كرامةٌ من الله؛ أما إذا كان مخالفًا لذلك فقد يكون إما استدراجًا ومكرًا به أو أنه من الشيطان حتى يتمادى في غَيِّه وضلاله، ولا يجوز أن يُغتر بمثل هذا، والغالب أن هؤلاء أصحاب بدع خارجون عن السنة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَشَرُّ الْأَقْسَامِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ؛ فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عِلْمَهُ لِلَّهِ، وَلَا أَنَّهُ بِاللَّهِ».

الشرح

أكثرُ النَّاس على هذا؛ لأنَّ الأرضَ الآن مملوءةٌ من الخلق وأكثرهم كُفَّارٌ لا يستعينون بالله ولا يعبدونه، وإنَّما حياتهم حياةُ بهائم، يعيشون في هذه الحياة كما قال الله ﷻ، يقول: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: ٣٠]، والسبب أنهم أعرضوا عن دين الله ﷻ وعما ينفعهم، وجعلوا كُلَّ اهتمامهم في الحياة الدنيا فقط، فهم من عُبَّاد الدنيا التي يقول الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]. فإذا كانت النتيجة هكذا، فهذا كله يُنسى وينتهي كأن لم يكن فلا خيرَ فيه، وإنما صارت العاقبة سيئةً؛ لأنَّها عاقبةٌ في النار التي لا يُطفأ لَهَبُها ولا يخفف عذابها، ولا ينتهي.

والمؤلف رحمه الله يحاول دائمًا أن يجعل الكلام عامًّا شاملًا، ولهذا تكلَّم عن الطوائف وعمَّم، حتى يذكر من هو كافرٌ وليس له نصيبٌ في الإسلام؛ كالفلاسفة والباطنية ونحوهم. وإذا تكلَّم في السلوك والعمل حاول أنه يحصر الناس في هذه الأقسام، فمنهم المتقي، ومنهم الفاجر والكافر، ومنهم المتوسِّط؛ ولكن في أمر الله ﷻ يختلفون:

فمنهم من يقوم بالطاعة مستعينًا بربه ﷻ صابرًا على أقداره، وهذا هو الكمال وهو الذي يجب.

ومنهم من ينظر إلى جانب واحد؛ إما الاستعانة وإما أخذ الأمر فقط، دون استعانة ولا صبر؛ وكل هذا نقص.

وكذلك الذي يكون غيرَ عالم بأمر الله، فيكون مُقصِّرًا في علمه وعمله أيضًا، ويكون نظره وعمله من أجل دنياه، وهذا كثيرٌ جِدًّا في الناس، والله يحكم بين عباده، ولكن لا عذر لأحد في الإعراض عن أمر الله؛ لأنَّ الله أرسل الرسل، وأنزل

الكتب، وجعل لنا عقولًا، وأعلمنا بأننا عبيدٌ له يجب أن نمتثل أمره، فإذا أعرض العبد عن ذلك وصار مع هواه وشيطانه؛ فإنه سوف يحاسب، وسوف يندم حين لا ينفع الندم، ولا تكون له فرصة يعود إلى استدراك ذلك؛ لأن هذه الدنيا قصيرة والعمر أقصر.

وإذا انتهى في اللَّهو واللعب أو في المعاصي أو في محاربة الله ومحاربة رسوله؛ فهذا كثيرًا ما يقع من النَّاس، ولهذا بنو آدم أكثرهم يكون في النار ـ نسأل الله العافية ـ، وقد ذكر الرَّسول ﷺ نهاية الناس وأنهم يجتمعون يوم القيامة في المحشر؛ فإنَّ الله ينادي آدم فيقول له: «**يا آدمُ، فيقُولُ: لَبَّيكَ وسَعدَيكَ، والخَيرُ في يَدَيكَ، فيقُولُ: أَخرِج بَعثَ النَّارِ، قالَ: وما بَعْثُ النَّارِ؟، قالَ: مِنْ كُلِّ ألفٍ تِسْعَ مِائةٍ وتِسعَةً وتِسعِينَ، فَعِندَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَملٍ حَملهَا، وتَرَى النَّاسَ سُكارَى ومَا هُم بِسُكَارَى، ولكِنَّ عذَابَ اللهِ شدِيدٌ**، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، وأَيُّنَا ذلك الواحِدُ؟ قالَ: «**أَبْشِرُوا، فإِنَّ مِنْكُمْ رجُلًا ومِنْ يأجُوجَ ومَأْجُوجَ ألفًا**». ثُمَّ قالَ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أرجُو أَنْ تكُونُوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ**»، فَكبَّرنَا، فقَالَ: «**أرجُو أَنْ تكُونُوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ**»، فكَبَّرنَا، فقَالَ: «**أرجُو أَنْ تَكُونُوا نِصفَ أهلِ الجَنَّةِ**» فكَبَّرنَا، فقال: «**ما أَنْتُم في النَّاسِ إِلَّا كالشَّعرَةِ السَّوداءِ في جِلْدِ ثَوْرٍ أبيضَ، أو كَشعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَورٍ أسوَدَ**»»[(١)]، قوله: «**أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا**» يدلنا على أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم الكفار الذين ملئوا الأرض، فإن هذا هو الذي يكون في نهاية الأمر ـ يوم القيامة ـ، والكافرون هم الذين يُذهب بهم إلى النار، وهم بعث النار.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قصة يأجوج ومأجوج (٤/ ١٣٨) برقم (٣٣٤٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/ ٢٠١) برقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ - مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ - هُمْ فِي تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ».

الشَّرح

لا يستقيم الدِّين على قول الجبرية ولا على اعتقادهم؛ لأنهم يجعلون الإنسان غير مسؤول، وأنه لا عملَ له، بل يجعلون اللوم كله والمسؤولية على القدر؛ فإن حصل لهم شيء قالوا: (هذا ليس فعلنا، هذا فعل الله)! وهذا لا يمكن أن يصدِّقَه عاقلٌ؛ فإذا أكلت مثلًا يقال: (هذا ليس بأكلك، ليس فعلك)! أو نمت أو عملت أي عمل يختص بنفسك! فلا بُدَّ من الإقرار بذلك، ولهذا يقول العلماء: (ينبغي أن يعاملوا بمقتضى قولهم، حتى يعرفوا أنه باطل)، والمعاملة بأن تضرب أحدهم وتقول: (لا تَلُمْني، هذا ليس فعلي أنا مجبرٌ)! لا يمكن أن يرضى بهذا.

أمَّا المعتزلة الذين هم القدريَّة نُفاة القدر فهم أشركوا بالله ﷻ حيث جعلوا مع الله خالقِينَ، وجعلوا مشيئة العاصي ومشيئة الكافر هي التي تقع دون مشيئة الله، ومعنى ذلك أنه يقع في ملك الله ما لا يريده وما لا يشاؤه، وهذا أيضًا خروجٌ عن عبادة الله ﷻ وعن شرعه = فكلا الطائفتين ضالة، ولكن إحداهما أشد ضلالًا من الأخرى.

المقصود: أنَّ قوله: «**فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ - مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ -...**»؛ المعتزلة تركوا الحق، وهم عُبَّاد العقل؛ عبدوا عقولهم وحكَّموها على كتاب الله ﷻ وعلى الشَّرع كله، ولهذا وضعوا لهم أصولًا للإسلام غيرَ الأصول التي جاء بها المصطفى ﷺ، فصاروا يشرحونها ويبينونها ويتبعونها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالصُّوفِيَّةُ هُمْ فِي الْقَدَرِ وَمُشَاهَدَةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنْ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ نَوْعُ بِدَعٍ مَعَ إِعْرَاضٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى يَجْعَلُوا الْغَايَةَ هِيَ مُشَاهَدَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْفَنَاءِ فِي ذَلِكَ، وَيَصِيرُونَ أَيْضًا مُعْتَزِلِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسُنَّتِهِمْ، فَهُمْ مُعْتَزِلَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الْبِدْعَةِ شَرًّا مِنْ بِدْعَةِ أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتْ مِنَ الْبَصْرَةِ».

الشرح

«**الصُّوفِيَّةُ**»: هم أهل اجتهاد وتعبُّد، ولكن أحيانًا يكونون على باطلٍ، وأحيانًا يكونون على البدع؛ والبدع شرٌّ من المعصية، بل هي شرُّ المعاصي؛ لأنه لا يرجع عنها في الغالب، وهي شرعٌ جديدٌ واستدراكٌ على الله ﷻ وعلى رسوله، وهي أحبُّ إلى الشيطان من مجرد المعصية، وذلك أنَّ العاصي إذا وقع في المعصية فإنه يعرف أنها معصية، ويجوز أنه يرجع ويندم، وأمَّا المبتدع فيعتقد أنَّ هذا دينٌ يتدين به، والغالب أنه لا يرجع، ويستمرُّ على ذلك.

ولهذا يقول أهل السُّنَّة: (إن المبتدع لا توبة له)؛ يعنون: أنه لا يتوب في الغالب، ولكن إذا تاب؛ تاب الله عليه، فليس هناك ذنب يمنع صاحبه من التوبة؛ فإذا تاب ورجع تاب الله عليه حتى وإن كان مشركًا؛ فإنَّ الله يتوب عليه، ولكن معناه: أنه يتمادى في ذنبه وبدعته ولا يقلع.

قوله: «**وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتْ مِنَ الْبَصْرَةِ**»؛ لأنَّ البصرة كانت مجمع الناس في ذلك الوقت.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَإِنَّمَا دِينُ اللهِ مَا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَيْرِ الْقُرُونِ، وَأَفْضَلِ الْأُمَّةِ، وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فَرَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رِضًا مُطْلَقًا، وَرَضِيَ عَنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١).

الشرح

قوله: «وَإِنَّمَا دِينُ اللهِ مَا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ...». هكذا كانوا يعرفون الأمور، ويزِنُونها بميزان الشرع والعقل الذي أعطاهم الله إيَّاه، وقد اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه ﷺ، وهم خيرُ النَّاس بعد الأنبياء، كما قال الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فأوَّل من يدخل في هذا صحابةُ رسول الله ﷺ، ثُمَّ النُّصوص على هذا ثابتةٌ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد أكثر الله ﷻ من الثناء عليهم في كتابه، فأخبر أنه أعدَّ لهم الجنات، وأنه رضي عنهم ورضوا عنه في آيات متعددة:

منها: أنه أخبر أنَّ من غاظه شأنهم فإنه من الكافرين كما قال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، يعني: الخشوع الذي يشاهد في وجوههم، وأثر السهر والقيام لله. إذا شاهدهم الإنسان عرفهم وميَّزهم من

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين ﷺ.

غيرهم، قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾. فهم صفوة الناس بعد الرسل. ومن الخذلان البيِّن الظاهر أن يكون الإنسان مبغضًا لهم تاركًا لهم، ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. وقد جاء عن الإمام مالك أنه قال: «من غاظه شأنُ الصَّحابة؛ فليس من المسلمين، ولا يجوز أن يعطى من الفيء، ولا من الزكاة».

ومنها: قوله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٨، ٩]. فقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩]، يعني: الأنصار. ثُمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠]. فاشترط على الذين يأتون من بعدهم أن يسألوا الله لهم المغفرة، ثم يسألون لأنفسهم، ويسألون ألا يكون في قلوبهم غلًّا لهم، وهو الحسد والبغض والكراهية، وهذا من أسوأ ما يكون في الإنسان ـ نسأل الله السلامة ـ.

فالمقصود: أن الله ﷻ يتفضل على من يشاء، ويجب أن يعرف من خصهم الله بالفضل، وهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ، وجاهدوا معه، وتلقَّوا الإيمان والعلم منه، وهذه ميزة لا يمكن أن يلحقهم غيرهم.

والله ﷻ خصهم بهذا الفضل؛ حيث لم يكن في مجتمعهم هذه البدع، بل سلموا من البدع، وإنما حدثت البدع بعدهم، فمبدأ البدع صار في آخر عهد الصحابة مثل: بدعة القدرية، وبدعة الخوارج، وكذلك بدعة الشيعة، فإنها بدأت في آخر عهد الصحابة، في خلافة علي ﵁، وكذلك الذي كان هو أول الخوارج الذي أتى إلى النبي ﷺ وقال له: يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ، قَالَ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: «**مَعَاذَ اللهِ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَاب الزَّكَاةِ، باب ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ (٢/ ٧٤٠) برقم (١٠٦٣)، من حديث جابر بن عبد الله ﵁.

وكذلك القدرية؛ فأوَّل من قيل إنه تكلم بالقدر: معبدٌ الجهنيُّ وقال: (إن الأمر أُنُف)، يعني: أن الله لم يعلم الأشياء الواقعة حتى تقع؛ فنفى علم الله، فأنكر الصحابة عليهم وكفروهم، فلما كُفِّروا وعلموا أنَّ هذا كفرٌ رجعوا. ثُمَّ فيما بعدُ حدث القول بالقدر، وهو إنكارُ عموم مشيئة الله، وعموم خلقه، أما العلم السابق فلم ينكروه؛ لأنه كفرٌ بالله كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا).

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ اختار الصحابة لصحبة نبينا ﷺ، فهم أفضل الناس بعد الأنبياء، وأبرهم قلوبًا، وأحسنهم سلوكًا، فالله ﷻ جعلهم خيرَ البشر؛ كما أخبر بذلك في آياتٍ كثيرة في القرآن، فقد رضي عنهم وأنهم قاموا بما أُمروا به كما قال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. فالذي لا يرضى بفعلهم فإنه إما مخذولٌ، وإما جاهلٌ جهلًا على جهل، فالرسول ﷺ أوصى بحبهم وقال: «**لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ**»(١)، وحذر من مسبَّتهم فقال: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي**»(٢).

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿لِلنَّاسِ﴾ عمومًا، خير أمةٍ أخرجت للناس، فشمل من آدم إلى قيام الساعة أنهم خير الناس، خير أمةٍ أخرجت للناس، وأول من يدخل في هذا: الصَّحابة رضوان الله عليهم. وخرج من ذلك من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب حُبِّ الأَنْصَارِ (٥/ ٣٢) برقم (٣٧٨٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإِيمَان، باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ حُبَّ الْأَنْصَارِ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهم مِنَ الْإِيمَانِ... (١/ ٨٥) برقم (٧٥)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في أَبْوَاب الْمَنَاقِبِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، في بَاب فِيمَنْ سَبَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ (٥/ ٦٩٦) برقم (٣٨٦٢)، وأحمد في مسنده (٣٤/ ١٦٩) برقم (٢٠٥٤٩)، من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

اصطفاهم الله ﷻ برسالته وبنبوته، وإلا فهم أفضل الخلق بعد ذلك، وقد علم أهل العلم فضلهم، فهم الواسطة بيننا وبين نبينا ﷺ الذين نقلوا لنا الشَّرع، وجعلهم الله ﷻ رسل خيرٍ، وقاموا بالجهاد بعد رسول الله ﷺ حتَّى مات كلُّ واحدٍ في مكانٍ بعيدٍ عن الآخر، فالذين توفوا في المدينة منهم قلَّةٌ، فبعضهم في المشرق، وبعضهم في المغرب، في الجهاد في سبيل الله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ؛ أُولَئِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا؛ قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»[١].

وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَوَاللهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»[٢].

الشَّرح

كلام ابن مسعود رضي الله عنه واضح لا يحتاج إلى تعليق.

قول حذيفة رضي الله عنه: «**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ**»، يعني: العلماء، فهم يسمون العَالم قارئًا؛ لأنَّ كل من قرأ القرآن في ذلك الوقت يكون عالمًا، أمَّا أن يقرأ القرآن وهو لا يفهم معانيه فهذا لا يوجد في وقتهم. ولهذا لما سئل أحد العلماء: (إن لدينا من يقرأ القرآن ولا يفهمه)، قال: (هذا بدعة)، يعني: ما سبق أن هذا وجد.

ولكن لما فسدت الألسن، ودخلت العجمة على العربية؛ صار يقرأ القرآن وهو لا يفهم، ثم كلما بعد العهد عن زمن النبوة، زاد الأمر بعدًا عن الفهم وعن مراد الله جل جلاله ومراد رسول الله ﷺ.

قوله: «**لَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا**»، يعني: الصحابة سبقوهم سبقًا بعيدًا.

* * *

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (١٠٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٢).

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا وَخَطَّ حَوْلَهُ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[1].

الشرح

يعني: أنَّ طريق الله واحدٌ، وهو الذي عليه الصَّحابة، أمَّا الطرق الكثيرة المتشعبة فكلها طرق الشيطان، وكل طريق من طرق الشيطان فيؤدي إلى النار، ولا طريق إلى الجنة إلا الطريق الواحد الذي وصفه الرسول ﷺ بالخط المستقيم، وجعل من جانبيه خطوطًا تؤدِّي إلى الضَّلال، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. غالبًا ما يأتي القرآن بلفظ «سبيل» مفردًا إن كان للحق، ويذكر الباطل بصيغة الجمع «السبل» لأنها كثيرة، فهي سبل الشيطان، وكل سبيل يكفي الإنسان في هلاكه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: هذه الأوامر وهذا الذي وصفته لكم هو صراط الله المستقيم الذي إن استقمتم عليه وصلتم إلى السعادة وإلى النعيم.

والصراط في كتاب الله جاء على نوعينِ:

النَّوع الأول: صراطٌ معنويٌّ، وهو دين الله الذي جاء به المصطفى ﷺ، وقد يعبر عنه بالقرآن، وقد يعبر عنه بالرسول، وكله حقٌّ.

النوع الثاني: صراط حِسِّيٌّ، وهو الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة؛ فمن استقام على هذا الصراط استقام على ذاك وإلا سقط في جهنم.

والصراط في الأصل: هو الجسر الذي يكون على متن بحرٍ، أو بين جبلينِ، أو على وادٍ، أو ما أشبه ذلك، ويكون مستقيمًا، وهذا يدلُّ على سهولة سلوكه،

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٠٩)، وابن حبان (٦)، والحاكم (٢/٣١٨).

ويدلُّ على سعته، وعلى أنه يوصل إلى المراد بسرعة، فأمر باتباعه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وهذا أمر حتم متعين.

المقصود: أنَّ قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يدل على أن السبل كثيرة، وأن كل سبيل يكون مبعدًا عن صراط الله، فصراطه ﷻ الذي ذكره في كتابه فسر بأنه القرآن، وفسر بأنه الإسلام، وفسر بأنه الرسول، وكلها حقٌّ ومتلازمة.

والعبد بأمسِّ الحاجة إلى أن يُهدَى إلى هذا الصراط، ولهذا أوجب علينا في صلاتنا أن نسأله في كل ركعة هدايتنا الصِّراط، وكثير من المفسرين يقول في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، ثبِّتنا عليه؛ لأن المسلم على الصراط، ولكن هذا التفسير فيه قصورٌ؛ لأنَّ الإنسان لا تتم هدايته أبدًا حتى يأمن كل الأمن من المخالفات ومن العقاب. ولهذا قيل للإمام أحمد: (متى يأمن المؤمن)؟ قال: (إذا وضع أول قدم له في الجنة). أما قبل ذلك فليس فيه أمن، لذلك يدعو ربه الهداية، وهو بحاجة إلى أن يُهدى فيما يعمله من أمر الله، ويزداد فيه رغبة وعملًا، وفي حاجة إلى أن يُهدى إلى الشيء الذي لم يعرفه، وبحاجة أيضًا إلى أن يستقيم عليه ولا يزيغ عنه.

فسؤال الهداية إلى الصراط المستقيم والثبات عليه أمر ضروري، فيجب على العبد أن يتأمله وأن يعرف ذلك، ويسأل ذلك بصدق وإخلاص؛ وإذا علم الله من عبده الصدق والإخلاص؛ فإنه يهديه، وهو كريم جواد.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صِلَاتِنَا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

الشرح

الهدى الذي عليه الرسل قد لا يصل إليه الإنسان على كلِّ حالٍ، فيحتاج كلَّ يوم إلى هداية وإلى هدى، ولهذا أمرنا بتكرار: ﴿ٱهْدِنَا﴾، وإذا اهتديت تحتاج إلى هداية أخرى إلى أن يأمن الإنسان ويطمئن بعمله في قبره، وهو قبل ذلك بحاجة إلى معرفة الحق وبحاجة إلى التمسك به وبحاجة إلى الصبر عليه، فلهذا يكرِّر هذا الدعاء وهو من أنفع الدعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

ثُمَّ بيَّن أنَّ الذين أنعم الله عليهم هم النَّبيُّون والصِّدِّيقون والشُّهداء والصَّالحون؛ فالأنبياء هم أول من اهتدى، وهم خير من اهتدى، وهم أفضل من اهتدى، ثم يليهم الصِّدِّيقون الذين عظم تصديقهم وصاروا من أقرب الناس إلى الأنبياء، ثم الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، ثم الصالحون، و«الصالح»: هو الذي قام بحق الله وحق عباده، فهذا هو الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الجنة.

قوله: «وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، فكل من ترك العلم عالمًا فهو مشابهٌ لليهود، وكل من ضلَّ في عمله بلا علم من كتاب الله وسنة الرسول فهو مشابه للنصارى. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ كثيرًا من الناس يسلك مسالكهم، فقال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، **قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»**[1]؛ خصَّ جُحر الضَّبِّ؛ لأن له خَصِيصة ليست لغيره، فالضب إذا حفر جحره لا يحفره سامتًا معتدلًا، بل يحفره متلويًا متجهًا إلى الأسفل، فهو أشد الجحورة في

(١) سبق تخريجه.

سلوكه، ويفعل ذلك حتى لا يدخل عليه شيء، فمثَّل به لشِدَّتِه، والضَّبُّ لا يوجد في الحجاز، وإنما هو في نجد، ولهذا لما جيء به إلى النبي ﷺ مشويًا كَرِهه فلم يأكله وقيل: أحرامٌ هو يا رسولَ الله؟ قال: «**لَا، وَلَكِنْه لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**»(١).

والمقصود: أنه صلوات الله وسلامه عليه في غاية البلاغة والبيان، فكأن الإنسان الذي لا يعرف جحر الضب يتصور أنه مجرد جحر، ولكن معناه: أن السلوك خلفهم سيكون في كل شيء ـ نسأل الله السلامة ـ والواقع يشهد لهذا.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الذبائح والصيد، باب الضب (٧/ ٩٧) برقم (٥٥٣٧)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة الضب (٣/ ١٥٤٣) برقم (١٩٤٥)، من حديث عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد رضي الله عنهما.

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ».

الشَّرح

قوله: «تَعَوَّذُوا بالله مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ»؛ لأنهم هم الذين ينظر الناس إليهم، فإذا لم يكن عند الناس علمٌ اتبعوهم في ضلالهم، فيكونون فتنة؛ لأن الناس ينظرون إليهما، فهم تبعٌ لهم فتكون فتنتهم عظيمة.

فالعابد ينظر الناس إليه فيقتدون به واقداؤهم بالعالِم أعظمُ، وإذا كان فاجرًا ضالًّا ففتنته فتنة عظيمة، ولهذا لما كانت عند اليهود علماء كان عندهم من الضلال البين الواضح، فاستحقوا بذلك لعنة الله وغضبه، وقد شُبِّه ضُلَّال علماء هذه الأمة باليهود، وشُبه ضُلّال عُبّادهم بالنصارى؛ لأنَّ اليهود يعلمون ولكن لا يعملون بل يخالفون ما علموا، والنصارى يعملون بلا علم يتخبطون في الضلال، والرسول ﷺ قال: «لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ...»(١)، يعني: اليهود والنصارى، فلا بُدَّ من تطبيق هذا الحديث الذي أخبر به الرَّسول ﷺ، والواقع يشهد لهذا.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ»(١).

الشَّرح

قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾. ظاهِرُ كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ أن الخلق يؤمنون به ويعملون به حتى يكونوا في جنته يجزيهم ذلك، وفي الدنيا كذلك يمن عليهم بالصحة، والرزق، والنصر على الأعداء وغير ذلك، أما إذا عصوا الله ﷻ؛ فإنه يَكِلُهم إلى أنفسهم، فيضيعون كما هي حال المسلمين اليوم، فصاروا نهبًا للكافرين من كل جانب؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله وتفرقهم.

* * *

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٥٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٥)، وأبو نعيم في «حلية الاولياء» (٧/ ٣٦).

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]، فَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ، وَذَلِكَ خِلَافُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ».

الشَّرح

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «من القراء من يقف على قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: ﴿فِيهِ هُدًى﴾، و﴿هُدًى﴾ يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت، ومنصوبًا على الحال» اهـ[1]

الهدى في الكتاب على كل حالٍ.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «الغيب»: كل ما أخبر الله ﷻ به وأخبر به رسوله ﷺ من المغيبات، فأمور الآخرة كلها غيبٌ، فلا بُدَّ من الإيمان بالخبر الذي جاء عن الله وعن رسوله ﷺ.

المتقون يؤمنون بالغيب ويمتثلون أمر الله، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، والذين يؤمنون بالرسل والكتب كلها. ولا بُدَّ من إقامة الصلاة ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإيتاء الزكاة ولهذا قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾، والمقصود بذلك: الزكاةُ الواجبة، ويدخل فيها الصدقات كلها.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: أنهم لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله، يؤمنون بكل ما أنزله الله وبكل رسولٍ أرسله الله ﷻ.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦٢).

قوله: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾؛ أي: بالوعد الذي وُعدوا من الجزاء ومقابلة الله ﷻ وحسابه.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ اهتدوا بهذا وحصلوا على الفلاح الذي هو الفوز بالجنة ورضا الله ﷻ، نسأل الله الكريم من فضله. وما عدا هؤلاء فخاسرون؛ ولهذا جعل الناس في أول هذه السورة **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: المفلحون؛ وهم المؤمنون المهتدون الذين امتثلوا أمر الله.

القسم الثاني: الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا يتبعون الرسول ﷺ، فالكفار ذكرهم الله بآيتين فقط.

القسم الثالث: المنافقون، ذكرهم بثلاث عشرة آية؛ لأن خطرهم أعظم، فهم مع المؤمنين فيما بينهم، يعرفون مداخلهم ومخارجهم وضعفهم وهم رسُل الكافرين، دائمًا يدلون الكافرين على عورات المسلمين، فخطرهم عظيم، حيث يندسون في المسلمين ويدلون على عوراتهم، فالمسلمون بحاجة إلى معرفتهم والتحرز منهم.

في أول هذه السورة حصرت الناس كلهم، والقرآن في الواقع فيه الهدى والنور لمن اهتدى به واقتدى في فهمه بالسلف الصالح، فلا بُدَّ من الاستعانة بفهم الصحابة، ثم كذلك لا بُدَّ ـ مثل ما سبق ـ من الاستعانة والعبادة، يعبد الله ويستعين بالله ﷻ ويتوكل عليه ويلتزم أمر الله الذي جاء به الرسول ﷺ وبدون ذلك يكون الإنسان ضالًّا ويكون على خطر؛ لأنه لم يهتم بهذا الأمر ولم يرفع به رأسًا، وهذا نهاية الضلال ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «**فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ**...»؛ هؤلاء هم الذين اهتدوا، والهدى يدل على السلوك خلف رسول الله ﷺ والعمل بسنته، والاهتداء يكون ضد الضلال، والتقوى تدل على الطاعة، وأن يكون العبد مطيعًا لربه ﷻ مختارًا لذلك.

والمقصود: أنَّ الهدى والعمل كله في كتاب الله ﷻ، ومن اهتدى بكتاب الله وعمل به، فإنه المهتدي في الدنيا، وهو أيضًا المجازي في الآخرة خير الجزاء من الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينِ والصديقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى خير خلقه عبده ورسوله مُحَمَّد وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلى يوم الدين».

الشَّرح

وقوله: «فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ... إلخ» هكذا الأعمال تختم بالدعاء، فكل عمل يعمله العبد حتى العلم وتعليمه فإنه يختمه بالدعاء، والله ﷻ أمرنا أن نختم الصلاة بدعائه، وكذلك نختم أعمالنا كلها بدعائه، والمؤلف ينظر إلى هذا ويمتثله، فرحمه الله، وجزاه الله خيرًا وأعلى مقامه في عليين، فإنه نصح وأفاد.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المخلصين له في توحيد الأسماء والصفات، وفي توحيد الإرادة والطلب، وأن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يحمينا من الضلال، وأن يرزقنا الهدى باتباع المصطفى.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد.

❁ ❁ ❁

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
القاعدة السادسة: بيان ما يجوز وما لا يجوز على الله ـ تعالى ـ من النفي والإثبات	٥٢١
صفات الله وأسماؤه توقيفية	٥٢١
إذا ورد في كتاب الله وصحَّ عن نبينا ﷺ شيءٌ من أوصاف الله وجب أن نقول به ونؤمن به ونعتقده، وإذا لم يَصِلْ شيء من ذلك فيجب التوقُّف	٥٢٢
يزول التشبيه بالإضافة والتخصيص	٥٢٨
الرد على قول المعتزلة: «القِدم» أخصُّ وصف الإله	٥٣٥
اتباع الجهمية والمعتزلة انقسموا إلى قسمين	٥٣٩
الصفة لا تكون إلهًا وإنما هي مُلازمةٌ للموصوف	٥٤٠
معنى الصفاتية	٥٤١
هل الصفات غير الموصوف أو الصفات هي الموصوف؟	٥٤١
الصفات ليست إلهًا وليست قائمةً بنفسها، فلا توجد صفةٌ قائمة بنفسها	٥٤٤
صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين	٥٤٤
أقوال أهل الباطل مبنية على الخيال وتزيين الشيطان	٥٤٦
التشبيه لا ضابط له	٥٤٧
المِثْل والكُفْء	٥٤٩
قولهم: «إنَّ الصِّفات لا تقوم إلَّا بجسم مُتحيِّز...» هذا باطلٌ من وجهين	٥٥١
التَّحيُّز فيه إجمال واشتباه، فلا يُقبل لا نفيًا ولا إثباتًا، بل لا بُدَّ من التفصيل	٥٥١ ـ ٥٥٢
الصحيح أن الجسم: هو البدن	٥٥٣
يُثبتون «الكلام» و«السمع»...، ثُمَّ ينفون البقيَّة مثل: «المحبة» و«الرضا»... فكيف يُثبَت شيءٌ ويُنفَى شيء؟!	٥٥٦
الحق يتضافر ويتساعد، بعضه يؤيد بعضًا، أما الباطل فهو المتناقض	٥٥٦
حيرة أهل البدع من الأشاعرة وغيرهم	٥٥٦ ـ ٥٥٧
القاضي أبو يعلى وقع فِي أمورٍ مُخالفة لما عليه الإمام أحمد وما عليه أهل السُّنَّة	٥٥٨
الواجب في أقوال النَّاس أن تُرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يقبل منها إلا ما وافق الحقَّ، وما خالفه فإنه يجب أن يُردَّ على قائله مهما كان	٥٥٩
العلوّ غير الاستواء	٥٦١

الموضوع	الصفحة

مذهب الرافضة مبني على الكذب والباطل ٥٦٩
الأشاعرة نفوا الصفات بناء على أنها تدل على التجسيم ٥٧٥
الشِّرك في الربوبية أعظمُ من شرك الإلهية ٥٧٩
القدر المشترك ٥٨٥
التَّعطيل التام ٥٨٦
الحق لا يخرج عن قول أهل السنة؛ لأنهم اتبعوا كلام الله وكلام رسوله ـ ﷺ ٥٨٧
المشترك الكلِّيّ ٥٩١
المعدوم ينقسم إلى قسمين ٥٩٥
الاشتراك اللَّفظيّ، أو التَّواطيء، أو التَّشكيك .... ٥٩٥ ـ ٥٩٦
المسلم قد أغناه الله ـ تعالى ـ عن هذه الأصول التي تورث الشك ٦٠٦
فصل: الاحتجاج على نفي النقائص بنفي الجسم... .... ٦٠٧
الوجه الأول ٦١٠
وصف الله ـ تعالى ـ بالنقائص كالبكاء أو الحزن أو البُخل، ما يصدر إلا ممن هو شرُّ خلق الله ٦١٠
الوجه الثاني ٦١٣
الوجه الثالث ٦١٥
الوجه الرابع ٦١٦
رد أهل السُّنَّة على الأشعرية ٦١٦
فصل: «طُرُق الإثبات: فمعلومٌ أيضًا أنَّ المُثبَتَ لا يكفي في إثباتهِ مُجرَّدُ نفي التَّشبيهِ...» ٦٢٣
السمع كافٍ في الإثبات والنفي، إثبات الكمال ونفي النقائص ٦٣٥
إثبات أَحَدِ الضِّدَّينِ نفيٌ للآخر ولما يستلزمه، فإثبات الكمال نفيٌ للنقص .... ٦٣٧ ـ ٦٣٨
أقوال المفسِّرين في تفسير «الصمد» ٦٤٩
القرآن نزل لثلاثة أغراض ٦٥٠
الله ـ تعالى ـ أعلم بنفسه وبغيره من خلقه، وقد وصف نفسه بأوصافٍ ألزمنا بأن نتبعها ونؤمن بها على ما وصف به نفسَه ٦٦٢
القاعدة السابعة: دلالة العقل على كثير مما دل عليه السمع ٦٦٤
أكثر نسخ الكتاب ليست موجودة فيها القاعدة السابعة ٦٦٤
الرَّدّ على المُتكلمين القائلين: بأنَّ «العقل» يختلف مع «السمع» ٦٦٥
العقل لا يستطيع أن يعرف ربه ـ تعالى ـ المعرفةَ التي أوجبها الله عليه، وإنما يعرف في الجملة ٦٦٦
علم الكلام يدعو إلى الحيرة والشك .... ٦٧١ ـ ٦٧٢

الموضوع | الصفحة

من أسباب الهدى: أن يذعن العبد للأمر من أول ما يأتيه ٦٧٤
«الصَّانع»: ليس من أسماء الله، وإنَّما هذا من الأخبار التي تعارفوا عليها كثيرًا في كتب الكلام ٦٧٧
التفويض شَرٌّ من التأويل؛ لأن التفويض معناه الجهل ٦٨٢
تعامل أهل البدع مع نصوص الكتاب والسنة .... ٦٨٥ ـ ٦٨٦
الرُّسُل لا بُدَّ أن يأتوا بآياتٍ تدلُّ على صدقهم... والآيات على نوعَين ٦٨٨
الإنسان إذا قال: «أنا نبي» لا يخلو من حالين ٦٨٩
القاعدة التي قعدوها أنَّ «السمع» لا يخلو من حالينِ ٦٩٥
عُلُوَّ الله ـ تعالى ـ أمرٌ فطريٌ عقليٌّ سمعيٌّ دينيٌّ جاءت به الرُسل كُلُها، واتَّفق عليها الأُمم ٧٠٤
الصحيح أن كتاب «الحيدة» للإمام عبد العزيز الكناني .... ٧٠٤ ـ ٧٠٥
المناظرات ينبغي أن تقام إذا كان هناك من يهتدي بها، أما إذا كانت مُجرد مُغالبة بحيث كلُّ واحدٍ يريد أن يغلب الآخر، فهي لا تُجدِي شيئًا، ولكن قد يستفيد منها السامع ٧١٥
المقصود بـ«السلب»، و«الإيجاب» ٧١٩
الوجه الأول ٧٢١
علم الكلام يجب أن يُعرَض عنه نهائيًا لثلاثة أسباب ٧٢٢
الوجه الثاني ٧٢٣
النفي ينقسم إلى قسمين .... ٧٢٣ ـ ٧٢٤
الوجه الثَّالث .... ٧٣١ ـ ٧٣٢
الوجه الرَّابع ٧٣٢
الوجه الخامس ٧٣٢
الإمكان الخارجي ٧٣٦
الوجه السَّادس ٧٣٩
الوجه السَّابع ٧٤٠
فصل: الأصل الثَّاني، التَّوحيد في العبادات ٧٤٤
أقسام التوحيد في هذا الكتاب ٧٤٤
الشرع هو كلُّ ما جاء به الرسول ﷺ، والقدر داخلٌ فيه؛ فإنَّ القدر من صفات الله، ولكن معناه قدرة الله تعالى ٧٤٧
المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بنى هذا الكتاب على أصلينِ وقواعدَ وأمثلةٍ؛ ومثالانِ ٧٤٧
القدر يُبنى على قاعدتين عظيمتين .... ٧٤٩ ـ ٧٥٠
الهداية هدايتان ٧٥٢

الموضوع | الصفحة

تقسم الإرادة إلى قسمينِ .... ٧٥٧ ـ ٧٥٨
الله ـ تعالى ـ أَمَرَ بعبادَتِهِ وحدهُ لا شريك لهُ ٧٦٠
«الإرسال»: يتضمن أربعة أشياء ٧٦١
«المحبة»: تنقسم إلى قسمين ٧٦٣
العبادة تتضمن كمالَ الذُّلِّ وكمالَ الحُبِّ، ولكن هذا الحب خاصٌّ، والذُّل كذلك، فلا بُدَّ أنه يَذِلَّ لربه ويخضع مع المحبة ٧٦٤
والله يحب الرَّجَّاعين إلى الحق، ويحب التَّوَّابين، وحبه لهذا الشيء من مقتضيات أسمائه وصفاته ٧٦٦
«الإذن»: ينقسم إلى قسمين ٧٦٧
الوسائط قسمان ٧٦٨
شرع الله واحدٌ؛ وهو توحيده وعبادته، أما الشرائع التي فيها المعاملات وغيرها فهي تختلف، لكلٍ شرعة ومنهاج ٧٧١
أكل الحلال وطلبه من الدين ٧٧٢
يجب أن تكون مُطيعًا مستسلمًا مُنقادًا لله، وهذا هو الإسلام، فلا منازعة فيه، ولا تأبِّي .. ٧٧٥
الاستلام عدم المنازعة وعدم الاستكبار على الله، فلا بُدَّ من الخضوع والذُّلِّ لله خوفًا ورجاءً ٧٧٧
الفرق بين «الإسلام» و«الإيمان» ٧٧٨
المشرك مِن أبعد الخلق عن الله ـ تعالى ـ، وهو في جهنم مع الشياطين ٧٧٩
الاستقبال كان لبيت المقدس وليس للصخرة، والله أعلم ٧٨٢
الله ـ تعالى ـ نسخ جميع الأديان بدين محمد ﷺ ٧٨٣
الإيمان بالرسل يكون على قسمين ٧٨٦
الفرق بين «الرسول» و«النبي» .... ٧٨٧ ـ ٧٨٨
الصحيح أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا برسل ٧٩٤
قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ فيها قولان للعلماء التفسير ..... ٧٩٥ ـ ٧٩٦
تنازُعَ الناس فيمن تقدم من الأمم؛ هل هم على هذا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؟ أو أنهم على أصله؟ ٨٠٢
مالك السموات والأرض واحدٌ لا مُنازِع له ـ تعالى وتقدس ـ، والقرآن يُنبه العقول دائمًا على مثل هذه الأمور بالاستدلالات العقلية الشرعية ٨٣١
توحيد العبادة ما يعرفونه [الفلاسفة وغيرهم] ولا يتكلمون فيه، ولا تجد في كتبهم كلمة واحدة في هذا التوحيد إلا ما شاء الله ٨٣٤
التشبيه الذي يتضمن الشرك نوعان ٨٣٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
لماذا تُذكر أقوال أهل البدع وغيرهم مع أنهم ضالُّون؟	٨٤٤
الإرجاء نوعان	٨٥٩
النجارية والضِّرارية	٨٦٠
الكلابية والأشعريَّة	٨٦١ ـ ٨٦٣
الكرامية والمعتزلة	٨٦٤
الأصل الأول: توحيد الإلهيَّة	٨٧٠
حقيقة الشفاعة	٨٧٩
شروط الشفاعة	٨٨٢
الحسب من العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله ـ تعالى ـ كالتوكل وغيره	٨٨٧
الخشية والخوف متقاربانِ، وكلاهما يجب أن يكون لله ـ تعالى ـ وحده	٨٨٨
الفصل الثاني: حق الرسول ﷺ	٨٩١
حُبُّ الرَّسول ﷺ واجبٌ، وهو حُبٌّ لله وفي الله، تابعٌ لمحبة الله ـ تعالى ـ	٨٩١
التحذير من الغلو في محبة الرسول ﷺ	٨٩١ ـ ٨٩٣
الواسطة التي تكون بين العباد وبين ربهم ـ تعالى ـ نوعان	٨٩٤
حقه ﷺ على أُمته عظيم بأن يتبعوه ويقوموا بدعوته، ويعرفوا سنته ويعرفوا ما جاء به	٨٩٦
فصل: أهل الضَّلال الخائِضون في القَدَرِ فرق متعددة	٨٩٨
المجوسِيَّة	٨٩٨ ـ ٩٠١
المشركية	٩٠٢
الإبليسية	٩٠٥
معنى الإيمان بالقدر	٩٠٥
إنكار الحكمة، وإنكار كون الأسباب مؤثرةً في المسببات، هذا مذهب الأشاعرة، ومذهب كثير من المتكلمين	٩١٠
الأسبابُ تنقسم إلى قسمينِ	٩١٠ ـ ٩١١
الإنسان مُضطرٌّ إلى شرعٍ في حياته الدُّنيا	٩١٧
اتباع القوانين الوضعية ضلوا من ناحيتين	٩١٧
لا يجوز أن يُضاف إلى الله خلقُ الشَّرِّ، وإنَّما يقال: (الله خالق كل شيء)، ويدخل الشَّرُّ فيه	٩٢٨
إذا كان الشَّرُّ في المخلوق؛ فإنَّه لا يُضاف إلى الله، وهو في كتاب الله على ثلاثة أضرُبٍ	٩٢٨
«الاصطلام»، و«الفناء»، و«السكر» من مصطلحات الصوفية، وهي من البدع التي جاءوا بها	٩٣٣

الموضوع	الصفحة
الفناءُ يُرادُ به ثلاثةُ أُمورٍ	٩٣٧
المؤمنُ مأمورٌ بأن يفعلَ المأمورَ، ويترُكَ المحظُورَ، ويصبِرَ على المقدُور	٩٤٥
الاستغفار عبارةٌ عن فعل المأمور كُلِّه، وليس المقصود به أن تقول: «أستغفر الله» فقط!	٩٤٦
من حكمته ـ تعالى ـ أنه يبتلي عباده بالذنوب؛ حتى ينيبوا إليه ويعترفوا بفقرهم وحاجتهم إلى ربهم، فيكون بعد استغفاره ورجوعه أحسن منه قبل ذلك	٩٤٦
الإنسان ضعيف ولا غنى له عن ربه	٩٥٢
جماع ذلك لا بد له من أصلين	٩٥٤
الرُّجوع والاستغفار أمرٌ ضروريٌّ لا بُدَّ منه لكلِّ أحدٍ	٩٥٦ ـ ٩٥٧
الالتفات ـ في الصلاة ـ نوعان	٩٥٧
شروط التوبة النصوح	٩٥٧
الذين اجتباهم الله ـ تعالى ـ ثلاثة أقسام	٩٥٨
العبدُ له من الأعداء اثنان ظاهرانِ	٩٦٠
المحاجة التي وقعت بين آدم وموسى عليهما السلام	٩٦١ ـ ٩٦٣
الاحتجاج بالقدر يكون على المصيبة، وليس على الذنب؛ لأن المصيبة أمرٌ وقع وانتهى ولا يمكن استداركه	٩٦٣
هذان الأصلان ـ العبادة مع الاستعانة ـ، يستعين العبد بهما على عبادة ربه ـ تعالى ـ	٩٦٦
لا يقبل العمل إلا بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة	٩٦٧
أقسام الصبر	٩٧٢
المعتزلة تركوا الحق، وهم عُبَّاد العقل؛ عبدوا عقولهم وحكَّموها على كتاب الله ـ تعالى ـ وعلى الشَّرع كله	٩٧٥
معنى قول أهل السُّنَّة: (إن المبتدع لا توبة له)	٩٧٦
اتباع الصراط المستقيم وما عليه السلف الصالح	٩٧٧ ـ ٩٨٠
الصراط في كتاب الله جاء على نوعينِ	٩٨٢
سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم والثبات عليه أمر ضروري، فيجب على العبد أن يتأمله وأن يعرف ذلك، ويسأل ذلك بصدق وإخلاص	٩٨٣
الخاتمة	٩٩٠
الفهرس	٩٩١